AL - MARIFA

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٣٥ السنة ٤٧ - ربيع الأول ١٤٢٩ هـ - نيسان ٢٠٠٨ م

دراسة حول جدوى القراءة

افتتاحية العدد

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

كلمة العدد

نصف قرن مع «العربي»
د. علي القيم رئيس التحرير



تأمل للفنانة علا الأيوبي

كتاب الشهر

أبعاد النص النقدي عند الثعالبي
عرض وتقديم: محمد سليمان حسن

حوار العدد مع الباحث: حمدان حمدان

الإبداع

في هذا العدد

كلمة الوزارة

جدوى دراسة التراث

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

كلمة العدد

نصف قرن مع «العربي»

د. علي القيم
رئيس التحرير

الدراسات والبحوث

الإبداع

شعر:

قصة:

آفاق المعرفة

حوار العدد

متابعات

كتاب الشهر

آخر الكلام

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

جـدوى دراســة التـراث

لا نريد أن تكون دراستنا لتراثنا نوعاً من السياحة الثقافية التي قد نكتفي فيها بالفرجة على ما فعل الأقدمون، ولا نريدها نوعاً من التعويض النفسي لعلاج ما نعاني منه من شعور بالتقصير وبالتراجع عن دورنا الحضاري، وإنما نريد لدراساتنا أن تقدم لنا وللبشرية إضافات معرفية، فالعالم

اليوم يجهل في جله ما قدم العرب والمسلمون من مساهمة حضارية ذات شأن كبير في التقدم العلمي الإنساني، بل إن الكثرة المطلقة من العرب أنفسهم ومن أجيالهم الشابة بخاصة، يجهلون دورهم التاريخي في صنع الحضارة الإنسانية، ولقد قرأت بأسى كبير مداخلات وتعليقات قدمها بعض من كبار الكتّاب العرب، يقللون فيها من شأن أمتهم، ويظنون أن تاريخها القديم سير من حروب أهلية على غرار داحس والغبراء، وخصومات قاتلة على كرسي الحكم، وأقاصيص عن الترف بين الجواري والحسان، فأما إنجازها الإبداعي فهو بضع قصائد في المديح أو الهجاء، والغريب أن بعض حكماء الأمة من الذين فتنهم الغرب حتى تضاءلوا أمامه، أنكروا على الأمة شعرها قبل الإسلام، ولم يروا لها دوراً حضارياً يذكر، بل إن بعضهم لم ير للعروبة كلها مكاناً في التاريخ وبات يشكك بكون العرب أمة واحدة، لها خصائص وسمات، ولسنا ننكر أن في تاريخ الأمة حروباً ونزاعات شأنها في ذلك شأن كل الأمم، ولا ننكر أن الصراع على السلطة والحكم أضر بتاريخها كما أضر بتاريخ كل الأمم، ولسنا ننكر كذلك أن الأمة غرقت في الترف في بعض مراحل تاريخها، لكن هذا لم يكن التاريخ كله، فأما الشعر فقد كان ديوان العرب حقاً، ولكنه لم يكن الإنجاز الحضاري الوحيد، بل إنني أراه أقل إنجازاتها براعة وقوة، وسأوضح رأيي في موضعه، وحسبي هنا أن أقول إن أهم إنجازات الأمة كان في ميادين العلوم، ولكن فنون الشعر والخطابة والكلام والخبر أحب إلى الناس، وأسهل في التداول، وقد يكون فيها من الطرافة والظرف ما يجعلها مادة لطيفة لتبادل الأحاديث بين الناس في لقاءاتهم وجلساتهم، ولعلَّ هذا

هو سر احتفاء الأدب العربي بفن الخبر، وقد ترك لنا الأقدمون مؤلفات ضخمة فيه، من مثل أمالي أبي عبد الله القالي، ونوادره، ومن مثل العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، والكشكول للعاملي، وسوى ذلك كثير، لكن الأبحاث العلمية الجادة العميقة والمتينة، بقيت ضمن اهتمامات النخب المثقفة المتعلمة أو العالمة، وهي على الغالب دراسات تصلح للتأمل والتمعن أكثر مما تصلح لتجاذب الأحاديث العامة، ولذلك نجد الحطيئة وبشار بن برد وأبا نواس وأمثالهم أشهر عند العرب من جابر بن حيان ومن محمد بن موسى بن شاكر ومن ثابت بن قرة ومن البتّاني وأمثالهم، ومن يتأمل عظمة ما أنجز هؤلاء العلماء وأقرانهم للأمة بل للبشرية كلها سيشعر بالأسف الشديد لكونهم مغمورين عند قومهم لا يعرفهم سوى أولي العلم والمعرفة.

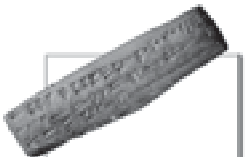
إن هدفنا الأول من دراسة تراثنا هو إضاءة الجوانب الغفل من تاريخنا الحضاري، والتعرف إلى حجم وأهمية ونوع المساهمة العربية والإسلامية في صنع تراث الإنسانية، والهدف الثاني هو فحص هذا التراث، وبيان ما ينبغي الحفاظ عليه منه، وما ينبغي كشف زيفه، فقد تسلل إلى تراثنا من التلفيق و الأكاذيب ما بات عبئاً على الأمة من عبث العابثين، ومن تطرف الجاهلين، ومن دسائس الحاقدين، وأما الهدف الثالث فهو إثارة روح البحث العلمي عند الأحفاد، ونحن نريد لهم أن يستعيدوا ثقتهم بالعقل العربي، وبقدرته على الإبداع والكشف و الاختراع، وينبغي أن نؤكد على توعية الأجيال بأن مهمة البحث العلمي عند العرب هي من جوهر رسالتهم الإسلامية والحضارية، وهي المهمة التي منحتهم المكانة عبر التاريخ كله حين قاموا بأدائها بشكل

جاد، فقدموا للعالم مساهمة متينة نهضت عليها علوم الحضارة التي تنعم بها الإنسانية اليوم. ومن الضروري أن تستعيد الأجيال الشابة استقراء تجربة الحضارة العربية الإسلامية، لتتأمل منهجها الذي مكنها من استيعاب ثقافة كونية سبقتها، حيث كان العقل وحده هو المرجعية التي يحتكم إليها البحث العلمي. وإذا كان الفهم الضيق للدين يحول اليوم (كما يقال في أروقة النقد الفكري) بين العرب وبين الإقبال على خوض تجربة عقلية خالصة تستوعب الحضارة الكونية الراهنة، وتعيد إنتاج خصوصية عربية إسلامية فيها، فلننظر كيف تعامل المسلمون المؤسسون من موقع عقلاني مع ثقافة عصرهم، وسنجد أن السمة الأولى لمنهج الأوائل وهم أقرب منا إلى عهد الرسول (ص) وصحابته، هي الانفتاح الواسع على الآخر، دون النظر إلى عقيدته وفلسفته وعبادته، فحسبه أن يحترم قيم المسلمين كما يحب أن يحترم المسلمون قيمه. وأما تأكيدي على إسلامية الدور الحضاري لأمتنا إلى جانب عروبته، فهو إنصاف للحق، فليس في تاريخنا ما يمكن أن نطمئن إلى كونه حضارة عربية متكاملة خالصة، لأن العرب أفادوا من كل حضارات الشعوب التي قدمت من قبلهم ومن بعدهم مساهماتها التاريخية الهامة، مثل أهل الهند والصين، ومثل الفراعنة و الإغريق والرومان، وكثير مما قدم أهل اليونان والرومان كان من إنتاج الشعوب الكنعانية (الفينيقية) السورية التي قدمت من الخليج العربي أو من شبه الجزيرة العربية، وهي تنويعات من قبائل وشعوب كنعانية عربية تعددت أسماؤها، ولكنها جميعاً تنتمي إلى سلالة واحدة. ولقد أشرت في غير موضع إلى الدراسات التاريخية التي

تؤكد أن الكنعانيين عاشوا في شبه الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربي، وهم أموريون، لغتهم الكنعانية عربية خالصة، وكلمة (كنع) تعني الأرض المنخفضة، وحضارتهم الفينيقية حضارة عربية في كثير من تنويعاتها، فأما امتزاج العروبة بالإسلام بعد ظهوره، فهو حقيقة لا ينكرها أحد، حيث أتيح لهذه الأمة أن تصبح أماً لكل الشعوب التي دخلت الإسلام، وتعربت بلغة القرآن الكريم ثقافة وعقيدة، فأما الذين احتفظوا بعقائدهم من غير المسلمين بل من غير أهل الكتاب، فلم يضيق عليهم أحد، ولم يصادر حرياتهم حاكم مسلم، بل وجدوا احتراماً وبلغوا مكانة عالية عند الخلفاء والفقهاء والدارسين وعند مجموع المسلمين الذين لم يعرفوا التعصب أو الانغلاق الديني والفكري، ولم يؤثر انتماء أحد إلى دين أو عقيدة غير الإسلام على موقف المسلمين المتنورين منه. وسأجد المثال الأقرب عند عالمْين لم يكونا من أهل الكتاب، بل كانا صابئين، هما ثابت بن قرة والبتّاني. ولقد أطلق الغرب على ثابت لقب إقليدس العرب، وقد ولد هذا العالم الكبير في القرن الثالث الهجري، وهو عصر القوة والمنعة العربية، وكان موقع ولادته شمالي سورية في منطقة تسمى حران، وكانت تقيم طقوسها الدينية المجوسية دون أي اعتراض من دولة الخلافة العباسية، وكان ثابت صيرفياً، وعالماً يتقن عدة لغات، أتاحت له اطّلاعاً واسعاً على علوم اليونان والرومان والفرس والصين والهند، وقد أنكر على قومه الصابئة أشياء من معتقداتهم، فمنعوه من دخول الهيكل، فخرج من حرّان إلى (كفر توثا) والتقى العالم العربي الشهير محمد بن موسى بن شاكر فعرف مكانته، واصطحبه إلى دار الحكمة في بغداد، وكان ابن

شاكر قد تولى رئاستها، وهو أحد ثلاثة أشقاء علماء بهروا العالم بما قدموا للبشرية من علوم، وقد عرفوا باسم أولاد موسى بن شاكر، وقد قربوا ابن قرة منهم لعلمه الموسوعي وقدموه إلى الخليفة، فصارت له حظوة ومكانة في البلاط، ولم يجبره أحد على أن يدخل في الإسلام، ويقال إنه دخل الإسلام فيما بعد اختياراً منه، فقومه الصابئة لهم معبد وهيكل تحميه الدولة، ولا يتدخل في شؤونه أحد من المسلمين. إنَّنا نشير إلى ثابت وإلى البتّاني لنؤكد حقيقة انفتاح الثقافة العربية على العلم وعلى الإنسانية في رحابة كانت الحضن الدافئ الذي نمت فيه حضارتنا، ولولا هذه السعة الفكرية والعقلية التي منحت الإبداع والبحث حرية مطلقة لما تمكنت حضارتنا من تحقيق ما أنجزته على صعيد عالمي، وسنتابع حديثنا عن خصائص هذا التراث الغني، وعن سمات هذه الحضارة، عبر استقراء النماذج الكبرى التي ما تزال حية في عقل البشرية، وهذا الاستقراء هو الذي سيقودنا بوعي أكبر إلى فهم جدوى دراسة التراث.

كلمة العدد



نصف قرن مع «العربي»

د. علي القيم
رئيس التحرير

المؤتمر العام لمنظمة التربية والثقافة والعلوم «اليونسكو»، أقرّ في دورته الرابعة والثلاثين التي عقدت في خريف العام الماضي، اعتماد مرور /٥٠/ سنة على صدور العدد الأول من مجلة «العربي» الكويتية. ليكون ضمن احتفالات «اليونسكو» العالمية لعامي ٢٠٠٨-٢٠٠٩، وكان لي شرف المشاركة في إقرار هذا الاعتماد، والمشاركة في الاحتفالية التي أقامتها وزارة الإعلام الكويتية بين ١٤ و١٦ كانون الثاني ٢٠٠٨، هذه

الاحتفالية الضخمة التي شارك فيها أكثر من /١٠٠/ باحث ومفكر وأديب وإعلامي، من شتى أرجاء الوطن العربي والعالم الإسلامي، لقد اجتمعوا في إطار ندوة كبيرة حملت عنوان «نصف قرن من المعرفة والاستنارة» وليقولوا: «إن الاحتفال باليوبيل الذهبي لمجلة العربي لا يعني فقط الاحتفال بمرور نصف قرن على تاريخ صدور أول عدد من هذه المجلة، بل يعني أيضاً الاحتفال بخمسين عاماً من المساهمة في بناء أجيال من المثقفين والعلماء والفنانين والأدباء العرب، الذين تفتحت مداركهم الثقافية والعلمية والفنية والأدبية على صفحاتها».

لم تكن «العربي» مجرد مجلة، بل منبعاً للثقافة والمعرفة، نهل منه ملايين العرب، من المحيط إلى الخليج العربي وشكّلت دوراً رئيسياً في صياغة أفكار ومعارف عربية عديدة.. لقد تمكنت هذه المجلة، وبشكل فريد ورائع من جمع كل أطراف الثقافة، وأن تتناول القضايا الكبرى في الوطن العربي والعالم، دون أن تتجاوز حدود المعقول من حيث مراعاتها للذوق العربي والإسلامي والإنساني، ويتجلى ذلك في العلوم والآداب والفنون والتحقيقات المصورة، وهنا يكمن سرّ نجاحها واستمرارها وانتشارها، وسرّ اهتمام القراء بها، حتى وصل عدد النسخ التي تطبع من كل عدد إلى /٢٥٠/ ألف نسخة، وهذا رقم لم تصل إليه إلا مجلات معدودة ومشهورة جدّاً في العالم..

أهمية «العربي» تكمن أيضاً في انفتاحها على عالم اللغة العربية، ففي نشرها لمختلف الدراسات والأبحاث العربية والعالمية، في جوانبها العلمية والتقنية، قامت بإغناء الموسوعة العربية المعجمية والتعبيرية والمصطلحية في الوقت نفسه، وبهذا الفعل الحيوي المنفتح والمتجدد على اللهجات العربية

المحليّة، والمنفتح على اللغات العالمية بفضل الترجمة إلى اللغة العربية، تكون المجلّة قد ساهمت في إثراء اللغة العربية في مختلف المجالات، وأثبتت مدى قوة اللغة العربية، ومدى قدرتها على التطور واستيعاب مختلف فنون وآداب وعلوم العصر الحديث.

لقد شكّلت «العربي» لأجيال من الشباب العربي المتعطش إلى العلم والثقافة والانفتاح على الآخر، وسيلة أساسية من وسائل المعرفة العربية، وظلّت وفيّة لمبادئها وتوجهاتها العربية، التي يمكن أن تختزل في مراهنتها على إشاعة ثقافة تنويرية، وما جعلها تنجح في مهمتها أنها حرصت على تغليب كفّة الثقافي على كفّة السياسي بالرغم من صعوبة المعادلة.

❁ ❁ ❁

قضايا اللغة العربية، كانت حاضرة بقوة في احتفالية مجلة العربي، في وقت تعيش فيه لغتنا حالات حرجة بين التحدي، والتحدي المضاد، وقد كان المفكر الجزائري عبد الملك مرتاض، واعياً ومدركاً جيداً للدور الحضاري والإنساني الذي قامت به هذه اللغة في مسيرة الحضارة الإنسانية، فقد تزعمت مسارها بروعة قلّ نظيرها، وذلك طوال ثمانية قرون، إذ لا يشبهها في التاريخ إلا اللغة الإنكليزية، التي هي لغة البحث في عالم اليوم، ولكن هل سيستمر دور اللغة الإنكليزية في العالم لمدة ثمانية قرون، كما كان حال اللغة العربية؟!

لقد كانت اللغة العربية خلال القرون الوسطى، لغة الناس يتفاهمون بها من بُخارى شرقاً إلى بلاد الأندلس غرباً وإلى وسط أفريقيا جنوباً، كما كان المتعلمون من الأوروبيين يقصدون قرطبة وبجاية وفاس من مدن الغرب

العربي الإسلامي، من أجل أن يتعلموا فيها، ويأخذوا عن العلماء العرب، وقام أحد الطلاب الأذكياء من إيطاليا بأخذ الأرقام العربية من بجاية الجزائرية إلى فلورنسا الإيطالية، فأشاعها في الاستعمال الأوروبي، لأول مرّة، وحلّت هذه الأرقام مكان الأرقام الرومانية، التي كان من المستحيل بها تعليم الحساب والرياضيات.

ومن خلال اللغة العربية طوّر العلماء العرب العلوم التي كانت معروفة عند اليونان والهند والفرس، وقاموا ببلورتها، كما ابتدعوا بها علوماً أخرى، وكان الفارابي، وابن سينا، وابن رشد وغيرهم، يفكّرون ويكتبون في قضايا المعرفة واللاهوت والفكر باللغة العربية، في حين كان الخوارزمي يبحث في جداول اللوغاريتم ويؤلف في الجبر، والمقابلة، كما كان الزهراوي، وهو من أكبر الجراحين في العصور الوسطى يؤلف كتاب «المقالة في عمل اليد على الحراجة» بلغة الضاد.

الدكتور عبد السلام المسدّي من تونس، يرى أن المسألة اللغوية في وقتنا الراهن ليست في معزل عن السياق السياسي، والمشهد الإعلامي يدفعنا إلى التسليم بأن اللغة العربية قد كان لها عند أهلها من الوزن والاعتبار أيام الاستعمار أكثر مما لها منهما عندهم الآن، بعد نصف قرن من الاستقلال، وهذا ما يتفرد به العرب دون سائر الشعوب الذين عرفوا الاستعمار وتحرروا منه ومن آثاره، بل من كان يصدّق أن أهل الضاد سيفعلون بلغتهم زهداً واستخفافاً وهم مستقلون مالم يستطع أعداؤها وأعداؤهم أن يفعلوا بها حين كانوا قابضين على الأنفاس؟

اللغة العربية من منظور استشراف مستقبلها، واستقراء ما قد تؤول إليه،

قضية حضارية كبرى ترتد إلى إشكال سياسي بالغ الخطورة والتعقيد، وبها يرتبط الجوهر الثقافي الذي يتأسس عليه معمار الهوية في بعديه التاريخي الماضي، والمصيري القادم..

إن اللغة العربية -لو أنصفها التاريخ وأهلها- لكان من المفروض أن تكون هي أداة التداول المطلقة عبر وسائل الإعلام الخطيّة والسمعيّة والبصرية،وأن تكون أداة التداول في كل ما يتصل بمجالات الفكر والثقافة والمعارف، وبكل حقول التسيير والتوجيه، وكل دوائر الإبداع والفنون.. ولكن بكل أسف فإن وضع اللغة العربية في هذه المرحلة التاريخية وضع حرج جداً، فهناك حملة واسعة تصاحب حملة الكونية الثقافية تتقصّد النيل من كل الثقافات الإنسانية ذات الجذور الحضارية المتأصلة وفي مقدمتها الثقافية العربية، وكثيراً ما تتعلل بأن العربية الفصحى لغة مفارقة للواقع الحي والمعاش، فتحاول أن تبثّ الوهم بأن لغة الواقع هي التي يجب أن تصبح اللغة الرسميّة، وهذا معناه تحويلها إلى لغة تعليمية، ثم إلى لغة إبداعية حتى يُكتب بها الفكر، ومن هنا تتسلل المعاول الناسفة.. أما المرمى البعيد المنشود فهو أن تلقى العربية نفس المصير الذي صادفته اللغة اللاتينية بأن تنحل إلى لهجات تتطور إلى لغات قائمة الذات، وحيث إن الإعلام بمختلف وسائله هو أكثر المنظومات التصاقاً بالواقع فإن كل التركيز يقع على قنواته ووسائطه.

❀ ❀ ❀

لقد أجمعت الآراء والأفكار التي ساقها الدكتور المسّدي وغيره من العلماء والباحثين الذين جمعتهم ندوة «مجلة العربي ولغتها العربية» على أن

تكريس العاميّة حاملاً للرسالة الثقافية وبديلاً عن اللغة القومية لهو الانتحار الجماعي على عتبات قلعة التاريخ، وإن قضيتنا الكأداء -نحن العرب اليوم- هي أن الوعي اللغوي لدينا ينبري حاضراً ما دام الأمر متعلقاً بمستوى المعرفة التي مَحْملَها الحرف المكتوب، فإذا غاب النص والمتن والخط، غاب بغيابها وعينا بوزن اللغة، ووعينا بخطر اللغة، ووعينا بأن اللغة سلاح حضاري بأيدينا، فإذا زهدنا فيه انقلب علينا، وغدا الرامي مرميّا، وأمسى القناص فريسة.

ربما يكون الخطر التاريخي آتياً من أهل القرار الإجرائي في مجتمعنا العربي، عندما لا يولون المسألة اللغوية حجمها الحضاري التي هي متسعة له، قادرة عليه، وعندما يغفلون عن بقاء الأمة متوقف على بقاء الهوية، وأن بقاء الهوية مرصود ببقاء اللغة العربية الجامعة، ولكن الخطر الأعظم أن المثقف العربي بسلوكه اللغوي التلقائي- ما انفك في كثير من الأحيان يتحوّل إلى متواطئ على الثقافة بل على الهوية الثقافية التي بها قوام وجوده الحضاري وعليها مدار صيرورته التاريخية..

إن المثقف الذي يدير شأنه الفكري والأدبي والإبداعي بلغته القومية، وهو يخط ويكتب ويدوّن وينشر ويساجل، ثم إذا حاور أو ارتجل أو تحدث عبر أمواج الأثير أو على شاشات الفضائيات، توسل بالعامية، لهو مثقف متواطئ على ذاته الثقافية.. إنه يحيك المشهد الأول من «تراجيديا» الانتحار اللغوي..

فيما مضى كانت اللغات الأجنبية عدواً «إيديولوجياً» يوم كان الصراع الحضاري معتمداً على الاكتساح العسكري، أما اليوم في صراع الكونية الثقافية المحتمية بعباءة الأممية السياسية، والعولمة الاقتصادية، فإن

العاميات التي تهدد بقاء اللغة القومية الفصحى هي العدو الثقافي الأشرس لأنها تنتصب حليفاً موضوعياً للكونية الغازية.

إن اللغة العربية بما هي حامل للهوية الثقافية، وضامن لسيرورة الذات الحضارية لا يتهددها شيء مثلما يتهددها صمت المثقف، وهو ينظر إلى الزحف اللّهجي يكتسح مجالاتها الحيوية ولا سيما في الإبداع الثقافي، وفي الحديث عن كل شأن ثقافي مهما تقلّصت أبعاده أو انقبضت أحجامه، وليس من حظ للعرب في أن يواجهوا مخاطر الكونية الزاحفة المستشرية إلا بجبهة داخلية متينة تستمد قوتها من التماسك اللغوي، المطرد في أنساقه، والمنسجم بين أطرافه، فالثقافة معرفة وفن وفكر وإبداع..

إن معركة اللغة العربية تجري -الآن- على ساحات ثلاث:

- الأولى: هي ساحة الثقافة من حيث هي خلاصة الفكر وعصارة الفن وفضاء كل إبداع.

- الثانية: هي ساحة الإعلام، وما من شك في أن التطور العملاق الذي عرفته قد دفع التواصل الإعلامي ليصبح مدرسة كبرى تسّوق المعلومة، وتروّج الثقافة، وتلقّن ملكات اللغة، فبأي لسان كثفت التواصل الإعلامي حصلت منه على فائض أدائي لدى الجمهور.

- الدائرة الثالثة: هي الساحة التعليمية، هي المدرسة بكل مستوياتها ومراتبها من رياض الأطفال إلى أرقى المراكز الجامعية والمؤسسات الأكاديمية.

❀ ❀ ❀

الصديق العزيز جابر عصفور يرى في دراسته المتقنة عن «أزمة اللغة

العربية» أن مواجهة ظواهر أزمة (أزمات) اللغة العربية، سواء في انتشار الخلل الأدائي بها، وتجذر الازدواج اللغوي، وما يترتب عليه، واستمرار غزو المفردات الأجنبية الخطاب اليومي، وتخلّف طرق التعليم، لا يمكن أن يتم بمعالجة كل ظاهرة على حدة، فهي ظواهر مترابطة، متفاعلة، تتبادل كل منها التأثر والتأثير مع غيرها، الأمر الذي يفرض ضرورة المواجهة الشاملة لها معاً، في خطوات متجانسة، تتواصل كل منها مع غيرها، مهما اختلف مجالها أو شكلها تماماً كما يحدث في الأواني المستطرقة.

- الخطوة الأولى هي تعميق الوعي باللغة العربية نفسها، ليس بوصفها لغة جميلة، أو لغة شاعرة، وإنما بوصفها لغة الإبداع العربي الذي لا يزال باقياً من العصر الجاهلي ومستمراً إلى ما يشاء الله من عصور، وهي -فضلاً عن ذلك- كائن حي قابل للنماء والتطور الفعلي، أو الهزل والمرض المفضي إلى الموت، وذلك بسبب المتحدثين بها الذين يمكن أن يمضوا بها قدماً في طريق النماء والتقدم، أو ينحدروا بها إلى الدرك الأسفل من الضعف الذي يغدو بداية الموت، وتعليم اللغة الفاعل هو العملية التي لا يتوقف فاعلها عن النظر إليها بكونها عملية قابلة للإضافة في كل وقت وبرامج التعليم العربي لا تزال متخلفة بالقياس إلى برامج التعليم في العالم كله.

- الخطوة الثانية: تكمن في ضرورة المرونة في قبول المفردات والتراكيب الجديدة، لقد كان القدماء يتحدثون عن «المعرب» والدخيل وغيرهما، وعن الكلمات التي ترد إلى اللغة العربية من لغات أجنبية، وقبول هذا الدخيل -أو المعرب- علامة ثراء تبدأ من القرآن الكريم الذي ضم عدداً من المفردات الأجنبية، ووضعها في سياق لغوي، وكان بذلك يؤسس لمبدأ ينبغي أن نمضي

عليه، فنتقبل المفردات والتراكيب الأجنبية التي دخلت وفرضت نفسها، ولا أدل على ذلك من أن المعاجم الأجنبية في الإنكليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات المتقدمة والحيّة، تتغير باستمرار، ومن يراجع أية طبعة من طبعات المعاجم العالمية الشهيرة في اللغة الإنكليزية مثلاً، كما يحدث في معجم «اكسفورد» أو «وبستر» سوف يجد أن المعاجم يعاد النظر فيها كل فترة زمنية، وتدخل فيها مفردات لم تكن موجودة من قبل، لأن اللغة الإنكليزية قد تقبّلتها وأخذتها واستوعبتها بمرونة وليس بجمود أو رفض عصبي على نحو مطلق.

- الخطوة الثالثة: تتصل بما قبلها، وتعني التحديث المستمر للمعاجم العربية الحديثة، والحرص على تطويرها ، بما يجعلها سهلة الاستخدام، وميسّرة بالنسبة إلى من يحتاج إليها، مضيفة الجديد إلى القديم، والوافد أو الدخيل إلى الأصيل.

- الخطوة الرابعة: وهي بالغة الحيوية، وتتصل بتوسيع أفق الترجمة، في مجالاتها المتعددة، والارتقاء بها في كل مجال، وخاصة في المجالات العلمية الحديثة والمعاصرة التي لا تكف عن التقدم أو التطور، ويمكن للترجمة، في هذا المجال أو ذاك، أن تكون مصدراً من المصادر الثرية في إغناء اللغة العربية، وفي مدّها بتراكيب جديدة هي من نتاج العصر الذي يتغيّر، والذي لا يتوقف تطوره عند مرحلة بعينها، ولا سبيل للحاق بعلوم العصر إلا من خلال الترجمة.

- الخطوة الخامسة: ضرورة إشاعة الموروث الأدبي، وتأكيد حضوره الإبداعي في الأذهان، واستغلال وسائل الإعلام في ذلك، وما أكثر التقصير الذي تبديه وسائل الإعلام في مسألة اللغة العربية وإشاعة تذوقها.

- الخطوة السادسة: وتوازي الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام وتتداخل معه، وهي ضرورة الحرص على السلامة اللغوية في خطاب الإعلاميين والقيادات السياسية والفكرية والثقافية، والغريب أن أغلب المسؤولين لا يحرصون على سلامة اللغة التي ينطقونها، فلغتهم محطّمة مكسّرة لا تعرف السلامة ولا الفصاحة إلا فيما ندر، وهي لغة تشيعها، وتعمل على تطبيقها اللغوي غير المباشر، أجهزة الإعلام، وتجعل فيها نموذجاً قابلاً للاحتذاء والاقتداء.

- الخطوة الأخيرة: العمل على تقليل من بعد المسافة ما بين اللغة المنطوقة والمكتوبة، وهذا أمر شائع في كل لغات العالم، ولكن المسافة في لغتنا بالغة الاتساع ولا نستطيع أن نواجهها مواجهة جسورة إلا بتقريب المسافة بين (العامية والفصحى) عن طريق توسيع آفاق التعليم، والحرص على وجود لغة فصحى سليمة سلسة وسهلة في كل أجهزة الإعلام العربي.

الكويت ١٤-١٦ كانون الثاني ٢٠٠٦



الدراسات والبحوث







رســـالة إلـــى ابنتـــي

د. فاخر عاقل*

ابنتـــي في عامها الرابع عشر وقد كتبت إليها هذا الكتاب الذي اعتقدت أنـــه قد يهمكم سماعـــه، ولست أدّعي لكتابي هذا الإلمـام بكل المشاكل التي تهـــم ابنتي الحبيبـــة أو التي يجب عليّ أن أتحدث إليهـــا فيها. ولست أزعم أن فيه علاجاً لـــكل مشكلة بل أن يكون علاجاً صحيحاً دقيقاً، ثم إني أحب لسامعـــيّ أبداً أن يأخذوا بوجهة نظري في الأمور التي تواجه الفتاة المراهقة في مجتمعنـــا، أو الأمـــور التي ستواجهها في مقبل أيامهـــا، إن ما أطمع إليه

* أديب ومربي وأستاذ جامعي سوري

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

هو التنبيه إلى أهمية إعداد أولادنا، بناتٍ وصبياناً، لحيواتهم المقبلة وتبصيرهم بالمهم من أمورهم وتوجههم إلى ما فيه خيرهم وخير مجتمعهم، فإن وفقت على هذا سعدت وقررت عيناً، وإن أخفقت فعذري حسن النية وصفاء الطوية، ولكم في كل حال شكري وتقديري.

وهذه هي الرسالة:

بنيتي الحبيبة:

لطالما أحببت أن أتحدث إليك في أمور أعتقد أن من واجبي أن أتحدث إليك فيها وأن أبصرك بها، وإنك لتعلمين يا بنية أني لم أضرب قط حجاباً بيني وبينك، وأننا نتحدث -أنت وأنا- دوماً حديث الصديق للصديق، الصديق الكبير الأكثر تجربة، للصديق الأصغر الراغب في المعرفة والحياة، وبهذه الروح سأتحدث إليك الآن.

ولعلك سائلتي: لم هذا الحديث المكتوب؟ وما المانع من حديث مرسل يسير كما كنا نفعل دوماً؟ وجوابي إني أؤمن بالكلمة المكتوبة، أؤمن بقوتها في الإقناع وقدرتها على الخلود وقيمتها في التأثير.

ثم إني أحب لك أن تحتفظي بكتابي هذا وأن تعودي إليه في مقبلات أيامك وأن تقرأيه أكثر من مرة فقد ترين فيه عربوناً لحب أب وخلاصة لخبرة رجل وهادياً لك في بيداء هذه الحياة.

أي بنيتي. لقد بلغت من العمر الآن ما يسمح لي بأن أحدثك عن أمور كثيرة لم أرَ من المناسب أن أحدثك عنها قبل الآن.

إنك اليوم تودعين عالم الطفولة ببراءته وسذاجته وتحلله من المسؤوليات والهموم إلى عالم الشباب، عالم الأنوثة، وما يفترض فيه من تهيئة للحياة المقبلة ومطاليبها ومسؤولياتها.

وعالم اليوم كما أحب لك أن تعرفي عالم معقد انقلبت فيه المفاهيم واختلفت فيه النظم وتعددت المطاليب وتضاعفت المسؤوليات وأنه عالم غني جميل ذكي، ولكنه -بالمقابل- عالم يطالب العائشين فيه بما لم يكن يطالبهم به. عالم الأمس البسيط الساذج البدائي.

ولست أحب لك أن تفهمي من كلامي أني من القائلين بسوء هذا العالم وشره وفساده، كلا! إني أؤمن بالإنسان إيماناً عميقاً، أريدك أن تؤمني به معي، إني أؤمن بقدرته على التقدم المستمر وأعتقد اعتقاداً راسخاً بأن عالم اليوم خير من عالم الأمس وأن عالم الغد سيكون حتماً خيراً من عالم اليوم. ولهذا السبب بالذات أؤمن بأن من واجب الآباء والأمهات أن يهيئوا أولادهم

للعالم المتقدم أبداً، المتحسن سرمداً، السائر قدماً نحو الأفضل، ولهــذا السبب بالذات أكتب إليك اليوم.

ثــم إني أريدك أن تعلمي أن عالمنا اليوم لا يحتاج شيئاً حاجتــه لإنسان يدرك معنى التقدم المادي الهائل الــذي نعيش في ظله، والــذي انطلق به نحو السماء، نحو الشمس والكواكب. إن إنسانــاً يطلق صاروخاً يدور حــول الشمس، أحوج ما يكون إلى خلق يليق بهذه العظمة، أحوج مــا يكون إلى علاقات بشريــة تناسب هذا المجد، أحــوج ما يكون إلى مجتمع يسخر هذه المعارف الهائلة لمزيد من التقدم والرقــي لا للقضاء على التقدم والرقي البشريين.

وأنــت، أنت وســواك من أبنــاء وبنات جيلك، هنا في وطننــا العربي الحبيب وفي كل وطن على وجه هــذا الكوكب، ستكونين مسؤولة عن هذا التقــدم والرقي، وبالتالي مطالبــة بالخلق الــذي أشرت إليــه وببناء المجتمع الذي نوهت به.

وأنا حــين أحاول -في كتابــي هذا- أن أعدك لحياتــي المقبلة في عالم الغد العظيم إنما أصدر عن حبي لهذا العالم وعن عقيدتي بأن الإنسان هــو أهم ما في هذا العالم وعن إيماني بأهمية أداء واجبي بوصفي أباً.

علــى أني لا أنسى أن أشير إشارة خاصة إلى جنســك، إلى كونك فتــاة، ذلك بأن عالم الماضي بخســ المرأة أشياءها وغمط حقها، وذلــك بأن عــالم اليــوم يحــاول إنصافها وإعادة الأمور إلى نصابهــا، وذلك بأن عالم الغد سيفتح للفتــاة الأبواب على مصارعها فيزداد قوة على قوتــه وتقدماً على تقدمه وغنى على غناه. إن عــالم الغد سيفخر بما تضيفه المرأة إلى ثرواتــه العلمية والفكرية وبما تضفيه عليه المرأة من عبقرية تنظمها وعميق وعيها وسحر ذكائها ودفء عاطفتها وحبها فاستعدي للغد العظيم، وهيئي نفسك للمهمة الجليلة تنهضين بها مع بنات جنسك وأعــدي لمجتمعك المقبل عقــلاً نيراً وعلماً صحيحاً وعاطفة ذكية وقلباً كبيراً.

بنيتي:

مــن أجل هذا كلــه ومن أجــل أشياء لم أذكرها رأيت أن أكتب إليك وأن أحدثك عن بعض الأمور.

لعلــك لمست حتى الآن أننا في بيتنا -أنا وأمــك- لا نفرق في المعاملــة والمحبة بينك وبــين أخيك بشيء. وما أظنــك إلا معترفة بأننــا لم نستقبل أختك حين ولدت بأقل مما لو كانت صبياً. لعلك لاحظت فرح أمك بها وحبهــا لها، ولعلك تعترفين بأني أمنحها من قلبي وعنايتي ما أمنحه لك ولأخيك.

أقول هذا لأثير معك مسألة التساوي بين

المرأة والرجل. سألتني مرة هل المرأة كالرجل؟ وقلت لـك آنئـذ نعم ولا.



نـعـم لأنـهـمـا متساويان في الحقوق والواجبات، متساويان في إنسـانيـتـهـمـا، متساويان في قيمتهما وأهـمـيـتـهـمـا للـوطن وللـمـجـتـمـع، ولأنـهـمـا جنـسـان مـتـكـامـلان، في كـثـير مـن الأمـور ومتشابهان في كثير من الأمور أيضاً.

جســد المــرأة غير جســد الرجــل، ونفسية المــرأة تختلف عن نفسية الرجل، عقلها غــير عقله، عاطفتها غــير عاطفتــه، وتصرفاتهــا تختلــف عن تصرفاته.

جســد المــرأة مخلــوق بحيــث يناسب وظيفتهــا الأهم، وظيفــة الأمومة، وعقلها يعمــل علــى أساس مــن الحدســ المباشر والإدراك المستبصر، وعاطفتها الثرة قاطعة في أحكامهــا تحــب وكفى وتكــره ولا تبرر، وسلوكها قائــم على أساس مــن عقائدها، ولو اختلفــت عقائدها عن عقائــد الناس أجمعين.

وليس معنى هذا أنهــا أذكى من الرجل أو أغبى منــه، وليس معنــاه أيضاً ما زعم من أنهــا مخلوق يعيش على العاطفة ويتنكر للعقل، وليس معناه أبداً من الأمومة مهنتها الوحيــدة وأن البيت مكانهــا الأنسب دوماً. لا. أن معنــاه أن ذكاءهــا يختلــف عن ذكاء الرجل بعض الشيء، فثمة أمور تتجلى فيها عبقريتها وتخبو عبقرية الرجل وهي الأمور التي تحتــاج إلى الحدس أكثر من المحاكمة،

وثمة أمــور تتركها للرجل معترفــة بتفوقه وهي الأمور المحتاجــة للتخطيط والتنهيج والتنظيم.

أي أن العاطفــة موحــدة مــع عقلها لا يفصم بينهما فاصم ولا يفرق بينهما مفرق ولذلك فهي لا تفهم منطق الرجل الذي يقوم على المحاكمة الباردة والمصلحة المطلقة، وأن معناه أن تعطي أو تمنع، وإن كانت في معظم الأحيان معطاءة، أن تحب أو تكره وإن كانت إلى المحبة والتسامح أقرب.

وفيمــا عدا ذلــك ففي النســاء الذكية والغبيــة، وفيهن الخيرة والشريــرة، وفيهن صاحبة الميل الفنــي وصاحبة الميل العلمي وصاحبة النزعة العملية.

وفي كل حــال يجــب أن يكــون للمــرأة ما للرجل مــن حقوق وعليها مــا عليه من واجبــات، لتعمل لوطنها كمــا يعمل، وتقدم للإنسانية ما يقدم.

وفي كل الأحــوال لا يستطيع وطن على وجه أرضنا اليوم أن يصل إلى ما يصبو إليه من تقدم ورفعة إذا هو غمط المرأة مثل هذه الحقوق ونظر إليها غير هذه النظرة.

هذا جواب سؤالك أيتها الحبيبة أذكرك به اليوم لأقول لك شيئاً آخر.

بنيتي:

إذا وافقتنــي علــى ما قلت عــن المرأة فهمت لماذا أقول لك دوماً بأني حريص على أن تكون لك مهنة، لماذا أريدك أن تستكملي دراستك الثانوية ثم الجامعية لتنتقي لنفسك مهنة تمكنك من العيش الشريف.

لعلك سمعت أمك وأنا نقول أكثر من مرة بأننا لا نريد أن يكون زواجك موضوع بحث أو حديث قبل أن تتخرجي من الجامعة وأن تزاولي المهنة التي تنتقيها لنفسك، ولعلك قد سمعت منا مرة ومــرة أننا لن نقسرك على مهنة بعينها وأن كل ما نريده هو أن تختاري لنفســك مهنة تمكنك مــن العيش الشريف الكــريم، ويمنحك من الحريــة والاستقلال ما يحفظ عليك كرامتك الإنسانية وحريتك الواجبــة لك وتحــررك من العــوز والفاقة والخوف من الجوع.

إننا نعتقد أن المرأة الشرقية يذلها اليوم شعورهــا بالتبعيــة للرجــل واعتقادها بأن الــزواج توفير للسقف والغذاء والكساء. إننا نريدك سيدة في بيتك صديقة لزوجك وأماً لأولادك، لا خادمة لزوجك وأماً لأولاده هو وضيفة في بيته. إننا نعتقد أن العمل يحفظ للإنســان كرامته ويبقي للمــرأة استقلاها، ويضمن لهــا أن يعاملها زوجها معاملة الند للند لا معاملة التابع للمتبوع.

علــى أننــا لا نحب لــك أن تفهمي من كلامنــا أن الأمومة ليست عمــلاً وإن إدارة

المنزل بطالة وكسل، وأن المرأة التي لا تعمل خارج المنزل تفقــد عزتها وكرامتها، كلا ما لهذا رمينا، وإنما الذي قصدناه هو الناحية المعنوية من الأمر قبــل الناحية المادية. إننا نعتقــد أن الرجل الــذي يؤمن بــأن المرأة عاجزة عن الاستقلال المادي عنه قمين بأن يعاملهــا غير المعاملة التي يعاملها بها لو أنه عرف بأن في مكنتها أن تحيا حياتها إذا لزم الأمر.

قــد تقولين أن أمـــي لا تشتغــل وأنتما سعيــدان، وجوابنا أن مـــن الأحسن لك أن تعتمدي علـــى حظك وأن زمـــان أمك غير زمانـــك، وأن إمكانية عمل المـــرأة أمان لها وضمان للرجل نفسه.

يا بنيتي:

ما دمت قد تعرضت لأمر زواجك فلأقل لـــك الآن ما أعتقد أن مـــن واجبي أن أقول لـــك بخصوص أنوثتك وزواجـــك وأمومتك وبيتك.

أمـــا عـــن أنوثتك فأحب لـــك أن تعرفي أنهـــا منحة الطبيعة الخـــيرة ووديعة الحياة فتعديها بعنايتك واحرصـــي عليها بذكائك ونميها بعاطفتـــك وزينيهـــا برقتك وحسن فهمك وأغنيها بحنانك وعطفك. اذكري أن الأنوثة أهم من الجمـــال، إنها سر الجمال، واعلمي أن الجمـــال اليوم أمر أصبح يمكن جلبه وتأكدي أن جمال الروح أعظم بمرات من جمال الجسد، وتأكــدي أني لا أتحدث عن أوهام أو خيالات.

أريدك أن تدركي بعض الحقائق البسيطة الهامة التي تقوم وراء كلامي السابق والتي لا ينبــؤك بها إلا رجل عاشــ عمره أو كاد: أريــدك أن تعلمي أن جمـــالاً لا تدفئة أنوثة صحيحة أقرب إلى جمـــال المرمر المنحوت منـــه إلى جمـــال اللحم والـــدم، وأريدك أن تفهمي أن أنوثة ذكية حنونة تغني عن الكثير من الجمال، وأريــدك أن تدركي أن الأنوثة والحذلقة عدوان لـــدودان، وإنها والبغضاء لا تجتمعـــان، وأن الحقد والحسد والانتقام مفســدان للجمال، قاضيتـــان على الحسن، مزيلات للملاحة والرواء.

أريدك أن تعرفي هذه الحقيقة البسيطة عن الجمال: الوجه مرآة النفس ينعكس عليه ما فيها من أفكار وعواطف ونيات. وأريدك أن تؤمنـــي بأن السعـــادة مفتاح الجمال وأن الاتزان والانسجام سر السعادة، كما أريدك أن تتأكــدي أن السعـــادة مصدرهـــا الذات ومنبعهـــا العقل الذكـــي والعاطفـــة المتزنة والعمل المخلص.

لا تفهمي يا بنية، من كلامي أني أدعوك لإهمـــال جمالك، ألف كلا، إني على العكس أهيـــب بـــك أن تعني بـــه بغـــير مبالغة وأن

تتعهديه بـذوق وحسـن إدراك وأن تعطيه من وقتـك وتفكيرك ما يحفـظ لك حسن المظهـر ولطف المعشر ومـا يفتح لك مغالق القلـوب.. والجمال سيبقى أبـداً رأس مال ثمين للمرأة..

ولكنني أعيذك مـن الإفراط وأؤكد لك أنه حتى الرجل الذي يعجب بغانية متبرجة لا يحـب لزوجه مثل تبرجها، وأن أشد رجل استهتـاراً يستحي بزوجة كل امتيازها ألوان فاقعة وعطور صارخة ومشية راقصة وثياب تفضـح ما يجب أن يستر وتستر ما يجب أن يكشف.

يا بنية:

لقـد حدثتك عـن واجبـك في التعليم والاستعـداد للحياة والعمـل وحذرتك من الحذلقـة فهل أدركت ما أرمـي إليه؟! لقد أردت أن أقول لك أنه إذا كان الرجل المتحذلق مكروهـاً مرة فالمـرأة المتحذلقـة مكروهة عشر مرات، والمرأة لحداثة عهدها بالتعليم وبسبب من قلة المتعلمات نسبياً أسرع وقوعاً في الحذلقـة وأشد استعـداداً للإصابة بها فحذار من الحذلقـة واعلمي أن زينة العلم البساطة وحلية المعرفة التواضع، وأن الرجل لا ينفره من المرأة شيء كحذلقتها.

أنسيـت كتـاب موليـير عـن النسـوة المتحذلقـات؟ ومناقشتهـا حولـه؟ اذكري موليـير كلما عصفت بـك إلى الكلام المدلّ شهـوة وإلى التفاخر بالمعرفة رغبة، واعلمي أن ما من شيء يجرح الرجل، زوجاً وصديقاً ورفيقاً وحتى ابناً، مثل إظهارك إياه بمظهر الجاهـل تتضـاءل معرفتـه إزاء معارفك فتتصاغر رجولته إزاء أنوثتك.

وأما عن زواجـك فلا أقل من أقول لك أن الزواج أمر من الخطورة والأهمية بحيث يستحق أن تستعدي له وتتأهبي، وأن تعرفي عنه وتتبصري، وإلا أفليس غريباً أن يتحضر الإنسـان لكل شؤون حياتـه ماعدا زواجه؟ أليس عجيباً أن يتهيأ لوليمة يقيمها وسفرة يقوم بها ولا يتهيأ لزواجه؟!

إن الإنسان في البلاد المتقدمة يحضرون لزواجهم في البيت والمدرسة والمعبد والنادي وعن طريق الجريـدة والمذياع والمحاضرات وغير ذلك من الأسباب.

ثـم إن الزواج حادث هـام لا تكفي فيه خبرة الأم أو حديث الخالة والجدة، بل لا بد له من سماع كلمة العلم في ميادينه المختلفة: ميادين الجسـد وميادين النفـس وميادين الاجتماع.

الزواج علم وفن. والحياة الزوجية يجب أن تقـوم على أساس مـن الوعي والإدراك والمعرفـة. وهي بغير ذلـك منتهية إلى ما لا يحبه إنسان لنفسه من انفصام أو تعاسة.

ولا تقــولي ومــا يقوله الجهــلاء من أن ملايين الناس قد تزوجوا من قبلي وعاشوا سعــداء دون علم أو معرفة أو تحضير. لقد عاش ملايين الناس من قبل دون طب راق أو كهرباء ساطعة أو اختراعات حديثة، أفيبرر هذا الاستغناء عن كل هذه النعم؟! إن عصرنا الــذي نعيش فيــه عصر العلــوم الإنسانية وتطبيقاتها التي دللت على فوائدها الجمة فلم لا تنعمين بما يسره لك حظك منها.

إذن فقد اتفقنا على ضرورة استعدادك لحياتك الزوجيــة المقبلــة فاسمعي بعض الحقائق عن هذه الحياة:

- أحب لك أولاً أن تعرفي هذه الحقيقة الساطعــة التي يجهلها كثير من الفتيات، ألا وهي أن الرجل لا يحب المرأة الرخيصة ولا يعطيهــا اسمه. إنه يعتقد صواباً أو خطأ أن المرأة التي تــزل مع ســواه، وأن المرأة التي ترخص نفسها له ترخصها لغيره. ولايغرنك ما يقوله بعض الرجال لبعض الفتيات من أن المــرأة العصرية المتقدمة غير المرأة القديمة المتأخرة، وأن رجل اليوم غير رجل الغد، وأن رجــل اليوم لم يعد يعلــق أهمية على ماضي زوجته أو صداقاتها السابقة. إن هذا محض كذب وغش، وأن هذا الشخص بالذات أبعد النـاســ عن غفــران أية زلــة أو نسيان أية خطيئة. إن زينة المرأة السرمدية في كل زمان وفي كل مجتمع عفتهــا وإن الرجل كل رجل لا يحـــترم ولا يحب إلا المرأة العفة. وتأكدي أن الرجــل الذي يأخذ بيــدك إلى الخطيئة -لاسمــح الله- هو آخر مــن يتزوجك وأنه إن فعل بوحي من ضميره في النادر وبضغط من المجتمع في الأغلب أقول إنه إن فعل فإنه لــن ينسى زلتك وسيجــبرك على العيش في جحيم ظنونه واتهاماته وتلميحاته.

وأحــب لك ثانيــاً أن تعلمــي أن الرجل لا يرغبــه في الفتاة شيء أكــثر من حيائها. ولا يدفعــه إليهــا أمر أقوى مــن تهذيبها، ولا يحببه بالمرأة خصلــة أهم من بساطتها الذكيــة ولباقتها الأصلية غير المتكلفة. على أني لا أريدك أن تضيعي بين الحياء الطبيعي وجــوده في الفتــاة السويــة، وبــين الخجل المرضي الذي يجعلها أضحوكة وألعوبة.

الحياء صفة أصلية في المرأة تجد أساسها في عفتهــا وبراءتها، وتفرضــ احترام المرأة والتأدب في حضرتها على الرجل، كل رجل. أما الخجل فمرض الحائر بين حب الظهور والرغبة في الانزواء، إنه مرض الذي يشعر بقصوره ويرغب في مزيد من البروز.

وأحب لك ثالثاً أن تري معي أنه إذا كان لا ضير على الفتاة المهذبة من الحب الشريف، فــإن الحق كثيراً ما يختلط بالباطل، وإن في الناس من يحسن الزعم ويتقن الكذب ومن

يغرر بالطيبات الشريفـات. والإنسانية، مع الأسف، لم تستطع حتى اليوم اكتشاف ميزان للحـب كميزان الحرارة يضعه الإنسان على قلب زاعم الحـب ليقيس درجة حرارة قلبه وصدق حبه، ولذلك كان لا بد للفتاة الذكية الواعية من أن تسمع الكثير وأن تشجع القليل وتصـدق الأقـل وتتحصن بالخلـق القويم والفهـم العميق ليتميز بـين الغث والسمن، بين الحق والباطل.

ولا تفهمـي يا بنيتي، أني أنكر الحب، أو أتنكـر له، على العكس، إنني أؤمن به أعمق الإيمان، وأعتقد مخلصاً أنه أعظم القوانين البشرية وخير قواعد السلوك وأفضل أنواع التعامل بين الناس، ولكنه كالذهب الخالص يزيفه اللصوص ويغشه من لا أخلاق لهم. ومن هنا كان حرصي على أن تعوذي بخلقك القـويم وعقلك النـير كلمـا استبهم عليك الطريق وحزبك الأمر.

وإني وإن كنـت قـد قررت لـك فقدان ميـزان تقاس به العاطفة فـإني أدلك على معيار أخلاقي قـد يفيدك إذا ادلهم عليك الخطب، إنه القاعـدة البسيطة القائلة بألا تفعلي في السر ما تستحي منه في العلن.

أظـن أن هـذه القاعـدة الأخلاقيـة عاصمتك مـن كثير من مواقـع الزلل التي يوحي بها الرجل أو النفس الضعيفة.

ولن أتـرك حديثي إليك عن الحب قبل أن أقـول لك إني لا أؤمـن بالحب الصاعق ولا أعتقـد بأصالته وصحته، إني أعتقد أنه في معظم الأحيان نزوة عابرة تأفل بالسرعة التي بزغت بها، وأنه في الأعم الأغلب دليل نفـس غير متزنـة وعقل غـير بصير. هذه عقيدتي وهذه خبرتـي وما أظنك تخطئين لو صدقتني.

كمـا أني لا أحب أن أترك حديث الحب قبـل أن أقول لك إني مؤمن بأن الحب يقوم أول مـا يقوم على الاحـترام والتقدير، وأن الاحـترام ينهضـ على أساس مـن المعرفة والألفـة، وأن المعرفـة بحاجـة دومـاً إلى زمان..

ثـم إني لا أحـب أن أنسى القـول بأن الحـب الزوجي الصحيح ينقلـب مع الأيام إلى صداقة، وجوهر الصداقة -مرة أخرى- الاحترام والمعرفة.

وأخـيراً أؤكد لك أن الحب الحقيقي هو الحب الذي ينمو مع الأيام ويزداد مع التعايش ويزدهر بالحياة المشتركة. فلا عليك أن بدأ حبك صغيراً ثم نما، قليلاً ثم زاد.

وهنا أريد لك أن تعرفي رابعاً أن النجاح في الزواج أمر يجب أن تريديه وأن تعملي له وأن تبذلي في سبيله وأن تضحي من أجله.

وقاعدتي هنا بسيطة أيضاً: إذا لم توطدي

النفس على ملاقاة شريكك بعد ثلاثة أرباع الطريق فإنك لن تلقيه في منتصفه.

اذكري أن الزواج بداية حياة جديدة. وأن الذي يقبل أن يتزوج يحزم أمره على أن يعايش إنساناً له غير طبائعه وخلاف عاداته، وأنه إن لم يتنازل عن كثير مما عنده فإن الآخر لن يتنازل عن القليل أو كثير مما يريد.

اعقدي العزم، يوم تتزوجين، على أن ينجح زواجك واعملي من أجل ذلك، وزواجك لن ينجح إلا بحبك الأكيد لزوجك وبيتك، وبتضحيتك من أجلهما واستعدادك لفهم الرجل الذي ربطت مصيرك بمصيره، فهم آلامه وآماله ومقاسمته أفراحه وأتراحه ومشاركته سراءه وضراءه.

لا تنسي أن الزواج السعيد لايمكن أن يكون حظاً ولا نصيباً، بل هو جهد وعمل وذكاء ولباقة وحسن فهم وقديماً قال شوقي:

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا

وفاز بالحق من لم يأله طلبا

ولعلك سائلتي يا بنية عن سبب التعاسة الزوجية وعن مسؤولية الرجل فيها، وعن العدد العديد من النساء الطيبات اللواتي لا يجدن في زواجهن إلا الصاب والعلقم؟ وإني لأعترف لك مسرعاً أن في الرجال السيئ السفيه، وأن فيهم الطلاق الحسيس، وأن فيهم.. وفيهم.. ولكن هل يبرر ذلك كله ترك الأمر للحظ والصدفة والقعود عن الاستعداد لأخطر حادث من حوادث حياتك؟ اعقلي ثم توكلي..

بنيتي:

إذا كنت قد تهيئت لأنوثتك وزواجك فما أجدرك أن تستعدي لبيتك وإدارته، لملكتك الصغيرة وجنتك الوارفة وعشك الجميل.

والشيء الأول الذي أريدك أن تعرفيه هو أن البيت يجب أن لا يكون جنتك أنت فقط بل جنة زوجك وأولادك أيضاً، والأصح أن أقول إن البيت لا يكون جنتك إذا لم يكن جنة زوجك وأولادك. إنه جنة بهم جميعاً وإلاَّ فإنه ينقلب إلى جنة مهجورة وما أصعب العيش في الجنان المهجورة!

ولا يمكن أن يكون بيتك جنة لكم جميعاً إلا إذا عملت على ذلك وجهدت في سبيله.

الجنة مكان جميل فليكن بيتك جميلاً، إني أقول جميلاً ولا أقول غنياً، إذ إني أعتقد أنه ليس من الضروري أن يحتوي بيتك على الأثاث الفاخر والرياش الغالي الثمن كي يكون جميلاً ولكنه يجب أن يكون نظيفاً وأن يؤثث بذوق، وأن يجمل بأشياء لا تكلف كثيراً ولكنها تضفي عليه بهجة وسحراً. قليل من الزهر، بعض اللوحات الفنية،

تناسق الألوان وحسن الترتيب أمور لا تكلف كثيراً ولكنها تجعل مــن البيت مكاناً للمتعة والراحة وهدوء الأعصاب وبهجة النفس. لا تفعلي ما يفعله بعض سيداتنا اللواتي يتركن الزهر الطبيعي النضير الرخيص إلى الزهر الاصطناعي الغالي، ولاتخطئي خطأ بعض الأغنياء الذيــن يجعلون من بيوتهم متاحف تغص بالطرف والتحــف يكدسونها بعضها فوق بعض إظهاراً لغناهم وتدليلاً على قلة ذوقهــم، ولا يذهبن بك الظن إلى ما تحسبه بعضــ فتياتنا من أن ارتفــاع الثمن ضمان الجمال.

هذا من حيث الجمال المادي، أما الجمال المعنوي فأريدك أن تتأكدي أن هروب الرجل من بيته إلى المقهى والنادي والشارع يرد في معظم الأحيان إلى أنــه لا يجد في بيته من يجذبه، ولا يجد في زوجه وأولاده ما يحببه في البقــاء إلى جانبهم. أريدك أن تفهمي أن المرأة مسؤولة في معظم الحالات عن هروب الزوج من البيت، إنها مسؤولة لأنها لا توفر له مــن حنانها ودفئها ما يحمله على البقاء إلى جانبهــا والعيش في جوها. والأمر نفسه صحيح عن الأولاد.

ولا تقــولي لي ما تقوله بعضــ سيداتنا من أن أزواجهــن، (فاسدون بالطبع)، وأنهم ربوا على حب المقهــى وارتياد النادي وذرع الشــوارع. صحيح أن بعضــ الرجال كذلك ولكنهم قلــة وشذوذ يثبــت القاعدة العامة -كمــا يقول النحاة- والقاعــدة أن ينجذب الرجــل إلى بيته حين يكــون فيه ما يجذبه ويبقيه.

أما بالنسبة لأولادك فالأمر أهم وأعظم، أحب لــك أن تعلمي أن جــو البيت مسؤول إلى حــد كبير كبير جــداً، عن خلق الأطفال وطباعهــم وسلوكهــم وشذوذهــم. إن بيتاً يبدأ فيه الخصــام صباحاً ليستأنف مساء، ويخرج منــه الأب إلى المقهــى لتغادره الأم إلى الاستقبالات والزيارات، ويفرق الطلاق فيــه بين الأب والأم، أقول إن بيتاً هذا شأنه جدير بأن يدفع الأطفال للجنوح ويرمي بهم إلى الشــذوذ والإجــرام. ومسؤولية الأم في هذا كله كبير جداً.

ثم إني أريدك أن تعلمي أن الزوج كل زوج مهما كان غنياً أو فقيراً، يسعده أن يرى زوجه سيدة بيتــه، يسعده أن يراهــا تعنى بتربية أولادهما ولا تتركهم للخدم والمربيات، يسره أن يأكل من طعام تحضــره له هي بنفسها، ولو كان عنده عدد مــن الطباخين والخدم يفوق عدد أفراد العائلة.

أريــدك أن تتأكدي مــن أن الرجل، كل رجــل، يفضــل وجبة طعام جيــدة على أية مناقشــة علمية أو فلسفيــة، وأنه يرتاح إلى ملاءة سرير نظيفة تفوح منها رائحة الغسيل النظيف أكثر من راحته من مقال تكتبينه أو

قصيــدة تنشرينها أو بحث علمي تقومين به لا تمطي شفتيك، إنهــا الحقيقة أحببت أم كرهت.

ولعليّ أدهشك حين أقول لك إن بالرجل نفوراً أو شبه نفور مــن المرأة التي تستبدل حنانهــا بالمناقشة الدائمــة وحبها بالجدل المنطقــي وعنايتهــا بالحديــث المتصل عن حقوقها وواجباتها.

واذكري أن الحــب كفيل بتخفيف أعباء أو واجبــات وقمــين بالتنازل عــن كثير من الحقــوق. ولا تفهمي من كلامي أني أريدك مهضومة الحق ثقيلة الواجب، ولكني أريدك علــى أن تنالي كل حقوقك عن طريق الحب الزوجي والبنيوي وأن تقومي بكل واجباتك من خلال حبك الزوجي الأمومي.

إيه بنية:

هذه بعضــ ملاحظاتي عن بيتك أنتقل منها لأتحدث بعدها عــن أمومتك، ولأقول أن الأمومــة صناعة وأنهــا علم وفن، وحق وواجب، ومسؤولية وجزاء.

استعــدي لأمومتك استعدادك لأي عمل هــام من أعمــال حياتك، بــل استعدي لها استعدادك عظم عمل مــن أعمال حياتك، واذكري أنك بإعطائك الحياة لمخلوق جديد يجاور قلبك تسعة شهور قبل أن تراه عيناك، إنما تحققين أعظم ما في أنوثتك وتنهضين بأروع أعبائها.

لقــد أرادتــك الحيــاة مستودعــاً لها، وائتمنــك علــى ذاتها وأناطت بــك بقاءها وتقدمها، وأسرت إليك بأعظم أسرارها فهل بعد هذا من عظمة أو خطر .؟!

ولقــد زودك الخالــق سبحانــه بقــدر غير محدد من الحب والحنــان والتضحية، تمنحينه أولادك وتغدقينه عليهم.

ولقد حبتــك الطبيعة قلباً كبــيراً يسع أطفال الدنيــا بله أطفالــك وصبراً لاينفد للعناية بهم والحدب عليهم.

ولقــد أعددناك، أمك وأنا، لمهمتك هذه فمكناك من المعرفة وسهلنا لك الاطّلاع.

فلا تفســدي شيئاً من هذا كله بحواجز مصطنعــة تقيمينهــا بينك وبــين أولادك، ولا تنسي أن تجعلــي منهم أصدقاء وأحباء يأتونــك بمشاكلهم، ويقاسمونــك أفراحهم وأتراحهم، ويريحــون رؤوسهم على كتفيك نافضين هموم الدنيا بين يديك.

اذكري أنهــم يتعرفون على العالم أول ما يتعرفــون عليــه من خلال معرفتــك وأنهم يتلقون تربيتهم الأولى على يديك، وأنك أنت التي تجعلين منهــم أخياراً يدفعون بوطنهم إلى ما يجــب له من رفعة وسؤدد، ويأخذون بيد إنسانيتهم إلى ما هو أحسن.

اذكري أنك الصائــغ الأول الذي يصوغ نفوسهم ويملأهــا بالخير والحق والجمال. وإنك أنــت المعلم الذي يصــل بين عقولهم

وحقائق هذا الكون وقلوبهم وحب هذا المجتمع وإرادتهم والعمل للمثل الأعلى.

اذكري أنك أنت وحدك القادرة على جعلهم أبطالاً يعيشون للعدالة والحرية والسلام، أو جبناء رعاديد منافقين تزدوج شخصياتهم وتتبعثر جهودهم وتلتوي عقولهم وتمتلئ قلوبهم بالحقد والشر والمهانة.

اذكري هذا وسواه واعملي على أن تنهضي بمهمتك خير نهوض، واعملي أنك ملاقية جزاءك في هذه الدنيا، في أشخاص هؤلاء الأولاد وتصرفاتهم وأخلاقهم ومعاملتهم إياك ومواقفهم من حقائق هذا الكون.

بنيتي:

هذه ملاحظات سقتها إليك عن عالمك وأنوثتك وحياتك المقبلة، لم أبغ من ورائها أن أصب عقلك في قالب عقلي وأن أصوغ عاطفتك وفق عاطفتي، أو أن أجعل أعمالك نسخة من أعمالي، كلا وألف كلا.. ولكني شعرت أن من واجبي أن أضع بين يديك خبرتي ومفاهيمي، وأنا على مثل أيقين بأنك واجدة فيها الصحيح والخاطئ، وأنك آخذة منها ما ترينه صواباً وتاركة منها ما تعتقدينه خطأ. ولقد ربيناك، أمك وأنا، على أن يكون لك رأيك المستقل وأن تكون لك شخصيتك الفردية، وحرصنا على تزويدك بكل ما ينفعك من أجل النظرة الصحيحة والرأي السديد. ولكننا اعتقدنا –وما زلنا– أن هذا لا يعفنا من إسداء النصح وإظهار الرأي ولك بعد هذا أن تحيي حياتك بما يهديك إليه عقلك وما يدلك عليه قلبك وما تدفعك إليه إرادتك ونحن واثقون من عقلك وقلبك وإرادتك.

كلأك الله بعين رعايته وألهمك سداد الرأي وصواب العمل وجزانا عن تعبنا بنجاح يكتبه لك وسعادة يمتعك بها.

ولك قبلات أبيك.

هذا ما كتبت لابنتي، عرضت فيه لأمور اعتقدت أنها تهم جميع فتياتنا، وصرحت بأشياء يخشى قلبي، قلب الأب، أن لا أكون قد أحسنت بالتصريح بها. ونصحت بأمور يتخوف عقلي، عقل الإنسان المقر بعجزه المعترف بقصوره، من ألا يكون قد أفلح في النصح بها.

ولذلك كله رأيت أن أسوقها لأخلص وإياكم إلى أحاديث مماثلة نتحدث بها إلى أولادنا الذي يودعون عالم الطفولة إلى عالم الرجولة أو الأنوثة، فلا يجدون في البيت أو المدرسة من يحدثهم عنها.





الثقافة العربية وموقعها من العولمة
حالة الجابري وغليون

د. طيب تيزيني ❋

-١-

ثمة حالة أخذت تتفشى في أوساط الباحثين والمثقفين والكتاب في مناطق واسعة من العالم، ومن ضمنها البلدان العربية، وهي التناول الواسع والمعمِّق في أحوال معينة، والتناول السريع واليومي الصحفي في أحوال أخرى، لثنائية العولمة والثقافة. فمنذ بواكير النظام العالمي الجديد- وهي ما تزال على مقربة منّا- أثارت تلك الثنائية انتباه أولئك، وراحت توسع حضورها باتجاه

❋ مفكر وباحث وأديب سوري

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

أواسط أخرى من الناس، فهم سياسيون ومعلمون وحزبيون وعسكريون ونساء من انتماءات متعددة وطلاب، إضافة إلى مجموعات من أصحاب المهن الحرة. وبهذا، تتبلور ظاهرة أمامنا تكاد تحيط بمعظم فئات المجتمع العربي، ناهيك عن المجتمعات العالمية الأخرى.

ولعلّ اتساع الاهتمام بالظاهرة المذكورة على النحو المذكور يعود -في طرف منه- إلى أنها ظهرت وبرزت تحت تأثير الحدث الأعظم، نعني نشأة النظام العالمي الجديد على أنقاض العوامل الثلاثة الشهير، تفكك الاتحاد السوفييتي ونتائج حرب الخليج الثانية وثورتي الاتصالات والمواصلات. وكما يلاحظ، فإن ذلك كله كان له وما زال وقع ذو دويّ عالمي عمومي تشترك فيه القارات الكونية كلها .لكنّ على طرف آخر من ذلك الاتساع للظاهرة المعنية، تعود أهمية هذا الاتساع لسبب له خصوصية عربية وبالضبط تحديداً في إطار المثقفين العرب؛ نعني بها انتشار المقولة أو الفرضيَّة أو الأطروحة التالية، وهي إن «الثقافة والجبهة الثقافية» هما صمّام الأمان الأخير في «معركة الوجود» العربية. فمع الإخفاق في المشاريع الاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية، ومع السقوط في الحقل السياسي والآخر التنموي والثالث القضائي والرابع المتعلق بالتعليم العالي إلخ، برزت المقولة المذكورة بوصف كونها الرهان الأخير في أيدي العرب.

هكذا، راحت تطرح نفسها معالم حالة جديدة لدى فئات من ممثلي الفكر العربي؛ نعني الحالة التي تتحدد في سقوط الرهانات إلا واحداً: الثقافة. ومن شأن هذا أن يعني أن الثقافة «العربية» ظلت بمنأى عن السقوط الكبير، الذي تعرض له ويتعرض الواقع العربي. وفي هذه الحال، تظهر مقولة «الحُطام العربي المفتوح»، التي نستخدمها في رؤيتنا المنهجية للواقع العربي الراهن، بمثابتها تعبيراً دقيقاً عن واقع الحال. فحالة الحطام العربي هذه هي، والأمر كذلك، ليست مطلقة، بل نسبية. أمّا هذه «النسبية» فتعبّر عنها، هنا، في كون الحطام المذكور مفتوحاً، غير مغلق. وبصيغة أخرى أقرب إلى الخطاب الثقافي العمومي، يقال بأن الآمال في «التغيير الإيجابي» مازالت قائمة، وتحديداً من موقع الثقافة.

والآن، إذا كان الأمر كذلك، فإن المخاوف من أن تُطبق «العولمة» على الثقافة العربية وتُفككها، لم تعد ذات بال. ولكن، لماذا ذلك؟

هــل الثقافة العربيــة حالــة تتوضع خارج التاريخ وفوقه؟ فهي، مــن ثم، بنية متعالية على الزمان والمكان؛ مما يحتفظ بها بوصفها رهاناً حيّاً وفاعلاً وواعــداً أبداً. وبالطبع، يترتب على ذلك إقــرارٌ ميتافيزيقي، بقدرٍ مــا، بأن خصوصية هــذه الثقافة تكمن في أنها ثابتة وصالحة لكل زمان ومكان. ونحن إن وضعنا ذلــك منمذجاً، وليكن بصيغة ما كتبه محمد عابد الجابري، مثلاً، فإننا نجد أنفسنا أمام مجرى الأفكار الجابرية التالية: «الهوية الثقافية هي حجر الزاوية في تكوين الأمم»[1]. وإن «الهوية العربية هوية مكتملة وثابتــة، ولكن التجــارب والتحديات تجعل من الضروري بين حــين وآخر إعادة ترتيب عناصــر هذه الهوية»[2]. وعلــى هذا، يتابع الرجل، فـ«الثقافــة العربية بوصفها الإطار المرجعي للعقل العربــي، نعتبرها ذات زمن واحد منذ أن تشكلــت إلى اليوم، زمن راكد يعيشــه الإنسان العربي اليــوم مثلما عاشه أجداده في القرون الماضية»[3]. ففي الأفكار الجابريــة السابقة، نضع يدنا على محورين اثنين. أما أولهما فيقوم على أن الثقافة هي الحاسمة في تكويــن الأمة، وعلى أن الهوية الثقافية -من ثم- هي تجسيد تلك الثقافة. ويدخــل في ذلك أن الهوية العربية إذا كانت مكتملــة وثابتة فإن القــول بتغيير ما ينقلها من الركود والعطالة، يغدو أمراً غير محتمل، لأنــه -هكذا- يخرج عــن الاحتمال، الذي تسمح به «الهوية الثقافية العربية».

في ضــوء ذلك كلــه، نتبــين أن المقولة، التي أتينا عليها حــول كون الثقافة العربية «ومن ثــم الهوية العربية» هي صمام الأمان الأخير في الواقع العربي الحطامي للخروج به من المأزق الذي دخلت فيه أو ستدخل فيه تحت قبضة النظام العولمي الجديد، نقول: إن تلــك المقولة، والحال كذلــك، تدلّ على بطلانها؛ لأن الثقافة المذكورة سيُنظر إليها حينئذ وفي أساسها الإبيستيمولوجي العربي خارج السياق التغييري التاريخي، حتى قبل أن ينشــأ ذلك النظام الجديد. وبهذا يجري تجاوز ما يعتــبره فريق من الباحثين العرب «إشكالية مفتوحة» على صعيد العلاقة بين الخصوصيــة الثقافية «العربيــة تحديداً» والعولمة. وعلــى هذا النحــو، كذلك يتعين علينا وضــع رأي الجابري، المأتي عليه، بين قوســين، أي النظر إليــه زائفاً Absuerd بإقصائــه تاريخية المسألة المعنية وتاريخية، النظر المنهجي فيها، إذا عملنا على الخوض بموضوعنا، الذي يعــبّر عنه عنوان البحث، وذلــك بالمضــي في التشكيــك بمصداقيته

التاريخيـة والمعرفيـة؛ نعنـي بمصداقيـة الـرأي المذكـور؛ على الأقل لأنـه يمثل اختراقاً إبيستيمولوجيـاً فظـاً لتاريخ الثقافة عامـةً، ولمفهوم الهوية الثقافيـة خاصة، بـل كذلك، لمـا يتصل بهذيـن الحقلين في تجلِّيهمـا العربيـيّن؛ بل حتى بسبـبٍ مـن أن الثابـت نفسه يمتلـك تاريخيتـه الذاتيـة، وتاريخية النظر فيه وفي الآراء المقدَّمة حوله في التاريخ.



-٢-

إننا، إذاً، نعـود إلى «ثنائية العولمة والثقافة» من حيث هي موضوع يمتلـك من المصداقية المعرفيـة المنهجيـة والتاريخية مـا يسمح بطرحه عل بساط البحث، وذلك على أساس أنه ليسـ مغلقاً، في حـدِّه الأوّلي. ولما كان الأمر قـد أتى ضمن علاقـة مفترضة بين طرفي الثنائيـة المعنية، سلباً أو إيجاباً، فقد غدا متوجِّباً علينـا أن نتناول كلا الطرفين بالفحصـ والتقصـي. وفي هـذا السياق، ربما يكـون السؤال التالي ذا أهمية منهجية مبدئية: لماذا عـادت أسئلة الثقافة، لتحتل مواقع جديدة واسعـة وحادّة، مع الإرهاص بالنظـام العالمـي الجديـد وبالتواقت مع انحسار العقد الأخير مـن القرن المنصرم؟ والملاحـظ أن الإشـارة إلى ذلـك بدأت في أوروبا وأمريكا، قبل أن تبدأ في العالم العربي المعني هنا، بثقافته وبخصوصيته الثقافية؟ وبسؤال آخر أكثر مقاربةً للمسألة: ما الذي عنتّه الأحداث الثلاثـة الكبرى بالنسبة إلى الثقافة والخصوصية الثقافية عربياً وكونياً،

نعنـي تفكك الاتحـاد السوفييتـي، ونتائج حـرب الخليج الثانيـة، وثورتي الاتصالات والمواصـلات «وقـد أتينا علـى ذكرها من قبل»؟

حين أعلـن الرئيس الأب بوش في سياق تلك الأحداث الكبرى وفي عقابيلها:

أنـا زعيـم العـالم، كان بذلك قـد بدأ بتكريس العصـر العولمي الجديـد تكريساً سياسياً. وكانت مقولة قد صاغها ومكلوهان وقذف بها في العـالم، بحيث أصبحت جزءاً من ثقافة هذا الأخـير؛ ناهيك عن تأثيرها «الإنساني الحميمي»، الذي أشاعته في بعض الأوساط الثقافيـة والفنية خصوصاً؛ نعني قولة: «القريـة الكونية الواحدة في شطآنها وتخومها. واعتـبر ذلك لدى أولئك وآخرين تبشـيراً بالعودة إلى حالـة تماهي البشر مع الطبيعـة الأم، أي إلى نمـطٍ من المصالحة بينهم وبينها.

وفي وهج هذا الحلم الموارب، جاء القول بأن النظام الجديد أتى عبر إحداث قطيعة تاريخيـة ومجتمعية مع النظـام الرأسمالي العالمـي، وفي سبيل بشريـة موحدة. وضمن هـذا التوجـه التوحيـدي، يكتـب برهان غليـون معلناً: «عندما نقول إن العولمة تعني خضـوع البشريـة لتاريخية واحـدة، فهذا يعنـي أيضاً أنها تجـري في مكانية ثقافية واجتماعيـة وسياسية موحدة أو في طريقها للتوحيد».(٤)

في ذلـك التوجّـه الـذي عـبّرت عنه المقولتان السابقتان، مقولة «القرية الكونية الواحـدة»، مقولـة «العولمة تعنـي خضوع البشرية لتاريخيـة واحدة تجري في مكانية ثقافيـة واجتماعيـة وسياسيـة موحدة أو في طريقهـا للتوحيـد»، نكـون وجهاً لوجه أمام طرح عولمـي للعولمة يتضح في الصيغة التاليـة: إن العولمـة تمثـل المرحلـة العليا النهائيـة للبشرية، بحيث إن ما يراه البعض مـن أن الظاهرة المذكورة ذات طابع انتقالي فقـط يأتي ما يأتي بعدهـا، ليس إلا راسباً وهمياً من رواسـب ماسبق العولمة. وبكيفية أخـرى، يغدو القول وارداً بأن الثنائية، التي تحدثنا عنها في مفتتح هذا البحث، ستأخذ المنحـى التالي: عن العولمة التي تعني إدخال العـالم في نمط واحد من التاريخية الواحدة وضمن مكانية ثقافية واجتماعية وسياسية موحّـدة أو في طريقهـا للتوحيـد، تقود – ضمن ما تقود إليه- إلى تفكيك العموميات المتعـدّدة وإلى تذويبهـا لصالـح ما اعتبره غليون «تاريخية واحدة»، تصبح بمقتضاها كل الفئـران في الظلام نمطـاً واحداً، على

حدّ اعتبار الفيلسوف هيجل. أما الثقافات، التــي أنتجتهــا شعوب غزيــرة العدد وعلى امتداد قرون تبدأ بالإنسان العاقل Homo Sapien، فإنها تدخل مرحلة مآلها الأخير: إفســاح الطريق أمام «ثقافــة موحّدة أو في طريقها للتوحيد».

❀ ❀ ❀

تلــك هي نتيجــة توصّــل إليهــا كتّاب غربيون وعرب، معتقدين بذلك أنهم أسّسوا لـ«عصر ثقافي جديد». بيد أن الأمر من أجل أن يستكمل معظم أوجلّ أوجهه جدير بنا أن نعــود به إلى حلقتين اثنتــين كبريين تمثلان ركني البحــث، الذي نحــن في سبيله الآن. وكــي نكون في الصورة الفعلية لموقع الثقافة في المحور الأميركي الراهن، ننقل عن كتاب «رقعــة الشطرنج» لبرنجنسكــي الصادر في عمان مايلــي: «لم تقدَّر السيطــرة الثقافية حقّ قدرها كعامل من عوامل النفوذ العالمي الأميركــي. فبغضّ النظر عــن موقف المرء من قيمتها الذوقية فإن الثقافة الجماهيرية الأميركية تمارس جذباً مغناطيسياً خصوصاً على شباب العالم. ويمكن العثور على خريجي الجامعــات الأميركيــة ضمــن التشكيلات الوزارية في جميع دول العالم تقريباً».(٥)

والآن، تطــرح «الثقافــة» نفسهــا مــن حيث هــي، في التعريــف الأوّلي أو في أحد تعريفاتهــا الأولية، «نشاط البشر كله، وناتج هذا النشاط، والأدوات التي تنجزه». وبهذا، نكــون قد أخذنا الثقافة من الباب الشمولي المتصل بالنشــاط الإنساني في شموليته، ولم نقتصــر عليها بوصفها فعــلاً ذهنياً بل إننا -في ذلك- نكــون قد أدرجنــا معناها هذا الأخير في التعريــف الشمولي السابق وعلى هذا، نكــون قد أعطينا إشــارة إلى أن علم الأنتروبولوجيــا «علــم الإناســة» يسهم في ضبــط ذينــك التعريــف والمعنــى، بدرجة حاسمــة. وقد يكون ذلــك ذا أهمية خاصة على صعيد مــا نحن هنا بصدده، نظراً إلى أن موضوع بحثنا يستوجب النظر إلى الثقافة بتلك الرؤيــة الكلية: النشــاط الاجتماعي والسياسي والتعليمي والاقتصادي والقيمي والفني والجمــالي إلخ..، وكذلــك الثقافي بمثابته فاعلية ذهنية ولغوية وعلمية، بمعنى ما وبقدر ما. ومن شأن ذلك أن يضعنا أمام «أنمــاط الثقافية»، التي تتجلــى في أربعة حقول كبرى، هــي: الثقافة المادية، والثقافة الفكريــة. الروحيــة، والثقافــة السياسية، والثقافة العامــة. ونشدّد هنا على الأنماط الثلاثــة الأخيرة، نظــراً لكونها ذات علاقة خاصة بما نحن في سبيله هنا، أي بما يفصح

عــن نفسه بصيــغ الفكر والقيــم والثقافة الإعلامية واليومية المتبادلة في حياة الناس، وفي هــذه الحال، يغدو مــن الأهمية بمكان الإشــارة إلى «المنظومــات الرئيســة»، التي تكوّن الثقافة باعتبار تلك الأنماط الثلاثة. أما هذه المنظومــات فتشتمل على «التفكير وطاقــة التمثُّــل» و«والمعايــير والضوابط» و«التعبير» و«الرؤية والرؤيا» و«السلوك».

وفي ضــوء ذلــك، قد نقــارب «المثقف» عامة في كونه المفكر فاعلاً والفاعل مفكراً؛ وخاصــة، أي ضمن اعتبار مشــروع عربي نهضــوي تنويري، في كونه الذي يجسد هذه الجدلية في أفق هذا المشروع المفتوح. ونحن إذ نبلغ هــذا المنعطف المنهجي، يتعين علينا أن نضبط «الثقافة» في تشخُّصها التاريخي، أي في خصوصيتها. فهي مهما اندرجت في إطــار أو أُطُر الثقافة العالميــة فإن البحث الإناسي فيهــا، خصوصاً، لا يمكنه أن يقف عنــد «عالميتهــا أو عموميتهــا»؛ لأن هذه العالميــة أو العمومية هي هكــذا، بقدر ما تفصح عــن نفسها بوصفهــا ثقافة أمة، أو شعب أو وحدات وفئات وطبقات اجتماعية. وهذا، بدوره، يضع يدنــا على استحالة أن تكون هنالك ثقافة كليّة شمولية تغيب عنها أوضاع وحالات ولحظات واحتمالات وآفاق تحمل وشم واحــد أو آخر من تلك الحقول «أمة وشعب إلخ».

وقد انتبــه إلى هذه الواقعة، التي تبدو بمثابــة بديهية، العــالم الأنتروبولوجي كلود ليفي-ستروســ، فكتــب معلناً مــا يلي: «لا ينبغــي أن ننسى أبــداً أن أيــة شريحة من البشــر لا تملك صيغاً يمكــن تطبيقها على الكل، وأن أية بشرية مذابة في نمط معيشي وحيــد هي بشرية لا يمكــن تصورها، لأنها ستكــون بشرية عظميَّــة»[٦]. ومن شأن هذا أن يعنــي أن كلامــاً على ثقافــة عامة إنما يعنــي كلاماً على ثقافة دون حامل مجتمعي لها، ومن ثــم على وهم. أمــا الاعتقاد بأن القسْر يمكن أن ينتج مثل هذه الثقافة، فإنه يحيــل إلى الاستحالة، لأنه -أي القسر- من شأنه أن يفتح أبواباً وطرائق جديدة لتكريس الخصوصــي والذاتــي في الثقافة بوصفها نمط عيش وتفكير؛ وإلاَّ، فالعنف الجامح أو الصامت سيكون بديلاً.

والآن، إذا طرحنــا العولمــة من الداخل وفي القانونية التــي تحكمها، عبر الأدبيات التي قدمت حولها، لاحظنا من خلال بعض العناويــن المهمــة في الغــرب[٧]، وفي ضوء بعضــ البحوث التــي أنجزناها مع باحثين عــرب، أن العولمة ينبغي وضــع اليد عليها

معرفيــاً وتاريخياً ومنهجيــاً بمثابتهانظاماً System أولاً، وليــس مــن موقــع النتائج الكــبرى والصغــرى علــى صعيــد التقدم المعلوماتــي والاتصالاتــي، التــي حققتها وتحققها. ومن ثم، فنحن لا ننطلق من موقع براجماتي مباشر يتحدد فيما إذا كانت ثورتا الاتصــالات والمواصلات، على سبيل المثال، مفيدتــين للمجتمعــات أم لا. الانطلاق في هذا الأمر يتمثل بسؤال بنيوي تاريخي حول قانون العولمة الأساسي؛ فما هو هذا الأخير؟ لقد حاولنا وضع يدنا في بعض كتاباتنا على القانون المعني بصيغة تعريف النظام العالمي الجديــد- العولمي، الــذي يفصح عن نفسه على النحو التالي: إنــه النظام الاقتصادي والسياســي والعسكــري والسوسيوثقــافي، الذي يسعى إلى ابتلاع الطبيعة والبشر، وإلى هضمهم وتمثلهم وإخراجهم سلماً في السوق السلعية الكونية.

في هذا التعريف المكثف، تبرز الحيثيات التالية:

١ - إن المجال الحيــوي، الذي يتجلى فيه النظام المذكور، يتطابق مع الكون برّمته بل يتماهــى معه في الجوهــر والأعراض. وهذان كلاهمــا، الكون والنظــام، يغدوان وجهــين لحالة واحــدة عبرْ الســوق. وهذا الأخــير حين يصبح ذلك، يكــون قد تجاوز السوق التقليــدي، الاقتصادي الاجتماعي، الــذي تجري فيــه أعمال التبــادل السلعي والمضاربات المالية المصرفية، ليكتسب بعداً كونيــاً يتلبّس الكون وينسحــب عليه برمته وقد ظهرت هوية جديدة، ما كانت موجودة قبل ذلــك وتفصح عن نفسها بنفسها، نعني الهوية السوقية الكونية؛ وذلك في رهان على إسقاط كل مــا عداها من هويــات، إلاّ ما يستجيب لها بالاعتبار الوظيفي، مثل الإثنية والطائفية إلخ.(٨)

٢ - يترافــق ذلــك بجلبــة هائلة من قعقعــة الســلاح وضــخّ الإعــلام العالمي بمنظومــات نظريــة وسياسيــة متعاظمة. فمــن معارك أفغانستان بعــد كوسوفو، إلى العراق، وفلسطــين، وما قد يأتي بعد؛ ومن الثورة الرقمية، إلى التنميط الثقافي وصراع الحضارات، ونهايــة التاريخ والإيديولوجيا، وإدارة أزمــات، إلى «الغــرب والبقيــة»، والحروب الاستباقية، والنمــاذج الأساسية المفتقدة و«الهيمنة الإيجابيــة»، والليبرالية الجديــدة، و«دمقرطــة العــالم»، وثنائيــة الديموقراطية والإرهــاب، والمتعة البصرية المفتوحة، والثورة الإعلامية.. إلخ.

٣ - يتم انتقــال استراتيجي من شعار

العالم الغربي القديم الاستعماري: فرّق، تسدْ؛ إلى شعار العالم العولمي: وحِّد، تسد؛ بالتوافق القائم على النفاق الإيديولوجي بين هذا الشعار وبين وهمْ «القرية الكونية الواحدة»، التي يراد لها أن تكون تجسيداً لمطامح البشرية في «المدينة الفاضلة-الكون الفاضل».(٩)

٤ - يُعبَّد الطريق لتفكيك منظومة المفاهيم والقيم، التي ارتبطت، كما يقال، بـ«العالم القديم»، بعالم «ما قبلَ التاريخ والإيديولوجيات الشمولية»: الوطن؛ والأمة؛ والأسرة وسياداتها والتخوم بين العوالم «الفضاء والأرض»، والقارات، والمحيطات، والبلدان والجهات والبلدان والفئات والأفراد؛ والتضامن بين البشر.

٥ - تفكيك مؤسسات المجتمع العمومي والمجتمع المدني؛ أو إعادة بنائها وظيفياً على نحو يربطها بـ«السوق»، سواء تجلّى محلّياً أو كونياً. وفي سياق ذلك تُسقط الدول الوطنية، رعائية كانت أو غير ذلك، لتحلّ محلها الشركات العملاقة المتحركة مثل كثبان الرمال في العالم.

٦ - نهاية المشاريع التقدمية بالاعتبار التاريخي، مثل النهضة، والثورة، والتحرر والإصلاح الوطني، والإصلاح السياسي؛ وسقوط المنظومات الفكرية المطابقة، مع سقوط حواملها الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والثقافية.

❁ ❁ ❁

في هذا كله وفي سياقه، تتم عملية مركبة ومعقدة تتصل بمسألتي الثقافة والهوية. وهذا يقتضي الإشارة الأولية إلى أنه من أول الاستحقاقات التي يسعى النظام العولمي إلى تحقيقها، العمل على تنميط العالم ثقافياً، أي العمل على تعميم النمط الثقافي العولمي في العالم كله، بكل الطرائق والآليات، التي تدخل في قدراته التي تبدأ بـ«الكوكاكولا والهمبرغر»، لتصل إلى هدير المدافع والطائرات. وضروري أن يشار إلى أن النظام المذكور حين يجد هذه المسألة من أوائل استحقاقاته بل من أوائل ثوابته، فإنه يكون قد انطلق من الجامع «المطلق» لهذه الاستحقاقات والثوابت؛ نعني السوق نفسه، أي «الضّابط السّوقي» لحركة البشر ورهاناتهم وآفاقهم، على حدّ تعبير جورج سوروس، الذي يمكن أن يفهم -كذلك- على أنه «أصولية السوق». ومن شأن هذا أن يجعل من السوق مبتدى الموقف ومنتهاه. فمنه ينطلق البشر، وإليه ينتهون، وهذا يعني أن كل ما أنجزه هؤلاء حتى الآن عليهم أن

يخضعوه للمساءلة في ضوء هذه السوق.

ولمّا كانت الثقافة هي -بالاعتبارات التي أتينا على ذكرها سابقاً- ما نتيجة البشر وما يمنحهم هوياتهم فقد تعيّن على صنّاع القرار العولمي أن يخضعوها لتلك المساءلة بدقة وشمول وجدّية. وهذا يعني أن إدماجها بالسوق الكونية أصبح أمراً قاطعاً وقطعياً، وذلك باعتبارين حاسمين، هما البنيوي والوظيفي وفي سبيل إنجاز ذلك، كانت هنالك الأدوات والآليات اللازمة لذلك، التي تتأسّس على كونها، كذلك، أهدافاً، إلى جانب كونها أدوات وآليات. ولعل اثنتين من هذه تقفان في مقدمة الموقف:

١- تسليع الثقافة، كجزء من عملية تسليع الكون.

٢- استخدام التنميط الثقافي.

ففي الحالة الأولى، تصبح كل مظاهر الإنتاج الثقافي، خصوصاً بالاعتبار الذهني الفكري، والقيمي، والروحي، سلماً أو رموزاً سلعية.

فإذا كان التسليع الثقافي هو حالة من تشيئ الثقافة عامة وخاصة، فإن هذه الأخيرة تغدو شيئاً مثل كل الأشياء. وهنا تفقد نسيجها الثقافي وخصوصيتها الثقافية. وكان اكتشاف ذلك نتيجة حاسمة لدراسة العلاقات الرأسمالية المتقدمة، خصوصاً ما يمثل وريثاً شرعياً لهذه الرأسمالية؛ نعني الرأسمالية الليبرالية المتوحشة الراهنة، ربيبة النظام العولمي القائم. كان كارل ماركس هو الذي قدم صيغة مناسبة لنتائج تلك الدراسة حتى حينهن إذ أعلن المقولة التالية، التي تقارب واقع الحال المعني الراهن بامتياز: «إن انحطاط العالم الإنساني يتناسب طرداً مع ازدياد قيمة عالم الأشياء»[١٠].وبطبيعة الحال، فإنه يترتب على عملية التّسليع- التشيئ المذكورة ظهور مجموعة من الحالات ذات الطابع السيكوثقافي والروحي القيمي، التي تبرز في مقدمتها صيغ متعددة من الاغتراب والتّخارج .Entfremdungu Entaeusserung: أنْ يتحول ما ينتجه البشر إلى أصنام تقف في وجوههم مناوئةً مضادة!

وعلى ذلك، تتم عملية إعادة بنينةٍ للثقافة، فتغدو أشياء للاستهلاك. أما حين ينتقل الحديث إلى مستوى «الهوية»، فإنه يكتسب منعطفاً آخر. فالهوية هي -بالتعريف المنطقي- ذات الشيء، أو ما يجعل من هذا الشيء ما هو عليه[١١]. لكنها لا تمثل ثابتاً في ذاته، بقدر ما تخضع لأربعة سياقات، هي الاجتماعي والتاريخي والتراثي. أما

الرابــع فهو هــذه الثلاثة مجتمعــة، أي هو السياق التضايفــي المركب، ويهمنا أن نضع تلك السياقات في علاقاتهــا مع المستويات التي تتجلى فيها الهوية، وهي:

١- الثقافي «لغة ومنظومات ذهنية عامة ممتدّة من الماضــي إلى الحاضر، ومن هذا إلى ذلــك؛ مع الآمال العامــة والمشتركة بين الناس».

٢- المستــوى السوسيوسياسي «البنيات الاجتماعيــة السياسية المختزنــة والفاعلة ضمناً وإفصاحاً».

٣-المستوى السيكو اجتماعي «الفضاءات النفسيــة وإحداثياتهــا في تمفصلهــا الاجتماعي».

٤- المستــوى الإثني «وهــو بمعنى كونه حصيلــة تلــك المستويات الثلاثــة مجتمعة وقائمة على التكامل والتضايف».

في هــذه الحــال، أي مع اقتحــام آلية التسليع والتشيئ للثقافة، تفقد هذه الأخيرة كيانها وكذلك بالضرورة خصوصيتها. هاهنا تغدو القطط في الظلام شبحاً واحداً، على حدّ قــول هيجل تقريبــاً، وتفتقد الكائنات كلهــا ما يجعل بعضهــا مختلفاً عن بعض. ونصبح أمام « ثقافة» من نمط جديد ينتمي لعالم الأشيــاء في السوق السلعيــة الكونية. والحــدّ الأدنى من عملية إعادة بنينة الكون الجديدة تتمثــل في خربطة خرائط التاريخ والتراث والحاضر والمستقبل. ويتحول البشر إلى نــاســ آليــين؛ يبدعون، لكــن دون روح وتاريــخ وتراث وذاتية ثقافية، أي «يبدعون» على سبيل الحتمية الميكانيكية الآلية.

والآن، حيــث يفصح عــن نفسه الفعل الآخــر، التميــط Tyrosierung، الذي يقود -مــع الفعل الأول المتمثــل بالتسليع- «التشيء»، نجد الدائــرة أُغلقت: لقد غاب الإنسان والعقل والحكمة والتبصّر، وتراجع الكــون لأشبــاح تسعــى لامتــلاك الفضاء مــع الأرضــ، ولإيجاد مشاريــع الألف عام القادمــة، الضروريــة للتأسيــس المظفّر لما يدعــوه الفيلسوف جان ماري بنوا «الحتمية التي تتناغم مع العبودية.. التي هي نوع من الحتمية الأطلسيــة». المؤسسة على «انتهاء الاهتمــام بالبشر..، ليبــدأ الاهتمام بإدارة الأشيــاء». وحيــث يكون الأمر قــد أفضى إلى ذلــك -يضيف الفيلسوف المذكور- فإن أنماط الاستهــلاك والأزيــاء والمخططات الإيديولوجية المرسومة في الولايات المتحدة تنتشر في كل مكان.. والفوارق الثقافية التي تشكل ثروة الإنسانية هي في طريق الزوال، بمقــدار ما سحقهــا دولاب الــزي الواحد الضاغط.[١٢]

وأخيراً، إذا كنا لا نغض النظر عن العولمة في نتائج كبرى أتت بها «خصوصاً منها ثورتي الاتصالات والمواصلات، والإسهام الضمني في فتح ملف إعادة بناء العالم لصالح الحرية والعدل والكرامة والحقوق التي تفرضها تعددية البشر في ثقافاتهم ومفاهيمهم وقيمهم وخياراتهم وغيرها»، فإننا نلحف في التأكيد على العمل من أجل تجاوز العولمة بوصفها نظاماً جديداً يسعى إلى ابتلاع الطبيعة والبشر، وهضمهم وتمثلهم وإخراجهم سلعاً. ومن هنا منطلقين، نضع في اعتبارنا ما كتبه المؤرخ والمفكر الفرنسي Soares من ضرورة التنبّه إلى التعامل مع العولمة على نحو نقدي حذر عبر المشاركة في مصائر العالم المعاصر، دون نسيان أن العولمة «لم تغتصب ثقافات الشعوب فحسب، وإنما اغتصبت كذلك التاريخ. وإن تدمير الذاكرة والتاريخ لهو شيء رهيب بالنسبة للمجتمع».(١٣)

ويبقى بعد ذلك أن نقول: إن موضوعنا المطروح هنا يتوزع -ضمن الخريطة الثقافية العربية الراهنة- بين قطبين اثنين من المثقفين، الذين لهم حضور في تلك الخريطة؛ نعني محمد عابد الجابري أولاً، الذي يُدين «الثقافة العربية بوصفها مرجعية العقل العربي إلى ثقافة ذات زمن واحد منذ أن تشكلت إلى الآن، زمن راكد يعيشه الإنسان العربي اليوم مثلما عاشه أجداده في القرون الماضية»؛ ونعني برهان غليون ثانياً، الذي يقول بأن العولمة تعني خضوع البشرية لتاريخية واحدة.. تجري في مكانية ثقافية واجتماعية وسياسية موحدة أو في طريقها للتوحيد».

في الدعوة الأولى، الجابرية، نقرأ حكم الإدانة التاريخية للثقافة العربية ولخصوصيتها (وهي الركود الدائم منذ الأجداد). وفي هذا تبرز مخالب الاستشراق الاستعماري العنصري، أما في الدعوة الثانية، الغليونية، فنقرأ موقفاً منطلقاً من «نهاية التاريخ» الفوكويامية يقدّم للعالم كي يعرف، أخيراً، «حدوده»، التي هي حدود نظام عولمي ليبرالي جشع ومتوحش ولا يقبل بأقل من «الهيمنة على العالم». وفي هذا، نضع يدنا على استجابة غليون للجابري في قوله الاستشراقي عن الثقافة العربية، ومن ثم في استخلاصه نتيجة حاسمة: طالما أن الأمر العربي هو -في أساسه- حطامٌ بحطام، فلنسارع الخطا باتجاه العولمة؛ ففيها ما فيها من التقدم الحضاري والديموقراطية

ما يحقق للعرب أهدافهم، على الطريقة الأفغانية والباكستانية وأخيراً العراقية.

إنه، إذاً، تيار إيديولوجي جديد قديم، يقدم نفسه بنفسه «منقذاً» للبصرة قبل أن تنتهي! وها هنا بالضبط، يجد المفكرون والباحثون والمثقفون والسياسيون العرب ذوو النمط العضوي من المهمات العلمية الكفاحية ما يغطي عقوداً.

الهوامش

١- محمد عابد الجابري: مسألة الهوية- العروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٥، ص١١.

٢- محمد عابد الجابري: حوار معه- ضمن مجلة (المنابر اللبنانية، عدد ١١ عام ١٩٨٧)- عن مجلة الوحدة- عدد٤٣، أبريل ١٩٨٨، ص١٨٥.

٣- محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٥، ط٢، ص٧٠.

٤- برهان غليون وسمير أمين: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دار الفكر، دمشق ١٩٩٩، ص٢٠.

٥- بريجنسكي: رقعة شطرنج، طبعة عمان ١٩٩٩، ص٤١.

٦- انظر ذلك في: ميشال بوغنون، موردان، أمريكا التوتاليتارية، تعريب خليل أحمد خليل، دار السّاقي بيروت ٢٠٠٢، ص٢٦٢.

٧- انظر، مثلاً: الأبحاث التالية:

١- فخ العولمة، تأليف هانس بيتر مارتين وهارولد شومان المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت ١٩٩٨.

٢- عولمة الثقافة، تأليف جان بيير وارنبي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ٢٠٠٣.

٣- ما بعد الإمبراطورية- دار الساقي، ط٢، بيروت٢٠٠٤.

٨- لا يصح النظر إلى بعض المظاهر السابقة على هذه المرحلة الراهنة «العولمية» على أنها كانت بمثابة طلائع النظام العالمي الجديد- العولمي والتبشير بالتأسيس له، كما يمكن أن يفكر البعض. فالكتاب الذي أصدره (ولز) أستاذ بريجنسكي وهنتنغتون عام ١٩٢٨ بعنوان «المؤامرة المفتوحة»، ركز على ضرورة التبشير بالعودة إلى التراث العسكري والسياسي الروماني لتوظيفه في خدمة توطيد الغرب كقوة عالمية مهيمنة، وأكثر في تطوير الفكر السياسي العربي ضمن هذا الأفق الكوني. وبعده كتب هنتنغتون عام ١٩٥٧ كتابه «الجندي والدولة»، واضعاً يده على الهدف «القادم» وهو إقامة «إمبراطورية رومانية عالمية»، تستجيب للتحولات القادمة المحتملة.

٩- قياساً على ذلك، يمكن تقديم جردة بـ«النهايات»، التي اقترنت بتفكك النظام السوفييتي، وبظهور النظام الأمريكي منتشياً بالانتصار وبـ«المابعديات» المترتبة على ذلك: «نهاية الإيديولوجيا» لـ«بيل»- صدر ١٩٩٠؛ و«نهاية التاريخ» لفوكويلما- صدر ١٩٩٣؛ و«نهاية العالم كما نعرفه» لفالرشتاين- صدر ٢٠٠١، و«نهاية البوتوبيا» لراسل جاكوبي- صدر ٢٠٠١؛ و«نهاية الأمم» لتيري ولتون؛ و«ما بعد الماركسية» لرولاند أرونسون؛ و«ما بعد الحداثة» لكريستوفر بتلر..إلخ.

10-K. Marx: Die Oekonomosch- Philosophischen Manuskrirte in: K. M- Fruehschriften، London 19635.56-.

١١-انظر: الجرجاني- التعريفات، طبعة بيروت ١٩٨٧، ص٢٨.

ويزيد الفارابي في هذا التعريف، حين يدخل فيه مفهوم «الخصوصية»؛ فيقول «هوية الشيء، وعينيّته، وتشخصه، وخصوصيته، ووجوده المنفرد له، كل واحد». (التعليقات- ص٢١).

١٢-ضمن: أمريكا التوتالتيارية، مرجع سابق، ص٢٦١،٢٦٢.

13-Heurs et Malheurs des mondalisations، Le Monde du 162001/11/،(p. 118-).





القيمة المعمارية والحامل الإعلامي
البيت العربي.. قيمة

د. بغداد عبد المنعم ❁

ظَـلَّ الاهتمامُ بـ (المدينـة العربية القديمة) في زوايـا الرؤيا ومنطلقات البحث صدىً وردَّةَ فعلٍ وتقليـداً إما لاهتمام الغرب بـ (مدينتنا) وما يحمل ذلك من طابـع استشراقي ورؤية خارجية بطوابـع استعمارية - استثمارية في معظـم الأحيان. وإمَّـا أنَّ هذه الأبحاث نسخة طبـق الأصل من أبحاث غربية، وكل ذلك أدى إلى أن اهتمامنا بمدينتنا كتكوينات وشخصية معمارية ومجتمعية كان استناداً إلى «نموذج المدينة الغربية» وكان هذا الاستناد عميقاً وأساسياً فلم يكن شكلياً فقط ولا استعراضياً يركبُ موجات الموضة.. فبقيت

❁ باحثة معمارية في التراث العربي (سورية).
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

هذه الدراسات والأبحاث عموماً غير مُعبرة بطبيعية..فظلَّتْ رغم مرور السنين ــ بدءاً من خمسينيات القرن الماضي - غير متواصلة مع المجتمع ولا مع المدينة.. وحين يتم تطبيق موضوع بحث ما تطبيقاً مباشراً على المدينة القديمة لا يبدو طبيعياً، بل كأنه إلصاقٌ أو حجر أُلقي من السماء!

تحويل التكوينات المعمارية إلى قيم:

بالرغم من كون (الاكسيولوجيا axios علم القيم) هي الشكلُ الغربي الأقدم لمفهوم (القيمة) والممهور بالخاتم اليوناني المقدس.. وهو الخاتم المعتمد في إعطاء الشرعية التاريخية والبحثية للنتاج الحضاري الغربي أو ما هو (تحت غربي) في تجاوزٍ متعنت للمرحلة الحضارية العربية اللاحقة التي هضمت النتاج اليوناني وخلقت أطواراً جديدة نوعية وتطورات في علوم كانت معروفة، وأوجدت علومها الخاصة أيضاً بمناهجها وأسمائها، واشتغلت على المفاهيم الفلسفية اشتغالاً تجاوزَ العتبات اليونانية. وحتى هذه الأختام التي بدت لنا كأنها قدراً مقدوراً في الوقت الحاضر هضمتْها الذهنيةُ العربية الناهضة بدءاً من القرن الثالث الهجري وخرجتْ بشيفرات جديدة ورسائل جديدة..

لقد امتلكَ الغربُ عنجهيةً لا حدود لها كسرتْ ضوءَ الحقيقة.. غير أننا امتلكنا - تقريباً ودوماً - ذلكَ التواضعَ النبيلَ بساحاته الإيمانية والفكرية إلى درجة لم تصمد معه البنى التفكيرية العربية العالية التي بُنيت خلال أزمنة طِوال يدخل فيها بنياتٌ باذخة ونوعية تعود إلى ما قبل ظهور الإسلام[1] وتستمر بتنويعات مختلفة حتى إلى ما بعد عتبات زوال الخلافة العباسية أو سقوط غرناطة[2].

إنَّ العمل على مسألة رفع التكوينات المعمارية للمدينة العربية القديمة إلى سوية القيم هي من جملة مهمات استراتيجية فكرية - حضارية نحاول أن نلمسها ومن ثم أن نبلورها مفترضين تجاوز العتبات التي تقف عادة دون ذلك والتي منها (عقدة النقص) تجاه كل ما يعنينا، والتي منها أيضاً (عقدة العظمة المُسَطَّحَة والمُسَطِّحة) لما يعنينا أيضاً وتحويل ما يمكن أن يكون قيماً إلى مجرد شعارات واهية بدون وزن حقيقي! وأن نتجاوز قبل كل شيء مرض الانجرار الاستهلاكي وراء عربات المستشرقين في كمهم التأليفي القديم.. وفي الشكل الحديث منهم المنطلق بشكل شبه كامل وواضح من (الإعلام).

لن تتم هذه التجاوزات بسرعة وبخطاب واحد وببرنامج واحد.. لن تكون هذه العملية إلا مسألة طويلة الأمد وهادئة..

ولكن ماذا يعني تحويل تكوين معماري ما إلى قيمة؟

قد تكون القيم ظاهرة مادية أو معنوية (روحية) تلبي حاجات معينة وتخدم مصالحَ وأهدافاً، فالبشر لا يدركون صفات الأشياء فحسب، بل يقيمونها من زاوية منفعتها أو ضررها بالنسبة لحياتهم.. وتتسم القيم في نهاية المطاف بطابع اجتماعي، وتظهر في مجرى نشاط الناس العملي، ومن العبث التحدث عن القيم حيث لا وجود للإنسان.. فهو الذي يصنعها بتحويلات ومصالح ورؤى وإيديولوجيا، والقيم منها (القيم الطبيعية) وهي الظروف الطبيعية الضرورية لحياة الإنسان كحرارة الشمس والهواء والرطوبة.. وهناك القيم الاجتماعية والسياسية تضم العلاقات المادية والإيديولوجية على حد سواء (الحرية، المساواة، الواجب) وأخلاقية (الخير، النزاهة، الأمانة، الواجب) وجمالية (الحسن، الجمال) وعلمية (الحقيقة).. وفي الوقت نفسه توجد قيم إنسانية عامة مثل القواعد الأخلاقية الأساسية، وأعمال كبار الفنانين والأدباء..

لقد حوَّلَ الغربُ (الموناليزا)(٣) و(الموسيقيون الثلاثة)(٤) و(مسرح شكسبير)(٥) و(بيتهوفن)(٦) ومن قبل (الأليـاذة)(٧) إلى قيم ثقافية ومن ثم إعلامية عالية استمر تكريسها حتى الآن ولم ينظر أيٌ منهم في مسألة تقاعد هذه القيم!! حوَّلوا قيمَهم الفنية إلى قيم عالمية.. حتى أسماء الحارات الباريسية تعرفها شعوبُ الأرض.. ذلك أن التحميل الثقافي والإعلامي لها امتد طويلاً وجدياً، ولم يكن مجرد احتفال أو استعراض سريع أو انعقاد مؤتمر أو ندوة!

يعتبر الإعلام بأطره القوية المؤثرة مُصَدِّراً للقيم.. مُقدماً إياها إلى الإنسان والمجتمع الذي هو صانعها وحاملها وهو بحد ذاته القيمة الأولى في هذه الأرض.

الرفع الإعلامي لقيم المدينة العربية القديمة:

الرفعُ الإعلاميُّ هو ما تحتاجُ إليه تكويناتُ المدينة العربية القديمة بعد أن حملَتْ هويتها الصلبة على نحو نهائي وراسخ.. إنها تحتاجُ إلى الإلحاح والمواظبة والتكرار ذلك الذي تكرسه استراتيجية ثقافية - إعلامية متناغمة..

كُلُّ لمحة من المدينة القديمة خليةٌ من وجهنا، فهي الشيءُ الماديُّ الوحيد المتبقي

منـــا .. وإنهـــا الدليـــلُ الأجملُ على وجودنـــا .. والدليلُ العزيز والعتيق.. تشكَّلَـتْ من صياغة متواتـــرة مترابطـــة مـــن البعد الإيمـــاني إلى البعـــد المجتمعي إلى البعـــد المدينـــي ومـــن ثـــم البعد التكويني في شكل عنصر معمـــاري أو نسيـــج أو جزء من نسيج.. ذلك ما نريدُ أنْ يكتسب أنْ يكون قيمةً.



لا تكـــونُ الثقافـــةُ بـــدون تعبير أو إبلاغ.. إنها تحتاجُ إلى الإعـــلام وأجهزته وذلك ليكونَ انتشارُهـــا في سويـــة سرعـــات الزمـــن الجديـــد الإنتاجيـــة والتأثيريـــة، خاصـــةً حين يغدو المشهد الإعلامي العالمي مشهداً غيرَ عادل وغير متـــوازن بتدفقات إعلامية طاغية من الشمال إلى الجنوب تجدد دورها الاستشراقي القديم ولكن في ظروف عالمية مضطربة ومتوحشة..

ولئن كانـــت القيم المعماريـــة في المدينة العربيـــة القديمة هي في الأصل قيم ثقافية عتيـــدة فإنا نتوقـــع أنها تحتمـــل الوظيفةَ الإعلامية بمراحلها المتمثلة في جمع البيانات والنصوصـ والتعليقات والصور ومعالجتها ووضعها في الإطار الملائم بحيث تحتمل أن تُقـــدم تقديماً عصرياً وعالمياً حيث يجب أن تُهضَم الظروف المحلية والبيئية والدولية..

في التأصيل – على سبيل المثال – لقيمة (البيت العربي) وفي خلال التحميل الإعلامي لذلك نحن حيال ضخ هذه القيمة بجذورها التأسيسيـــة القرآنية واللغوية والنفسية تلك التي أخرجتْ هـــذا البيتَ بوجوده المعماري

والإنشائي وتواصله الطبيعي مع البيئة فهو لا يبدو غريباً لا يمتلك اللغة والنسب، ولا يبدو لقية غرائبية هبطت من السماء..! هو قيمة نبيلة باقية جَثَت السماءُ إليها فأتمَّتْها..

ولأنَّ في الإعلام قدرات كبيرة وسريعة على إيجاد المشاركة وخلق الحوارات والتساؤلات وخلق الحوافز والدوافع فإنَّ طرح أفكار جوهرية أساسية من شأنه أن يرفد القيم المطروحة بدماء إضافية وحياة جديدة..

فالمجتمعات لم يعد بإمكانها أن تحيا حياة عصرية ما لم يهتم إعلامُها اهتماماً عصرياً بالشؤون التي غدت بديهية في الإعلام، وهي الشؤون السياسية والأخبار المحلية والعالمية وأخبار البيئة وتطوراتها ويوميات الطقس واليوميات المالية والاقتصادية كأسعار العملات ومؤشرات الأسهم..

مثلما (الحق في الثقافة) وارد ومعترف به ضمن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فإن (الحق في الإعلام) كذلك.. وفيه تقديم الهوية الثقافية بمضموناتها من القيم الثقافية وتعريف الرأي العام العالمي بها وجلب الاحترام لها.. ولعل مهمة أخرى تسبق هذه المهمات هي مهمة خلق التأثير المحلي وتنظيم الذاكرة الجماعية مجدداً تجاه هذه الهوية وتلك القيم.. وأحسبُ أن ذلك يجب أنْ لا يكون تقليدياً فقط باتباع الأساليب التسجيلية والتوثيقية، أو الدرامية والتي لم تصبح بعد - عربياً وحتى الآن - بالمستوى الناضج والرافع ولا حتى الحقيقي..

لأجهزة الإعلام مهماتٌ شاسعة تبدأ من تقديم روائع الإبداع من الماضي والحاضر.. لكنها قد تذهب أيضاً إلى خلق أنماط ثقافية جديدة أو آليات إعلامية ذات طبيعة خاصة مستفيدة إلى حد كبير من السطوة الإعلامية التي احتلت جسد الثقافة. وربما لنا الخيار في أن نستشف ونكتشف نمطاً أو أنماطاً جديدة تجمعُ الخصوصيات العالية في القيم الحضارية العربية مع تقنيات الإعلام غير العادية في السرعة والتأثير.. من تلك الخصوصيات الأساسية في أي قيمة نريد تصديرها عربياً على مثل هذه الحوامل الجديدة نحتاجُ إلى الضخ اللغوي العربي والبعد القرآني.

البيت العربي.. التطهر والمدينة والشعر والمرأة والمسجد:

هو قيمةٌ بأبعاد كثيفة.. فهذه الكلمة (بيت) بعتقها العتيق كانت محمولةً على جدات اللغة العربية القديمات كالآرامية

والسريانيــة.. وهــي ترد أحيانــاً في أسماء المــدن والبلدات القديمــة وبعضها ما يزال قائماً إلى اليوم خاصة في بلاد الشام..

لقد حَمَلَتْ هذه الكلمةُ بأحرفها الثلاثة معانٍ شاسعة وتأسيسية «البيتُ من الشعر.. وبيــت الرجــل داره، وبيته قصــره.. وقوله عز وجل (في بيــوت أذن الله أن ترفع) أراد المساجد وقد يكون البيت للعنكبوت والضب وغيره من ذوات الجحر.. والبيت من الشعر وهو يقع علــى الصغير والكبــير لأنه يضم الكلام كما يضم البيــتُ أهله ولذلك سموا مقطعاته أسباباً وأوتاداً.. وسمى الله الكعبة شرفهــا الله: البيت الحرام.. وقال نوح حين دعــا ربه (رب اغفــر لي ولوالدي ولمن دخل بيتــي مؤمناً) فسمى سفينته التي ركبها أيام الطوفان بيتــاً. وبيت العرب شرفها والجمع بيــوت ثــم يجمع بيوتــات جمــع الجمع.. والبيت من بيوتات العرب الذي يضم شرف القبيلــة.. وبيت الرجل امرأتــه ويكنى عن المرأة بالبيــت» [8] وإذن عربيــاً: البيتُ هو الانتماء وهو الشرف وهو المرأة وهو المسجد وهــو المدينة.. هــو قيمةٌ بأبعــاد غائرةٍ في القــدم حين غدا البيت هــو المدينة (البيت الحرام - بيت لحــم - بيت المقدس-..) ثم غــدا البيت هو المسجــد.. وقبل ذلك حين تطهرت الأرضُ بالطوفان وأشرقت بنور ربها لم يكن ثمة بيت إلا سفينة الحياة الجديدة.. في ذلك الزمان.

تأسيس (البيت) في القرآن الكريم:

أعطــى القــرآنُ الكريم لــكل الحركة الإنسانية التي تمَّتْ استنــاداً إلى مرجعيته طابعاً وطريقة وروحاً.. ففي خمسة وستين موضعاً في القــرآن بدءاً من ســورة البقرة وحتى سورة الطلاق يبــدأ القرآنُ في بسط المعاني الشمولية التأسيسية للبيت. فـ البيت الأول ببعدٍ معماري هو الذي رفعه إبراهيم عليه الســلام [9] وشكل به مبدأً بيتياً أسرياً وعقليــاً متوازناً ثم إيمانيــاً منتهياً باليقين والحقيقة..

ومثلما كان الماءُ أساساً تفصيلياً وشمولياً في حيــاة الأرضــ.. قــديم في الأرض وفي الحضــارة.. كان البيتُ الأســاس التكويني الأول في الحيــاة الفاعلــة المنتجــة فهــو للإنسان وللحيوان أيضاً.. هو للعنكبوت[10] وهــو للنحــل[11].. وما بين البيــت الواهن للعنكبوت والبيت الصانع للعسل - المعجزة يستنــدُ معنــى (البيــت) إلى النسبيــات الأرضيــة العديدة تلك التــي تعطي الحياةَ كلهــا تنويعاتِها واختلافاتِهــا وتحاوراتِها.. ومن هــذه النسبيات كانــت جدليةُ البيوت

المنحوتة في الصخر[١٢] العاتيةُ المنَعة والحصانة والرفاهية.. الشاهقة الصلبة، لكنها لا تعطي لساكنيها إلا الحصانة والبأس النسبيين.. فلا مفر من النسبية حتى في البناء والعمارة.. تلك النسبية التي قد تنهي أية حالة مهما علت وصَلُبَتْ كالصخر!

والبيت الإنساني في القرآن الكريم يحمل أبعاده المجتمعية والأخلاقية[١٣] فترسمُ الآيات الكريمة العلاقات السلوكية التي تُثَقِّلُ (قيمة البيت) بجوهريات سلوكية ليست سطحية ولا ظاهرية لكنها مرتبطة بالعمق ذلك الذي تحصل عنده درجةُ التقوى. فهي ليست سلوكاً (اتيكيتياً) فقط. فللبيت حصانة.. من هذه الحصانة: الباب الذي هو معبر لمن يريد أن يدخل البيت بوجود أهله ورضاهم.. والسعة الاجتماعية للبيت ويقابلها ويتناغم معها الاستقلالية والخصوصية السكنية، فلا يجوز للإنسان أن يدخل بيتاً ليس بيته. ومثلما ذكرنا سابقاً أن العرب قالت عن المرأة: بيت، فقد حَثَّتْ آياتٌ كريمة على علاقة راقية لنساء النبي ببيوتهن وابتعادهن عن الابتذالات التي كانت تُهْبِطُ من قيمة المرأة الإنسانية.. فأضاف إليهن مهمة ثقافية وعلمية راقية وصلت بهم إلى مرتبة الحكماء وموجهي المجتمع «واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة» وهكذا أُضيفت (قيمة المرأة الحكيمة المثقفة والناشرة للثقافة) إلى قيمة البيت أيضاً..

يقدمُ القرآن الكريم لـ (قيمة البيت) ضخاً قيمياً أخلاقياً واضحاً يزيد في عزة ومكانة هذا التكوين الإنساني المعماري الثقافي.

البيت العربي القديم.. قيمة معمارية أخيراً:

حينَ يمكنُ لتشكيلٍ إبداعي ما أن يتكلم فإنه يمتلك لغتَهُ..مخططَهُ..هندستَهُ بصفتها آلياتٍ أعطتهُ وتعطيه الحياةَ والاستمراريةَ التاريخية وكوَّنَتْهُ (قيمةً).. البيوتُ القديمة الباقية تتشابه في مخططها العام فبدءاً من باب البيت ونحو الداخل هناك الدهليز ولا يلبث أن يفضي بسرعة إلى الفناء الداخلي المنفتح باتساعٍ وطمأنينة على السماء.. ولعل هذا الجزء البيتي الشاسع والكريم هو جوهرُ العمارة البيتية لارتباطه بالرؤيا الإسلامية المعتدلة: المنفتحة والمحتشمة بآن معاً.. وهي في ذلك لا تتناقض مع البيئة بل تقيم معها حواراً حقيقاً أصيلاً.. مع حراراتها.. ومع أمطارها وشمسها وليلها.. والبيوت الحلبية القديمة بُنيت عموماً من الحجر الكلسي

المحلي الذي كان مطاوعاً للعمليات البنائية والزخرفية، ومع ذلك فهو لا يلبث أن يتصلب مــع الزمن ليرسلَ في لونه طيفــاً بعيداً من الحُمرة الشفافة جداً.. أمّا الحجر البازلتي فــكان يدخل أحياناً في تحديد أُطر الأبواب أو في صنع لوحة زخرفية.

شكلت مادةُ البناء الحجرية هذه أكثر من بعد إيجابي في التحاور مع البيئة فهي بدءاً مادة محلية بُنيت منها جدران الغرف بشكل مُضاعف فمنعت هذه السماكةُ تسرب التلوث بأشكالــه إلى داخــل البيت، كمــا احتفظت بدرجة الحرارة الداخلية مانعةً البرد الشديد أو الحر الشديد من العبور نحو الغرف التي لا تنفتــح بأبوابهــا أو نوافذها على الخارج أبداً.. بل على الفضاء البيتي..

في هذا الجزء المنفتح من البيت العربي تقوم بركةُ الماء المركزية مع الأشجار والدوالي والــورود.. وهناك أيضاً خــزان لجمع مياه المطــر (الصهريــج) شتاءً وشربهــا صيفاً.. وكان مــن هذه الصهاريج مــا بُني في القبو الثــاني من البيت حيث تصله مياه المطر من مصرف في الفناء ثم يسلك في مسرب يصل حتى ذلــك الصهريج الــذي يحتفظ بالماء حتى الصيف بارداً. وفي هذه الفسحة نجد الإيوان وهو قاعة بدون جدار رابع منفتحة علــى الفناء معتنى بها مــن حيث الزخرفة الخشبية في جدرانها وسقوفها.. وربما نجد مصطبة الطرب أحياناً..

في البيت العربي القديم تكوينات ثقافية ثابتــة ومستمــرة.. فلم يكن مجــردُ تكوينٍ سكني بأبعــاد سكونية.. بل تخطى ذلك إلى حركيةٍ عميقة هي التي صنعت أبعادَ المدينةِ وتاريخَها..

أمران يكادُ أنْ يكونا مستمرين في البيت العربــي: المــاء والزخرفة، وقــد يتداخلان أحياناً أو يتجــاوران ليصنعا لوحةً نوعية.. ففي حــين يرتفع السقف في القاعة الكبيرة في هذا البيت ارتفاعاً عالياً وإنسانياً بآن معاً ترتفعُ معه أيضاً التغطيةُ الزخرفية الخشبية النباتيــة والهندسيــة.. وينبسطُ الرخام في لوحته الخاصة علــى أرضية القاعة، بينما تتألقُ فسقيةُ الماء الصغيرة داخل القاعة في الجزء المنخفض منها..

الزخرفــة مستمرةٌ داخــل الغرف وفي الواجهــات الخارجيــة المطلــة علــى فناء البيت.. في الداخل تتشكل من الآرابيسك.. وفي الخارج زخارف حجرية تقارب الدانتيلا بدقتها ونعومتها..

بعدٌ مــن أبعاد (قيمة البيــت العربي) طبيعيتُــهُ فهو بيــت مطبوع ينبثــقُ انبثاقاً

حضارياً من الطبيعة ثم يعيدُها إليه.. يُشَكِّلُها على هوى إنسانه وثقافته ومزاجه، وحين أعاد الطبيعةَ إليه ارتأى لعناصره وطوابقه هندسةً وموادَ بناء، وفراغاتٍ شاسعة.. فهو (بيتٌ) يتكون بشكل عام من طابقين وقبو.. وهذا القبو فيه غرف المخازن والمؤونة وأحياناً كان ينزل من هذا القبو إلى قبو ثانٍ (مغارة) هو أشد برودة وله وظيفتُه في حفظ المؤون طويلة الأمد نوعاً ما.. وفي الطابق الثاني نجد غرف النوم وقاعات الاستقبال تنفتح بنوافذ كبيرة على فناء الدار.. وهناك القاعات الصيفية والقاعات الشتوية.. وغرف علوية تسمى المربعات.. ونجد أيضاً التقسيمات العثمانية من حرملك وسلاملك وخدملك لا سيما في البيوت الكبيرة والثرية.

للبيت العربي ميزاتٌ معمارية تسمُ علاقته بالخارج انطلقت من الرؤيا الإسلامية.. فالواجهات الخارجية صماء لا نوافذ فيها ولا أبواب.. باستثناء الباب الخارجي الذي كان متواضعاً غيرَ شاهق وغالباً ما يعلوه عقدٌ وزخرفاتٌ حجرية.. ومن تلك الميزات المعمارية – المجتمعية أيضاً أن البيوت تتجمع في حارات مغلقة لكل منها باب واحد للدخول والخروج معاً فهي لا تسمح بعبث غريب أو تطفل متطفل، وهذه المجموعات البيتية يمكن الانتقال بينها عبر الأسطح أو الأقبية المتصلة أحياناً أو عبر أنفاق قنوات المياه أيضاً!

يُجَسِّدُ البيتُ القديم البعدَ المجتمعي في الرؤيا الإسلامية وتظهرُ تجلياتهُ في التكامل والتكافل واحترام كبار السن واعتبار متطلباتهم شيئاً أكبر بكثير من كونها حقوقاً.. بل أمر مرتبطٌ بالنية والمحبة.. هي جزءٌ من هذا النظام المجتمعي النفسي الذي كان يضم الأجداد والأبناء والأحفاد.

بيتٌ.. أم بيوت؟؟

في كل المدن العربية ما زلنا نشهد بيوتاً قديمة حافلة بأبهة وجودها وجمالها المختلف جداً بالنسبة لوجه هذا الزمن الجديد.. وفي مدينة قديمة ومهمة مثل حلب ثمة عددٌ كبير من البيوت العربية القديمة المحتفظة بتكويناتها وجمالها منها (بيت أجقباش) وهو من القرن الثامن عشر، يقع في حي الجديدة، وقد حول إلى متحف للتقاليد الشعبية، يتميز بنقوشه الدقيقة الرفيعة التي تعلو النوافذ داخل البيت و(بيت غزالة) من القرن السابع عشر يقع في الجديدة وينفرد هذا البيت بين البيوت القديمة الباقية بوجود حمام في القسم الغربي من

الدار وفيه تلك الواجهات التي تسمى الأبلق وسقوفٌ هي مجموعةٌ من اللوحات الزخرفية و(بيت جنبلاط) من القرن السابع عشر يقع في البندرة، وهو نموذج للبيت الحلبي الذي داخلته عناصرُ معماريــة عثمانية.. وهناك العديــد من البيــوت في الجلــوم والبياضة وحي تحت القلعة والفرافرة..

مازالت دمشــق وحلب تحتفظان بأجمل البيوت في الشرق كلــه.. ولعل مهمة متابعة البحــث في المــدن الأخــرى تفاجئنا بيوت جديدة قد تحمــلُ نكهة البحــر (اللاذقية وطرطوس مثــلاً) أو نكهة الصحراء (الرقة – دير الزور..) أو خصوصية النهر ولطافته (حمص وحماة).. قد نوســع بذلك الإطار القديم الذي سجلناه وقرأناه في البيت العربي فربمــا أضفنا إلى قيمة هــذا البيت أبعاداً جديدة لم يتم جمعها وتأطيرها وتحليلها بعد! وخلقنا لها مجادلات إعلامية مناسبة تُوَسِّعُ زاوية النظــر إلى (المدينة العربية القديمة) التي اقتصرت حتى الآن على نماذج محدودة جداً وإن كانت إبداعية.

أخــيراً

تلــك كانت قيمةٌ من قيم المدينة العربية القديمة، بُعدُها المعماري الباقي يستطيعُ أن يقودنــا في ضوء الإعلام وربما في تجريبيته إلى أبعــاد رائعة قد تبدو بــلا نهاية.. وقد تستطيــع المواجهــة في عمليــات التصفية التي تلقاها قيــم العالم القديمة ومدن العالم القديمة حتى لا ليغــدو العالمُ مدينةً واحدة بأبنية مكعبية شاهقة ودروب كالسياط ومياهٌ مُعَبَّأة محايدة.

الهوامش والمصادر والمراجع

١- **الارتقــاء غــير العادي الذي رَسَتْ إليه (اللغة العربيــة) في تاريخها ما قبل ظهور الإسلام يدل على حضــور قــديم لبنى ثقافية راقيــة لم تسرْ مناهجُ البحث العربي باتجــاه تحليلها واستنتاج حضور مصطلحاتهــا وأدبياتهــا في لغة العرب الباذخــة والنبيلة حتى حملها آخر كتــاب مقدس (القرآن الكريم).. فاللغةُ لا ترتفعُ (وحدها) فإن آلياتها التعبيرية لا تتطور إلا من عمق المتح الفكري بها واستدامتــه أزمانــاً طِوالاً.. تلك هي اللغة العربية وتلك الأزمــان الطِوال هي أزمان ما قبل ظهور الإســلام في الجزيــرة العربية.. وتلك البنيــات الفكرية التي كانت قائمة حملهــا (الشعر) بصفته الحامــل العالي وربما الوحيــد.. تشكلت فيه وعبره (الثقافة العربيــة القديمة) فكأنه هي تماماً..**

كان حاملاً إعلامياً لها فأخذته إلى حدود الإعجاز والبذخ.. وإنَّ الاستقراء غير العادي لهذا الإرث الشعـري واللغـوي يسمحُ ببدء تشكيل محاور أساسية من تلـك الثقافة العربية التي سبقت ظهور الإسلام.

٢- بعـد أكـثر من مئتي سنة مـن زوال الخلافة العباسية / سقوط بغـداد بالهجمة المغولية الهولاكية ١٢٥٨ – ٦٥٦ هـ / سقطـت غرناطـة / ١٤٩٢ م – ٨٩٨ هـ / تاركةً حمولتهـا الثقافية الطويلة فوق الأراضي الأوروبية!

٣- الموناليـزا (الجوكونـدا) أشهـر لوحات ليونـاردو دا فينتشـي (١٤٥٢ – ١٥١٩ م) متحـف اللوفر – باريس.

٤- الموسيقيون الثلاثة / ١٩٢١ م/ لوحة مشهورة لبيكاسو / متحف الفن الحديث – نيويورك.

٥- مسرح شكسبير / ١٥٦٤ – ١٦١٦ م/ الذي صعد تاريخياً من بدايات النهضة الأوروبية (بعيد سقوط غرناطـة) وتحـول اسمه ومسرحياتـه إلى أيقونات مقدسـة في كل العالم.. واستمـر ذلك حتى هذه اللحظات الأولى من الألفية الميلادية الثالثة!

٦- بيتهوفن (لودفيغ فان) /١٧٧٠ – ١٨٢٧م/ من كبار الموسيقيين الألمان.. اشتُهر بسيمفونياته التسع ونشيد الفرح.

٧- إلياذة هوميروس **Iliade** ملحمة يونانية.. وهي من أيقونات الغرب المشهورة جداً تتألف من أربعة وعشرين نشيداً تروي أخبار حرب طروادة بين الإغريق والطرواديين.

٨- لسان العرب. ابن منظور المصري، دار المعارف – ج.م.ع (بيت).

٩- سورة البقرة، الآية (١٢٧).

١٠-سورة العنكبوت، الآية (٣١).

١١-سورة النحل، الآية (٦٨).

١٢-سورة الأعراف، الآية (٧٤) وسورة الحجر، الآية (٨٢) وسورة الشعراء، الآية (١٤٩).

١٣-سـورة البقـرة، الآية (١٨٩) وسورة النـور (٦١) و(٢٧) و(٢٩) وسورة النحل (٨٠) وسورة الأحزاب (٣٣) و(٣٤).





التثاقف عبر التباين الحضاري

د. خير الدين عبد الرحمن ❁

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّـا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَـرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُـمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات-١٣)

عندمـا قرن الله عز وجل تنوع البشر الذين خلقهم بتعارفهم، في علاقة جدليـة سببية دائمة، فمن الواضـح أن التعارف الذي هـو تفاعل معرفي، أو تثاقـف، يتجاوز ابتداع بشـر أو رغبته. بكلمة أخرى، هـذا التعارف، أو

❁ باحث وناقد سوري

- العمل الفني: الفنان مطيع علي

التثاقف، هو جزء من جوهر الخلق. وبالتالي لم يبتدع الأمريكي ميلفن سكوفيتس مصطلح التثاقف، أي التزاوج الثقافي بين المجتمعات والأمم، كما تباهى معظم المهتمين الغربيين الذين اعتادوا اعتبار الغرب مركزاً للكون، يبدأ منه وبه كل إبداع وتطور.

مع ذلك، فما هو أهم من الجدل بشأن أصل ابتكار المصطلح هو ما وراء الغواية الغربية الشديدة لهذا المصطلح المبشر بحالة تفاعل ثقافي حر ونشط على امتداد المجتمعات البشرية والمجموعات الحضارية. فما إن اشتدت جائحة الأمركة التي اتخذت العولمة ستاراً لمشروع إمبراطوري طاغوتي للهيمنة الشاملة على العالم حتى اشتم كثيرون رائحة الخداع والتضليل في الاستخدام الأمريكي لمصطلح التثاقف قناع غواية يغطي حقائق الواقع العالمي الراهن، أكثر مما يعبر عن تفاعل قائم أو طموح قابل للتطبيق. أدى وضع هذا المصطلح على محك التجربة العملية إلى سقوط ما أوحى به من تعبير افتراضي عن تفاعل إيجابي متوازن نسبياً، يتم تحت شروط إنسانية حرة عادلة بناءة، ينتفي فيها القسر والقمع والإقصاء والإلغاء والاستئصال والاستعباد والإلحاق القسري والاستغلال.

نشير هنا إلى أن فينا من رأى أن مصطلح «مثقف» نفسه حديث التداول والدخول على القاموس العربي السياسي والاجتماعي. وذهب بعض الباحثين العرب إلى اعتبار أن ثمة أزمة حقيقية تكمن في العجز عن تبيئة هذا المصطلح في الميراث والذهن العربي، إذ لا يزال خارج التداول المفاهيمي العربي، وإن كان تاخمه، حسب رأي المفكر المغربي محمد عابد الجابري.

وذكر الصديق ناجي علوش، أن المثقف يعرف في الغرب باعتباره واحداً من «الإنتلجنسيا» الفاعلة حسب سياقها التاريخي هناك، ومن ثم استعرض أزمة مفهوم المثقف في المجال العربي، فرأى أن هذا التعريف يضعنا أمام إشكال، لأن الإنتلجنسيا لم تتكون في وطننا كما تكونت في روسيا أو أوروبا. فلم نعش عصر تنوير، ولا عصر ثورة علمية، ولا ثورة تحررية على الإقطاع والكنيسة. كل ما عرفنا، منذ الحملة الفرنسية سنة ١٧٨٩، وحتى الآن، مجرد اتجاه اصطلاحي توفيقي، استند إلى التراث حيناً، وإلى الثقافة الأوروبية حيناً، وإلى الاثنين معاً في بعض الأحيان، مما انعكس ضعيفاً مهزوزاً ثقافياً.

لقد اعتبر العرب في الماضي أن المثقف

هــو الذي يأخــذ من كل علــم بطرف، ولا يشترطــون الاختصاص، فلــو كان الإنسان أعلــم أهل زمانــه في الهندسة والرياضيات والجبر، فإنهم يأخذون عليه مثلاً عدم إلمامه بالطــب والفلسفة والفلك والأدب والحديث والشعر، ويسقطونه من عداد المثقفين، لأنهم كانوا ينظرون إلى العلوم باعتبارها متداخلة، وإتقان علم مايتطلب الإلمام بآخر.

أما في بريطانيا فاستخدمت كلمة مثقف للمرة الأولى عــام ١٦٥٢ كما تشير المعاجم للدلالة علــى الشخص الذي يمتلك قدرات ذهنية فائقة فهو الذي يمتلك قدرات ذهنية كبــيرة، ويستعملهــا. وحيــث إن الاستعمال يمكــن أن يكون سلبياً، كما هو شأن روديارد كيبلينــج الذي تحولت قصائــده إلى مرجع للمستعمرين في معاملة سكان المستعمرات، فإن بريطانيا والولايات المتحدة التي حملت إرثهــا الثقافي بعــد ذلك، لم تكونــا تقيمان كبير اعتبــار للمثقفين. فوضــع شاعر مثل عزرا باونــد في مصحة للأمراض العصبية والعقليــة في الولايات المتحــدة لمدة لا تزيد على ١٩ سنة، لمجرد أنه عارض الحكومة في موقفها من الحــرب العالمية الثانية وهاجم الهيمنــة الصهيونية علــى أمريكا. وعندما عارض المثقفــون الحرب التي يقودها بوش ضد ما يسميــه الإرهاب وصــم آرثر ميلر ومثقفين آخريــن بدعم الإرهاب، ولا ننسى قمع كثيرين مثل رجاء غــارودي وفيريسون في فرنسا والمؤرخ البريطاني ايرفلنغ وسواهم في بريطانيا وألمانيا وسويسرا والنمسا وكندا وأستراليا.

«للثقافــة وظائف أساسيــة لعل أبرزها المحافظــة على مــا تقوم عليــه الحياة في المجتمع مــن عقيدة موحيــة وقيم صالحة ونظــام أخلاقي فعــال، وتطويــر الأفكار والخصائص والممارســة السلوكية وأساليب العيش والتعامل، والتعبير عن رغبة الإنسان في تغيير العــالم والارتقاء بــه، وفتح الآفاق أمامــه كــي يتلاقى مع الآخــر ويتعامل مع ثقافته وفكره. ونحسب أن هذه الوظائف، كما غيرها، تتجانــس مع بعضها بعضاً وتتكامل داخــل المجتمع الواحد، مــن دون أن تسبق إحداهــا الأخرى أو تكــون سبباً في التقليل مــن شأنها. وعلــى رغم وضــوح وظائفها، خضعت الثقافة لاعتبــارات «أيديولوجية» وفلسفيــة. ففي الغــرب يعرفونها على أنها تــراث «الإنسانيات الإغريقيــة اللاتينية»، بمعنى أنها ذات علاقة وظيفية بالإنسان، أي أنهــا فلسفة الإنسان. فيما حدد لها المفهوم الاشتراكي علاقة وظيفية بالجماعة لتصبح

فلسفة المجتمع. أما المفهوم الإسلامي فأخذ بعداً وسطياً بجعله الثقافة والفكر الصالح ثمرة تجانس الفرد والمجتمع معاً .إن ثقافة أي أمة هي تعبير دقيق عن خصوصيتها، وركيزة مهمة لتطورها .. فهناك الذين قبلوا التعامل مع ثقافة الغير بحرية ومن دون ضوابط يعتقدون بأن كل ما فيها مفيد ومقبول، ولا حرج في الأخذ به كما هو. وهذا أقرب ما يكون إلى الانبهار والتحيز، منه إلى العقلانية والتبصر، تماماً كما نستهجن الرفض التلقائي أو المطلق لثقافة الغير من دون نقاش، إذ يعبر هذا عن نزوع إلى العزلة والتقوقع والانفصال عن العصر. فلنتعامل مع ثقافة الآخرين بانفتاح، متسلحين بثقة كافية بالذات والجدارة بالمساواة والندية، لنمضي في إعادة تقويم أحوالنا وأوضاعنا وأساليب عملنا وبرامجنا البحث بشفافية وصدق عن أسباب الخلل والقصور لدينا، في نفس الوقت الذي نحذر فيه من الأهداف والخطط الخفية لقوى



ودول وشبكات ورموز تنطلق في تعاملها معنا من عداء مستحكم وحقد دفين وأطماع تتجاوز الوازع الأخلاقي مستثمرة واقع ونتائج ثورة الاتصالات والمعلومات لاكتساح ثقافات الأمم وقيمها وآمالها وحقوقها. مما يفرض علينا حماية وتطوير ثقافتنا العربية والإسلامية والمواءمة المبدعة بين تعزيز القيم والمبادئ التي تحملها منظومتنا الثقافية في التفكير والسلوك من ناحية، والانفتاح

على ثقافــات الأمم الأخرى وتجاربها. كما يفرضــ علينا تصويــب أوضاعنا السياسية والاقتصادية والسلوكيــة وتطويرها كهدف دائــم لحركة منظومتنــا الثقافية، واضعين في اعتبارنــا أن الثقافــة تفقــد حضورها عن مســيرة الحاضر حين تفتقــد البواعث والحوافز.

تتقاسم الثقافــات أحسن ما لديها منذ القدم، على ما يذكر نصير للتغريب وللعولمة هو المنصف المرزوقي، متفائلاً بأننا أصبحنا اليوم «نغــرف من كل الثقافــات كأصحاب الحق لا كلصوص أو متسولين. لكن أهم ما في العملية تبعاتها الهائلة على صعيد تشكيل هويتنا أو على وجه التحديد القفزة النوعية التي تحدثها داخلها. إن التفاعل الإيجابي.. ليســ موقفاً انتهازياً ينطلق من السطو على أحسن ما في كل ثقافة لترصيع جيد ثقافتنا وإثرائها حتــى تكتسب تفوقاً على الثقافات الأخــرى، بخاصــة المتقوقعــة علــى ذاتها من فــرط عقدة النقصــ أو عقدة التفوق. إنه تحوّل جــذري في العلاقة مع الثقافات الأخرى وقــد أصبحت فجأة الكنز المشترك الذي يحق لنــا جميعاً التمتع بــه نحن إذاً أمام موقــف يقطع مع الموقف القديم الذي كان يصنف الثقافات إلى ثقافتي وثقافاتهم. أضيف إلى حقي القديم في التمتع بالثقافة العربيــة الإسلاميــة بحكم مــكان ولادتي وتاريخي وشعــوري بالانتماء العربي المسلم، حق التمتع بــكل الثقافات. أصبح من حقي القــول: ليَّ الحق في الغرف من كل ثقافاتنا، لأنني صاحب ثقافة في مستوى وصاحب كل الثقافات وجزء منها».. (المنصف المرزوقي، مقابلة، الحياة، ٥/٢/٢٠٠٧).

أعطــى إعــلان مكسيكو سنــة ١٩٨٢ صياغة توافقية عالمية لمفهوم الثقافة، فقال: «الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكــير في ذاته، وهي التي تجعل منه كائناً يتميز بالإنسانية المتمثلة، والقدرة على النقد والالتــزام الأخلاقي. وعن طريــق الثقافة نهتدي على القيــم ونمارس الاختيار، وهي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه والتعرف على ذاته والبحث دون ملل عن مدلولات جديدة وحالات إبداع». ولكن أين النزعة الإنسانية وإيجابياتهــا في «ثقافــة» محــور تطبيقها العملي إلغاء ثقافة الآخر، على نحو ما دعا إليه الصهيوني إليوت كوهين، مساعد وزيرة الخارجية الأمريكيــة، إذ شدد على ضرورة تحويــل دفة الحرب علــى الإرهاب بوضوح ومباشرة إلى حرب ضد الحضارة الإسلامية باعتبارهــا حضارة توسعيــة عنيفة لاتتسم

بالتسامح وتعادي القيم الغربية، وكرر القول بأن الإسلام ذاته هو العدو الأوحد للولايات المتحدة، وأن العداوة التاريخية مصدرها الانتماء العقيدي ولا شيء آخر!

لا يقتصر الأمر على فرد أو أفراد مثل إليوت كوهين. هناك تيارات وشبكات ومنظمات تحركها مصالح وعقائد وخرافات تلمودية متراكمة، وتجند لخدمتها مفكرين وعلماء وخبراء ومؤسسات ومراكز أبحاث وآلة إعلامية هائلة الفعالية وواسعة الانتشار. توقف بيتر والدمان في صحيفة وول ستريت مثلاً عند التخريب الذي يمارسه برنارد لويس بثبات ودأب في عرضه أمراض العالم الإسلامي «ودعواته إلى اجتياح يلقي بذور الديموقراطية في الشرق الأوسط». إن برنارد لويس هو المرجع الأول للمحافظين الجدد في فهمهم الإسلام الذي اعتبروه العدو الجديد لأميركا وسرعان ما أصبح برنارد لويس مديراً لمدرسة الكراهية للإسلام في الولايات المتحدة الأميريكية وتوابعها. أكد أمير الظلام رتشارد بيرل هذا بقوله: «كان ذهابنا إلى برنارد لويس شبيهاً بذهاب الإغريق إلى معبد ديليف لاستشارتها». كذلك استشارة أركان الإدارة الأمريكية الحالية الذين تساقطوا واحداً في أثر الآخر ، وخاصة بول وولفوفيتز وأليوت أبرامز وفرانك غافني، في شؤون الإسلام وأبنائه. قال بول وولفوفيتز، المخطط الرئيس لغزو واحتلال العراق، في حفلة أقيمت في تل أبيب عام ٢٠٠٢: «لقد علمنا برنارد لويس، كيف نفهم التاريخ المعقد والمهم للشرق الأوسط، وكيف نستعمله -يعني التاريخ- ليوجهنا إلى المرحلة المقبلة من أجل بناء أفضل للأجيال المقبلة». لم يكن مثل هذا العداء عابراً ولاطارئاً، وإنما هو حصيلة تعبئة تراكمت تأثيراتها على مدى مئات السنين.

لخص المفكر المصري الدكتور أنور عبد الملك هذه الحقيقة في مقالته الموسومة (جدلية التاريخ ونظرة للمستقبل) ، إذ كتب قائلاً: «قامت دول أوروبا الرأسمالية بعمليات عسكرية لإخضاع العالم إلى إمرتها بعد إنهاك الأمة الإسلامية ونهاية الأندلس (١٤٩٢): أمريكا الوسطى والجنوبية أولاً، ثم استنزاف الطاقة البشرية لإفريقيا السوداء (بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر) وأخيراً آسيا العملاقة، من القرن السادس عشر (الجنوب) إلى القرن التاسع عشر (جنوب شرق آسيا ثم شرق آسيا حول الصين وأخيراً اليابان عام ١٨٥٨). وبينما قامت

هذه العمليات الكبرى للاختراق والسيطرة الغربية وإقامة نظام عالمي أوروبي المركز، واجهت أوروبا ظاهرة غير مرتقبة، ذلك أن مجموعة الشعوب والمجتمعات الإسلامية ظلت غير راضية بالسيطرة الأوروبية» (العربي، الكويت، العدد٥١٩، شباط٢٠٠٢).

يظن البعض أن النزعة العنصرية التي كانت رفيقة الإمبريالية الأوروبية طوال بضعة قرون قد انحسرت بانحسار الظل الأوروبي عن المستعمرات والمحميات فأصبحت شيئاً من الماضي ومن التاريخ. لكن الأكاديمي البريطاني مارتن جاك قد نبه، ومعه سواه من مكتشفي الحقيقة الذين يتكاثرون، إلى خطأ هذه النظرة، فالعنصرية لا تزال على قيد الحياة تجدد نفسها بأشكال مختلفة بقوة، بل إنها مستقرة في نفس كل فرد أبيض في بريطانيا. تجاوز العداء والحقد المتراكم ما يتكرر الاستشهاد به على هذا الصعيد من امتهان عنصري طبع ما كتبه مستشرقون من طراز طومسون ورينان وروزنتال وباتاي عن العقل العربي. نشير مثلاً إلى ما كتبه الصحفي السويدي ايريك هو ستاديوس في صحيفة «سيلتتز» السويدية عن حمام القتل في العراق، إذ قال: «لو أن مئة ألف عربي قتلوا لما انتابني أي شعور غير عادي، أما بالنسبة لقوات الحلفاء الغربيين فالأمر مختلف، لأنني أشعر بالتعاطف معهم ومع أسرهم. إن العرب يبعثون الخوف في نفسي على كل حال».. (د.علي الطراح، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠٠٦/٢/٨، ص١٨).

إن صورة العربي والمسلم في الثقافة الغربية ليست جميلة على الإطلاق، وبإمكان أي عربي أن يفتح أي كتاب أو موسوعة استشرافية كي يتأكد من أن صورته مقترنة بالمكر والكذب والنفاق والغدر. هذه الصورة هي التي تحرك السياسات والمواقف الغربية تجاه العرب. كتب البريطاني نيل كلارك في صحيفة الغارديان قائلاً: «لقد أصبح الخوف من العرب وكراهيتهم جزءاً من الثقافة الغربية منذ الحملات الصليبية.. ولعب العربي لقرون عديدة دور الوغد الذي يقوم بإغراء نسائنا ودور المخادع واللص والبربري الذي يتخبط على أبواب الحضارة». وظهرت صور جديدة له في القرن العشرين منها: الإرهابي المتعصب.

اشتدت الحملة وقحة على العرب والإسلام والمسلمين في العقود الأخيرة واتسعت، ملوثة أجواء الحوار المأمول بإصرار جارف على استخدام متقابلات من مصطلحات وأوصاف وأحكام ترفع من شأن

المسلمين، وتحط من آدمية العرب والمسلمين. لقد شاع تعريف ظالم في كثير من الكتابات الغربية المعاصرة يتضمن خمس صفات للعربي تبدأ بحرف (B في اللغة الإنجليزية)، تعريف زعم أن العربي بدوي، ثري، إرهابي، مساوم، مولع بالجنس.. (Bedouin- Billionaire- Bomber- Bazaar- Belly dancer). وقد عرض إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» أمثلة عديدة، لترسيخ الأفلام والتلفزيون في الغرب صورة تربط العربي بالفسق والغدر والخديعة المتعطشة للدم، وتظهره منحلاً، ذا طاقة جنسية مفرطة، قادراً، من دون شك على المكيدة البارعة المراوغة لكنه، جوهرياً، سادي خؤون منحط، تاجر رقيق، راكب جمال، صراف، متعدد الظلال، وسلط إدوارد سعيد الضوء على محاولات علماء اجتماع غربيون يفترض بعدهم عن غايات الاستشراق، أن يبرهنوا على صحة الفرضيات الاستشراقية.

فيظهرون اللغة العربية لغة تهديد وعنف، زاعمين أن نصف مفرداتها ذات علاقة بالعنف، وأن العقل العربي كما ينعكس في اللغة هو عقل تبجحي من دون انقطاع وعقل عنف. والنتيجة هي ترسيخ الزعم بأن العرب أساساً قتلة وأن العنف والخديعة محمولان في الموروثات العربية. ومادمنا قد أشرنا إلى إدوارد سعيد، فلنتمعن في خلاصة تجربة محاولته الطويلة المضنية للتحاور على مدى عقود عاشها في الولايات المتحدة الأمريكية ولمع خلالها مفكراً وأستاذاً جامعياً وكاتباً قال الرجل في أواخر أيام حياته: «حياة الفلسطيني العربي في الغرب، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، تبعث اليأس في النفس، وحين يتسامح فيعترف به، فبوصفه إما أمراً مزعجاً، أو شرقياً». ننتقل إلى مثال آخر لواحد من أبرز مفكري شمال أفريقيا العرب المندمجين في الغرب، إذ عاش في فرنسا وحمل جنسيتها وكتب بلغتها وروج طويلاً للاندماج في مجتمعها وثقافتها، ذلك هو محمد أركون الذي كتب بحسرة مؤخراً عن مآل تجربته الطويلة: «على الرغم من أني أحد الباحثين المسلمين المعتنقين للمنهج العلمي، إلا أنهم يستمرون في النظر إليّ بوصفي مسلماً تقليدياً، فالمسلم، في نظرهم، أي مسلم، شخص مرمي في دائرة جهاده المقدس وقمعه للمرأة وجهله بحقوق الإنسان وقيم الديمقراطية ومعارضته الأزلية والجوهرية للعلمنة.. هذا هو المسلم، في رأيهم، ولا يمكنه أن يكون إلا هكذا»..

وهكذا يلح علينا السؤال: «كيف يكون

الحوار مجدياً مع أمثال هؤلاء؟»، مع إدراكنا أن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة في عقيدتنا ليس مجرد خيار وإنما التزام بأمر إلهي واضح. لقد ظل الحوار سلوكاً عربياً/ إسلامياً في التعامل الداخلي والخارجي، ناهيك عن التعامل الفردي مع الذات، والتعامل اليومي مع الخالق عز وجل الذي يخاطب الناس عبر القرآن، ويخاطبوه مباشرة بلا وسيط عبر الصلوات والأذكار والأدعية اليومية. قال الخليفة عمر بن عبد العزيز في هذا الصدد: المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة، لا يضل معهما رأي، ولا يفقد معهما حزم. ونعود إلى السؤال عن الحوار مع المتحجرين في قوقعة من الآراء والمواقف القاطعة المسبقة الناضجة حقداً على العرب والمسلمين وازدراء لهم. قد نتجاوز مثلاً الشتائم الناضحة حقداً على العرب والإسلام التي زخرت بها كتابات جهلة ومغرضين، كالإيطالية الفاجرة أوريانا فالاتشي، وخاصة في كتابيها الأخيرين (الغضب والكبرياء) و(قوة العقل)، ولكن هل نتجاوز نماذج مثل مقالة بذيئة لروبرت كيلروي سيلك مثلاً، عضو مجلس العموم السابق عن حزب العمال وصاحب البرنامج التلفزيوني ذي الشعبية الواسعة، والذي يزعم نفسه خبيراً في الشؤون العربية، بينما هو يعتبر أن الإيرانيين عرب(!).. عنوان هذه المقالة التي نشرتها صحيفة Sunday Express اللندنية في مطلع العام ٢٠٠٥ هو «العالم لا يدين بشيء للعرب»! لم يكتف كاتبها بتجريد العرب من أي إسهام إيجابي مهما كان طفيفاً في الحضارة الإنسانية، بل جردهم من الجدارة بالحياة ومن الحق في الوجود! كيف ندير حواراً هادفاً متوازناً مع أمثال الدبلوماسي الأمريكي السابق بيتر غالبرت الذي قال في كتابه «نهاية العراق» إن «بوش كان يحاول بناء أمة لم توجد في الحقيقة، لأن السنة والشيعة والأكراد لم يتبنوا أبداً هوية عراقية موحدة». من هذه المقولة التي يجهل صاحبها، أو يتجاهل بخبث، تاريخ العراق وأهله في إطار تاريخ أمتنا العربية- الإسلامية أخذ محرر الشؤون الخارجية في صحيفة نيويورك تايمز، ديفيد سانجر، عنوان تقريره الذي نشرته صحيفته يوم ٢٠٠٧/٩/٦ بالتزامن مع عدة صحف أخرى متعاقدة معها -أو ملزمة بنشر سمومها- (انظر مثلاً: الاتحاد، أبو ظبي، نفس التاريخ) عن زيارة الرئيس بوش لمحافظة الأنبار العراقية لبضع ساعات: «بوش في الأنبار.. بناء أمة لم تكن موجودة»! هكذا

ببساطة، يلغي انتماؤنـــا وتاريخنا ووجودنا بغطرسة جهلـــة وقتلة حاقدين لا تاريخ لهم ينصبون أنفسهم سادة لنا و«محررين» يبنوننا أمة من العدم! إن أكثر الأفكار والاختراعات والابتكارات والتقانـــات الحديثة والدروس المستخلصة مـــن مختلف التجارب الإنسانية جديـــرة بالاحترام والتقديـــر عندما يحسن استخدامها. وحسن الاستخدام هذا مشرط بالتفاعـــل المبدع مع منجزاتهـــا، لا التعامل معها باعتبارها بضائع نستورد منها ما يسمح الآخر لنا بـــه، ونستهلكها- أو تستهلكنا، بل وتستبعدنـــا- دون أن نملك مقومات التحكم بها. كل الأفكار قابلة للنقاش، على أن تظل لنا حرية الاختيار والقـــرار أخيراً بشأن ما نلتقـــي معـــه ونأخذه منها، ومـــا ترفضه أو نعرض عليه.

لقد لخصت شهادات مفكرين فرنسيين كبار حقيقة لعبة تصدير الحضارة والتفاعل الثقافي من خلال بيانهم الأهداف الحقيقية للغـــزو الفرنســـي لمصـــر في أواخـــر القرن الثامن عشر. قال جان تولار مثلاً إن نابليون بونابـــرت قد سعـــى إلى أن يثبت للمصريين أنهم ينتمون إلى حضـــارة خليقة بالهزيمة، لأنها تقع في مرتبة أدنى بكثير من الحضارة الغربية، التـــي عليهم البناء على صورتها لا على صـــورة الحضارة العربيـــة الإسلامية. لقد كان الهدف الرئيســـ للحملة الفرنسية التي شارك فيها جيش من المثقفين والعلماء الفرنسيـــين، إلى جانـــب جيشـــ الجنـــود المحاربين، إظهار الحضارة العربية الإسلامية التي ينتمي إليها المصريون حضارة متخلفة وضئيلة وبائسة قياساً إلى حضارتين: الأولى موغلة في القدم وقـــد بادت، هي الحضارة الفرعونية التي جعلت المصريين عظماء قبل الإسلام الـــذي نقل إليهم حضـــارة عابرة، وحضارة غربية مظفرة راهنة عمادها العلم والإبداع. وقد استطاعت حملة نابليون فعلاً تعويضـــ فشلها العسكري الذي كانت ذروته الارتداد عـــن أسوار مدينة عكا الفلسطينية التـــي استعصـــت على الجيشـــ والأسطول الفرنسيين رغم حصار خانـــق لستة أشهر، ومذابح جماعيـــة وحشية ارتكبها الغزاة في ريف المدينة. كان التعويض هو تأسيس وعي هرمـــي لدى المصريـــين، وكذلك لدى عرب شمال أفريقيا وأقطـــار أخرى لاحقاً، تقف على رأسه الحضارة الغربية مشكلة نموذجاً يستقطـــب طموحهـــم وتطلعاتهـــم لتقليده والالتحاق به. كمـــا شمل التأسيســـ إنشاء علم الفرعونيات لخلق اعتزاز بالانتماء إلى تلـــك الحضارة البائدة يبعـــد المصريين عن

انتمائهم الحالي لحضارة عربية إسلامية تم تصويرها لهم متخلفة فجة بدوية عابرة متدنية. وهكذا تكون وعي بأن المصريين يندرجون في سلم حضاري قمته البعيدة فرعونية، وقمته القريبة المعاصرة غربية، وفي أسفله الحضارة الإسلامية! (انظر شهادة جان تولار هذه وسواها في: فيصل جلول، مصر بعيون الفرنسيس –بحث في أصول الثقافة السياسية العربية، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٧).

نقف عند إحدى الوقائع والحقائق التي أوردها كتاب ديفيد ميللر (إنهم يكذبون) الصادر عن دار بلوتو في نهاية العام ٢٠٠٣ إذ اعترف الناطق الإعلامي بلسان قوات الاحتلال الأمريكية للعراق، الجنرال كينيث ألارد، أن «الغزو الأمريكي للعراق في عام /٢٠٠٣/ سوف يتذكره الآخرون باعتباره نزاعاً استخدم الإعلام والمعلومات فيه بشكل كامل كسلاح في الحرب ضد العراق، وتحققت فيه قدرات عملياتية متداخلة من أنواع مختلفة من أحدث الأسلحة الإعلامية. حمل هذا الاستخدام الأمثل معه نتائج كبيرة حققتها عملية اندماج الدعاية الإعلامية الحكومية المبرمجة (البروباغندا) مع المؤسسات الإعلامية الأمريكية. إن تجربة الحرب ضد العراق في العام ٢٠٠٣ تدل على عملية الاندماج المبرمج والمخطط لوسائل الإعلام مع أدوات القتال الحربي ووسائله. كما تدل أيضاً على دور القطاع الخاص المتزايد في الهيمنة الإعلامية. ولد هذا الدور تغيرات أكثر اتساعاً في الهيئات والخدمات العسكرية الأمريكية والبريطانية». ولئن بتنا نعيش طغيان تأثير وسائل الإعلام والاتصال المحكومة بمصالح شبكات خفية أو شبه خفية، والتي كثيراً ما تستخدم الكذب المتقن والتزوير والتزييف والافتعال ولي عنق الحقيقة وتطويعها بمعونة تقنيات عالية وأبحاث علمية متخصصة في فبركة الرأي العام.

رأى المنصف المرزوقي أن علاقتنا مع الغرب في أغلب جوانبها وحالاتها علاقة عصابية، والبرء منها يتطلب في رأيه تشبعنا ببعض بديهيات، منها أن هناك ثلاثة مستويات من الغرب: غرب الأنظمة وهو قبيح، لنا الحق في مواجهته لأنه غرب الاستعمار في السابق وغرب دعم الديكتاتوريات في الحاضر. وهناك غرب القيم والتكنولوجيا، وهذا علينا أن نتعلم منه كما تعلم منا، وهناك غرب المجتمعات المدنية وهذا غرب حليف لنا وصديق،

مــن الغباء وضعه في السلــة ذاتها مع غرب الأنظمة. وقــد ضرب مثلاً المفكر الأمريكي Jared Diamond الــذي يعبر عن أفكار مغايرة لما يسود في مجتمعه، منها أن الغرب عاش علــى حافة الهمجيــة ٩٥٠٠ سنة ولم يتقــدم إلا منــذ ٥٠٠سنة، وبفضــل علوم العرب والفرس والهنود وتكنولوجيا الصين، خصوصاً لأن فيه أراضي خصبة واسعة في الوقت الذي تصحرت فيه أراضي العرب.. وبالتــالي، يــرى ذلــك الباحــث الأمريكي أن عوامــل تخلف العرب مرتبطــة بالبيئة وبظروف تاريخية، وأنــه ليس لنا أن نعاني عقدة نقصــ أو تفوق، فكلنــا بشر تواتيهم الفرصــ، أو تتحالف ضدهم الطبيعة. المهم في مستوى الحضارة ككل أن يتواصل التقدم البشري، فكل حضـــارة تحمل المشعل لفترة ولمصلحة الجميع. يجب إذاً الخروج من عقد لاتجدي نفعــاً، والتشبع بعقليــة اليابانيين الزاخرة بالتواضـــع والتعلم والعودة تدريجاً إلى ساحــة الابتكار، لا لإحــراز تفوق على الغرب بل لإحراز تفوق على أنفسنا. إن دور المثقف ليس أن يكون مبرر الفعل السياسي، وإنما هو من يقوّمه من موقع الأهداف التي سنّهــا لنفســه.. دور المثقــف أن يحترز من أفكاره قبل أن يحـــترز من أفكار الآخرين.. دوره أن يبقى العين التي لا تنام عندما تنام كل العيــون لئلا تصبح أفكار التحرر أدوات تجدد الاستعباد .(المنصف المرزوقي، مقابلة، الحياة، ٢٠٠٧/٢/٥).

توقف مرزوقي آخر مختلف عن المنصف، هو المفكــر المجتهد أبو يعرب المرزوقي عند زعم أصحاب السفسطائية المحدثة، أو فكر ما بعــد الحداثة، بأن الثقافــات جزائر لا تتواصــل بل هي أرخبيل وجــودي لا يمكن للمرء أن يخرج من محارة ثقافته ليتواصل مع الثقافات الأخــرى. فرأى هذا نفياً للكليات المتعالية على الجزيئات الثقافية.. ولو صح أن المــرء لا يستطيــع أن يخــرج من ثقافته ليتواصــل مع غــيره لدل ذلك علــى امتناع تواصلــه حتى مع ذاته، فضلاً عن الغير، في ثقافته بمجرد اختلاف الزمان والمكان. فلا يستطيع الفرد التواصل مع ذاته بين زمانين مهما اقترب أولهما من ثانيهما، ومع غيره بين مكانين مهما اقــترب أحدهما من آخرهما، فضــلاً عن التواصل بــين الأجيال المتوالية والجهات المتساوقة.. فلا بد أن توجد كليات تشترك فيها الحضارات والثقافات وتتعالى على التاريخيات فيها (أبو يعرب المرزوقي، مقابلــة، الرافــد، الشارقــة، أكتوبر٢٠٠٦، ص٢٦-٢٧).

بالمقابل، أنهى سامي عون، أستاذ العلوم السياسية في جامعة شربروك الكندية، كتابه (الإسلام اليوم: الانكساريات، التطرف والحداثة) الصادر بالفرنسية في مطلع ٢٠٠٧ في كيوبك بكندا جازماً بأن «المسلمين لا يستطيعون بعد الآن تجاهل ظاهرة التثاقف بمعنى التفاعل بين الأديان والثقافات والأعراق المتعددة في المجتمع الإسلامي. فهم يحتاجون إلى اعتماد الحداثة لا كبرقع ولا كعملية تجميل وإنما كمراجعة واعية تنقذ الحرية كقيمة مضادة للاستبداد، وتنقذ الفرد من جور الجماعة، وتنقذ الأخلاقية الإنسانية في الإسلام من العبث الإيديولوجي».

إن «ثقافة القبول بالآخر والتعددية الفكرية، بغض النظر عن المصطلح سواءً كانت مسمى شورى أو ديمقراطية تشكل بناءً إيجابياً لتطور المجتمع العربي، فالثقافة الديمقراطية لا يمكن أن تنشأ ما لم يكن هناك فهم وإدراك للمجتمع السياسي بينما هو تركيبة مؤسساتية، وترمي بالدرجة الأولى إلى التوفيق بين حرية الأفراد والجماعات وبين وحدة النشاط الاقتصادي والقواعد القانونية. ولا تشكل الفردية مبدأ كافياً لبناء الديمقراطية، والفرد الذي تسيره مصالحه أو تلبية رغباته أو حتى رفضه لنماذج السلوك المركزية لا يعتبر بالضرورة من ذوي الثقافة الديمقراطية حتى لو كان من الأسهل له أن يزدهر وينتعش في المجتمع الديمقراطي أكثر من غيره».. (عبد الله علي العليان، الخليج، ٢٠٠٦/٨/٢٩).

أما محمود بن محمد سفر، وزير الحج السعودي السابق، فقد رأى حاجة منظومتنا الثقافية «إلى تفعيل وتنمية وتطوير، للخروج من الجمود والتخشب، أو الانبهار والانحياز، أو التوجس والريبة، إلى رحاب الانفتاح على العالمية ولترتكز على أسس جديدة تأخذ من ثقافات العالم المعاصر أصلح وأنقى وأجمل ما فيها من قيم وأفكار وفنون، تتفق مع ثوابت الأمة، وتنسجم مع قيمها، وتستعين بالقيم المشتركة وتعزيزها لخير الإنسانية جمعاء.. عندها يصبح الموقف من ثقافة الآخر هو التفاعل بثقة وبندية واحترام متبادل.. هذا لن يتحقق لمنظومة الثقافة بغير:

١- أولويات واضحة تحدد مسارها.
٢- وخطط متفاعلة تترجم تطلعاتها.
٣- وبرامج مفصلة تبلور فعالياتها.
٤- وقوة اقتصادية متمكنة تدعمها.
٥- ورؤية سياسية منفتحة تساندها.

باختصار، التمسك بالخصوصية

الثقافية، والانفتاح على ثقافات الدنيا لن يتحقق إلا بأمور ثلاثة:

الأول: تطوير منظومات الحياة في المجتمع بعامة ومنظومة الثقافة خاصة.

الثاني: تعزيز الثقة في الهوية الثقافية والاعتزاز بالقيم الذاتية.

الثالث: تقوية التفاعل مع القيم المشتركة في الثقافات الأخرى». (الحياة، ٢٠٠٧/٤/٤).

لكن هذا يقتضي إدراك واقع الحياة وحقيقة إشكالية الثقافة العربية المعاصرة. كتب محمد صادق دياب في هذا الصدد يقول: «أتحسر على حال الثقافة العربية في ظل منهجية اجتماعية مستحدثة تمارس الإقصاء الكلي لأسباب جزئية. وأصحاب هذه المنهجية المسكونة بهوى كشف المثالب وتتبع الصغائر وغض الطرف عن الفضائل لا يكتفون بالإقصاء والاغتيال المعنوي لمعاصريهم ومجايليهم فحسب، ولكنهم قد يذهبون إلى حد نبش قبور الموتى منذ مئات السنين لمحاكمتهم وتلطيخ سيرهم وأسمائهم وتاريخهم. وفق هذه المنهجية التي تضحي بالكليات الإيجابية لوجود جزئيات «سلبية» تم إقصاء عدد من كبار المفكرين وعلماء الدين والفلاسفة والمبدعين، أحياءً وأمواتاً، والتضحية بكل عطاءاتهم. ففي ظل هذه المنهجية تذهب المثالب بالمناقب، ويتوالى في أتونها فرض الإقامة الجبرية في عتمة القائمة السوداء على الكثير من النابغين العرب. ولو ابتليت الثقافة الغربية بمثل هذه النزعة لما حفل التراث الإنساني اليوم بأسماء كبيرة خالدة أمثال شوبنهار وديكارت ونيتشة ومونتسكيو وروسو وفولتير وغيرهم، ولذا فإن على ثقافتنا العربية أن تكف عن وأد رموزها، وأن تلخص وتتخلص من نزعة البحث عن المثالب التي تستهدف تجفيف الأجزاء الملوءة من عطاءات النابغين، فالثقافة كي تعيش وتنمو وتنتشر تتطلب مساحة من الحرية، وقدراً من الحكمة، وكثيراً من التسامح.. فماذا نحن فاعلون؟ العالم العربي متخلف إنسانياً وحضارياً، مضطر دائماً ومنذ زمن بعيد إلى استيراد التقنية والفكرة والمعلومة والمبدأ والمشروع والطعام والثياب.. يضطر دائماً إلى الاستيراد، ويعجز عن فرز وتقييم المشاريع واستيراد ما يناسبه ويلزمه فعلاً منها، فيخطئ دائماً ويستورد أشياء لا تلزمه أو لا تناسبه، يثير السخرية إذ يستورد قبعة بينما تحتاج قدماه العاريتان المغبرتان إلى حذاء..».

لا يحتمل راهــن حالنا العربــي مزيداً من خــداع الذات. «كيف يمكــن للمسلمين شعوباً أو حكومــات أن يتحاوروا مع الآخر ســواء كان أمريكياً أو أوروبيــاً أو آسيوياً أو إفريقياً وهم ليســوا على قلب رجل واحد، وهــم عاجزون عن الحوار مــع النفس» (د. محمد السعيد إدريســ، حوارات لابد منها، الخليج، ٢٣/٢/٢٠٠٧).

اعتبر عالم اللاهــوت الألماني هانز كونغ (Hans Küng) أن الحــوار بين المذاهب المسيحية أو ما يعرف بالحركة المسكونية قد حقق السلام داخــل المسيحي، التي عاشت حروباً وصراعات بينية حادة، وقد خرج فينا من دعــا إلى الاستفادة من هــذه التجربة، بحيث ينطلق حوار أكــثر جدية وصفاء بين المذاهب الإسلاميــة لتضييق شقة الخلاف المفتعل وتجاوز الفوارق البائسة البعيدة عن مقاصــد الدين الإسلامي التي بينها القرآن وشرحتها السنة النبوية. هذا الحوار الداخلي المطلوب يسمــو على المحــاولات الفجة أو المظهرية التي يحضــر إليها المشاركون وقد أخفــى كل منهم سيفاً أو خنجراً وجعل همه تسفيــه الرأي الآخــر، لا الاقتراب الجمعي المشترك من الصــواب والحقيقة. مثل هذه الخطوة هي التي تيســر تقارباً لاغنى عنه بين المذاهــب والمدارس الفقهية الإسلامية، يؤهلها لحوار جاد هادف مع الأديان الكبرى الأخــرى، في سياق حــوار حضاري/ ثقافي دائم مع الآخر.

إن الإيغال في التشتت والفرقة وتكريس التجزئــة وتقديســ الفتات الكيــاني الذي افتعله مارك سايكســ وجورج بيكو والتزام بلفــور، هو جوهــر أمراضــ مزمنة حولت العرب إلى ما يداني الهباء، وكرست الأنانية والفساد والتنصل من الواجب وخداع الذات ونهشها.

رأى مرزوق الحلبي الكاتب الفلسطيني- المقيم في دالية الكرمل، قرب يافا المغتصبة، أن غيــاب الفئــات الوسطــى العربية غيّب الضالعين بدور وكيــل التغيير. لأن العلاقة بــين الأنظمــة أو الأحــزاب وبــين الشعب ليست علاقــة حوارية فيها أخــذ وردّ وكرّ وفر وتحديــات تفرض تبادليــاً بين طرفي المعادلة أو موقعي الهــرم، القائد والشعب، لأن الموصــل للحــوار غائــب أو مغيّــب. فالفئات الوسطى تضطلــع في العادة بدور التغيــير في كل المجــالات والاتجاهات، في الموارد والخبرات والأفكار والأعمال والقيم والمفاهيم والأنســاق والنظم. ومن هنا هذا الفقر في قوى التغيير في المجتمعات العربية

وانحسار اللعبة بين قوى سلطة مستبدة وقوى معارضة شعبية وشعبوية علمانية أو دينية (الحياة، لندن، ٢٠٠٦/١١/٩).

طرح بعضنا عدداً من الإشكاليات التي قد تمكن من الذوبان الثقافي؛ وبالتالي تستحق الدراسة والتشخيص. من هذه الإشكاليات الثقافية العربية:

أولاً: إشكالية المصدر:

يُعَدُّ عدم وجود مصدر يحظى بإجماع الأمة العربية لأن تكون مردّاً أساسياً لثقافتها وتكون لها صفة الصدارة والشمولية تعكس التباين الموجود داخل هذه الثقافة، فهناك من يرى أن المصدر الأهم للثقافة العربية الدين الإسلامي، في حين يرى الآخرون أن العائلة هي المصدر الأهم وأن الكثير مما يسمَّى قيماً دينية هي في الأساس قيم عائلية دخلت الدين واستمرت فيه وأخذت شكلاً دينياً، ويرى البعض الآخر أن المصدر الأهم هو أنماط المعيشة وأساليبها والبيئة بشكل عام، معللين ذلك أن التنوع المشار إليه نشأ في الثقافة العربية نتيجة عمل البيئة والأساليب المعيشية، فأصبحت هناك ثقافة بدوية دعويّة وأخرى ريفية زراعية كذلك ثقافية حضرية تجارية، بينما يرفض الآخرون قصر مصدر الثقافة العربية على عمل واحد بحجة أن الثقافة العربية ثقافة عامة وعالمية؛ لذلك يجب أن تستمد من اللغة العربية وآدابها، ومن الدين والعائلة وأنماط الإنتاج المتشابهة والتحديات والنظام العام السائد ووحدة التجربة التاريخية، فأين تستقي ثقافتنا العربية؟ فإذا تعارض أحد تلك المصادر فأيها يُقدّم؟ هذه إشكالية تحتاج إلى حل بإجابة مقنعة.

ثانياً: إشكالية منهجية:

تتمثل الإشكالية المنهجية في عدم وجود منهج للثقافة أو عدم وضوحه، وبمعنى آخر فقدان المعايير البنائية التي يتحدد بها الثوابت والمتغيرات في الثقافة العربية، بتحديد المسلمات غير القابلة للتغيير والتعديل، ووضع ضوابط معينة للمتغيرات ضوابط زمانية ومكانية وبيئية لا سيما في ظل معطيات الثورة العلمية والتقنية التي يمكن أن تصبح الثقافة في حالة من التغير السريع بتأثير هذا الفيض الهائل من المعلومات والمعارف وسهَّلت عملية الاستعارة والتكيف في شكل أسرع من معدلها الطبيعي مما قد يوقع في فخ الذوبان.

ثالثاً: إشكالية الخلط المفاهيمي:

الخلط بين المفاهيم وبعض المصطلحات والمسميات إشكالية أخرى تواجه الثقافة

العربية وتهددها بالذوبان، فمع نفوذ العولمة وأدواتها وإجراءاتها ازدادت الإشكالية غموضاً فعلى سبيل المثال، نرى انحرافاً ثقافياً وفكرياً واضحاً يلف بغطاء الانفتاح والتثاقف في توليفة الأصالة والحفاظ على الهوية، وفي أحيان كثيرة يمكن لاختراق ثقافتنا وتعرض هوية الأمة بثمن بخس بحجة التحديث والمعاصرة، مما يسمح للتطاول والنيل من المبادئ والمسلّمات والطعن في الثوابت تحت شعار التعددية والديمقراطية وحتمية الخلاف، في حين تكبت الحريات وتوأد الحقوق تحت مظلمة الحفاظ على الأمن القومي والمصلحة الوطنية هذه بعض الإشكالات التي تواجه الثقافة العربية طرحناها؛ لتراجع نفسها وتفسح المجال أمام نقد ذاتي هادف». (إبراهيم الطارق، الثقافة العربية ومقومات الصمود، موقع منتدى حوارات الفاخرية).

لن أقف كثيراً عند التوالد المتسارع للتغريبيين العرب المبهورين بالغرب إلى درجة الاستلاب والتبعية له والتلاشي إزاءه، لكنني أجد ما هو جدير بالنقاش في طرح بعض رافضي اشتراط التكافؤ ممن يستلون حجة قوية، فيذكرون كيف حاور الأنبياء أقوامهم وبينما كانوا الطرف الأضعف بمعايير الندية والقوة إزاء الحكام والمتكبرين والطغاة، ولكن الحوار والجدل والبرهان ثم الإقناع جعل لدعوتهم التأثير والأثر بعكس الجبابرة والطغاة. ويقدم هؤلاء دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم برهاناً، فقد حاور المشركين وهو الطرف الأضعف، وزعزع قناعاتهم الاعتقادية بالحوار. ولذلك يرون أن الحوار يطلب لذاته بغض النظر عن المعايير والاشتراطات ولو كانت وجيهة. ويؤكدون أن الحوار مع الآخر المختلف، وإن كان معادياً وكارهاً لمعتقداتنا وأفكارنا مبدأ إسلامي أصيل. بل ذهب د.حامد الرفاعي رئيس المنتدى الإسلامي، إلى اعتبار القول بضرورة التكافؤ شرطاً لازماً لمشروعية الحوار مع الآخر مزايدة على منهج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذي حاور كفار قريش وفي أشد حالات ضعفه البشري (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس). واقتدى به جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه محاوراً النجاشي وأساقفته وهو مطارد من أهله وقومه فاثر في النجاشي وحاشيته بصدق بيانه وقوة حجته، وأبكاهم وأقنعهم بعدالة قضية المهاجرين.

نرى هنا أن ما توفر للرسول من دعم

إلهـي لدعوته، تثبيتاً وتعزيزاً لمنهج تتضمنه الدعـوة، لاينسحب بالضرورة على كل زمان وكل حال، كمـا أن التعاليـم الإلهية تؤخذ متكاملة وبتفهم عميق لمقاصدها وانطباقها على الحالة المقصودة. يظل قول الله هادينا مثلاً إذ خاطب نبيه قائـلاً: «**ادع إلى سبيل ربـك بالحكمة والموعظة الحسنـة وجادلهم بالتي هي أحسن**»، لكن التزامنا هذا التوجيه الإلهي لا يجـوز أن يجعلنا نغفل عن أوامره عز وجل في مجاهدة المعتدين الذين لايجدي معهم حوار ولاموعظـة، فمقارعتهم واجب لايقبل تهرباً ولامـداورة، التزاماً بقوله عز وجل: «**اقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم مـن حيـث أخرجوكـم**»: ألم يخرجوا الملايين منا اقتلاعـاً وقهراً من يافـا وحيفا وعكا وطبريا والناصرة والقدس وبئر السبع واللد والرملة والجولان وبغداد والموصل والفلوجة والرمادي؟.. بل ألم يجاهروا بإصرارهم على إخراج ثلاثمئة مليـون عربي من عروبتهم، وإخـراج مليار ونصـف الميـار مسلم من إسلامهم؟

لسنـا رافضين للحوار أبداً، بل نلح على ضرورة تكرار المحاولات وتصويب الأساليب. ولسنـا نشك في أن دخـول العصر من باب التثاقـف والتلاقـح الحضـاري والحـوار الحضاري هو الخيار الأفضل. بل إننا نرى أن ثقافـة الحوار والمشاركة هي في الصميم من وعي يحرر الإنسـان من طغيان غريزة التملك وتتيح لـه الاعتراف بالآخر حتى لو كان مختلفاً، كما أن ثقافة التداول تتطلب ما هو أكثر من هذا، وهي لا تتم باتخاذ قرارات حاسمة، أو لمجرد أن هناك مبادرات فردية تطرحها أو تبشر بها. وإذا كان الله عز وجل قـد أمر نبيه موسى وأخـاه هارون بالحوار حتى مع فرعون الـذي تمادى طغياناً وقال لقومه «**أنا ربكم الأعلى**» فقال تبارك وتعالى: «**فأتيـاه فقـولا له قـولاً ليناً لعلـه يتذكر أو يخشى**»، فالأولى بنا أن نقتدي بهذا السلوك في زماننـا المتأخر. لكـن للتثاقف والتلاقح والحـوار شـرط في غاية البساطـة، تنتفي إمكانية حدوث العمليات التفاعلية بانتفائه، ذلك هو اعـتراف الطرف الآخر بنا وقبوله بمبـدأ التكافؤ النسبي بيننـا وبينه ولو من خـلال انتمائنـا المشـترك إلى الإنسانيـة، وهـو انتماء إذا أنكـره الطرف الآخر علينا أو شـكك بقيمته لن يظل للحـوار معه أي معنـى. عندما يصمم الطرف الآخر مسبقاً علـى إبادتنا، أو إنـكار وجودنا، وفي أحسن الأحـوال يمن علينا بقبولـه باستعبادنا، لا نجد فرصة لتفاعل إيجابي، إذ المطلوب منا رضوخاً مهينـاً، واستقالة من الذات وقبولاً بتأبيد دور المفعول به والتابع الذليل.

حـــذر د. محمد السعيــد إدريس من أن آفــاق الحوار والتعايش تتبدد يوماً بعد يوم، وعلى الأخص بــين الحضارتين والثقافتين الإسلاميــة والغربية، مع اتساع فجوة توازن القــوة والمكانة بينهما. إذ تضع هذه الفجوة التي تــزداد اتساعــاً إحداهمــا في مكانة المهيمن المسيطر والأخــرى في موقع التابع الخاضــع الذليل. وهكذا يستحيل حوار بين من يرى نفسه سيداً ومن يرى الآخر عبداً.

مدخلنــا الحقيقــي لتأسيــس حــوار وتعايش مــع الحضارة الغربيــة بالتحديد هو النهوض بالحضارة والثقافة الإسلامية مــن حالة الدونيــة والضعــف الراهنة إلى مستــوى كاف مــن تكافــؤ أو تــوازن القوة والمكانة مع الحضــارة الأخرى الاستعلائية التــي لا تعرف ولاتريــد أن تعرف غير لغة القوة والهيمنة والسيطــرة وإملاء الشروط وفرض إيديولوجيتها وثقافتها على الآخرين لإخضاعهم. لافائدة حقيقية الآن من حوار بــين هاتين الحضارتــين أو الثقافتين، فهو مجرد استجداء لعطــف طرف قوي، يعرف أنــه قوي، على طــرف ضعيف يــدرك أنه ضعيف، ورضي أن يبقى ضعيفاً.

نشهد في المقابل كيــف لم تعد الحضارة الغربيــة تتعامــل بغطرســة واستعــلاء مع حضارتــين شرقيتــين أخريــين كانتا، حتى سنوات قريبة، في مستــوى من القوة قريب من الحضــارة العربيــة الإسلاميــة وهما الحضارتــان الصينيــة والهنديــة. غيرت الحضارة الغربية تعاملها بعد نهوض صيني وآخر هندي عدلا موازين القوة وحققا قدراً مــن التكافؤ والتوازن في القــوة والمكانة مع الحضارة الغربية. باتت الصين والهند الآن شريكين فاعلين فيما يعرف بالنظام العالمي وتسعيان لأن تكونا شريكتين في قيادة عالمية جماعية لنظام متعدد الأقطاب بدلاً لنظام الأحاديــة القطبيــة المتداعــي. في المقابل، فإن أياً من الحضارتــين الصينية والهندية لاتتعامــل مع الحضــارة العربية الإسلامية كتعامــل الحضــارة الغربيــة العنصــري الاستعلائي. قد يكون للمــوروث التاريخي الإيجابــي في الحالتين الهنديــة والصينية دوره المهــم، لكــن الفجــوة المحــدودة في توازن القوة والمكانــة بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارتــين الصينية والهندية هي الأهم. (د. محمد السعيد إدريس: توازن القوة والمكانة، الخليج، ٢٠٠٧/٨/١).

وباختصار: نعم لحــوار وتفاعل وتعاون مــع الآخر، ولا لالتحاق قســري به أو تبعية وخضوع له.





الهمـود مرض العصـر

د. خلدون الحكيم ❋

لاشـــك أن الهمـــود هو المرضـــ النفسي الفيزيولوجي الأكـــثر تفاقماً في مجتمعاتنـــا المعاصرة.رغم ذلك يساء فهمـــه وعلاجه. إذ كثيراً ما نصفه بأنه مجـــرد رد فعـــل على أحداث يوميـــة مزعجة. بينما تكمن جـــذوره عادة في السنوات الأولى من حياتنا وفي كثير من الأحيان نعالجه بطريقة واحدة بينما يتبدى بأشـــكال ومظاهر مختلفة بحسب طبيعة كل شخص. فضلاً عن ذلك نعد هذا مرضـــاً نفسياً فقط بينما أظهرت البحوث الحديثة وجود إصابات

❋ أستاذ جامعي وباحث سوري (مقيم في باريس)
العمل الفني: الفنان مطيع علي.

فيزيولوجيـــة في مختلف مناطق الدماغ مما يؤدي إلى تدهور كبير في قدراتنا الإدراكية.

عــلاوة علـــى ذلــك يؤثر الهمـــود على طاقاتنا الإنتاجية وبالتالي الاقتصادية مما يدفـــع المخابـــر الصيدلانية لإيجـــاد أدوية فعالـــة وسريعة للشفـــاء منـــه. وليس لهذه المخابـــر وباحثيهـــا النية السمـــاح للأدوية الطبيعية- الأعشاب وغيرها بوضع أنفها في هذه القضايـــا. إذ إن الخسائر الاقتصادية المترتبـــة علـــى الإصابـــة بالهمـــود تتطلب الفعاليـــة والسرعة في إيجاد الحلول إضافة إلى الجانب الإنساني.

تعريف الهمود:

يعرف قاموس لاروس الكبير لعلم النفس الهمود. بأنه مرض عقلي يتميز بتغير عميق في الحالة الانفعالية للفرد حيث يسود الحزن العميق ومعاناة الضمير وتباطؤ الحركة.

يترافق هـــذا أحياناً بالقلـــق كما يؤدي الهمـــود بالمريض إلى الشعـــور المؤلم بالعجز العـــام والقدرية المتشائمة. كما يؤدي أحياناً إلى اجـــترار أفـــكار شبه هذيانيـــة مرتبطة بالشعـــور بالذنـــب وعـــدم الأهلية وتحقير الذات ممـــا يدفع المرء أحيانـــاً إلى التفكير بالانتحار بل الإقدام عليه؟

ما هي أسباب الهمود؟

قـــال مرة الفيلســـوف الإغريقي سينيك «الآلام الصغـــيرة تفصـــح عـــن نفسها أما الكبيرة فتصمت».

أول أسئلة يطرحها الهمودي على نفسه «لماذا أنا بالـــذات؟ ماذا حدث لي؟ ما سبب هـــذا؟ ماذا أفعل؟ إن حاجتنا للفهم وإعطاء معنـــى لما يحصل لنا أمـــر طبيعي، وخاصة في حال المعاناة المؤلمـــة، وغالباً ما نلجأ إلى التفسيرات الظاهرية، لأن هذا بسبب عملي، لو كانت أموري الماديـــة أفضل لكان الوضع أحسن، أنا بحاجة لأحد كي لاأكون وحيدة.. أو أسباب داخلية.. هذه خطيئتي، أنا لاأنفع لشيء، لأني لم أنجح كالآخرين. لأني لا أمارس العبادة كما يجب».

إن التفسيرات التي تُعطى غالباً ما تكون بعيدة عن الأسباب الحقيقية للهمود. وغالباً ما تشـــكل عائقا في عمليـــة الشفاء عندما تكون الحالة تحت إشراف طبيب نفسي.

إن الهمـــود كغالبية الأمراضـــ النفسية لا يحصـــل نتيجة لعامل واحد، وإنما بسبب مـــن مجموعة من آليات ذات صفات متنوعة يجهلها صاحبها تماماً.

أول مــا نميز عــادة العوامــل الحيوية «البيولوجيــة» والنفسيــة والبيئيــة «وهذه مرتبطة بالمحيط الاجتماعي والعائلي».

إذ تتقدم في حالة الهمود بعض العوامل علــى غيرها وتهيئ التربــة الخصبة لذلك. وهنا يمكن الــكلام عن عوامل ذات خطورة «عوامل هشاشة» أن يكون مثلاً أحد الأبوين مصاباً بالهمــود يزيد من احتمــال إصابة الأولاد بذلك. يوجــد أيضاً عامل الخبرات المؤلمــة أو شجار الأبوين التي يعيشها الطفل الصغير ممــا يزيد مــن إمكانية وقوعه في الهمود في قابل الأيام.

ثمة عوامــل أخرى تحصــل قبل ظهور الهمود وتسمى عوامل حافزة للهمود.

العوامل الحيوية «البيولوجية»:

يرتبــط ظهــور الهمــود باضطراب في الوظائــف العقليــة، أي أن هناك إصابة في وظائف الدماغ وليس في بنيته. تفسر ظاهرة اضطراب وظائــف الدماغ بوجود شذوذ في عمل الخلايا العصبيــة الدماغية مثل نقل وتنظيم بعض العناصر الكيميائية في عملية التواصل بين هذه الخلايا.

يعترف الاختصاصيون بأنه من الصعب في الوقت الحاضر معرفة فيما إذا كان هذا الشذوذ هو السبب الرئيس أو نتيجة للهمود. مهمــا يكن من أمر فإن إعــادة تنظيم هذه الوظائف لابد منه لاستعادة الوضع الطبيعي لعملها. وهذا هو مبدأ عمل الأدوية المضادة للهمود.

كمــا أن مــن المعروف اليــوم أن العلاج النفســي يقــود إلى نتائج جيــدة إذا كانت الحالة معتدلة الخطورة.

العوامل النفسية:

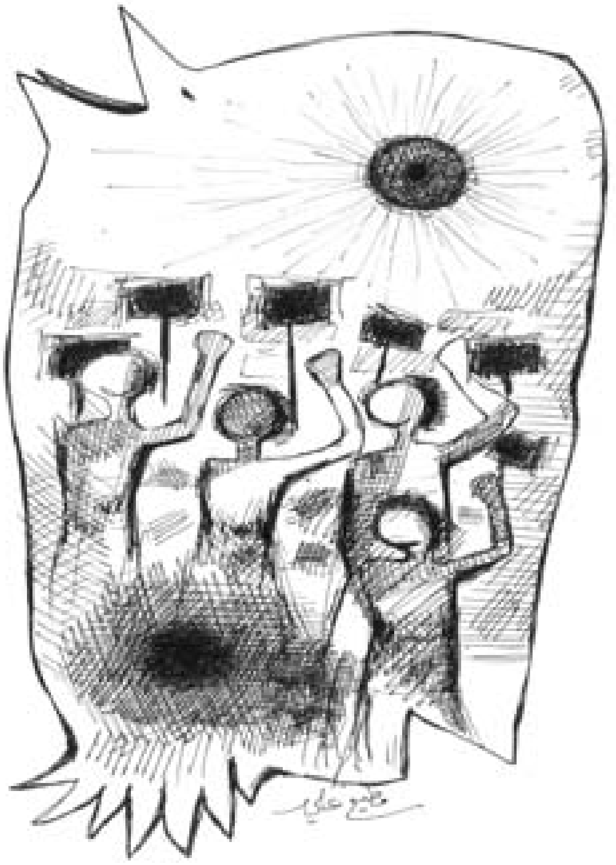
هنــاك أيضــاً عوامــل نفسيــة خاصة مسؤولة عن الهمود من مثل مشاعر الفقدان «فقــدان إنسان، أو شيء هــام، أو معتقد»، صراع الضمير، اعتقادات سلبية. سوء تقدير الشخصــ لذاته «أنــا لا أستطيع فعل شيء بشكل جيد، أنا لا أساوي شيئاً». تجد بعض هــذه الآليات جذورهــا في الطفولة «بداية العلاقات مع الوالدين، أول خبرة في مشاعر الفقدان، الوحدة، العجز، الشعور بالذنب أو العار..».

ثمة عوامــل أخرى ترتبــط مع عناصر خــبرات حديثــة، «مثــل صدمــات الحزن الناجمــة عن فقد عزيــز، أو مثل أعلى، أو صورة للذات».

إن بـعـض أنـــواع السلوكات «على المستوى العـقـلـي، والـعـاطـفـي، والعلائقي» بالإضافة إلى بعض أشكال آليات الدفاع النفسية غير المناسبة.. كل هـذه الأمـور يمكن أن تساعد على ظهور الهمود وتوطيده.

هـنـاك مـثـلاً بـعـض الأشخاص الذين يعانون مــن الـهـمـود نـتـيـجـة اعـتـقـادات سـلـبـيـة «إذ يعتقدون أنفسهم غير قادرين أو غير كفؤ للقيام ببعض الأعمال» أو أولئك الذين لايروا إلا الجانب المتشائم من الأمور. تجاه الناس من حولهم وتجاه أنفسهم. ونرى هؤلاء الأشخاص يحللون الأحداث اليومية دوماً من الجانب الأكثر سوداوية، دون الرغبة في استشفاف الجوانب المضيئة فيها.

وهنـــا أيضاً يلعب العـــلاج النفسي دوراً هاماً في تحسين هذه الحالات.



العوامل المرتبطة بالمحيط الاجتماعي أو العائلي:

بعض أحداث الحياة المؤلمة جداً، ضغوط الحيـــاة المفرطة والمستمـــرة، كل هذا يمكن أن يشجـــع على ظهور الهمـــود، مثلاً موت شخصـــ عزيز جداً، فقـــدان عمل، انقطاع علاقـــة عاطفيـــة، طلاق، صـــراع عائلي أو اجتماعي..

توجـد أيضـاً عوامل مساهمـة وذات خطورة منها حضور أو غياب بعض عوامل الحمايـة في محيط المرء، والتـي يمكن أن تلعـب دوراً في حماية المرء مـن وقوعه في براثـن الهمود. إذ إنّ وجود أشخاص أقرباء وأصدقاء خلص يمكـن الاعتماد عليهم أو الانخـراط في فعاليات فرديـة مشوقة، كل ذلك يمكن أن يحمي من السقوط في الهمود أو يساعـد على الشفاء منـه وبالعكس فإن غياب هـذه العوامل يمكـن أن يشجع على ظهوره أو عودته مرة أخرى.

العوامل التربوية «مرحلة الطفولة»:

سوء معاملة الطفل، وجود آباء ضارين أو غائبين أمور تسبب اضطرابات القلق المبكر، والطفولـة كما نعرف هي مرحلة على غاية من الحساسية تجاه عوادي الزمن.

رغم ضمـان الأمن المـادي للطفل نراه أحياناً غارقاً في محيـط سلبي في أعماقه، نتيجة النقد المستمر والسخرية منه كما أن غياب الأهل مثلما الحماية المفرطة الخانقة وغـير الملائمـة يمكن أن يـتركا على المدى الطويل آثاراً سيئة علـى الوظائف النفسية وتطور الشخصية، كل هـذه العوامل يمكن أن تساهم في زيادة الهشاشة الداخلية تجاه الهمود.

غير أن هذا ليس له صفة الحتمية، لأننا نجد أحياناً العديد من الراشدين الهموديين الذيـن تمتعـوا في صغرهـم بطفولة هامة وسعيدة ومفعمة بالبهجة.

عمومـاً يمكن القـول إن الحفاظ على التناسق العاطفي والعائلي والتربوي للطفل يلعب دوراً هاماً في مستقبله النفسي.

ماهي الوجوه المختلفة للهمود؟

المراحل المتميزة للهمود.. الصيغة الأكثر تكراراً..

غالباً مـا يظهر الهمود علـى مراحل. مرحلـة همودبـة ذات صفـات متميزة، أو مرحلة همودية شمولية.

- يتـم تشخيصـ مرحلـة الهمود ذات الصفات المتميزة على الشكل التالي..عندما تتجاوز المرحلـة الهمودية مدة خمسة عشر يوماً وتتصف بالأمور التالية:

١- مزاج حزين وخاصة في الصباح.

٢- فقدان الاهتمام بالأشياء في الحياة اليومية حتى تلك التي كانت عادة تثير اللذة والسرور.

٣- إحساس بالتعب.

٤- انخفاضــ القــدرة علــى التركيز وصعوبة في اتخاذ القرارات.

٥- حيويــة مفرطة ونــزق أو بالعكس تباطؤ في الحركة.

٦- اضطراب أوقات النوم.

٧- شعور بالذنب وتحقير الذات.

٨- خوف مولد للقلق ونوبات غم.

٩- أفكار انتحارية.

١٠- زيادة أو انخفاض في الوزن.

١١- علاوة على ذلــك عدم شعور المرء بأنه مريض.

الأشكال المختلفة للهمود:

همــود رد الفعل.. وهو الهمــود الأكثر شيوعاً.. ويظهر عقب حادث غير متوقع يهز المشاريع الحيوية للشخص.

ويعــود إلى أسباب مختلفة بعضها لم يكن منتظراً..

..وفاة أو مرض خطير أصاب قريباً.

..انفصـــال، طلاق، انتقال من منزل إلى آخر.

..حادث خطير، اعتداء، اغتصاب.

وبالفعل فإن الهمود مرض يتكرر تسلسله خـــلال مراحل الحياة، وكل همود جديد هو ضربة عنيفة للمرء، وتــزداد هشاشة الفرد تجاه العوامــل النفسية للهمــود مع مضي الأيام.

إن الشفــاء علــى المــدى البعيد يتطلب وضع استراتيجيات قادرة على التنبؤ بهجمة الهمود المقبلة، وذلك بالتنسيق وبشكل فعال بين مختلــف الوسائــل النفسيــة العلاجية والحيوية «البيولوجية».

ومــن الضروري بــذل المزيد من الجهد للقضاء على هذا المرضــ بشكل جذري إن رهان المستقبل هو الكشــف والتنبؤ قبل أن يبدأ الهمود مرحلته. وتتطلب هذه الخطوة معرفة لعوامــل الضعف ومقاومة الضغوط عند المريض.

أشكال الهمود الأخرى:

الهمــود الفصلي.. مــن السهل التعرف عليــه إذ يظهــر مع بدايــات أيــام تشرين الثاني «نوفمــبر» وذلك بظهور سريع لفقدن الاهتمــام بالأشيــاء وضعــف العلاقات مع المحيــط. تترافق هــذه المشاعــر بعدد من الــدلالات مثل شعور دائــم بالتعب، صعوبة الاضطلاع بالمهــام اليومية وذلك بسبب من

انخفاض القدرة على التركيز، قلق دائم مع نفحات مـــن الغم، فــرط حساسية، اندفاع زائد لتناول السكريات. اضطراب في النوم، انخفاض الطاقة الجنسية، زيادة أو انخفاض في الوزن مع ورود أفكار انتحارية.

يعـــزو الأطباء ذلـــك إلى انخفاض ضوء النهار وهذا يـــؤدي إلى اضطراب في إفراز مادة الميلاتونـــين وبالتالي إلى الإصابة بهذه الأعراض.

هذا النوع مـــن الهمود يصيـــب النساء على الأخص «أربع مرات أكثر من الرجال». لهذا السبب تسارع شركات الأدوية في مطلع كل خريـــف إلى الدعاية للأدويـــة المنشطة والفيتامينـــات مستفيدين مـــن هذا العطاء الطبيعي وما تلبث أن تتلاشى هذه الظاهرة في الربيع. وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من الهمود الفصلـــي لايصيب إلا فئة قليلة من الناس.

الأمومة:

وهي مرحلـــة ذات خطورة عموماً حيث تأتي أحياناً المرحلـــة الهمودية بعد شهرين مـــن الوضـــع. وهي حالـــة جديـــة ولها كل صفات الحالـــة المرضية «مدتها، ظواهرها، نتائجها..» وهي تصيب امرأة من أصل عشر نساء.

همـــود الوضع هذا يختلـــف تماماً عما يسمـــى بـ«بيبي بلـــوز Baby-blws» وهو حالـــة عاطفية قصـــيرة المـــدى ولها بعض العوارض الجسدية، تصيب امرأة من أصل اثنتـــين وتأتي في اليـــوم الثالث بعد الوضع، وتدوم عدة أيام فقط.

الحداد:

مـــن الطبيعي الشعـــور بمظاهر الهمود خـــلال أسابيع الحداد التـــي تأتي بعد فقد عزيز. وهي ظاهـــرة عادية ويمكن إذا شئنا اللجـــوء إلى اختصاصـــي بالصحـــة أو أي شخص آخر نركن إليه لتفريغ شحنة مشاعر الحزن.

ولكن إذا ما تجـــاوزت هذه المرحلة مدة الشهرين أو بلغت حـــدة غير طبيعية ينصح عندهـــا باللجـــوء إلى اختصاصي بالصحة النفسية.

تبدل صفات الهمود مع العمر:

- الأطفال والمراهقون:

إن غالبية الصفات الهمودية التي نراها عند الراشد نجدها عند الطفل أو المراهق.

إلا أن بعضــ المظاهر الهمودية يمكن أن تتمايــز عن بعضها بعضــاً بحسب المراحل العمرية.

١- عند الطفل:

يظهــر الهمــود مــن خــلال سلوكيات الانــزواء، الغياب، أو بالعكس، النزق وفرط الفعاليــة، علم الصــبر، القلــق، الاندفاع، العدوانيــة، الغضب، العنــف، رفض النوم، عادة قرض الأظافر، ميل لتناول السكريات واعتماد عاطفي مفرط على أحد الأبوين أو على قريب.

٢- وعند المراهق:

يظهر الهمود من خلال تصرفات ضارة بصحته، مثــل تناول الكحــول والمخدرات، الإفــراط في تنــاول الأدوية «ضــد القلق، المنومات..» كما نــرى حالات فعالية زائدة. عنــف وتحطيم الأشياء مــن حوله، أو عدم اهتمــام كلي بما يحيط بــه وهنا يستوجب الأمر الاستماع باهتمــام وانتباه إلى الطفل وإلى المراهــق من قبل اختصاصــي، إذ إن معالجــة الأمر عند هذا أو ذاك تختلف عن تلك التي للراشدين.

- المتقدمون في السن «الشيوخ»:

إن الهمــود وخطــر الانتحــار لايوفــر الأشخاص المتقدمين في السن، بل بالعكس، فمظاهر هذا المرضــ تشبه كثيراً تلك التي نراها عنــد الراشدين الأصغــر سناً، ولكن الاعتراف بالمرض من قبــل صاحبه يصبح أكثر عسراً وذلك نتيجــة انخفاض الفعالية الجسدية «وأحياناً العقلية» ورفض الاعتراف بالضعف تجاه الأصغر منه.

وهنــا تجــدر الإشــارة إلى أن الإصابة بالحزن واليأس يجب ألا ننظر إليه على أنه أمــر طبيعي لمجــرد أن الشخص متقدم في السن، إذ إن خطر انتحار الشيوخ الهموديين جــدي لأنهــم يختــارون بعنايــة الوسائل الانتحارية الفعالة والزمن المناسب للإقدام على فعلتهم.

هـل الرجـال والنسـاء متسـاوون في مواجهة مصاعب الحياة؟

إن احتمال إصابة النساء بالهمود خلال حياتهن يفوق مرتين إصابة الرجال بذلك.

والســؤال هــل هــذا عائــد إلى زيادة المسؤوليات الملقاة على عاتقهن بين حياتهن المهنية وتربية الأطفال وتدبير المنزل؟

عدد من الباحثين الأميركيين من جامعة فرجينيــا أرادوا معرفة فيما إذا كان النساء

والرجال يتحملون نفسيــاً وبالطريقة ذاتها مصاعب الحيــاة اليوميــة؟ تابعت جماعة ضخمة من هؤلاء الباحثين وخلال مدة عشر سنوات خمســة آلاف زوج مــن التوائم من ذكور وإناث ولدت في الفترة ما بين العامين ١٩٣٤ و١٩٧٤.

وظهــر نتيجة هذه الدراســة أن النساء عامة لا يصرحن أن الحياة أكثر وطأة عليهن مما عليه الحال بالنسبة للرجال. غير أنهن يظهرن حساسية مفرطة تجاه الأحداث التي لها وقع مؤلماً على مزاجهن. فضلاً عن ذلك أظهــرت الدراسة أن النســاء أكثر حساسية تجــاه وقع المشــاكل العلائقيــة أو العائلية «فقدان صديق، مرضــ أحد أفراد العائلة» بينما يتأثر الرجال أكثر وبشكل واضح تجاه الصعوبات المهنية والمادية.

عــلاوة علــى ذلك فــإن خطــر إصابة النســاء بالهمــود يمكــن أن يرتبــط أيضاً بعوامــل بيولوجيــة، وراثيــة، أو هرمونية. وليس لهذا علاقة إطلاقاً بصعوبات الحياة اليومية. فهمود ما بعد الولادة؟ الذي أشرنا إليه. يرتبط ولو جزئياً بانقطاع إفراز بعض الهرمــون الذي يعقب الــولادة. وفي المقابل فإن الرجال أكثر احتمالاً بالإصابة بالهمود عقــب طــلاق أو انفصال عــن زوجاتهم. وهــذا يفسر ولو جزئياً ارتفاع الوفيات عند الرجال الأرامل. فالجنس الضعيف ليس هو بالضرورة مانعتقد.

اضطرابات الجنون الدوري:

وهي حالة يتناوب فيهــا الهمود وفرط الفعالية.

يمكن لمراحل الهمود أن تحصل في إطار اضطراب المــزاج والمسمــاة بـ«الاضطراب القطبي» أو الذهــان الهوسي الهمودي. في هــذه الحال يمكن لمرحلــة الهمود أن تسبق أو تتبع مرحلة الهوســ، وهي مرحلة تتميز بشــدة الفعاليــة والمرح المفــرط. أي حالة معاكسة تماماً للهمود.

خلال هذه المرحلــة يحل فرط الفعالية والنشاط محل التباطؤ الهمودي ويحل مكان التشاؤم والحزن تفاؤل غير واقعي وإلفة في غير محلها مع الآخرين، كما تغمر الشخص حاجة قوية إلى الــكلام والحركة. ولا يعود يشعر بحاجة للنوم، وربما تداهمه في بعض الحالات أفكار هذيانيــة، «كأن يعتقد مثلاً أنه إنســان لايقهر. وله صفــات خارقة..»

ينجم عن هذه الحـــال سلوكيات غير مبالية أو غير مسؤولة «كالتبذير في المال» ومواقف غير مبررة يمكن أن تـــؤدي إلى أضرار كبيرة لدى المريض وربما تستمر حتى بعد الشفاء. علينـــا إذن ألا نستخف بالحالة الهوسية، إذ يجب تحويل المريضـــ إلى الإسعاف الفوري في قسم الطب النفسي لما ينجم من الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها الشخص وأحياناً محيطـــه. وقد يتوجب الأمـــر وضع المريض تحت الحجر القضائـــي لحمايته من أفعال طائشة يمكن أن يرتكبها.

إن معالجـــة هذا المرضـــ المزمن خاصة جداً وتختلف عن تلك التي للهمود.

مدة المرحلة الهمودية:

يمكن أن تدوم بضعة أسابيع وحتى عدة أشهر، وربمـــا عدة سنـــوات. إلا أن غالبية المراحل الهمودية تدوم أقل من ستة أشهر.

الشفاء ممكن إلا أن خطر عودة مظاهر المرض كبير.

إن الشفاء الكامل «أي غياب كل مظاهر المرض» والدائم أمـــر ممكن، غير أن خطر عودة ظهور المرض بعـــد الشفاء أمر ممكن جداً «٥٠٪ من الحالات».

إن الظواهـــر المرضية يمكـــن أن تعاود الظهـــور بعد فترة طويلـــة من خمود المرض والتـــي تدوم أحياناً عدة سنـــوات. أو يظهر المرض بشكل دوري وتفصل بين هذه الفترات مراحل خمود.

في حالات أخرى تقصـــر فترات الهمود مع الزمن مع ذلك يمكن القول، إذا ما تلقن المريضـــ علاجـــاً ومتابعة صحيـــة ونفسية مناسبتـــين فإن خطر عـــودة ظهور أعراض المرض والمعاناة ينخفضان إلى حد كبير. ومن هنا تأتي أهمية العناية الصحية المبكرة.

«نيكول، ربة بيت فرنسية، ٤٤سنة تقول، أشعـــر بآلام في البطـــن وفي الرأس ولم أعد قادرة على الأكل ولا الخروج إلى الطريق، لا أريد الكلام مـــع أحد، أكره كل العالم بما في ذلك أولادي».

عندما يستمر الهمود مع الزمن:

يستمـــر الهمـــود في بعضـــ الحـــالات سنوات عـــدة، وهنا يمكن وصفـــه بالهمود المزمن. وعندما تكـــون مظاهر المرض أقل تكـــراراً وأضعف حـــدة تسمى هذه الحال بـ الديستيمي Dysthymie.

إن الأشخاصـــ الذيـــن يعانـــون مـــن

الديستيمي يصفــون أنفسهم بأنهم حزينون باستمـــرار، والظواهر الأكـــثر تكراراً لديهم هـــي ضعف الاهتمام والرغبـــة في الأشياء، الأمر الذي يثير إزعاجاً أو إعاقة في الحياة اليومية. مـــن مثل مشاعر القصور، والعجز والذنب، واجترار الأفكار المرتبطة بالماضي، والسخط. والغضب المبالغ فيه.

كما يمكن أن يتولد عند الأشخاص الذين يعانون مـــن الديستيمي الميـــل إلى الانزواء والانسحاب مـــن الفعاليـــات اليومية. ومع التقدم في السن يظهـــر لديهم انخفاض في النشاط والفعالية والإنتاج.

ومع مرور الزمن تصبح هذه الاضطرابات جزءاً مـــن حياتهم اليومية ومن شخصيتهم، ويـــبرر الواحد منهم هـــذا قائلاً: «لقد كنت هكـــذا على الدوام» أو «أنا هكذا». وفد يقع الاختصاصيـــون وأقـــارب المريضـــ ضحية الخلط بـــين الاضطراب المهنـــي عند هذا الشخص وحالة الديستيمي.

علاج الهمـود، هـل العـلاج أمـر لا بد منـه؟

الهمود مرض حقيقي تماما مثل السكري والربو.

لهدا المرض أسباب عديدة. إذ إنه يرتبط بعدد من الاضطرابـــات في وظيفة الدماغ، وهذا يؤثر على مجمل العضوية وكذلك على الشخصيـــة. النية الطيبـــة لا تكفي وحدها في الشفاء من مرضـــ معقد كهذا. لذا فإن العلاج ضرورة حتمية في حال الوقوع في آلام الهمود.

ربما نجد صعوبة في قبول فكرة ضرورة العـــلاج، إذ لأسباب نفسيـــة وثقافية وحتى بأفكار مرتبطة بآثار الهمود، غالباً ما نميل إلى الظـــن بأنه من الأفضـــل أن نعتمد على أنفسنـــا ونسحب أشواكنـــا بأظافرنا إذا ما فعلنـــا ذلك فإننا نسمـــح للهمود بأن يسجل انتصـــاراً جديداً. لأنـــه في اعتقادنا أنه إذا مـــا قبلنا المساعدة فإننـــا بذلك نتخلى عن كرامتنا وكفاحنا الفردي..

لاشيء أكثر خطأً من هذا الاعتقاد، لأننا تجـــاه الهمود مـــن الصعب جـــدا أن نقاتله بأنفسنـــا، فالصراع غير عـــادل. وبالعكس إذا ما قبلنا اللجـــوء إلى العلاجين الدوائي والنفســـي نصبح بذلك أسيـــاد الموقف، أي إذا مااخترنـــا ذلـــك نمتلك زمـــام مصيرنا بأنفسنا.

كل علاج يقوم على اتحاد وتعاون وثيقين بين المريض والمعالج. وفي إطار هذا الاتحاد يتم تحديـد مشروع الشفاء. هـذا المشروع يأخذ بعين الاهتمام مطامح المريض ورغباته والذي سيكون على علم بطبيعة اضطراباته وتطور هام وإمكانية تحمل صندوق الضمان الصحـي نفقات علاجه. وعـدد الزيارات الطبية التي سيخضع لها.

إن قبـول مبدأ العـلاج لا يعني أن هذه العملية ستتـم من طرف واحد. إذ إن شفاء اضطراب نفسي يتطلب مساهمة والتزام تام مـن قبل المريض. كمـا أن دور المحيط من الأهميـة بمكان نظراً لأنـه يستطيع حماية المريضـ الذي فقد الثقة بنفسه، والاستماع إليه على الدوام.

وفي مجتمعنا إذا ما لاحظنا بوادر الهمود لـدى قريب أو صديق فعلينا أن نتأكد تماماً مـن ذلك وذلك عن طريق الاستعانة بخبراء الصحـة النفسيـة وبالباحثـين النفسيين المتخصصين بتطبيـق الاختبارات النفسية للتأكـد من وجـود الهمود ومن ثـم اللجوء إلى طبيب نفسي لتطبيـق العلاج المناسب. وقد يستلزم الأمر الإقامة في المستشفى من أسبوعـين إلى أكثر من شهر، مع المتابعة بعد الخـروج من المستشفى علـى تناول الأدوية لفترة غير قصيرة، لأننا إذا استخفينا بالأمر فإن خطر انتحار الشخص الهمودي احتمال قوي للغاية.

وكمـا نبذل الغـالي والرخيصـ لإنقاذ قريب مصاب بالسرطـان أو أمراض الكلى علينا أن نفعل مثل ذلك تجاه عزيز أو قريب أصيب بالهمود لأن انتحار الهمودي إذا وقع يـترك آثاراً لا تمحى في نفسـ الأسرة التي تركها فضـلاً عن النتائـج المادية والمعنوية المترتبة على ذلك.

وعلينـا أن نذكـر أن الهمـودي إنسان يعاني، يتألم، إنه لايمثـل لإثارة الانتباه. وأن الإصغاء إليه وفهم مشاكله ومساعدته لبلوغ شاطئ الأمـان هو دور الأهـل والأصدقاء قبـل كل شيء. ولنذكر أيضـاً أنه لا بد من الأدوية الفعالة الناجعة لذلك. يوجد حالياً في الأسـواق أكثر من عشريـن دواء لمعالجة الهمـود. وكل حالـة لها علاجهـا بحسب درجة حدتها ونوعيتها. أما الاكتفاء بالدعاء وتناول الأعشـاب الطبية وخلاف ذلك فلن يحل المشكلـة ويستمر المريضـ في المعاناة حتى ينتهي الأمر إلى كارثة.

إن مـــوت عشـــرة آلاف جندي في معركة ما هو إحصاء، أمـــا موت عزيز فهو كارثة، وكارثة طامة إذا كان الموت انتحاراً.

وبمناسبة الإحصاء يوجد في فرنسا ١١ ألف حالة انتحـــار سنوياً نتيجة الهمود، أي أكثر من إصابات أمراض الرئة.

أمـــا في سوريـــة: فعلينـــا اللجـــوء إلى إحصائيـــات وزارة الصحـــة لمعرفة حالات الهمود المسجلة، مـــع اعتقادنا أنها أقل من بقية الدول وأقل بكثير من الواقع، للأسباب التالية:

١- هنـــاك الجانب الإيجابي وهو إيمان غالبية الناس في مجتمعاتنا بالقضاء والقدر في تفســـير مجـــرى حياتهم اليوميـــة، وهذا يخفف مـــن احتمال إصابـــة الفرد بالهمود والمساعدة في الشفاء في حال وقوعه.

٢- عـــدم أخـــذ الأهـــل إصابـــة قريب بالهمـــود موضع الجد مثلمـــا يفعلون تجاه مرض جسدي خطير.

٣- الخوف من شيـــوع خبر ذلك لدى الأهـــل والأصدقاء كي لا يقـــال إن عندهم «مجنون».

٤- نفقـــات العلاج التـــي لا يتحملها، ربمـــا، إلا أصحـــاب الإمكانـــات الماديـــة الجيدة.

وهذا يتطلب من السلطات المعنية وضع خطـــة جدية لإسعاف هـــذه الحالات، رغم النفقات الكبيرة والجهود المترتبة على ذلك.

وهنا نذكر بقول المفكر والأديب الفرنسي أندريه مالـــرو «إن حياة إنسان لا قيمة لها. ولكن لاشيء يعادل حياة الإنسان».

كلمة أخيرة

آرنست هيمينغـــواي الحائز على جائزة نوبل لـــلآداب والمغامـــر الـــذي عايش بؤر الصـــراع في النصـــف الأول مـــن القـــرن الماضـــي انتحر ببندقيته بعد شعوره بالفراغ الوجودي. الكاتبة الفرنسية مارغريت دورا ذات الموهبـــة الرفيعـــة والمعبـــودة من قبل معجبيها وعشاقها حطمت نفسها بالكحول. مارلين مونرو الممثلة الأميركية ذات الشهرة الفائقة بجمالها ورهافتها غرقت في الكحول ثم انتحرت بتنـــاول كمية كبيرة من الحبوب المنومة.

إذن. ليســـت الموهبـــة ولا الشهـــرة ولا السلطـــة ولا المال يجعلون مـــن حياتنا أمراً يسيراً.

يوجد مع ذلك الغالبية من الناس الذين يعيشون حيـــاة منسجمـــة ومتناغمة، يملك غالبيتهم الشعور بالرضا عما هم عليه، و«إن فضل الله عليهم كبـــيرا». يقدرون محيطهم ويتمتعون بملذات الحياة اليومية، من طعام وشـــراب ونوم.. وهـــدوء الطبيعـــة وجمال المدينة. يحبون الإبداع والبناء في مشاريعهم وفي حياتهم الاجتماعيـــة. هؤلاء موجودون في كل مـــكان في هذا العـــالم بصرف النظر عن معتقداتهـــم وانتماءاتهم بعضهم أغنياء وآخـــرون ليسوا كذلـــك. بعضهم متزوجون وآخرون يعيشون بمفردهم. عدد منهم يملك مواهـــب متميـــزة وبعضهم الآخـــر يملكون مواهب عادية. كلهم عـــرف الفشل واليأس والمرارة وأيامـــاً حالكة. إذ لا أحد يفلت من هذا. ولكـــن أغلبهم عرف كيف يداري هذه الصعاب ويتغلب عليهـــا. ويقال إن عندهم قابلية خاصة للتكيف تجاه العقبات وإعطاء معنى لوجودهم. وكأنهم مدربون على إقامة صادقـــه مع أنفسهم ومـــع الآخرين ومع من اختاروهم للعيش سوية.

المراجـــع

1- BRIFF AULT ,Xavier & autres: «la Dépression, en savoir plus pour en sortir» Edit. INPES. Paris; 2007.

2- HAKIM ,Khaldoun: «Ie Suicide en Syrie». Thése de doctorat d'Etat; Sorbonne Paris V, 1979.

3- LAROUSSE: «Grande Dictionnaire de la Psychologie» Ed Larousse; 2000.

4- LOO Henri & GOURION David: «Les Nuits de I'Ame» Ed. Odile Jacob;2007.

5- SERVAN-SCHREIBER David: «Guérir; Ie Stress, l'Anxiété et la Dépression» Ed. Pocket-Evolution ;2003

6- Pratique de Santé; Journal de la Médecine Naturelle- No.6;, Septernbre 2007.





الرِّواية العربيّة وأسلوبيّتها

د. سمر روحي الفيصل *

السؤال الأساسيّ هنا هو الآتي: هل تضم الرواية أسلوباً واحداً، أو تضمُّ أساليب عدّة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ستكون هينة إذا نسبنا الأسلوب إلى الروائي، وستبدو عســيرة إذا نسبنا الأسلوب إلى نص الرواية. فالروائي هو كاتب الرواية، وهو صانع أسلوبها. فإذا نسب أسلوب الرواية إليه فهذا شيء بديهــي منطقي. بيد أن الأسلوب، كما سبق القول، شيء داخلي يخص نص الرواية، ومن ثم تتجه الإجابة عن السؤال إلى أسلوب الرواية لتبحث في بنيته

* ناقد وأديب سوري

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

عن طبيعة الأسلوب. هل يعني ذلك أن أسلوب الروائي مغاير لأسلوب الرواية؟ وهل يعني ذلك أيضاً أن الرواية تضم أسلوباً واحداً، أو تضم أساليب يمكننا تسميتها اصطلاحاً (أسلوبية الرواية)؟ وكيف يمكن التوفيق بين أسلوب الروائي وأسلوبية الرواية؟ وما طبيعة الأسلوب والأسلوبية؟ وما صلتها بالجنس الروائي؟ وكيف يمكن الحديث عن البناء الأسلوبي ضمن البناء اللغوي الكلي للرواية؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة تحتاج إلى ريث وأناة من الناحية النظرية، وإلى جهد تطبيقي من الناحية التحليلية، بل إن التنظير، في هذه الحال، يبدو هيِّناً قياساً إلى التحليل. ولسوف أحاول هنا تقديم إجاباتي النظرية عن الأمثلة السابقة، ثم أخصص للتحليل حديثا آخر مستقلاً.

١/٣: أسلوب الراوي وأسلوبية الرواية

هناك، في تاريخ الأسلوبية، أسلوبيتان: أسلوبية تقليدية وأسلوبية جديدة. أما الأسلوبية التقليدية فتؤمن بالوحدة الأسلوبية؟ أي وجود أسلوب واحد، هو أسلوب الكاتب الفرد الذي يتجلى في أسلوب نصه، دون أن يكون هناك اختلاف بينهما، انطلاقاً من المطابقة بين المبدع والإبداع، فهما شيء واحد. وقد طبقت هذه الأسلوبية التقليدية، أسلوبية الفرد، على الشعر الغنائي مستعينة بالبلاغة القديمة، ونجحت أيما نجاح في أثناء تحليله، تبعاً للطابع الذاتي فيه، ولاعتماد لغته على الصور. فقد انصرف فتح الله أحمد سليمان في كتابه (الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية)[1]، على سبيل التمثيل لا الحصر، إلى التطبيق على شعر محمود سامي البارودي، واستعمل في أثناء ذلك المصطلحات النحوية والبلاغية العربية، كالالتفات والاعتراض والحذف والتقديم والتأخير.. كما حلل موسى سامح ربابعة في الفصل الخامس من كتابه (الأسلوبية، مفاهيمها وتجلياتها)[2] ثلاث قصائد لأمل دنقل وبدر شاكر السياب ومحمود درويش ليس غير، دون أن يلتفت إلى المصطلحات النحوية والبلاغية العربية، ماعدا الاعتراض الذي استعمله في أخريات تحليله نص أمل دنقل. أما الأسلوبية الجديدة فتؤمن بتعدد الأساليب؟ أي وجود عدد من الأساليب في النص الواحد، بينها أسلوب الكاتب الذي كتب النص. ولا يعني ذلك من وجهة نطر الأسلوبيين، إلغاء الشيء البديهي المنطقي، وهو كون الكاتب صاحب أسلوب النص وصانعه على الهيئة التي تُعبِّر عما يرغب

فيه، ولكنه يعني أنه يصطنع في نصه عدداً مــن الأساليب، ويُبقي لنفســه بينها أسلوباً واحداً خاصاً به معبراً عنه.

مـا معنــى ذلــك ؟ تنطلق وجهــة نظر الأسلوبيــين والنقاد وخصوصاً باختين، هنا من أن الأسلوبيــة التقليدية صالحة للشعر الغنائي تبعاً لطابعــه الذاتي، ولكنها ليست صالحــة للفنــون الحكائيــة ذات الطابــع الموضوعي. فهذه الفنون، كالرواية والقصة، تضــم شخصيات، لكل منها موقف نابع من رؤيــا. ولا يجوز في هذه الحــال أن يسيطر الــراوي، نائــب الروائــي والقاص في نص الروايــة والقصة، على هــذه الشخصيات، فيعبر عنها بأسلوبه، بل هو مطالب بأن يسمح لها بالتعبير عن مواقفها المتباينة المتصارعة بأساليبها الخاصــة، ويسمح لنفسه بأسلوب من بين هذه الأساليب يخصه وحده، بحيث يجري في النص حــواراً بين المواقف ينتهي برؤيا النصــ المعبرة في الدلالة النهائية عن رؤيا الروائي. ويبدو أن وجهة نظر الأسلوبيين في الأسلوبية التقليدية تحتاج إلى تعديل. إذ إن لدينا نصوصاً روائية وقصصية لا يصلح لتحليلها غير الأسلوبية التقليدية؟ لأنها تضم أسلوباً واحداً، ولا تضم تعدداً في الأساليب، كمــا هي حال روايــة (صمــت الفراشات) لليلى العثمان، وكما هي الحال في النصوص القصصيــة الثلاثة ليوســف إدريس ومجيد طوبيــا ونجيب محفوظ التــي حللها أحمد الزعبــي في كتابه (سلطة الأسلوب)[٣]، على الرغم مــن انتمائها إلى ثلاث مدارس أدبية مختلفة.

بيــد أن الحديــث السابق عــن أسلوب الــراوي والتعدديــة الأسلوبيــة يحتاج، في رأيي، إلى توضيح المفهوم الدقيق لمصطلحي (أسلوبية الرواية) و(أسلوب الراوي). ومسوغ هذا التوضيــح هو أن حديثنا السابق يوحي بأن الأسلوبيــة التقليدية سلبية، والأسلوبية الجديــدة إيجابية. كما يوحي بأن الأسلوبية التقليديــة تصلــح للشعر الغنائــي وحده، وتصلــح الأسلوبية الجديدة للرواية أكثر من صلاحيتهــا للقصة القصــيرة تبعاً لوضوح المواقف والشخصيــات في بناء الرواية أكثر من وضوحها في بناء القصة القصيرة. وهذان الإيحاءان مقبــولان، ولكنهما ليسا دقيقين في رأيــي؟ لأن أي خبير في تحليل النصوص الروائية العربية يعــرف أن هذه النصوص لا تضــم دائمــاً تعدديــة في الأساليب وإن ضمت دائماً شخصيات. كما يعرف أن هده الشخصيات في كثير من النصوص الروائية العربيــة متنوعة متصارعــة في مظاهرها

الخارجية، في حين يشير واقعها الروائي إلى خضوعها لهيمنة الراوي ولرؤياه. ويعرف أيضاً أن الشخصيات المستقلة ذات المواقف المعبرة عن رؤيا خاصة بكل منها قليلة، بل نادرة في الرواية العربية. وهذه المعرفة بطبيعة النصوص الروائية العربية لا تعني أن هناك خللاً في الأسلوبيتين التقليدية والجديدة، بل تعني أن طبيعة هذه النصوص تحفز الناقد إلى تخصيص مفهومي (أسلوبية الرواية) و(أسلوب الراوي) ضمن السياق العام للأسلوبية الأدبية.



ذلك أن مفهوم مصطلح (الأسلوبية) عام صالح للأجناس الأدبية كلها، فهو (نظام الوسائل والقواعد المعمول بها أو المخترعة والتي تستخدم في مؤلف من المؤلفات)[٤]. فإذا رغبنا في تخصيص هذا المفهوم بدأنا بالتعريفات الشائعة المتعددة للأسلوب، وأكثرها شهرة وبعداً عن الرواية وقرباً من الشعر الغنائي تعريف بيفون: (الأسلوب هو الرجل)، وأكثرها قبولاً التعريف القائل إن (الأسلوب طريقة في الكتابة). وقد عُدّل هذا التعريف فأصبح أكثر تحديداً: (الأسلوب طريقة في كتابة جنس من الأجناس الأدبية). ونستطيع الاستعانة هنا بالتعريف اللساني للأسلوب الذي قدّمه بيير جيرو، وهو: (طريقة للتعبير عن الفكر بوساطة اللغة)، ومن ثم نصبح قادرين على تقديم مفهوم خاص بأسلوبية الرواية، فنقول إن مفهوم مصطلح أسلوبية

الروايــة هو: (نظام تعدد الأساليب الروائية في طريقة البنــاء الروائي المعبرة عن الفكر بوساطة نظــام اللغة). ومســوغ قبول هذا المفهــوم في رأيي هو جمعــه بين ثلاثة أمور ضرورية لأسلوبية الرواية، هي: نظام تعددية الأسلــوب في الرواية، ونظام اللغة، وطريقة البناء الروائي. فــالأول يلبي حاجة التعدد الأسلوبي الضروري لأية رواية، والثاني يلبي الحاجة اللسانية النابعة من اللغة العربية التي يستخدمها الروائــي، والثالث يلبي الحاجة البنائية النابعة من طبيعة الجنس الروائي، فضلاً عن أن المفهوم المقترح يحدد العلاقة بين الأمور الثلاثة من خلال تقيده بالنظام. وسأسعى، بعــد، إلى تقديم تفصيلات لهذا المفهوم لأسلوب الروايــة بحيث أجعله أكثر وضوحاً وتحديــداً، ولكنني أودّ هنا تحديد مفهوم (أسلوب الراوي) بأنه (نظام الأسلوب الواحد الذي يتبعه الراوي، وطريقته في بناء الروايــة بوساطة نظام اللغة). ومسوغ قبول هذا المفهوم في رأيــي هو تحديده الأسلوب الواحــد، أسلوب هيمنة الــراوي، واشتراكه مع مفهوم أسلوبيــة الرواية في تحديد بناء الرواية ضمن نظام اللغة. وأعتقد أننا بهذا التحديد لمفهومي أسلوبية الروابية وأسلوب الراوي نملك مصطلحين ملائمين للنصوص العربية مهما يكن مستواها الفني.

٢/٣: الأسلَبَة والتعدُّديّة الأسلوبيّة

ينسب التمييز بــين الرواية المونولوجية (Monologisme) التي تضمُّ راوياً واحداً مهيمنــاً، والرواية الحوارية، أو البوليفونية، أو الديالوجية (Dialogisme) التي تضم تعدُّداً في الــرواة والأصوات والأساليب، إلى الناقد الروسي ميخائيل باختين. فهو يرى[٥] أن الروايــة تضــم مجموعة مــن الوحدات الأسلوبيــة كأسلوب السرد، وأسلوب الحوار، وأسلــوب الوصف، وأسلوب كل شخصية من الشخصيات، وأسلوب كل نص من النصوص الموظفــة، كالتقاريــر والشعــر والأقــوال والأمثــال والخطــب والإعلانــات.. هــذه الوحدات الأسلوبيــة تتحد في نص الرواية في وحدة أسلوبية عليا، هي أسلوبية الرواية. علــى أن اتحاد هــذه الوحــدات الأسلوبية ليس عشوائيــاً، بل هو اتحاد يضبطه نظام يوفر التناســق في سياق الرواية وفي دلالتها الكلية بوساطة قوة يسميها باختين: الأسلبة (Stylisation)، وهي قــوة تنهض بمهمة تنظيم الوحدات الأسلوبية في نسق واحد. ولا يعني ذلك أن هذه القوة تجمع الأساليب في أسلــوب واحد، بل يعني أنها تمنح الأساليب المتنوعــة إيقاعاً واحــداً، أو نسقاً واحداً ذا دلالة ورؤيا. ومن ثم كانت الأسلبة، كما ذكر

حميد لحمداني[٦]، ذات طبيعة مفهوميّة وليست ذات طبيعة أسلوبية، لأنها تنظيم لمجموعة من التصورات والرؤى والعلاقات بين الأساليب المتنوعة داخل الرواية سواء أكانت خاصة بزمن الرواية أم مكانها أم فضائها أم دلالتها أم غير ذلك. وهذه الأسلبة لا تلغي أسلوب كل راو معبر عن إحدى الشخصيات، بل تراعيه من خلال خضوعها لعامل منظِّمٍ آخر يسميه باختين: (الحوارية) التي (تحدد دلالة كل صوت أو أسلوب داخل مجموع النسق).[٧]

هذا يعني، كما هو واضح، توافر أساليب لغوية عدة في نص الرواية، لكل منها طابعه اللغوي المعبِّر عن موقف إحدى الشخصيات ورؤياها، وسماتها التي تمتاز بها من غيرها وتحاور الآخرين استناداً إليها. كما يعني وجود أساليب أخرى، منها أسلوب الراوي الممثل في إحدى شخصيات الرواية، فضلاً عن أساليب النصوص التي يوظفها الروائي. هذا التعدد في الأساليب نتيجة بديهية للطبيعة التمثيلية للرواية. وإذا كان كل أسلوب من هذه الأساليب صورة فردية للغة، فإن الرواية الجيدة تقدم صورة كلية للغة من زاوية حوارية معينة تنسجم والإيقاع المنظم لتعدد الأساليب وتباين مواقف أصحابها ورؤاهم الفردية، وتعبير الرواية عن رؤيا كلية. ولا تخرج مهمة الناقد في أثناء تحليل الرواية عن مراعاة ثلاثة أمور:

- تفكيك التعدُّد الأسلوبي، بغية تحديد أسلوب كل شخصية من شخصيات الرواية، والتدقيق في تباينها الأسلوبي عن الشخصيات الأخرى، في السرد والحوار على حدّ سواء، دون أي إغفال لأسلوب الراوي الرئيس.

- ملاحظة عمل الأسلبة في تشكيل أسلوبية الرواية، وفي توفير النسق العام بين أساليب الشخصيات وأساليب النصوص التي استعملها الرواة، فضلاً عن ملاحظة الحوارية في تحديدها دلالة كل أسلوب داخل النسق العام، بما في ذلك أسلوب الراوي.

- تحديد الزاوية الحوارية، زاوية النظر أو الرؤية، لمعرفة موقع كل شخصية من الحوادث الروائية؛ لأن هذا الموقع يُحدّد موقفها وبالتالي أسلوبها. كما أن هذا التحديد للزاوية الحوارية يكشف التعدد الحقيقي للأساليب من التعدد الزائف الذي يخفي وراءه أسلوباً واحداً مهيمناً يلبي قناع التعدد دون أن يجسده. وهذا يعين الناقد على (التمييز الحاسم بين الشكل الديالوجي الحقيقي والشكل المنولوجي. فكثير من

الروايــات التــي تأمّلهــا وصنّفها في جانب الأسلــوب الوصفــي أو الأسلــوب الدرامي كانت كلّهــا تنتمي إلى الروايــة المنولوجية. ذلك أن اختفاء الكاتب في الرواية الدرامية قــد لا ينتج عنه بالضــرورة رؤية ديالوجية أصيلة).(٨)

٣/٣ نظام الأسلوب ونظام اللغة:

يحتاج التحليل النقدي لأسلوبية الرواية إلى معرفة العلاقة بين نظام الأسلوب ونظام اللغــة، سواء أكانــت الرواية تضــمُّ أسلوباً واحــداً مهيمنــاً أم كانت تضــم تعدداً في الأساليب. وليست هذه المعرفة هينة لسبب بسيط وجوهــري في الوقت نفسه. ذلك أن نظــام اللغة نظــام معيــاري، يمكن تحديد الصواب من الخطــأ عند مستعمله استناداً إلى سنن العربية في النحو والصرف واللغة. فإذا أخطــأ الروائي استطاع الناقد تحديد خطئه استناداً إلى معرفته بهذه السنن، وإذا أصاب الروائــي استطاع الناقد الحكم على مستوى الفصاحة عنــده استناداً إلى السنن نفسها. ولن أكــرر هنا ما سبق لي قوله عن حاجــة الرواية إلى التدقيق في هذا المستوى اللغوي المعيــاري، ولكنني أرغب في التذكير بــأن معيارية النظام اللغوي العربي واضحة محدَّدة معروفة، سواء أكان الروائيون والنقاد يتقنون لغتهــم العربية أم كانــوا غير ذلك؛ لأن معرفة اللغة العربيــة والجهل بها، كلياً أو جزئياً، لا علاقــة لهما بكون نظام اللغة العربية معيارياً يحدد لمستعمله الصواب من الخطأ بوضوح.

أما نظــام الأسلوب ففــردي صرف، لا علاقة لــه بالمعيارية. أي أنــه نظام لرواية محدَّدة وليس نظامــاً لكل رواية. وهو نظام (لا يقبــل القياســ عليه، ولا يولــد نتيجة قياسه إلى نظام سابق عليه في الوجود. وما يفسر هذا الأمــر هو النص نفسه. فالنظام يولد معــه ويتشكل به، ولــذا فهو لا يصلح لإنتــاج أسلوب آخر أو أساليــب أخرى)(٩). هذه الفردية التي تسم نظام الأسلوب تعني، بتعبــير آخــر، أن لكل روايــة أسلوباً خاصاً لهــا، سواء أكانت الروايــة للروائي نفسه أم كانت لروائيين مختلفين. ومن ثَّم لا يستطيع الناقد تعميــم أسلوب معين علــى أساليب أخــرى مهما يكن هــذا الأسلوب جيداً، ولا يستطيع قياس ما فعله أسلوب من الأساليب في إحــدى الروايــات إلى ما فعلــه أسلوب سابــق في رواية أخرى، أو يمكــن أن يفعله أسلوب لاحــق في رواية لم تكتــب بعد. فما يصلــح لرواية من الروايات لا يصلح لرواية أخرى، تبعاً لاختلاف الروايات في الحوادث

والشخصيات والمواقف والرؤى. ومادمنا غير قادرين على قياس أسلوب إلى أسلوب آخر فنحن في مواجهة نظام فردي غير معياري.

ثم إننا، هنا، نملك نظامين مختلفين: نظاماً للغة ونظاماً للأسلوب، الأول معياري والثاني فردي، الأول سابق والثاني لاحق. ونحن نستطيع استناداً إلى النظام الأول إنتاج جمل لا حصر لها، ونملك في الوقت نفسه معياراً لصوابها وخطئها، ولكننا ننتج استناداً إلى نظام الأسلوب أسلوباً واحداً في كل رواية، لا يقاس عليه، ولا يتكرر في رواية أخرى. مايعني وجود اختلاف بين النظامين، أو أن هذين النظامين محكومان بالاختلاف. ومادام الأسلوب يصنع من اللغة، فهذا يعني أن أسلوبية الرواية نفسها معنية بالاختلاف[١٠] بين النظامين المكوّنين لها. ولابدّ للناقد، عندما يحلل أسلوبية الرواية، من توضيح هذا الاختلاف بين النظامين ليتمكن من معرفة طريقة الروائي في صنع أسلوبية روايته.

ولكن هذا وحده غير كاف؛ لأن هناك قضية أخرى، هي كون أسلوبية الرواية محكومة أيضاً بأمرين: أمر التقاليد البلاغية للأسلوب، وأمر حاجات بناء الجنس الروائي. ومن المفيد أن نوضح هذه القضية قبل الحديث عن المشكلات الأسلوبية التي تواجهنا في الواقع الروائي العربي. وفي التمهيد للحديث عن هذه القضية أقول: إذا كان المستوى اللغوي للأسلوب يجبر الروائي على التقيد بسنن اللغة العربية، فإن المستوى الإبداعي لهذا الأسلوب يجبره على الخضوع للتقاليد البلاغية للرواية، وإلى تجاوزها ليحقق إبداعه الفردي (من خلال هذا الموروث ذاته باستخدامه لطرق جديدة تكتشف عند التحليل)[١١]. كما يجبرهُ على الخضوع لحاجات البناء الروائي ليضمن انتساب نصه إلى الجنس الروائي. وهذا يعني أن (عوامل تحديد الأسلوب ليست راجعة للروائي وحده، بل تخضع للخصائص المميزة للأنواع الأدبية، وهي تُستَمدُّ عادة من الموروث العام للنوع. وكل نموذج يمكن أن يدرس من الداخل فحسب، فنتبين فيه آثار المبدع وآثار الموروث على السواء)[١٢]. كيف نفهم، إذن، علاقة الأسلوب الإبداعي الفردي ببلاغة الرواية وبحاجات بنائها مادامت علاقته بالمستوى اللغوي واضحة محددة؟.

الإحـــالات

١- د. فتح الله أحمد سليمان: الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية، الدار الفنية للتوزيع والنشر، القاهرة، ١٩٩٠.

٢- د. موسى سامح ربابعة: الأسلوبية، مفاهيمها وتجلياتها، ص٨٥ وما بعد.

٣- د. أحمد الزعبي: سلطة الأسلوب، دراسة في دروب الأسلوب الحاسم في تشكيل هوية النص النقدية، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٠.

٤- د. منذر عياشي: مقالات في الأسلوبية، ص٣١.

٥- انظر تفصيلات الحديث عن عمل باختين المستمد من كتابه (جمالية الرواية ونظريتها) في: د.حميد لحمداني: أسلوبية الرواية، مدخل نظري، ص ١٩ وما بعد.

٦- المرجع السابق، ص ٥٤.

٧- المرجع السابق، ص ٢١.

٨- المرجع السابق، ص ٣٣. والإشارة في الاقتباس إلى الأسلوبين الوصفي والدرامي هي إشارة إلى وجهة نظر بيرسي لوبوك في الكتابة الروائية، في كتابه (صنعة الرواية)، على أنها ذات أسلوبين: أسلوب وصفي خاص بالراوي السارد الذي يقدم للمتلقي كل ما يحتاج إليه لفهم الرواية، وأسلوب درامي خاص بالشخصيات الروائية.

٩- د. منذر عياشي: مقالات في الأسلوبية، ص١٠٤(بتصرف).

١٠-المرجع السابق نفسه.

١١-د. حميد لحمداني: أسلوبية الرواية، مدخل نظري، ص١٥. وقد سمّى الدكتور لحمداني المستوى مظهراً، وجعل مظاهر الأسلوب ثلاثة، هي: المظهر اللغوي، و المظهر الإبداعي، و المظهر الخاص بالنوع. ولكنني آثرت تسمية المظهر مستوىً انسجاماً مع سياق الدراسة، واكتفيت بمستويين، لغوي وإبداعي. ولا مشاحة في الاصطلاح مادام المفهوم واحداً.

١٢- المرجع السابق، ص١٠.

الهوامش والمصادر والمراجع

١- الارتقــاء غــير العادي الذي رَسَتْ إليه (اللغة العربيــة) في تاريخها ما قبل ظهور الإسلام يدل على حضــور قــديم لبنى ثقافية راقيــة لم تسرْ مناهجُ البحث العربي باتجـاه تحليلها واستنتاج حضور مصطلحاتهـا وأدبياتهـا في لغة العرب الباذخــة والنبيلة حتى حملها آخر كتــاب مقدس (القرآن الكريم).. فاللغةُ لا ترتفعُ (وحدها) فإن آلياتها التعبيرية لا تتطور إلا من عمق المتح الفكري بها واستدامتــه أزمانــاً طِوالاً.. تلك هي اللغة العربية وتلك الأزمــان الطِوال هي أزمان ما قبل ظهور الإسـلام في الجزيــرة العربية.. وتلك البنيــات الفكرية التي كانت قائمة حملهــا (الشعر) بصفته الحامــل العالي وربما الوحيــد.. تشكلت فيه وعبره (الثقافة العربيــة القديمة) فكأنه هي تماماً.. كان حاملاً إعلامياً لها فأخذته إلى حدود الإعجاز والبذخ.. وإنَّ الاستقراء غير العادي لهذا الإرث الشعــري واللغــوي يسمحُ ببدء تشكيل محاور أساسية من تلــك الثقافة العربية التي سبقت ظهور الإسلام.

٢- بعــد أكــثر مــن مئتي سنة من زوال الخلافــة العباسية / سقوط بغداد بالهجمــة المغولية الهولاكية ١٢٥٨ – ٦٥٦ هـ / سقطــت غرناطــة / ١٤٩٢ م – ٨٩٨ هـ / تاركةً حمولتهــا الثقافية الطويلة فوق الأراضي الأوروبية!

٣- الموناليــزا (الجوكونــدا) أشهــر لوحــات ليونــاردو دا فينتشــي (١٤٥٢ – ١٥١٩ م) متحــف اللوفر – باريس.

٤- الموسيقيون الثلاثة / ١٩٢١ م/ لوحة مشهورة لبيكاسو / متحف الفن الحديث – نيويورك.

٥- مسرح شكسبير / ١٥٦٤ – ١٦١٦ م/ الذي صعد تاريخياً من بدايات النهضة الأوروبية (بعيد سقوط غرناطــة) وتحــول اسمه ومسرحياتــه إلى أيقونات مقدســة في كل العالم.. واستمــر ذلك حتى هذه اللحظات الأولى من الألفية الميلادية الثالثة!

٦- بيتهوفــن (لودفيــغ فان) /١٧٧٠ – ١٨٢٧م/ من كبار الموسيقيين الألمان.. اشتُهر بسيمفونياته التسع ونشيد الفرح.

٧- إلياذة هوميروس **Iliade** ملحمة يونانية.. وهي من أيقونات الغرب المشهورة جداً تتألف من أربعة وعشرين نشيداً تروي أخبار حرب طروادة بين الإغريق والطرواديين.

٨- لسان العرب. ابن منظور المصري، دار المعارف – ج.م.ع (بيت).

٩- سورة البقرة، الآية (١٢٧).

١٠-سورة العنكبوت، الآية (٣١).

١١-سورة النحل، الآية (٦٨).

١٢-سورة الأعراف، الآية (٧٤) وسورة الحجر، الآية (٨٢) وسورة الشعراء، الآية (١٤٩).

١٣-سورة البقرة، الآية (١٨٩) وسورة النور (٦١) و(٢٧) و(٢٩) وسورة النحل (٨٠) وسورة الأحزاب (٣٣) و(٣٤).





كوبرنيكس:
أول رجال عصر النهضة

د. جهاد ملحم ❁

مــن بين أكثر الأشياء أهميــة أظهرها العلم لنا حــول مركزنا في الكون. نحــن بنو البشــر. هو أننا لسنا استثنائيين فيــه. وقد جاءت وجهة النظر هذه مع نيكولاس كوبرنيكس في القرن السادس عشر عندما اقترح أن الأرض ليســت مركز الكون، واكتسبت دعماً مع قدوم غاليلو غاليله، في أوائل القرن السابــع عشــر، عندما استخــدم التلسكوب (المقراب) للحصــول على دليل تجريبــي حاسم يثبت بأن الأرضــ تدور فعلياً حــول الشمس. وفي موجات الاكتشافــات الفلكية المتعاقبة في القــرون التالية، تبيّن الفلكيون من خلالها

❁ ناقد وأستاذ جامعي.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

أن الأرض ليست سوى كوكبٍ عاديٍ تماماً، لا يعادل ذرة صغيرة في هذا الكون الفسيح. فالشمس ليست سوى نجمٍ عاديٍ واحد من عدة مئات المليارات من النجوم في مجرتنا المعروفة بدرب التبانة. ومجرة درب التبانة بدورها ليست إلا مجرة اعتيادية واحدة من عدة مئات المليارات من المجرات في الكون المنظور. وحتى الكثير من علماء الفلك أنفسهم اقترحوا في نهاية القرن العشرين أن الكون ذاته قد لا يكون فريداً، بل قد توجد هناك أكوان أخرى.

وفي سياق هذا التطور الحاصل، حاول علماء البيولوجيا مطوّلاً في اكتشاف أي دليل على «قوة حياة خاصة» تميز المادة الحية عن المادة الجامدة لكن من دون جدوى. صار واضحاً بالنسبة لهم أن الحياة في حقيقتها ليست سوى شكل معقد من أشكال الكيمياء فحسب. وكمصادفة سعيدة للمؤرخين، وواحدة من الحوادث البارزة عند بداية التقصي البيولوجي لجسم الإنسان ظهرت مع طباعة كتاب «في بنية جسم الإنسان» لـ /اندرياس فيساليوس/ عام ١٥٤٣، في العام ذاته الذي طبع كوبرنيكس فيه أخيراً كتابه «في دوران الأجسام السماوية». هذا التزامن يجعل من العام ١٥٤٣ علامة ملائمة تؤشر لبداية الثورة العلمية التي سوف تغيّر أوروبة أولاً والعالم ثانياً.

ومن الطبيعي، فإن أي اختيار لبداية تأريخ تاريخ العلم هي مسألة كيفية، والتفسير المنطقي لهذه النقطة أنها تكون مقيدة جغرافيّاً، ومقيدة أيضاً بالقدر نفسه بامتداد الزمن الذي تغطيه .لذلك سنحاول في هذا البحث أن نلخص بداية تطور العلم الغربي منذ عصر النهضة (تقريباً) من خلال حياة الراهب البولندي الشهير، وهو تطور استمر متصاعداً بشكل مدهش حتى يومنا الحالي. وعلينا في هذا المجال أن لا نغفل إنجازات أخرى تمت على أيدي كلٍ من اليونانيين القدماء، الصينين، العلماء المسلمين وكذلك الفلاسفة الذين قاموا بالكثير للحفاظ على أن تبقى عملية البحث عن المعرفة في عالمنا حية خلال الفترة التي يشار فيها إلى أوروبة بالعصور الوسطى والمظلمة. وهذا يعني أننا سنسرد قصة متماسكة، مع بداية واضحة في المكان والزمان، مع نظرة عالمية متطورة تقع في قلب فهمنا للكون، وموقعنا اليوم فيه. وفيما يخص حياة الإنسان، وهذا لسوء الحظ لا يريح الكثيرين منّا، فقد تبيّن أنها لا تختلف عن أية حياة أخرى موجودة على الأرض. فمع رسوخ أعمال تشارلز داروين و/

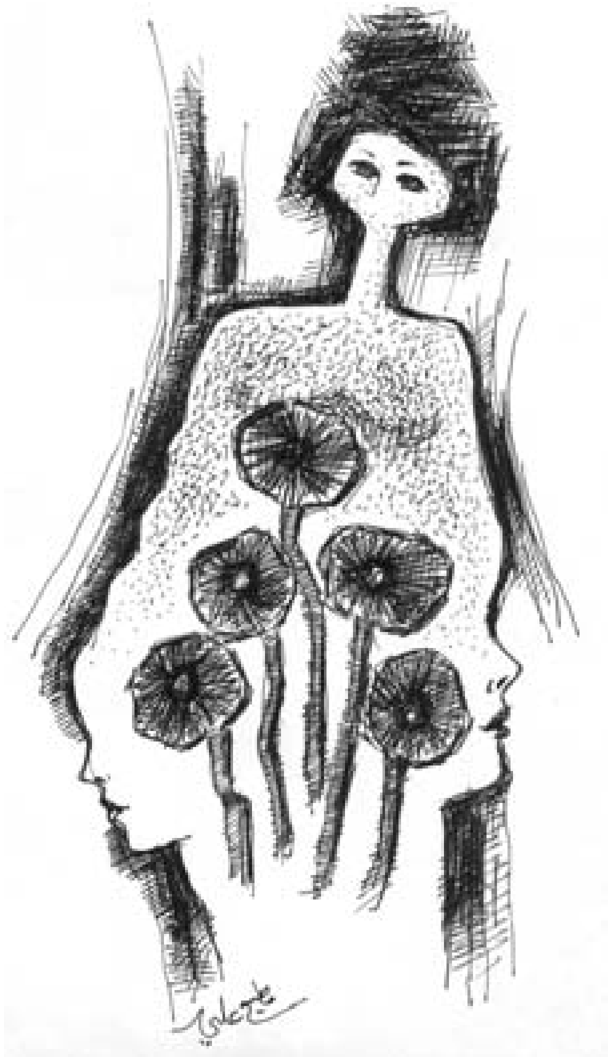
ألفريــد والاس/ في القرن التاسع عشر، بدا واضحاً أن كل مــا نحتاجه لنشوء الكائنات البشرية من الأميبات (وحيدات الخلية) هي عمليــة التطور بالانتخاب الطبيعي، والمديد المديد من الزمن.

تلقي جميع الأمثلــة التي سنذكرها هنا الضــوء على سمات أخــرى ممتعة ومفيدة لعملية سرد قصة تاريخ التطور العلمي. من الطبيعي أن ننســب الحوادث الأساسية إلى أعمال أشخاصــ منفردين سجلوا علامات بارزة في ميدان العلوم. من أمثال كوبرنيكس، فيساليوس، داروين، والاس، والبقية. لكن لا يعنــي هذا أن العلم قد تطــور فقط نتيجة لعمل مجموعة من الأفــراد العباقرة يتعذر الاستعاضة عنهم، نظراً لما يملكون من نفاذ بصيرة خاصة حول كيفية عمل الكون. يمكن للعباقــرة أن يفعلوا ذلــك (مع أن ذلك ليس أمــراً قطعياً) ؛ لكن أن يتعــذر الاستعاضة عنهم فأمــر مشكــوك فيه. يُبنــى التقدم العلمي خطوة فخطوة، والمثال الذي يقدمه كل مــن داروين ووالاس يبين أنــه، عندما يكــون الزمن ملائماً، يمكن لفــرد أو اثنين أن يأخــذوا الخطوة التالية كل واحد منهما بشكل مستقل عن الآخر. إنها ضربة الحظ، أو المصادفة التاريخية، هي من ستبقي اسمه خالداً مع الزمن كمكتشف لظاهرة جديدة. لنتذكــر دومــاً أن التطــور التكنولوجي هو في أغلب الأحيان أكــثر أهمية من العبقرية الإنسانية، لذلك لن يكون مستغرباً أن تتزامن بداية الثــورة العلمية مع نشوء التلسكوبات، والميكروسكوبات (المجاهر).

الانبعاث من الظلام

كانــت بداية عصر النهضــة هي الزمن الذي فقد الأوروبيون الغربيون فيه رهبتهم من «القدمــاء» وأدركوا أن لديهم الكثير كي يساهموا به إلى الحضارة والمجتمع بمقدار ما ساهم كل من اليونانيين والرومان والعرب والفرس وأقوام أخرى. وبالنسبة للمراقبين المعاصريــن، ليست الأحجية بــأن ذلك قد حصل، بل بمقدار ما استغرق الناس طويلا من الزمن كي يتخلصــوا من عقدة النقص لديهم. أما الأسباب التفصيلية لهذه الثغرة في التفكــير البشري، وهي كثــيرة ومتنوعة، فتقع خارج هدف هذا البحث. لكن أي شخص كان قد زار مواقــع الحضارات الكلاسيكية القديمة حول البحر الأبيض المتوسط يمكن أن يكوّن لمحة عــن الكيفية التي استطاعت بها شعوب العصور المظلمة (في حدود زمنية، تــتراوح تقريباً من العام ٤٠٠ إلى العام ٩٠٠ بعــد الميلاد) وحتى أولئــك شعوب العصور

الوسطى (ما بين ٩٠٠ إلى ١٤٠٠) أن تتلمس ذلك الطريق. فوجود آثار عظيمة مثل البانتيون (هيكل مكرس لجميع آلهة الإغريق) والكولوسيوم (مدرج رومة القديم) وأهرامات الجيزة في مصر، لا تزال جميعاً توحي بالرهبة حتى اليوم. وفي زمن فقدت فيه معرفة مكتملة عن كيفية بناء مثل هذه الأوابد، فغالباً ما يقال بأنها من أعمال أجناس مختلفة عن الجنس البشري. أو أنها من صنع الآلهة. مع مثل هكذا دلائل مادية لما يبدو براعة فائقة شبيهة بأعمال آلهة «القدماء» من حولنا، ومع النصوص المكتشفة حديثاً التي توضح النبوغ الفكري للشعوب القديمة الواقعة تحت سيطرة بيزنطة، يصبح طبيعياً أن نتقبل أنه كان لديهم مفكرون عباقرة



جعل الناس العاديين يسيرون وراءهم ويتقبلوا تعاليم فلاسفتهم الأقدمين من أمثال أرسطو وإقليدس وآخرين كنوع من الكتب المقدسة لا تخضع للشك والريبة. وفي الواقع، كان ذلك هو الطريق التي سارت عليها الأشياء في بداية عصر النهضة[1]. وباعتبار أن الرومان ساهموا قليلاً جداً في البحث الذي يمكن أن يسمى الآن بالنظرة العلمية للعالم، فقد عنى هذا في زمن عصر النهضة أن تبقى

الحكمــة المتوارثة حول طبيعــة الكون ثابتة بشكل جوهري من الأيام العظيمة لليونانيين القدماء، أي قبل حوالي ١٥٠٠ سنة من قدوم كوبرنيكســ إلى مسرح الأحداث. ومع ذلك، مــا أن تمَّ تحدي هذه الأفــكار مرة واحدة، حتى بدأ تقدم سريع بشكل مثير. بعد خمسة عشر قرن من الجمود، هناك أقل من خمسة قــرون من زمن كوبرنيكســ إلى يومنا هذا. إنهــا مفارقة إلى حد كبــير، لكنها مع ذلك حقيقة، أن يشعر الإيطالي العادي من القرن العاشر بأن وطنــه في القرن الخامس عشر أكثر جمالاً، في حين أن الإيطالي العادي من القرن الخامس عشــر سيكتشف أن إيطاليا القــرن الواحد والعشرين أكــثر غرابة عما كانت عليه إيطاليا القيصرية.

أناقة كوبرنيكس

يُعَــدُّ كوبرنيكس في حــد ذاته شخصية وسيطيــة بــارزة في الثــورة العلميــة، وهو بطريقــة ما يشابه الفلاسفة اليونانيين أكثر مما يشابه علمــاء اليوم. فهو لم يقم بإجراء تجــارب، أو حتى يرصــد بنفسه السماوات (ليس إلى أي درجة ذات دلالة، على الأقل)، ولم يتوقع من أي أحد آخر أن يختبر وجهات نظره. كانت فكرته الكبيرة عن الكون مجردة بشــكل خالص. يمكن أن نطلق عليها اليوم في بعض الأحيان تجربة فكرية، حيث مثّلت طريقة جديدة أبسط لتفسير سلوك الأجسام السماوية للعيِّنة ذاتها التي كانت قد فسرتها أنظمة أكثر تعقيداً استنبطها بطليموس من قبــل (أو أعلــن عنهــا). إذا كان لدى عالم حديــث فكرة لامعة عن الطريقة التي يعمل بها الكــون، فسيصبح هدفــه الأول إيجاد طريقة لاختبار فكرته عــن طريق التجربة أو الرصــد، ليعلم كم تكــون هي مناسبة في وصف الكــون أو تفسيره. لكن هذه الخطوة الأساسيــة في تطويــر الطريقــة العلمية لم يكــن يُعمل بهــا في القــرن الخامس عشر، ولم تخطــر ببال كوبرنيكســ أبداً كي يختبر فكرته. أي نموذجه الذهني عن كيفية عمل الكون. سواء بقيامه بعمليات رصد من تلقاء نفســه، أو بتشجيع الآخرين للقيام بعمليات رصد جديــدة. بالنسبــة لكوبرنيكس، كان نموذجه أفضل من نمــوذج بطليموس لأنه، وفق التعبير الحديث، أكثر أناقة. الأناقة في أغلــب الأحيان هي مرشد موثوق عن فائدة النموذج، لكن غير معصوم عن الخطأ. ومع ذلك، في هذه الحالة، فقد حصل أن حدس كوبرنيكس كان صحيحاً.

من دون ريب، كان النظام البطليمي يفتقد إلى الأناقة. عاشــ بطليموس (الذي يعرف

في بعض الأحيان ببطليموس الاسكندراني) في القرن الثاني الميلادي، وقد ظهر في مصر التي كانت واقعة منذ فترة تحت تأثير الثقافة اليونانية (كما يستدل من السجلات على اسم المدينة التي عاش بها).لا يعرف إلا القليل عن حياته، لكن من بين الأعمال التي تركت للأجيال اللاحقة ملخص ضخم عن علم الفلك، مبني على حصيلة ٥٠٠ عام سابق من التفكير الكوسمولوجي والفلكي في بلاد الإغريق. يعرف الكتاب بعنوانه العربي، المجسطي، والذي معناه «الأكبر»، ويعطيك فكرة ما عن الطريقة التي كان ينظر بها إليه في القرون التي أعقبته ؛ عنوان النسخة الإغريقية الأصلية تصفه ببساطة «التصنيف الرياضي». وهذا النظام الفلكي أبعد من أن يكون فكرة بطليموس لوحده، لكن يبدو أن هذه الأفكار العائدة لليونانيين القدماء هو من نقّب عنها وطورها. وبما لا يماثل كوبرنيكس، على أية حال، يبدو أن بطليموس قد أنجز بنفسه عمليات الرصد الرئيسية لحركات الكواكب، بالإضافة إلى استخلاص ما قام به أسلافه (قام أيضاً بتصنيف خرائط النجوم المهمة).

يقوم أساس النظام البطليمي على فكرة أن الأجسام السماوية يجب أن تتحرك في دوائر تامة، لأن الدوائر ببساطة هي الكمال المطلق (هذا هو مثال يبين على أن الأناقة لا تؤدي بالضرورة إلى الحقيقة!) في ذلك الوقت، كان معلوماً أن هناك خمس كواكب تتحرك دائرياً (عطارد، الزهرة، المريخ، زحل، والمشتري)، إضافة إلى الشمس والقمر والنجوم. ولكي نجعل الحركات المسجلة لهذه الأجسام تتوافق مع متطلبات الحركة الدائمة التامة للكرات، كان على بطليموس أن يدخل تعديلين رئيسيين على فكرة أن الأرض تقع في مركز الكون وأن كل شيء يدور حولها .الأول (الذي كان يعتقد به منذ زمن طويل) هي أن حركة خاصة لكوكب ما يمكن تفسيرها بالقول إنها تتم على دائرة صغيرة تامة حول نقطة والتي بدورها تتحرك على دائرة كبيرة تامة حول الأرض. التعديل الثاني الذي يبدو أن بطليموس أعاد تنقيحه بنفسه، هو أن الكرات البلورية الضخمة، كما أصبحت معروفة (بلوري يعني تماماً أنه غير مرئي ضمن هذا السياق)، التي تحمل الأجسام السماوية في كرات دائرية لا تدور فعلياً حول الأرض، بل تدور حول مجموعة من النقاط تنبثق بنعومة من الأرض، تدعى نقاط الاستواء (حول نقاط استواء مختلفة، لتفسر تفاصيل حركة كل جسم على انفراد).

لا تزال الأرض تُعدُّ جسماً مركزياً في الكون، لكن أي شيء آخر عليه أن يدور حول نقاط الاستواء، وليس حول الأرض نفسها. أما الدائرة الكبرى المتمركزة على نقطة الاستواء فتدعى بالدائرة الناقلة.

عمل النموذج، في السياق الذي يمكن أن نستخدمه لتفسير الطريقة التي تبدو فيها حركة الشمس، القمر والكواكب الأخرى إزاء ستارة خلفية من النجوم الثابتة (ثابتة بمعنى أنها جميعا تحافظ على العيّنة ذاتها بينما تتحرك معاً حول الأرض)، والتي يعتقد أنها جميعاً مرتبطة مباشرة إلى كرة بلورية تقع مباشرة خارج مجموعة الكرات البلورية المتداخلة التي تحمل أجساماً أخرى حول نقاط الاستواء ذات الصلة. لكن لم توجد هناك محاولة لتفسير المراحل الفيزيائية التي حافظت على كل شيء متحركاً بهذه الطريقة، ولا لتفسير الطبيعة البلورية للكرات. علاوة على ذلك، كان النقد الموجه إلى الجملة على الغالب أنها معقدة على نحو غير ملائم، بينما الحاجة إلى نقاط استواء جعلت الكثير من المفكرين مرتبكين . لقد أدت إلى تزايد الشكوك فيما إذا كانت الأرض يجب أن تعتبر فعلياً مركز الكون. يوجد هناك فكرة معادلة بأن تكون الشمس هي مركز الكون (تعود هذه الفكرة بالرجوع مباشرة في الزمن إلى الوراء حتى أيام ارستارخوس، في القرن الثالث قبل الميلاد، لنراها تنتعش بين الفينة والأخرى في القرون التي أعقبت بطليموس)، وأن الأرض تدور حولها. لكن مثل هذه الأفكار لم تلق قبولاً، لأنها تعارض إلى حد كبير الإحساس العام. فمن الجلي، أن الأرض الصلبة لا يمكن أن تكون متحركة؛ وهذا هو أحد الأمثلة الرئيسية لضرورة تجنب العمل على أساس الإحساس العام إذا كان عليك معرفة كيف يعمل العالم.

هناك حافزان نوعيان شجعا كوبرنيكس لأن يأتي بشيء ما أفضل من نموذج بطليموس. الأول، أن كل كوكب، إضافة إلى الشمس والقمر، يجب معالجته بشكل منفصل في النموذج، بانطلاقه الخاص به من الأرض وبدوائره الفرعية الخاصة به. لايوجد هناك توصيف كلي متماسك للأشياء لتفسير ماهو حاصل. والحافز الثاني، أن هناك مسألة نوعية كان الناس مدركين لها منذ أمد طويل لكنها كانت موضوعة على بساط البحث والمناقشة. ذلك أن انبعاث مدار القمر من الأرض، والذي هو متطلب ضروري لتفسير التغيرات في السرعة التي

يتحـــرك بها القمر عبر السمـــاء، كان كبيراً على النحو المشار إليه مما يقتضي أن يكون القمـــر في بعض الأوقات مـــن الشهر أقرب بشكل فعال إلى الأرضـــ من أوقات أخرى. أي أن حجمه الظاهري يجب أن يتغير بشكل معتبر (وبكمية حسابيـــة)، ومن الواضح أن هـــذا لا يحصل فعلياً. بمعنـــى من المعاني، فإن نظام بطليموس يقـــوم على تنبؤ يمكن اختبـــاره والتحقق منه بالرصـــد والقياس. وبمـــا إن محاولات الاختبار فشلت في إثبات صحة التنبؤ، لذلك لن يكون النموذج المذكور صالحاً لتفسير الكون. وبما أن كوبرنيكس لم يكن يفكر على هذا النحو، لذلك من المؤكد فالمسألـــة المتعلقة ببعد القمـــر عن الأرض جعلته مرتبكاً حول نموذج بطليموس.

قـــدم كوبرنيكســـ إلى مســـرح الحيـــاة في نهايـــة القـــرن الخامس عشـــر. ولد في تورون،وهي قرية بولونية على نهر الفيستولا، في الشهر التاسع عشـــر شباط ١٤٧٣، وقد عرف في البداية باســـم ميكولاي كوبرنيك، لكـــن فيما بعد أخذ اسمـــه اللاتيني (كانت عملية تغيير الاســـم شائعة في ذلك الوقت، خصوصاً بين رجال عصـــر النهضة). مات والده،و كان تاجـــراً موسراً، في العام ١٤٨٣ أو ١٨٨٤، فتربـــى نيكولاســـ برعاية خاله، لوكاســـ واتسزنـــرود، الذي أصبـــح أسقف كنيســـة أرميلاند. في العام ١٤٩١ (قبل سنة فقط من انطلاق كريستـــوف كولومبس في أول رحلـــة إلى الأمريكتين)، بـــدأ نيكولاس دراسته في جامعة كراكـــو، حيث ظهر لديه أول اهتمـــام جـــدي بعلم الفلـــك. سافر في العـــام ١٤٩٦ إلى إيطاليـــا لدراسة القانون والطب، بالإضافة إلى دراسة الكلاسيكيات المعهـــودة والرياضيـــات، في بولونيا وبادوا، قبـــل أن يحصل على الدكتـــوراه في القانون الكنسي مـــن جامعة فيرارا في العام ١٥٠٣. وكالكثيريـــن جداً مـــن رجال عصـــره، تأثر كوبرنيكســـ بقـــوة بالحركـــة الإنسانية في إيطاليـــة ودرس الكلاسيكيات المرافقة لهذه الحركـــة. وفي الواقع، في عـــام ١٥١٩، طبع مجموعـــة مـــن القصائد الشعريـــة للأديب ثيوفيلوســـ سيموكاتـــا (من القـــرن السابع البيزنطـــي)، قـــام بترجمتها مـــن نسختها الإغريقية الأصلية إلى اللاتينية.

في الوقت الذي أنجز فيه شهادة الدكتوراه، عُيِّنَ كوبرنيكس مباشرة ككاهن في كاتدرائية فرومبورك في بولندة من قبل خاله لوكاس. حالة محاباة موجودة لـــدى الأقارب أعطته منصباً يرقـــى إلى مستوى الوظيفة العاطلة (منصـــب لا يقوم صاحبه بأي عمل يتناسب

مع راتبه الكبـــير)، والتي حافظ عليه طوال حياته. لكن حتى العام ١٥٠٦ لم يكن قد عاد إلى بولندة بشكل نهائي (يعطيك ذلك فكرة عما كانت عليـــه متطلبات الوظيفة تماماً)، ليعمل عند خاله كطبيب وسكرتير حتى مات لوكاســـ في العــــام ١٥١٢. وبعد موت خاله، أعطى كوبرنيكس مزيـــداً من الاهتمام إلى واجباتـــه الكنسية، إضافة إلى عمله كطبيب ممارس وشغل عـــدة وظائف مدنية صغيرة، جميعها أعطته مزيـــداً من الوقت ليحافظ على اهتماماته في علـــم الفلك. أما أفكاره الثوريـــة حول مكان الأرضـــ في الكون فقد تمت صياغتها مباشرة مع نهاية العقد الأول من القرن السادس عشر.

الأرض تتحرك!

لم تظهـــر هذه الأفكار مـــن فراغ، وحتى من خلال مساهمتـــه الرئيسية إلى التفكير العلمـــي (تعّد في بعض الأحيـــان المساهمة الأهم إلى التفكير العلمي) لايزال كوبرنيكس معتبراً رجل عصره.تتأكـــد استمرارية العلم بوضوح(واعتباطية بداية تأريخ التواريخ) من حقيقـــة أن كوبرنيكس تأثر بقوة بكتاب طبع في العام ١٤٩٦، تماماً في الوقت الذي أصبح فيـــه التلميذ ابن ثلاث وعشرين عاماً مهتماً بعلم الفلـــك. كان مؤلف الكتاب هو الألماني جوهانس موللر (ولد في كونجسبيرغ في العام ١٤٣٦، ومعروف أيضاً بـ/رجيومونتانوس/، النسخة اللاتينيـــة لاسم مكان مولده)، وهو مـــن طوّر أفكار زميله الأقدم وأستاذه جورج بيورباـــخ (المولود في العـــام ١٤٢٣)، والذي تأثر (من دون ريب) من أناس آخرين، وأيضاً رجوعـــاً إلى الوراء في ضبـــاب الزمن. شرع بيورباخ في إنتاج ملخص حديث (كان ذلك، في القـــرن الخامس عشر) لكتاب بطليموس المسمى الماجسطي. والنسخة التي كانت في المتناول في حينه هـــي نسخة لاتينية طبعت في القـــرن الثاني عشر مـــن قبل جيرارد من مدينـــة سريمونا، مترجمة عـــن نص عربي مترجم بدوره عن الإغريقية قبل زمن طويل. كان حلـــم بيورباخ هو عصرنـــة هذا العمل بالرجـــوع إلى أقـــدم النصوصـــ الإغريقية المتيسرة (بعض منها موجود الآن في إيطاليا على أثـــر انهيـــار القسطنطينيـــة). ولسوء الحـــظ، فقد توفي في العـــام ١٤٦١، قبل أن ينجز مهمته، على الرغم من أنه بدأ بكتاب تمهيـــدي يلخص طبعـــة الماجسطـــي التي كانت متاحة وقتها. وعلى فراش موته، أخذ بيورباخ وعداً من/ رجيومونتانوس / لإكمال العمـــل، الذي قـــام به، على الرغـــم من أن الترجمة الجديـــدة لبطليموس لم تنجز بعد.

لكن رجيومونتانوس قام بشيء ما هو أفضل من عدة وجوه، مخرجاً كتابه الخلاصة The Epitome//، والذي لا يلخص محتويات الماجسطي فحسب، لكنه يضيف تفاصيل لآخرعمليات رصد السماوات، منقحاً بعضاً من حسابات بطليموس التي أنجزها وتضمنت بعضاُ من التعليقات الحرجة في النص (هي في حد ذاتها إشارة على الثقة بمكانة رجل من عصر النهضة كمعادل للقدماء). تضمن التعليق حادثة تثير الانتباه إلى نقطة أساسية كنا قد ذكرناها سابقاً، وهي حقيقة أن حجم القمر الظاهري في السماء لا يتغير بالطريقة التي يتطلبها نظام بطليموس. على الرغم من موت رجيومونتانوس في العام ١٤٧٦، فإن كتاب الملخص لم يطبع إلى ما بعد عشرين سنة أخرى، هو الكتاب الذي أطلق تفكير الشّاب كوبرنيكس من عقاله. لقد ظهر قبل موت رجيومونتانوس، أن هناك احتمال أن يكون شخص ما، ليس سوى كوبرنيكس (الذي كان في الثالثة من عمره في العام ١٤٧٦)، قد التقط العصا.

لم يكن كوبرنيكس نفسه متسرعاً لطباعة أفكاره هذه. نحن نعلم أن نموذجه هذا عن الكون قد اكتمل بشكل أساسي عام ١٥١٠، لأنه بعد ذلك بقليل بعث ملخصاً لتلك الأفكار إلى أصدقائه المقربين منه، على شكل مخطوط دعاه «تعليق صغير» (Little Commentary). لايوجد دليل على أن كوبرنيكس كان مهتماً كثيراً بمخاطر المضايقة من الكنيسة فيما لو طبع أفكاره بشكل رسمي. في الواقع، تمّ شرح المخطوط المذكور في محاضرة في الفاتيكان بحضور البابا كليمنت السابع وعدد من الكرادلة، ألقاها السكرتير البابوي جوهان ويدمانستادت. كتب أحد الكرادلة، وهو نيكولاس فون شونبرج، إلى كوبرنيكس محفزاً إياه لنشر مخطوطته، وقد أدرجت هذه الرسالة في مقدمة كتابه الرفيع المستوى، «في دوران الأجسام السماوية»، حين وضع كوبرنيكس في نهاية المطاف كل أفكاره فيه، في العام ١٤٥٣.

لكن ما هي الأسباب التي أدت لتأخير طباعة الكتاب؟ هناك سببان لهذا التأخير. الأول، هو أن وقت كوبرنيكس كان ممتلئاً دوماً. ويمكن أن نعزو السبب إلى موقعه ككاهن متفرغ، دون أن يعني ذلك أنه راغب في أن يجلس على كرسي الوظيفة ويستمتع بمرتبها، يتابع هوايته في علم الفلك وينسى العالم الخارجي من حوله. فقد عمل

كوبرنيكس طبيباً لصالح المجمع الديني في جوار كاتدرائية فرومبروك ولصالح الفقراء (بالطبع، دون أن يدفعوا أجراً). وعمل كرياضياتي على خطة لإصلاح ماهو شائع (ليست المرة الأخيرة الذي يتبنى فيها عالم مشهور هذا الدور)،حيث استخدمت الكنيسة توجيهاته في القانون استخداماً جيداً. كما أصبح منشغلاً أيضاً في أعمال غير متوقعة حين قام الفرسان النيوتونيون (منظمة ميليشاوية دينية، قريبة إلى الصليبيين، سيطرت على بروسيا وولايات شرق البلطيق) باجتياح المنطقة في عام ١٥٢٠. فقد أوكلت إلى كوبرنيكس مهمة الإشراف على قلعة /ألنستاين/ والدفاع عنها، فاستطاع أن يصمد مع البلدة ضد الغزاة لعدة شهور. حقاً، لقد كان رجلاً مشغولاً جداً.

أما السبب الثاني لممانعته طباعة الكتاب فهو معرفة كوبرنيكس أن نموذجه عن الكون يطرح أسئلة جديدة، حتى لو أجاب عن بعض الأحجيات القديمة. هو يعلم أنه لا يجيب عنها جميعاً. وكما قلنا سابقاً، فإن كوبرنيكس لم يقم بالكثير من عمليات الرصد (على الرغم من أنه عاين بناء برج غير مسقوف لاستخدامه كمرصد). كان مفكراً وفيلسوفاً وفق النمط الإغريقي القديم أكثر مما هو وفق النمط العلمي الحديث. الشيء الذي أزعجه أكثر من أي شيء آخر كان يدور حول نظام بطليموس، مثّله سابقاً لغز القمر، هو مسألة المتساويات (equants). لم يستطع تقبل الفكرة، ليس أقله بسبب أنها تحتاج متساويات مختلفة لكواكب مختلفة. أين يكون، في تلك الحالة، المركز الفعلي للكون؟ لقد رغب في نموذج يكون كل شيء فيه متحركاً حول مركز وحيد بمعدل ثابت، وأراد هذا لأسباب جمالية أكثر من أي شيء آخر. كان نموذجه مقصوداً منه كطريقة لإنجاز تلك الفكرة،و بمصطلحاته الخاصة، فشل في ذلك. لكن وضعه الشمس في مركز الكون يعدّ خطوة كبيرة وخطيرة. لكن لا يزال واجباً عليه وضع القمر في مداره حول الأرض، ولا يزال أيضاً بحاجة لأفلاك تدوير لتفسير كيف تبدو الكواكب تتباطأ وتتزايد في سرعاتها على مداراتها.

كانت أفلاك التدوير (دوائر صغيرة تدور مراكزها على محيط دوائر أكبر منها) تمثّل طريقة للحصول على انحرافات عن الحركة الدائرية التامة، بينما كان الاعتقاد السائد هو عدم وجود انحرافات عن الحركة الدائرية التامة. لكن المسألة الأكبر من وجهة نظر كوبرنيكس عن العالم كانت

حول النجوم. إذا كانـت الأرض تدور حول الشمس وكانت النجـوم ثابتة بالنسبة لكرة بلورية تقع مباشـرة خارج الكرة التي تحمل أكثر الكواكب بعـداً، عندئذ يجب أن تسبب حركة الأرض حركة ظاهرية للنجوم ذاتها. ظاهرة معروفة باختلاف المنظر Parallax. فعندما تجلسـ في سيارة تسير على طريق، سيبدو لك العالم من حولك يتحرك بالنسبة إليك. إذا كان الأمـر كذلك، فلماذا لا ترى النجـوم تتحرك، عندمـا تجلس على أرض متحركة؟ التفسير الوحيد الذي يظهر لنا هو أن النجوم يجب أن يكون بعدها عن الأرض أكبر بكثير من بعد الكواكب عنها، بحيث إن مفعول اختلاف المنظـر صغير جداً لدرجة لايمكن رؤيته. أما لماذا يترك الله جلّ جلاله فضاءاً هائلاً فارغاً، أكبر بمئات المرات على الأقل من الفتحـات بين الكواكب، بين أبعد الكواكب خارجياً وبين النجوم، فهذه مسألة يستحيل تفسيرها؟

هنـاك مسائل مزعجة أخـرى تنشأ مع اعتبارنا أن الأرض متحركة. إذا كانت الأرض تتحرك، فلماذا لا توجد عاصفة مستمرة من الريـح هبّت من الماضي، شبيهة بالريح التي تحرك شعرك عندما تكون في سيارة مفتوحة من الأعلى تسير على طريق سريعة؟ لماذا لا تجعل الحركة المحيطات تقذف الماء، منتجة أمواج مديـة ضخمة؟ وفي الحقيقة، لماذا لا تفتت الحركة الأرض إلى قطع صغيرة؟ تذكر أنه في القـرن السادس عشر، كانت الحركة السريعـة تعني الركوب على حصان يعدو أو في عربة تندفع على طرق مليئة بالأخاديد. مفهوم الحركة على سطـح مصقول (حتى لو كان مصقولاً كحركـة سيارة على طريق سريعـة) يصعـب الإمساك بـه دون خبرة مباشرة عن هذه الحركة. حتى أواخر القرن التاسع عشر كان هناك قلق جدي بأن السفر بسرعة قطـار السكة الحديدية، التي يمكن أن تصل حوالي خمسة عشر ميل في الساعة في ذلك الحين، قد يشكل خطراً على صحة الإنسـان. لم يكـن كوبرنيكسـ فيزيائياً ولم يحاول حتى الإجابة على هذه الأسئلة، لكنه أدرك أنها تلقي شكـوكاً (من منظور القرن السادس عشر) على أفكاره.

توجد هناك مشكلة أخـرى، تقع تماماً خـارج مدى معارف القـرن السادس عشر. إذا كانـت الشمسـ تقع في مركـز الكون، فلمـاذا لا يقع أي شيء فيه؟ كل ما يمكن أن يقوله كوبرنيكسـ أن الأشياء الترابية تميل لأن تسقط على الأرض، والأشياء الشمسية تميل لأن تسقط على الشمس، والأشياء التي

لها إلفة مع المريخ سوف تسقط على المريخ، وهكذا. ما كان يعنيــه فعلياً، نحن لا نعلمه تماماً. لكن أحد أهم الدروس التي تعلمناها عبر القرون منذ كوبرنيكس، وحتى اليوم، هو أن النمــوذج العلمي ليس عليه أن يفسر كل شيء عدا كونه نموذجاً جيداً.

بعد قدوم جــورج جواشيم فون لاوشين (معروفاً أيضاً بــ ريتكوس) إلى فرومبورك في ربيــع ١٥٣٩، اقتنــع كوبرنيكس، بالرغم مــن شكوكه الكثــيرة وأوقاتــه المشغولة، أنَّ عليه وضع أفكاره على شكل يمكن طباعته. وريتكوس، الــذي كان أستاذ الرياضيات في جامعة ويتنــبرج، سمع عن عمل كوبرنيكس، فقدم إلى فرومبورك خصوصاً ليتعلم حوله الكثير ؛ لقــد أدرك أهميته، وقرر الحصول على إذن من رب العمل كي يطبعه. لقد عمل الاثنــان معاً بشكل جيــد، وفي العام ١٥٤٠، طبع ريتكوســ كراساً بعنــوان : أول تفسير لكتــاب كوبرنيكس الثوري، (يشار إليه عادة للتبسيــط بالتفســير الأول) ملخصاً الميزة الأساسية لنموذج كوبرنيكس، حركة الأرض حول الشمســ. في الأخير، وافق كوبرنيكس على طباعة كتابه الكبــير، ربما لأنه أصبح الآن رجلاً عجوزاً. أخذ ريتكوس على عاتقه معاينة طباعة كتابه في نورمبيرغ، حيث كان يقيــم هناك، لكن (كما اعتــاد أن يقول) أن الأشياء لم تعمل تماماً كما كان هو يريد. كان علــى ريتكوس أن يباشــر وظيفة جديدة في لايبــزغ قبل أن يصبح كتابــه جاهزاً بشكل كامل للطباعــة، وأوكل المهمة إلى أندرياس أوسياندر، الوزيــر اللوثري، الذي أخذ على عاتقــه إضافة ملخص غير موقّع يشرح فيه بــأن النمــوذج الموصــوف في الكتاب لم يكن مقصــودا لتفسير الطريقة التي يكون عليها الكــون فعلياً، بــل كأداة رياضيــة لتبسيط الحسابات التــي تتضمن حركات الكواكب. وكمنتــمٍ إلى العقيــدة اللوثريــة، كان لدى أوسيانــدر كل سبب للخــوف من أن الكتاب يمكن أن لا يتم تقبله بشكل جيد، لأنه حتى قبل ذلك كان قد أعلن مارتن لوثر بحد ذاته (مؤسس المذهب البروتستانتي والمعاصر على وجــه التقريــب لكوبرنيكس،عاش من عام ١٤٨٣وحتــى عام ١٥٤٦) بأنه يعارض بشدة نموذج كوبرنيكس، ويشــدد على أن الكتاب المقدســ يخبرنا أن الشمس، وليست الأرض هــي من تبقى ساكنة، حســب ما أمر يوشع به.

ليس لدى كوبرنيكس فرصة للتذمر من الملخصــ نظراً لأنه قد توفي في عام ١٥٤٣، السنــة التي طبع فيها عمله الضخم. هناك

روايــة مقاربة، مشكــوك في صحتهــا، أن كوبرنيكس استلم نسخة منه وهو على فراش الموت، لكن فيما إذا كان حصل ذلك فعلاً أم لم يحصل، بقي الكتاب دون وجود من يدافع عنه باستثناء ريتكوس الذي لا يعرف الكلل، (توفي في العام ١٥٦٧).

ما يثــير السخرية حقــاً أن تكون وجهة نظــر أوسيانــدر متفقــة تماماً مــع وجهة النظر العلمية الحديثة عــن العالم. فجميع أفكارنا حول الطريقة التي يعمل فيها الكون أصبحت مقبولة الآن كنماذج بسيطة وضعت مسبقــاً لتفسير عمليــات الرصــد ونتائج التجارب بأفضل ما تستطيع تفسيره.هناك وضع يكون مقبولا فيه وصف الأرض كمركز للكون، وهو عندما ننجــز جميع القياسات وعمليــات الرصد بالنسبــة للأرض. وهذا النمــوذج يعمــل بشكل جيد مــن دون ريب حــين نخطط، علــى سبيل المثــال، لإرسال صاروخ إلى القمر. لكن نموذجاً كهذا يصبح معقداً جداً ومربكاً جــداً عندما نحاول أن نصــف سلوك الأجسام الأبعد والأبعد كثيراً عــن الأرض، من خلال الجملــة الشمسية. فعند حساب طيران مسبار فضائي، ولنقل، إلى زحل، يقوم علماء وكالــة الفضاء فعلياً باعتبار أن الشمس تقع في مركز الكون، على الرغم أنهم يعلمون أن الشمس ذاتها هي في مدار حول مركز مجرتنا، مجرة درب التبانة. وعلى العموم، يستخدم العلماء أبسط نموذج يمكــن أن يكون منسجماً مع جميع الحقائق المتصلــة بمجموعة خاصة مــن الظروف، وهــم لا يستخدمون النمــوذج نفسه في كل الأوقــات. فالقول بــأن الشمس موجودة في المركــز الكوني، هــو مجرد نمــوذج يساعد في الحسابــات المتضمنة مــدارات كوكبية، سيوافــق عليــه عالم اليوم حــين نقول ذلك على أي من الكواكب الأخرى. الفارق هو أن اوسياندر لم يكن يتوقع من قرائه (أو بدلا من ذلك، من قراء كوبرنيكس) أن يتقبلوا بشكل متساو وجهة نظر صالحة للقول إن الأرض في مركز الكون هي مجرد نموذج مفيد حين حساب الحركة الظاهرية للقمر.

مــن المستحيــل أن نؤكد فيمــا إذا كان ملخصــ اوسيانــدر هــدّأ مــن أي أمزجة مضطربة في الفاتيــكان، لكن الدليل يشير إلى عــدم وجود أمزجة كهذه يجب تهدئتها. ذلــك أن طباعة كتــاب في دوران الأجسام السماوية، تقبلته الكنيسة الكاثوليكية بشكل جوهري دون تذمر، ومــن ثم أهمل الكتاب إلى حد كبير من روما لبقية القرن السادس عشر. وفي الحقيقة، فقد أهمله معظم الناس

بداية لدرجـة أن الطبعـة الأصلية المكونة مـن ٤٠٠ نسخـة لم يتم بيعها. لكـنّ الأكيد أيضـاً أن ملخص اوسيانـدر لم يهدئ من ثائرة اللوثريين، كمـا هوجم الكتاب بقسوة من الحـركات البروتستانتية الأوروبية. وفي هـذا السياق نشـير إلى أن مضمون الكتاب تمّ تفسـيره بشكل كامل، مـن قبل الخبراء على الأقل. خصوصاً في انكلترا، حين تزوج هـنري الثامن زوجته الأخـيرة، كاترين بار، سنة طباعته.

مدارات الكواكب

ما هو انطباعي علـى وجه الخصوص حول نمـوذج كوبرنيكس عن الكون ككل أنه بمجرد مـا وضعت الأرض في مدارها حول الشمـس فإن هـذا يضع تلقائيـا الكواكب الأخرى في تعاقب منطقـي. ومنذ الأزمان القديمـة، كان مربكاً رؤيـة كل من عطارد والزهراء من الأرض عند الغسق وفي مطلع الفجـر فقـط، بينما يمكن رؤيـة الكواكب الثلاثـة الأخـرى في أي وقت مـن أوقات الليل.والتفسير الذي أعطاه بطليموس (على الأصـح، التفسير المثبـت ملخصاً في كتاب الماجسطي) هو أن كوكبي عطارد والزهراء محفوظان كمجموعة مـع الشمس يتحركان عندما تتحرك الشمس دائريا حول الأرض مرة كل عـام. أمـا في جملـة كوبرنيكس، فالأرض هي التي تتحرك حول الشمس مرة كل عـام، وأن التفسـير لنوعين من الحركة الكواكبية ينتج ببساطة من اعتبار أن مداري عطارد والزهراء يقعان داخل مدار الأرض (هما أقـرب إلى الشمس مـن قربنا عنها) بينما مـدارات المريخ، المشـتري وزحل تقع خارج مدار الأرض (هـي أبعد إلى الشمس من بعدنا عنها). بإجراء تصحيح على حركة الأرض،استطاع كوبرنيكس أن يحسب طول الزمـن اللازم لكل كوكب ليـدور مرة حول الشمـس وهي فترات زمنيـة شكلت سلسلة متزايـدة بدءا من عطـارد، بسنته الأقصر، مروراً بالزهراء، الأرضـ، المريخ والمشتري إلى زحل، التي تكون سنته هي الأطول.

لكن ليس هذا هـو كل شيء. فالنموذج المرصود لسلـوك الكواكب متعلق هو أيضاً، كمـا في نموذج كوبرنيكس، مـع بعدها عن الشمس منسوباً إلى بعد الأرض عن الشمس. حتى دون معرفة أيـة مسافة من المسافات بحدود مطلقة، استطـاع أن يضع الكواكب في الترتيب المتزايد لبعدها عن الأرض. كان الترتيب الحاصل هو ذاته . عطارد، الزهراء الأرض، المشتري وزحل. أعطت هذه الصورة المنظمـة بشـكل واضح ولأول مـرة حقيقة

عميقة حول طبيعة الكون. كان هناك المزيد عن فلك كوبرنيكس، لأولئك الذين تراه عيونهم، أكثر من مجرد الادعاء البسيط أن الأرض تدور حول الشمس.

ليورناد ديجس والتلسكوب (المقراب)

واحد من قلائل رأت أعينهم بجلاء مضامين نموذج كوبرنيكس بعد طباعته كتابه الأجرام السماوية، هو الفلكي الإنكليزي توماس ديجس. لم يكن ديجس عالماً فحسب، بل كان أحد الأوائل الذين عمموا العلم. ليس الأول تماماً، منذ أن تابع، إلى مدى معين، خطا والده، ليونارد. ولد ليونارد ديجيس حوالي ١٥٢٠، لكن لا يعرف سوى القليل حول حياته المبكرة. تعلم في جامعة أكسفورد وأصبح معروفاً جيداً كرياضي وكمسّاح للأراضي. كما كان أيضا مؤلفاً للعديد من الكتب، التي كتبت باللغة الإنكليزية وليس باللاتينية. وهو شيء لم يكن معتاداً في ذلك الوقت. طبع أول كتاب له، الكهانة العامة General Prognostication، في عام ١٥٣٣، بعد عشر سنوات من طباعة كتاب في دوران الأجرام السماوية، ونتيجة لسهولة تداوله في اللغة العامية صار أفضل الكتب مبيعاً، على الرغم من أنه وفق رؤية متشددة أصبح في حينها عتيق الطراز. قدم ليونارد ديجس في كتابه روزنامة مزدهرة، مجموعة من المعارف التقليدية عن الطقس ومجموعة معلومات فلكية غنية ومتنوعة، تتضمن تفسيراً لنموذج بطليموس عن الكون. لا يختلف الكتاب، من بعض النواحي، عن نوع معين من تقاويم المزارعين التي كانت مألوفة في القرون الأخيرة.

بخصوص عمله كمسّاح، اخترع ليونارد ديجس المزولة (أداة لقياس الزوايا يستخدمها المسّاحون) حوالي العام ١٥٥١. وفي الوقت نفسه، فإن اهتمامه في رؤية الأشياء بشكل دقيق على مسافات طويلة قادته إلى اختراع التلسكوب العاكس (وبعدها مباشرة اخترع التلسكوب الكاسر أيضا)، على الرغم من عدم وجود شهرة لهذه الاكتشافات في ذلك الوقت. والسبب الوحيد لانعدام تطور هذه الأفكار يعود إلى أن نشاط ديجس المسّن قد وصل إلى نهايته فجأة في عام ١٥٥٤، حينما ساهم في التمرد غير الناجح الذي قاده البروتسانتي السيد توماس يات ضد ماري الملكة الكاثوليكية الجديدة لانكلترا، التي اعتلت العرش في العام ١٥٣٣ بعد وفاة والدها، هنري الثامن. فقد حكم على ليونارد ديجس بالموت أولا لمساهمته في التمرد، ثم خفف الحكم عنه، لكنه كان قد رهن كل

ممتلكاتـــه، وقضى ما تبقى من عمره (توفي في العام ١٩٥٩) يكافح لاستردادها من دون نجاح.

حين مـــات ليونـــارد ديجســ، كان ابنه توماســ في الثالثة عشــر من عمره (لا نعلم بدقـــة تاريخ ميـــلاده)، فتمــت رعايته من قبل الوصي عليـــه، جون دي. كان جون دي فيلسوفـــاً طبيعياً نهضويـــاً ؛ عالم رياضيات جيد، طالب كيمياء، فيلسوف (ليس نموذجياً تماماً !) ومنجّم الملكة اليزابيت الأولى (التي استولت على العرش في ١٥٥٨). من المرجح أنه كان، بما يشابه كريستوفر مارلو، المحرّك السري للعرش. وكان أيضا، بشكل معتبر، من المتحمسين الأوائل لنموذج كوبر نيكس، على الرغم من إنه لم ينشر شيئاً في الموضوع ذاته. بعـــد أن بلغ سن الرشد تحــت وصاية أسرة /دي/، أصبـــح لدى توماســ ديجس الأذن بالدخـــول إلى المكتبة التـــي تحتوي أكثر من ألف مخطوط، والتي التهمها قبل طباعة أول عمل له في الرياضيات في عام ١٥٧١، العام نفسه الذي دفع فيه إلى الطباعة كتاب والده بعـــد موته الذي يبحـــث في قياس الأجسام الفلكية وعنوانه(pantometeria)، والذي أثـــار أول نقاش عام حول اخـــتراع ليونارد ديجس للتلسكوب. درس توماس بذاته أيضاً السماء، وقـــام بعمليات رصـــد السوبرنوفا (نجوم مستعرة فائقة التوهج) التي شوهدت في عـــام ١٥٧٢، حيث استخـــدم تيكو براها بعضـــاً من هذه المعطيـــات في تحليله لتلك الحادثة.

توماس ديجس والكون اللانهائي

ومع هذا، فقد ظهرت أعظم المطبوعات أهميـــة لتوماســ ديجس في عـــام ١٥٦٧. كانـــت طبعة جديدة ومنقحـــة إلى حد كبير لأول كتـــاب لوالـــده، والذي أصبـــح عنوانه الآن الكهانة الأبديـــةPrognostication Everlasting ، حيث احتوى على مناقشة مفصلة لنمـــوذج كوبرنيكس عن الكون. أول تفسير كهذا يظهر في انكلترة.أقرَّ ديجس في الكتاب أن الكون لامتناهياً في كبره، وضمّنه مخططا بيّن فيه أن الشمس في المركز، تدور حولها الكواكب،كمـــا أشار إلى وجود أعداد وافرة مـــن النجوم ممتدة في كل الاتجاهات إلى اللانهاية. لقـــد كان هذا التفسير قفزة في المجهـــول، لم يقدم ديجســ سببا لتأكيده هـــذا، لكن من المرجح جداً على ما يبدو أنه كان ينظر إلى مجرة درب التبانة بالتلسكوب، وأن تلـــك الوفـــرة مـــن النجوم التـــي رآها هناك أقنعتـــه أن النجوم هي شموس أخرى تنتشر بغزارة خلال كامل الكون اللامتناهي الأبعاد.

لكــن ديجس حقيقــة لم يكرســ حياته للعلم زيادة عما فعلــه كوبرنيكس، ولم يتابع هذه الأفكار. ومع خلفيتــه كابن لشخصية بروتستانتيــة بارزة عانى علــى أيدي الملكة ماري، وبفعل علاقاتــه مع أسرة دي (تحت حماية الملكة اليزابيت)، أصبح توماس ديجس عضوا في البرلمــان (منتخبــاً في مناسبتين منفصلتين) ومستشاراً للحكومة.عمل أيضا مديراً للسجلات العسكرية للقوات الإنكليزية في هولندة بين عامــي ١٥٨٦ و١٥٩٣، حين كانت تساعد الألمان البروتستانت في تحرير أنفسهــم مــن الأسبــان الكاثوليــك. مات توماســ ديجســ في العــام ١٥٩٥. في ذلك الوقت، كان غاليلو غاليله قد أصبح أستاذاً أصيلاً للرياضيات في بادوا وكانت الكنيسة الكاثوليكية قد انقلبت ضد نموذج كوبرنيكس عن الكون لأن معتنقه هو المهرطق جيوردانو برونــو، الــذي أصبح متورطــا في محاكمة طويلة ســوف تنتهي به إلى الموت حرقا بعد شده إلى الخازوق في عام ١٦٠٠.

هل كان برونو شهيد العلم؟

يكون قيِّماً الحديث عن برونو هنا، قبل أن نعــود ثانيــة إلى التقاط خيــوط أعمال رجال عظام من أمثال تيكو براها، يوهانس كبلــر وغاليلو غاليله، والذيــن أكملوا عمل كوبرنيكس، لأن الاعتقاد الغالب أن برونو قد أحــرق بسبب من دعمه لنموذج كوبرنيكس. وفي الحقيقة، كان برونــو مهرطقاً أكثر من كونــه عالماً وقد أحــرق بسبــب اعتقاداته الدينيــة ؛ لقــد كان سوء طالــع فحسب أن أصبــح نموذج كوبر نيكس متشابكا في كامل المسألة.

إن السبب الأساسي الذي من أجله دخل برونــو، الذي ولد في العام ١٥٤٨، في صراع مــع الكنيسة هو أنه من أتباع حركة معروفة بالهرمسيــة Hermetism . بنــت هــذه الطائفــة اعتقاداتها علــى نصوص تكافىء الكتــاب المقدســ، وهي وثائــق كان يعتقد في القرنين الخامس عشــر والسادس عشر أنهــا ظهرت في مصر في زمن النبي موسى، وتم ربطها مع تعليمــات الإله المصري ثوث Thoth (إلــه المعرفــة). كان هرمس الإله الإغريقــي المعــادل لثوث (مــن هنا جاءت الهرمسية)، ولأتباعه من الطائفة كان يدعى هرمس تريسميجيستوس Trismegistus Hermes، أو هرمس مثلث العظمة. كانت الشمســ، من دون شك، إلهاً لدى المصريين، وكانت هناك اقتراحات بأن كوبرنيكس ذاته قد يكون تأثر بالهرمسية بوضعه الشمس في

مركز الكــون، على الرغم مــن عدم وجود دليل قوي على صحة ذلك.

ليســ هــذا مكانــاً مناسبــاً للسير في تفاصيل العقيــدة الهرمسية (خصوصا أن الوثائــق التي بنيــت عليها تبــيّن في نهاية المطاف أنها لم تأتي من مصر القديمة)، لكن بالنسبة لمؤمني القــرن الخامس عشر عنى تفسير هذه الوثائق، من بــين أشياء أخرى، بأنهــا تتنبأ بميلاد السيد المسيح. وفي العام ١٤٦٠، فــإن نسخا من هــذه الوثائق التي بنيت عليهــا الهرمسية والتي استقدمت من مقدونيــا إلى إيطاليا أثــارت اهتماماً كبيراً استمــر لكامل القــرن السادس عشر، حتى ترسّخ (في عام ١٦١٤) بأنها كتبت بعد بداية العصر المسيحي بكثير وعلى هذا النحو فإن تنبؤاتهــا تمت بالتوافق مــع منفعة الإدراك المؤخَّر لها.

كانت الكنيســة الكاثوليكيــة في أواخر القرن السادس عشر قادرة على أن تتسامح مع النصوص القديمة التي تتنبأ بميلاد السيد المسيح، ومن خلال كاثوليكيين محترمين مثل فيليب الثاني الإسباني (حكم من عام ١٥٥٦، إلى عام ١٥٨٩، وتزوج من الملكة ماري وكان معارضا عنيدا للبروتستانت) الذي أيد هذه المعتقــدات (تماماً، بشكل عرضي، كما فعل جون دي، وصّي توماس ديجس).لكن برونو أخذ يتبنى وجهة النظر القصوى بأن الدين المصري هــو الدين الفعلي وعلــى الكنيسة الكاثوليكيــة أن تجد طريقا للعودة إلى هذه الطرق القديمة. وهذا، دون ضرورة للقول، لم يلق قبولاً حسناً في روما .وبعد نشاط متنوع في أوروبة (بما فيها فــترة إقامة في انكلترا مــن ١٥٨٣ إلى عــام ١٥٨٥) وإثارة المشاكل فيها (انخرط في سلك الدومينيكانية في عام ١٥٦٥ لكنــه طرد منها عــام ١٥٧٦، وبينما صنــع في انكلتره الكثير مــن العداوات فقد كان عليه أن يلجــأ إلى السفارة الفرنسية)، ارتكب برونو خطيئة قاتلة حين زار فينيسيا عام ١٥٩١، حيث اعتقــل وسلم إلى محكمة التفتيش. وبعــد سجن ومحاكمة طويلة، بدا أن برونو سيحكم عليه في النهاية لمسؤولياته الخاصــة عــن الآريوسيــة Arianism (اعتقــاد أن المسيح قد خلقه الله وليس هو الله مجسّــداً) وممارستــه تماريــن سحرية ملغزة. لسنا متأكدين من حصول ذلك بشكل مطلــق، لأن سجلات المحاكمــة قد فقدت تماماً، لكن بدلاً مــن أن يكون شهيد العلم، كمــا يعبر بعض المؤرخين عــن ذلك أحيانا، فإن برونو كان شهيد الهرطقة حقاً.

إدانة الكنيسة الكاثوليكية لنموذج كوبرنيكس

على الرغم من أن مصيره يبدو مؤلماً وفق المعايير الحديثة، مثل الكثير من الشهداء، فإن برونو قد جلب ذلك لنفسه إلى حد بعيد، باعتبار أنه أعطي فرصة في كل مناسبة للتخلي عن مواقفه (السبب الذي من أجله اعتقل فترة طويلة قبل محاكمته). لا يوجد دليل على أن دعمه للكوبرنيكية قُدِّمَ ضده في المحاكمة مطلقاً، لكن من الواضح أن برونو كان داعماً متحمساً لفكرة أن الشمس تقع في مركز الكون (لأنه يتفق مع وجهة النظر المصرية عن العالم)، ولأنه اعتنق بشكل حماسي فكرة توماس ديجس القائلة بأن الكون يمتلئ بمجموعات لا نهائية من النجوم، كل منها يشابه الشمس، وجادل بأنه يجب أن تكون هناك حياة أخرى في أمكنة أخرى من الكون. ونظراً لأن أفكار برونو لاقت رواجاً في ذلك الوقت،ونظراً لأنه حكم من قبل الكنيسة، فإن جميع هذه الأفكار كانت تقاوم بالقدر ذاته من الشدة. بالتحرك المتوافق مع بطء العادات، كانت الكنيسة لا تزال تأخذ بها في عام ١٦١٦ حين وضعت كتاب «في دوران الأجسام السماوية» على لائحة الكتب المحرمة (واستمر الحظر حتى العام ١٨٩٥ لترفعه من القائمة المحرمة مرة ثانية !).لكن بعد عام ١٦٠٠ كانت صورة الكوبرنيكية متجهمة كما تراها الكنيسة، وحقيقة أن برونو كان كوبرنيكياً وتم إحراقه كمهرطق نادراً ما كانت مشجعة لأي شخص، مثل غاليلو، الذي عاش في إيطاليا في أوائل ١٦٠٠ وكان مهتما في الكيفية التي يعمل بها الكون.فلو لم يعتنقها برونو، لما كانت الكوبرنيكية لتلقى أبداً مثل هذا الاتجاه المناوئ من قبل السلطات الكنسية، ومن الممكن أن لا يكون اضطهد غاليلو ومن الممكن أيضاً أن يكون التطور العلمي في إيطاليا قد سار بهدوء أكثر.

الثورة الكوبرنيكية اليوم

على الرغم من أن كوبرنيكس لم يكن ثورياً بطبيعته، لكن الجيشان الذي استحثه استحق أن يدعى ثورة حقاً بكل ما في الكلمة من معنى. ومنذ نظريته الثورية هذه، أصبحنا . بني البشر . لا نقف بعدها في مركز الكون، تحيط بنا أجسام سماوية أبدية وتامة. أصبحنا، بدلاً من ذلك،مقيمين على كوكب ثالث هو جزء من سلسلة تتألف من تسعة كواكب تدور حول الشمس.استمرت الثورة الفلكية مع الاكتشافات الحديثة والتطور التكنولوجي صعوداً وغرابة.وكما ذكرنا في

المقدمــة، توافقاً مع علــم الفلك الحديث، ليســت الشمس سوى نجم عــادي جداً من مجموعة معروفة بمجرة درب التبانة تحتوي على مئة مليار نجم. لايــزال هناك المزيد: درب التبانــة ليست سوى واحــدة من كون يحــوي على الأقل مئة مليــار مجرة أخرى، كون وجد قبل مليارات السنين قبل أن توجد الأرض والشمســ وسيستمر حياً بعد موت كوكب الأرض مليارات أخرى من السنين.

ازدهرت الثورة الكوبرنيكية بطرق أخرى، أكثر عموميــة. فمن الناحيــة البيولوجية، يظهــر الجنس البشري بأنه مجرد نوع واحد فقط من أنواع لا تعد من الحيوانات. أما من الناحية الكيميائية الحيوية، فيظهر كتجمع منظم جيداً من الذرات والجزيئات فحسب، تخضع لجميــع القوانين التــي تخضع لها الــذرات والجزيئــات في الكائنات الأخرى. لكن ما نلاحظــه بعد الثــورة الكوبرنيكية أن العلــم قد مزّق الكثير مــن تفرّد الجنس البشري، مــن وجهة نظر علمية على الأقل. ولأول مــرة يبدو لدى الكثيرين، خاصة لدى علمــاء الفيزيــاء، أنَّ الجنســ البشري أقل خصوصية مما كان يعتقد دوماً. وعلى أرض الواقع، فقد حُمِّلت وجهة النظر السابقة في بعض الأحيان إلى أقصى مدى ممكن خلال القرن العشرين المنصرم لتعطي صورة لجنس بشــري ضئيل، مصادفة عابرة في كون يسير دون عقل مندفعــاً نحو الأمام مثل حاسوب كوني، يحصي أقدارنــا جميعاً كما يحصي مصائر جميع النجوم.

مــن الواضــح، أن لا يكــون أي منا مجبراً على تقبل وجهــة النظر الانطباعية، الميكانيكيــة، أعلاه حول حقيقة الواقع. بل هناك وجهــات نظر أخــرى ممكنة. يمكن الجــدال أن العلم هو أحــد وجهات النظر المتعددة باتجاه الحقيقة. فعلى سبيل المثال، يمكــن توصيف الحالــة البشريــة بوساطة أعمــال فنيــة كمــا في مسرحيــة هاملت لشكسبير أو السمفونيــة التاسعة لبيتهوفن أو وصف البحــتري لإيوان كسرى بدقة أكثر من توصيفها وفق بنيتها البيولوجية بوساطة النظريات الكيميائية والحيوية. كما يمكننا الجــدال بأن أهمية الجنس البشري في هذا المخطط الكلي للأشياء لا يتأثر بالموقع الذي تشغله الأرض في الكون الفيزيائي، وأن العلم ليســ له دور شرعي في صناعة أحكام قيِّمة مثل تلك التي قيلت في المقاطع السابقة.

هــذه الرؤية المتواضعــة للإنسانية التي ازيحــت من مركز كون يعمــل بآلية الساعة ندعوه أحياناً بالكون النيوتوني الآلي، يعبر عنه

وفق ميكانيك الحـركات الثقالية وقوانينها المعروفة. وامتـداداً لفيزيـاء أرسطو، فإن فيزياء نيوتن وبنيتها كلاهما سببي وغائي، أي تتحـددان بالأسبـاب والنتائج. فهما لا يحددان فقط مفهـوم الطبيعة اللاعضوية للكـون، بل يحددان أيضـاً مفهوماً عضوياً وبسيكولوجياً واجتماعيـاً له. وعلى الرغم مـن أن هذا العلم يعتبر ملائماً جداً لوصف العالم الجهـري، لكن الغريـب في الأمر أن نيوتن ذاته لم يقر مثل هذه النظرة الميكانيكية للعالم من وجهة النظـر الفلسفية أبداً. وما هو جديـر أن نذكّر به أن العصر النيوتوني، وهي الفترة التي سيطرت فيها فيزياء نيوتن منـذ نهاية القرن السابـع عشر حتى مطلع القـرن العشرين وحكمته حكمـاً استبدادياً مطلقاً، قد دشّنته الثـورة التي بدأها رجل الدين الشهير نيكولاس كوبرنيكس لا نزال متأثرين بها حتى الآن.

الهوامش

١- النهضة : اصطلاح يشير إلى المذاهب العامة والاجتماعية والفلسفية التي ظهرت في أوروبة (بصفة مبدأية في إيطاليا) خلال فترة انهيار الإقطاع وقيام المجتمع البرجوازي الأول (من القرن الخامس عشر حتى أوائل القرن السابع عشر).

المراجع

١- د. يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٦٤، الكويت،٢٠٠٠.
٢- توبي هان، فجر العلم الحديث، ترجمة د.أحمد محمود صبحي، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢١٩، الكويت، ١٩٩٧.
٣- توماس غولد شتاين، المقدمات التاريخية للعلم الحديث، ترجمة أحمد عبد الواحد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٩٦، ٢٠٠٣.
٤- د. جهاد ملحم، تاريخ الفيزياء، منشورات جامعة تشرين، قيد الطبع.
٥- د. عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم، دار المعارف، مصر،١٩٦٩.
6- John Gribbin، Science- A History، ALLEN LANE an imprint Penguin Books، England، 2002.
7- Leonard C Bruno، The Landmarks of Science (Facts of File،New York، 1998).





المرأة.. وكيف تشَبَّهُ بِالحَيَوان؟

حسن موسى النميري ❁

يَنظُرُ المُنْصِفُونَ مَنَ العرَبِ إلى المرأةِ على أنَّها مَخلوقٌ رَقيقٌ لَيِّنٌ ناعِمٌ، لا يَتَحَمَّلُ قَسوةً ولا إرهاقًا ولا عَناءً، خُلِقَ لِيكونَ المَثَلَ الأعلى لِلحُسْنِ، والذِّروَةَ في الجَمالِ والأناقَةِ. ومِن هُنا كانتْ نَظرَتُهُم إليْها نَظرَةَ حُنوٍّ ورَحمَةٍ وإشْفاقٍ. ورَجُلُها رُبَّما عَرَّضَ نَفسَهُ لِمَهالِكِ الحَياةِ، ومَصاعِبِ الدُّنْيا، ورَمَاها على المَخاطِرِ والمَشاقِّ، لكنَّهُ يَبخَلُ على نِسائِهِ أنْ تَتَعرَّضَ إحداهُنَّ لِخَطَرٍ أو شِدَّةٍ أو مُعاناةٍ، ويَسعَى بِكُلِّ ما أوتِيَ مِن قُوَّةٍ لِيَعيشَ نِساؤُهُ عِيشَةً هَنيئَةً، رَغيدَةً

❁ باحث في التراث العربي (سورية).

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

هادئةً سَعيــدَةً، بعيدًا عن شَظَــفِ العَيْشِ، وقَســاوَةِ الحيــاةِ وخُشُونَتِهــا، ولِهــذا قال شاعِرُهُم:

كُتِبَ القَتْلُ والقِتالُ علَيْنا
وعلى الغانِياتِ جَرُّ الذُّيُولِ

فالرَّجُلُ يَتَحَمَّلُ مَشاقَّ الحَياةِ وقَساوَتَها، ولكنَّهُ لا يُبيــحُ لِنَفسِهِ أنْ تتَعرَّضَ نِساؤُهُ لِمثلِ ذلكَ، فالنِّساءُ يَنبَغي ألاَّ يَكُنَّ هَدَفًا لِلمَتاعِبِ والقَساواتِ، وإنْ حَدَثَ مِثْلُ ذلكَ فاللومُ يَقَعُ علــى مَنْ يَقُــومُ علَيهِنَّ منَ الرِّجــالِ الذينَ عَرَّضُوهُنَّ لِلمَخاطِرِ والمَتاعِبِ، ولم يَبْذُلوا كُلَّ جُهْدٍ لِيَمْنَعُوا حُدوثَ مِثلَ ذلكَ.

قُلنــا في مَقالٍ سابِــقٍ إنَّ تَشبيهَ المَرأةِ أو بَعضَــ أعْضائهــا بِالحَيَــوانِ أو بِعُضوٍ مِن أعضائِهِ أوسَعُ مَجالاً مِنْ تَشبيهِ الرَّجُلِ بِمِثلِ ذلكَ. فَمِنْ خِلالِ اسْتِعْراضِنا لأمثِلَةٍ وشَواهِدَ مِن شِعرِ العربِ ظَهَرَ لَنــا أنَّهم-وشُعراؤُهُم يَنْطِقونَ بِاسْمِهِم-كانُــوا مُعجَبينَ بِأنواعٍ مِنَ الحَيَوانِ، لِذا فقد شَبَّهُــوا حَسْناواتِهِم بِهذا الحَيَوانِ المُحَبَّبِ إلى قُلُوبِهِم.

بَــدا لَنا أنَّ الشُّعَــراءَ كانوا على إعجابٍ كبيرٍ بِحَيَوانَيْنِ اثْنَيْنِ، أُعْجِبُوا بِهِما إعجابًا لا حُدودَ لَهُ، حتى جَعَلوهُما المَثَلَ الأعلى لِلحُسْنِ والجَمالِ؛ فــكلُّ شَيءٍ فيهِما، وكُلُّ عُضْوٍ من أعضائِهِما، وكُلُّ صِفَةٍ مِنْ صِفاتِهِما جُزءٌ مِنْ هذا الذي عَدُّوهُ المَثَلَ الأعلى لِلحُسْنِ والبَهاءِ؛ هذانِ الحَيَوانانِ هما الظَّبْيُ والمَهاةُ.

تَشبيــهُ المَــرأةِ بِالظَّبْــيِ: الظَّبْــيُ ذلكَ الحَيَــوانُ الرَشيقُ، الأشقرُ اللــونِ، الأبيضُ البَطــنِ، الجميلُ المَنْظَــرِ، الأنيــقُ الشَّكلِ، الدَّقيــقُ الأعضاءِ، الضَّامِرُ الخصْرِ، الواسِعُ العَيْنِ، الطَّويلُ العُنُقِ، المَليحُ الطَلعَةِ، القَريبُ منَ القَلبِ. أحَبَّهُ العَرَبيُّ فَسَمَّاهُ ظَبْيًا (ورُبَّما أضافُــوا لاسْمِهِ تاءَ تَأنيثٍ فقالوا ظَبيَةٌ) كما سَمَّوهُ رِيمًا، وسَمَّوا الفَتِيَّ مِنْهُ غَزالاً وشادِنًا ورَشَــأً وجَدايَةً وخِشْفًــا، والأُنثَى سَمَّوها أُمَّ الشادِنِ وأُمَّ الخِشْفِ وأُمَّ الرَّشَأ...ولإعجابِهِم الشديدِ بِالظَّبيِ شَبَّهُوا أَحَبَّ المَخلوقاتِ إلى قُلوبِهِم بِهِ؛ فالمَرأةُ وهيَ رمْزُ الحُسْنِ والبَهاءِ، والمَثَلُ الأعلى في الجَمالِ والقُربِ مِنَ القَلبِ، وتَحريــكِ الحُلــوِ المَحبــوبِ مــنَ المَشاعِرِ، يُناسِبُها أنْ تُشَبَّهَ بِالظَّبْيِ ذلكَ الحيَوانِ الذي وصَفْناهُ آنِفًا بِأوصافٍ عاليَةٍ، ومَزايا فائقة، وعَــدَّهُ العربُ مِثالاً لِلحُسْــنِ ورَمْزًا لِلجَمالِ والرَّشاقَةِ والأناقَةِ، والقُربِ منَ القُلوبِ. قال أوس بنُ حَجَر[١]:

وقد لَهَوتُ بمِثْلِ الرِّئم آنسَةٍ
تُصْبي الحليمَ عَرُوبٍ غيرِ مِكْلاحِ[2]

وجَعَلَ ذو الرُّمَّة(٣) صاحِبَتَهُ (مَيَّة) أجمَلَ منَ الظَّبي، فهيَ أفضَلُ منَ الظَّبي في جَميعِ صِفاتِهـا، وفي كُلِّ أحوالِها، وهي أكثرُ حُسْنًا وبَهاءً حيثُ قال:

ذَكَرتُكِ إذْ مَرَّتْ بِنا أُمُّ شادنٍ
أمامَ المَطايا تَشْرَئِبُّ وتَسنَحُ[4]
منَ المُؤلفاتِ الرَّمْلِ أدماءُ حُرَّةٌ
شُعاعُ الضُّحى في لَونِها يَتَوَضَّحُ[5]
هيَ الشِّبْهُ أعْطافًا وجِيدًا ومُقْلَةً
ومَيَّةُ أبْهَى بَعدُ منْها وأملَحُ[6]

وقال وَضَّاحُ اليَمَنِ[7] يَذكرُ نِساءً جَميلاتٍ كالظِّباءِ الكَوانِسِ:

يا صاحِ إنِّي قَد حَجَجْـ
ـتُ، وزُرتُ بيتَ المَقْدِسِ
فَرَأيْتُ فيهِ نِسْوَةً
مِثْلَ الظِّباءِ الكُنَّسِ[8]

وقال شاعرٌ يذكرُ عِفَّةَ النِّساءِ، وتَرَفُّعَهُنَّ عن سَفاسِفِ الأُمورِ، والتزامَهُنَّ بِأخلاقِ الأُمَّةِ الفاضِلةِ، والقيَمِ المُختارة، وابْتِعادَهُنَّ عنِ الشُّبُهاتِ، والرديءِ منَ المَواقِفِ، معَ حَلاوَةِ أحاديثِهِنَّ، ولينِ كَلامِهِنَّ:

بِيضٌ أوانِسُ ما هَمَمْنَ بريبَةٍ
كَظِباءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرامُ
يُحْسَبْنَ من لينِ الحَديثِ زَوانِيًا
ويَصُدُّهُنَّ عنِ الخَنا الإسْلامُ[9]

وقال عُمَرُ بنُ أبي ربيعة[10] يَحكي قِصَّةَ ظَبْيٍ أسَرَ قَلبَهُ، وسَيْطَرَ على جَوارِحِهِ:

صادَ قَلبي اليَومَ ظَبْيٌ
مُقبِلٌ مِن عَرَفاتِ
في ظِباءٍ تَتَهادَى
عامِدًا للجَمَراتِ[11]
وعَلَيْهِ الخَزُّ والقَزْ
زُ، ووَشْيُ الحَبِرَاتِ[12]
إنَّني لَسْتُ بِناسٍ
ذلكَ الظَّبْيَ حَياتي[13]

والظَّبْيُ الفَتِيُّ الشَّابُّ، في أوَّلِ عُمْرِهِ يُقالُ لَهُ(الغَزال).. والظَّبْيُ كلَّما كانَ فَتِيًّا كانَ أجملَ شَكْلاً، وأحلَى مَنْظَرًا..قال المُثَقِّبُ العَبْدي[14] يذكرُ نِساءً كَغِزلانٍ :

كَغِزْلانٍ خَذَلْنَ بِذاتِ ضالٍ
يَنُشْنَ الدانياتِ منَ الغُصُونِ[15]
ظَهَرْنَ بِكِلَّةٍ، وسَدَلْنَ أُخْرَى
وثَقَّبْنَ الوَصاوِصَ للعُيُونِ[16]

وشَبَّهَ كَعبُ بنُ زُهيرٍ[17] صاحِبَتَهُ (سُعاد) بِظَبْيٍ في صَوتِهِ غُنَّةٌ مُحَبَّبةٌ، فقال:

وما سُعادُ غَداةَ البَيْنِ، إذْ رَحَلُوا



إلاَّ أغَـــنُّ غَضيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ(١٨)
تَجْلُو عَوارِضَ ذي ظَلْمٍ، إذا ابْتَسَمَتْ
كأنَّهُ مَنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعلولُ(١٩)

وقال طُفَيْل الغَنَوي(٢٠) يذكرُ صاحِبَتَهُ سُعدَى المُشابِهةَ لِظَبْيَةٍ فَتِيَّةٍ، رَشيقَةِ القَدِّ، ضامِرَةِ الخصْرِ، حيثُ قال:

دِيارٌ لِسُعْدَى إذْ سُعادُ جَدَايَةٌ
مِنَ الأُدْمِ خَمْصانُ الحَشَا غَيْرُ خَثْيَلِ(٢١)

وقال محمد بن عبدِ اللهِ بن نُمَيْر الثَّقفي(٢٢) يَتَغَزَّلُ بِزَينب أُخت الحجَّاج:

غَــرَّاءُ يَحْكيها الغَزا
لُ، بِمُقْلَةٍ وسَوالِفِ(٢٣)

وقال عُمَر بن أبي ربيعة يَذكرُ صاحِبَتَهُ الشَّبيهَةَ بِالشَّادِنِ (وهوَ الغَزالُ الصَّغيرُ الذي قَوِيَ حَديثًا على الاعتِمادِ على نَفسِهِ، ومُرافَقَةِ أُمِّهِ في القَطيعِ):

رُبَّ لَيْلٍ سَمَرتُ فيهِ، قَصيرٍ
ورفيقٍ، قد كانَ كُفوًّا كَريما
ثمّ أحْيَيْتُهُ، أُنازِعُ فيهِ
شادنًا أحورًا، أغَنَّ رَخيما(٢٤)
باتَ وَهْنًا يَمُجُّ في فيَّ مِسْكًا
شابَ ثَلجًا وعاتِقًا مَختوما(٢٥)

وقال أبو نُواس (الحسَنُ بنُ هانىء)(٢٦):

وكأنَّ سُعدَى إذْ تُوَدِّعُنا
وقد اشْرَأبَّ الدمعُ أنْ يَكِفا(٢٧)

رَشَــأٌ، تَـواصَـيْنَ الـقِـيـانُ بِـه
حتَّى عَقَدْنَ بأُذْنِه شَنَفا[٢٨]

تشبيهُ المــرأةِ بالمَهاةِ: المَهاةُ هــيَ البَقَرَةُ الوحشِيَّــةُ، ذلكَ الحيَوانُ الجَميــلُ الشَّكْلِ، المُتَناسِــقُ الأَعضاءِ، الأبيضُــ اللونِ، الأنيقُ المَنْظَرِ. واحِدَتُهُ مَهاةٌ، وأَرْخٌ، وبَقَرَةٌ، ونَعجَةٌ. والجُؤذَرُ هوَ ولَدُ المَهاةِ الفَتِيُّ الشَّابُّ.

والمَهاةُ ليسَتْ حَيَوانًــا رَشيقًا، ولا نَحيلَ الجِسْــمِ، أو دَقيقَ الخَصْــرِ كالظَّبْيِ، وإنَّما جِسْمُها مُمْتَلِــئٌ، تَبدو بَدينَــةً سَمينَةً، لكنَّ شَكلَهــا جَميــلٌ، ومَنْظَرُها يُدخِــلُ فِي قَلبِ رائيهــا مَهابَــةً وتَقديــرًا لِجَمالِهــا ورَوعَةِ حُسْنِها، وتَناسُقِ أعضائِهــا، تُشَبَّهُ بِها المَرأةُ المُمْتَلِئَــةُ الجِسْمِ المُتَوَسِّطَــةُ العُمْرِ، الهادئةُ الطَّبْــعِ، التي تَمشي مُتَمَهِّلَةً، مُتَثاقِلَةً، بَطيئَةَ الحَرَكَةِ..قــال عُمَــرُ بنُ أبــي ربيعة يَذكرُ صاحِبَتَــهُ (القَتُولَ) التي يَشتــاقُ إليها شَوقَ الظَّمآنِ إلى باردِ الشَّراب:

قــال لي صاحِبي لِيَعلَمَ ما بي
أَتُحِبُّ القَتُولَ، أُختَ الرَّبابِ ؟
قُلتُ: وجْدي بها كَوَجْدِكَ بالما
ءِ، إذا ما مُنِعْتَ بَردَ الشَّرابِ[٢٩]

أَبْــرَزوهــا مِـثْـلَ المَـهـاةِ تَـهـادَى
بَيْنَ خَمْسٍ كَواعِبَ أَتْــرابِ[٣٠]

وقال أعشَى هَمْــدان[٣١] يَذكرُ صاحِبَتَهُ البَيضاءَ الشبيهةَ بِمَهاةِ الرَّمْلِ، التَّامَّةِ الخَلقِ، السَّليمَةِ الأعضــاءِ التي يَبدو جيدُها مُحَلَّى بالقَلائــدِ والحَلي كجِيدِ ظَبْيَةٍ نَجدِيَّةٍ تَرعَى ولَدَها الشادن:

وبَـيـضـاءَ مِـثْـلِ مَـهـاةِ الكَثيــ
ــبِ، لا عَيْبَ فيها لِمَنْ يَنْظُرُ
وكــانَ مُـقَـلَّـدُهـا إذا مـا بَـدا
بِهِ الدُّرُّ والشَّذْرُ والجَوهَرُ[٣٢]
مُـقَـلَّـدَ أَدْمــاءَ نَجْـدِيَّـةٍ
يَعِـنُّ لَـهـا شـادِنٌ أَحْــوَرُ[٣٣]

وقال محمــد بن عبد الله بــن نُمَير الثقفي يذكرُ نساءً كأنَّهُنَّ نِعاجٌ (أي إناث بَقَرِ الوحش):

أشـاقَـتْـكَ الظَّعـائِنُ يَـومَ بـانُوا
بِذي الزِّيِّ الجَميلِ منَ الأثاثِ
كـأنَّ على الظَّعائِنِ يـومَ بـانُوا
نِعاجًا تَرتَعي بَقْلَ البراثِ[٣٤]

وقال العرجي[٣٥] يذكــرُ إحداهُنَّ، وقد شَبَّهها بالفَتِيِّ الصغيرِ منَ أولادِ المَها، وجعَلَ ثَغرَها أبيضَ كلونِ الأقحوانِ:

فَـلَـمَّـا أَنْ رأتْ عَـيْـنـايَ مِنْها
أَسيلَ الخَدِّ فِي خَلْقٍ عَميمِ[٣٦]

وعَيْنَيْ جُؤذَرٍ خَرِقٍ وثَغْرًا
كَلَونِ الأُقحوانِ وجِيدِ ريمِ
حَنا أتْرابُها دوني عليْها
حُنُوَّ المُرضعاتِ على السَّقيمِ(٣٧)

ومِنْ أشهَرِ وأحلَى ما قيلَ في الجآذرِ، قَولُ عَديّ بن الرّقاع العاملي(٣٨) في جَآذرِ جاسم القرية السوريّة الوادعة الواقعة جنوب غربي دمشق (بينَها وبينَ حَوران يَذكرُ امرأةً:

وكأنَّها وسْطَ النِّساءِ أعارَها
عَيْنَيْه أحورُ مِنْ جَآذرِ جاسمِ
وَسْنانُ أقْصَدَهُ النُّعاسُ فَرَنَّقَتْ
في عَيْنِه سِنَةٌ وليسَ بنائمِ(٣٩)

وقال جِرانُ العَودِ النُّمَيْري(٤٠) يذكرُ امرأةً فَشَبَّهَها بِسَبيكةِ فِضَّةٍ مَرَّةً، وبإرخٍ (وهيَ الأُنثَى الفَتيَّةُ مِن بَقَرِ الوَحشِ)مَرَّةً أُخرَى:

كأنَّها حِينَ يَنْضُو الدِّرْعَ مِفْصَلُها
سَبيكَةٌ لم تُنَقِّصْها المَثاقيلُ(٤١)
أو نَعجَةٌ مِنْ إراخِ الرَّمْلِ أخْذَلَها
عن إلْفِها واضحُ الخَدَّيْنِ مَكْحُولُ(٤٢)

(العِينُ) في العربيَّةِ: جمعُ أعْيَنَ وهوَ الذَّكَرُ الواسِعُ العَيْنِ مِنَ المَها، وعَيْناءَ وهيَ الأُنثَى الواسِعَةُ العَيْنِ، وبَقَرُ الوَحْشِ(المَها)كُلُّهُ عِينٌ. قال زُهيرُ بنُ أبي سُلمَى(٤٣):

وأذكرُ سَلمَى في الزَّمانِ الذي مَضَى
كَعَيْناءَ تَرتادُ الأسرَّةَ عَوهَجُ(٤٤)

والخَنْساءُ: اسْمٌ تُسَمَّى بِهِ النِّساءُ، وأصْلُهُ منَ الخَنَسِ، صِفَةٌ مُحَبَّبَةٌ في الأنفِ، والخَنَسُ في اللُّغَةِ: قِصَرٌ في قَصَبَةِ الأنْفِ، وارتِدادٌ في أرنَبَتِهِ، وقد أُخِذَتْ هذهِ الصِّفَةُ منَ المَهاةِ (البَقَرَةِ الوحشِيَّةِ)لأَنَّ المَها والظِّباءَ كُلَّها خُنْسٌ؛ الواحِدَةُ خَنْساءُ، والذَّكَرُ أخنَسُ، قال لَبيدٌ(٤٥):

خَنْساءُ ضَيَّعَتِ الفَريرَ، فَلم يَرِمْ
عُرضَ الشَّقائقِ طَوْفُها وبُغامُها(٤٦)

والخَنْساءُ: رُبَّما قيلَ لَها(خُناسُ) للتَّحَبُّبِ والتَّدليلِ، وذلكَ كَقولِ دُريد بن الصِّمَّةِ(٤٧) للخَنْساءِ الشاعرة بنت عَمْرو ابن الشريد:

أخُناسُ، قد هامَ الفُؤادُ بِكُمْ
وأصابَهُ تَبْلٌ مِنَ الحُبِّ(٤٨)

وقال ذو الرمَّة يذكرُ الخُنْسَ(الجَمعَ):

وأملى عليْها الدَّهرُ حتى تَرَبَّعَتْ
بِها الخُنْسُ آجالُ المَها وفَريدُها(٤٩)

تشبيه المرأة ببيضة النعامة: يَبْدو لي أنَّ العربيَّ (ابن الصَّحراءِ) لم يَجِد اللونَ الأبيضَ أكثرَ نَصاعَةً وبَريقًا (وبَياضًا) مِمَّا رآهُ في قَيْضِ (قِشْرِ) بَيضِ النَّعامِ، فَلونُ

البَيضَـةِ يَبدو ناصِعًا بِشَـكلٍ واضحٍ ،إذا ما كانـتِ البَيضَةُ حَديثَةَ العَهْـدِ، لم تتَلَطَّخْ بعدُ بِالعَوامـلِ الجَوِّيَةِ التي يُمكـنُ أن تُقلِّلَ من بياضِها، وبالتالي مِـنْ حُسنِها وبَهائِها؛ وقد دخَلَ هذا التَّشبيهُ في القرآنِ الكريمِ في قوله تعالى «وَعِنْدَهُـمْ قَاصِرَاتُ الطَّـرْفِ عِينٌ× كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ»[٥٠].

وقـال عَمرو بن شَأسٍ[٥١] يذكر بياضَ صاحِبَتِـهِ التـي أحبَّهـا، فشَبَّهَهـا بِبَيضَةِ النَّعامة:

وما بَيْضَةٌ باتَ الظَّليمُ يَحُفُّها
إلى جُؤجُؤٍ جافٍ بمَيْثاءَ مِحْلالِ[٥٢]
بِأحسَنَ منْها يَومَ بَطْنِ قراقرٍ
تَخوضُ به بَطنَ القَطاةِ وقد سالْ[٥٣]
لَطيفةُ طَيّا لكَشْحِ مُضْمَرَةُ الحَشَا
هَضيمُ العِناقِ هونَةٌ غيرُ مُجبالْ[٥٤]
تَميلُ على مثْلِ الكَثيبِ، كأنَّها
نَقًا ،كُلَّما حَرَّكَتْ جَوانِبَهُ مالْ[٥٥]

وأكَّدَ شُعراءُ العَربِ على بَيضَةِ النَّعامَةِ؛ لأنَّ النعـامَ هو الطائـرُ الوحيدُ الذي كانوا يَرونَـهُ ويَلتَقُـونَ بِـهِ، والمعلـومُ لَدينـا أنَّ العربَ(أعنـي البَدوَ مِنْهُـم)لم يَكونُوا يُرَبُّونَ الدَّواجِـنَ (كالدَّجاجِ والبَـطِّ والإوزِّ) لأنَّ تَربيةَ هذهِ الطُّيُورِ تَحتاجُ إلى شَعبٍ مُستَقِرٍّ، لا يَعيشُ حَياةَ التَّنَقُّلِ والتَّرحالِ، وإنَّما يُربِّي الدَّواجِنَ أهلُ الأريافِ وسُـكَّانُ القُرَى، أمّا البَدوُ فلم يَكونُـوا لِيفعَلوا ذلكَ...قال عُبَيدُ اللّهِ بـنُ قيسِ الرُّقيَّـات[٥٦] يَذكـرُ بيضَ النَّعامِ:

واضِحٌ لَونُها كَبَيْضَةِ أُدْحِيٍّ
لَها في النِّساءِ خَلْقٌ عَميمُ[٥٧]

كثيرٌ منَ الشُّعَـراءِ الذينَ شَبَّهُـوا المَرأَةَ بِبَيضَةٍ، لم يَذكـرُوا الطائرَ صاحِبَ البيضَةِ، والخُبَراءُ في شِعرِ العَـربِ يَعرِفونَ بِالبداهَةِ أنَّهـا بيضَةُ نَعـامٍ، وإنْ لم يُذكرِ الطائرُ. قال امرؤ القيس:

وبَيضَةِ خِدْرٍ، لا يُرامُ خِباؤها
تَمَتَّعتُ منْ لَهْوٍ بها غيرَ مُعجَلِ[٥٨]

ويُنْظَرُ إلى بَيضِ النَّعـامِ نَظرَةً إيجابيَّةً؛ فالمَـرأةُ التي تُشَبَّهُ بِهذهِ البيضةِ، تَكونُ عادةً في تَمامِ صِحَّتِها، وكَمـالِ عافِيَتِها، كما قال الفرزدقُ:

مَشَيْنَ إلَيَّ،لم يُطْمَثْنَ قَبْلي
وهُنَّ أَصَحُّ مِنْ بَيضِ النَّعامِ[٥٩]

❁ ❁ ❁

في الأمثِلةِ والشَّواهِدِ التي أوردناها آنِفًا، لاحَظْنا تَشبيـهَ المَرأةِ (كُلِّ المَرأةِ) قَوامِها، أو

جَسَدِها أو عُمُومِ شَكْلِها، بِحَيَوانٍ مُحُبَّبٍ للقائلِ..وفي الصَّفحاتِ التاليةِ سَنَطَّلِعُ إنْ شاءَ اللّهُ على صِفَةٍ جُزئيَّةٍ، أو عُضْوٍ مُحَدَّدٍ مِن أعضاءِ المَرأةِ يُشَبَّهُ بِصِفَةٍ في حالَةٍ خاصَّةٍ، أو بِعُضْوٍ من أعضاءِ المُحَبَّبِ إليْهِ منَ الحيَوانِ.

تَشبيهُ مِشيَةِ المرأة: مَن يَستعرض شِعرَ الغزَل في أدبنا العربي القديمِ، يَجد اختلافًا في أذواقِ قائلي هذا الشِّعرِ، وأذواقِ شَبابِنا ورِجالِ عَصْرِنا من ناحيَةِ رَأيِهم في جَمالِ المَرأةِ ونَظرَتِهم لِمَظاهِرِ هذا الجَمالِ. فالرِّجالُ اليوم يُفَضِّلونَ المَرأةَ النَّحيلَةَ الجِسمِ، الدَّقيقَةَ الخَصْرِ، الرَّقيقَةَ القَوامِ، لكنَّ كَثيراً مِنْ شُعرائنا القُدامَى رُبَّما وَجدوا في المرأةِ المُمتلئَةِ الجِسمِ، العَبْلَةِ الذِّراعَيْنِ، المُلتَفَّةِ الفَخذَيْنِ، الضَّخمَةِ العجيزَةِ، المِثالَ الأحسَنَ لِلمرأةِ، ورُبَّما عَدُّوا هذا الشَّكلَ للمَرأةِ دليلاً على تَرَفِ عَيْشِها، ورَفاهَةِ حَياتِها في قَومِها، والنِّعمة التي مَرَّتْ بها في صِباها معَ أهلِها..كقول الأعشَى الكبير(٦٠):

هِرْكَولَةٌ فُنُقٌ دُرْمٌ مَرافِقُها
كأنَّ أخْمَصَها بالشَّوكِ مُنْتَعِلُ(٦١)

قد يَقولُ قائلٌ: إنَّ ذَوقَ الأعشَى في مَيْلِهِ لِلمَرأةِ السَّمينَةِ، ذاتِ الجِسم المَلآنِ، قد لا يَكونُ ذوقًا عامًّا لِرجالِ عَصرِهِ.. رُبَّما نَقتَنِعُ بِهذا، ولكنَّ الذي نُؤَكِّدُهُ أنَّ القَدَّ الطَّويلَ المَمْشوقَ، الذي يُشَبَّهُ بِغُصنِ البانِ، والكَشْحَ (الخصْر) النَّحيلَ الذي يَجولُ وِشاحُهُ ويَتَحَرَّكُ، يُرافِقُهُ أردافٌ مُمتلئَةٌ، وكَفَلٌ مُكتَنِزٌ، على فَخذَيْنِ مُلتَفَّيْنِ مُمْتَلِئَيْنِ.. كانَ هذا الوصفُ هوَ المَثَلُ الأعلى لِلحَسناءِ الجَميلَةِ التي يُريدُها الرِّجالُ ويَتَمَنَّونَها.. كما قال عُمرُ بنُ أبي ربيعة:

هَيْفاءُ، لَفَّاءُ، مَصْقُولٌ عَوارِضُها
تَكادُ مِنْ ثِقَلِ الأردافِ تَنْبَتِرُ(٦٢)

مِثلُ هذهِ المرأةِ الضَّخمةِ الكَفَلِ، الجَسيمةِ البَدينة، لا بُدَّ أنْ تَكونَ بَطيئةَ المِشْيَةِ، مُتَمَهِّلَةَ الخُطواتِ تَمشي مُتَثاقِلَةً هادئَةً رَزينَةً، ورُبَّما دَلَّ هذا على اتِّزانٍ في الشَّخصِيَّةِ، وهُدوءٍ في الطَّبْعِ. قال الأعشى يذكرُ مِشيَةَ صاحِبَتِهِ، ويُشَبِّهُها بِمِشيَةِ فَرَسٍ يَسيرُ في أرضٍ مُوحِلَةٍ رَطْبَةٍ، ويَشتَكي حَفًا في سَنابِكِهِ:

غَرَّاءُ فَرْعاءُ، مَصقولٌ عَوارِضُها
تَمْشي الهُوَيْنَى كما يَمشي الوَجي الوَحِلُ(٦٣)
وإذا تُعالِجُ قِرْنًا ساعَةً فَتَرَتْ
واهْتَزَّ مِنْها ذَنُوبُ المَتْنِ والكَفَلُ(٦٤)

وهــذا ذو الرمّة يَذكرُ نسْــوَةً، فَوَصفَهُنَّ بالمِشْيَــةِ المُتَّزِنَــةِ المُتَثاقِلَــةِ، المُتَّصِفَةِ بِقِصَرِ الخُطَى وبُطئِها وهُدوئِها، وشَبَّهَها بِخُطواتِ القَطاةِ التي تَمشي بَطيئَــةً مُتَمهِّلَةً، قال ذو الرمة:

قِصارُ الخُطَى يَمْشِينَ هَوْنًا، كأنَّهُ
دَبيبُ القَطا بَلْ هنَّ في الوَعْثِ أوْجَلُ(٦٥)
ولا عَيبَ فيها، غَيرَ أنَّ سَريعَها
قَطوفٌ، وأنْ لا شَيْءَ منْهُنَّ أكسَلُ(٦٦)
نَواعِمُ رَخصاتٌ، كأنَّ حَديثَها
جَنَى النَّحْلِ منْ ماءِ الصَّفا مُتَشَمِّلُ(٦٧)

وفي هــذا المَجــال يُستَجــادُ قَــولُ ابنِ عَجْــلان(٦٨) في صاحِبَتِهِ هند، يَذكرُ مِشيَتَها البَطيئَــةَ المُتَمهِّلَــةَ، المُشابهَــةَ لِدبيبِ طائرِ القَطا، المَوصُوف بِحَلاوَةِ مِشْيَتِه:

ألا أبْلِغا هِنْدًا سَلامي، وإنْ نَأتْ
فَقَلبيَ مُذْ شَطَّتْ بها الدارُ مُدنَفُ(٦٩)
ولم أرَ هِنْدًا بَعدَ مَوقِفِ ساعَةٍ
بأنعَمَ في أهلِ الدِّيارِ، تَطوَّفُ
أتَتْ بينَ أتْرابٍ تَمايَسُ إذْ مَشَتْ
دَبيبَ القَطا أوهُنَّ منْهُنَّ أقطَفُ(٧٠)

تَشبيهُ شَعــرِ المرأةِ بالأفاعــي: اعتادَتِ المرأةُ العربيَّــةُ مُنذُ القَديمِ أنْ تُضَفِّرَ غَدائرَ شَعرِها، فَتَجعَلَهُ جَدائــلَ وضَفائرَ، مَجدولةً شَبَّهَهــا الشعــراءُ بِالحَيَّاتِ السُّــودِ، وذلكَ لانْتِشــارِ الشَّعرِ ذي اللَّونِ الأسوَدِ بينَ النِّساءِ العربيَّاتِ...قال ذو الرمة:

وأسْحَمَ، كالأساوِدِ مُسْبَكِرًّا
على المَتْنَيْنِ مُنْسَدِلاً جُفالا(٧١)

وقال الشَّمَّاخُ بنُ ضِرار:

قامتْ تُريكَ أثيثَ النَّبْتِ، مُنْسَدِلاً
مِثْلَ الأساوِدِ قَدْ مُسِّحْنَ بالفاقِ(٧٢)

تَشبيهُ سالِفِ المَرأةِ وأصْداغِها :كما يُشَبِّهُ شُعَراءُ العــربِ سالِفَتَيِ المَرأةِ(٧٣) ويُعَبَّرُ بِهِما عنِ الشَّعَرِ الذي يَتَدَلَّى مِــنَ الصُّدْغَيْنِ (٧٤) على الأُذُنَيْنِ، وما يَليهِما على الخَدَّيْنِ، وكَثيرًا ما تُشَبَّهُ هذِهِ الخُصَلُ بِالعَقارِبِ، وذلكَ كَقَولِ أحَدِ الشُّعَراءِ، يذكرُ عَقاربَ الأصْداغِ:

أرَى سَهْمَ لَحْظٍ تحتَ عَقْرَبِ سالِفٍ
وكَيفَ نَجاتي بينَ سَهْمٍ وعَقْرَبِ
وألحَظُ ما طَلَّتْهُ باللَّحْظِ من دَمي
على وَجْنَتَيْها والبَنانِ المُخضَّبِ(٧٥)

ويَبْدو أنَّ تَشبيهَ ما يَتَدَلَّى منَ الشَّعَرِ على أصْداغِ الحِسانِ بِالعَقارِبِ قَديمٌ يَعُودُ لِلأيامِ الأولى مِــنَ الإســلامِ... ورُبَّمــا أقدم. قال مجنون بني عامر(مجنون ليلى):

في صُدْغِهِنَّ عَقارِبٌ يَلسَعْنَنا
ما مَنْ لَسَعْنَ بواجدٍ تِرْياقَها[٧٦]

وقال الصَّاحِبُ بنُ عَبَّاد[٧٧] يذكرُ عَقاربَ صُدغَيْها بأُسلوبٍ طَريفٍ:

وعَهْدي بالعَقارِب حينَ تَشْتُو
تُخَفِّفُ لَدغَها، وتَقِلُّ ضَرَّا[٧٨]
فَما بالُ الشِّتاءِ أتَى، وهذا
عَقاربُ صُدْغِهِ يَزْدَدْنَ شَرًّا[٧٩]

وجَعَلَ عُمَرُ المُطوَّعي[٨٠] عُنُقَ صاحِبَتِهِ كَجيدِ حَمامَةٍ مُطَوَّقَةٍ، وجَعلَ صُدغَها كَجَناحِ غُرابٍ:

بِنَفسِيَ مَنْ تَمَّتْ مَحاسِنُ وجْهِهِ
فَما هوَ إلاَّ البَدرُ عِندَ تَمامِ
وأرسَلَ صُدْغًا فوقَ خَدٍّ، كأنَّهُ
جَناحُ غُرابٍ فَوقَ طَوقِ حَمامِ[٨١]

تَشبيهُ عَيْنَي المرأةِ بِمُقلَتَيْ رِيمٍ أو مَهاةٍ: ما أكثَرَ ما شَبَّهَ شُعراءُ العربِ عُيونَ صَواحِبِهِم بِمُقَلِ الغِزلانِ، أو عُيُونِ المَها، وهذا التَّشبيهُ كانَ يَتَكَرَّرُ ويَتَرَدَّدُ بشَكلٍ كَبيرٍ يَستَلفِتُ نَظَرَ القارئِ بِكَثْرَةِ تَرَدُّدِهِ، وإلفِ الشُّعَراءِ لَهُ.. مِنْ أقدَمِهِم امرؤ القيسِ، حيثُ قال:

نَظَرَتْ إليكَ بِعَيْنِ جازِئَةٍ
حَوراءَ حانِيَةٍ على طِفْلِ[٨٢]

وقال النابغة الشيباني[٨٣]:

ولَها عَيْنا مَهاةٍ في مَهًا
تَرتَعي نَبْتَ خُزامَى ونَتَشْ[٨٤]

وقال المَرَّار بنُ مُنقذ[٨٥]:

وتَعَلَّلْتُ وبالي ناعِمٌ
بِغَزالٍ أحوَرِ العَيْنَيْنِ، غِرْ[٨٦]
ولَها عَيْنا خَذُولٍ مُخْرِفٍ
تَعلَقُ الضَّالَ وأفنانَ السَّمُرْ[٨٧]

وقال ذو الرمة:

أرَى فيكِ مِنْ خَرْقاءَ يا ظَبْيَةَ اللِّوَى
مَشابِهَ، جُنِّبْتِ اعْتِلاقَ الحَبائِلِ[٨٨]
فَعَيْناكِ عَيْناها، ولَونُكِ لَونُها
وجِيدُكِ إلاَّ أنَّها غيرُ عاطِلِ[٨٩]

وقال الحُصَري القيرواني[٩٠] يَذكرُ مُقَلَ الغِزلانِ القَواتِلَ، التي تُسَلُّ كأنَّها سُيُوفٌ تَقتُلُ مَنْ يَتَعَرَّضُ لَها، ولا يُرتاحُ مِنها إلاَّ إذا أقْصَدَها النُّعاسُ:

ومُقْلَةِ شادِنٍ أودَتْ بِنَفسي
كأنَّ السُّقْمَ لي ولَها لِباسُ
يَسُلُّ اللَّحظُ مِنْها مَشْرَفِيًّا
لِقَتْلي، ثمَّ يُغْمِدُهُ النُّعاسُ[٩١]

ثَغْرُ المرأةِ وريقُها: يُعَدُّ العَسَلُ وهوَ من المُنتَجاتِ الحَيَوانيَّةِ مادَّةً للتَّشبيهِ المُحَبَّبِ لَدَى القُدماءِ منَ الشُّعَراءِ، فقدَ جَعَلَ كثيرٌ مِن هؤلاءِ الشعراءِ رُضابَ صَواحِبِهِم أحلَى

منَ العَسَلِ، وذلكَ لأنَّ العَسَل أو (جَنَى النَّحْلِ) كَما سَمَّاهُ مُعظَمُهم يُعَدُّ بِالنِّسبَةِ لَهم مَضربَ المَثَلِ في الحَلاوةِ، وطِيبِ النَّكهَةِ. قال وضَّاحُ اليَمَنِ يَصفُ رِيقَ صاحِبَتِه:

تَـفـتَرُّعـن مَـنْـطِـقٍ تَـضِـنُّ بِـه
يَجْرِي رُضابًا كَذائبِ العَسَلِ[٩٢]

وقال أعشَى هَمْــدان يذكرُ رِيقَها، الذي يُشبِــهُ العَسَلَ المُصفَّى حينًــا، والخمرَ حينًا آخرَ، وإذا ما رَمَقَتْكَ رأيتَ ألحاظَها كمُقلتَيْ ظَبْيٍ، تَعطِفُ على صَغيرِها وتَحنُو عليْهِ:

وكأنَّ رِيقَتَها على عَلَلِ الكَرَى
عَسَلٌ مُصَفًّى في القِلالِ وقَرْقَفُ[٩٣]
وكَأنَّما نَظَرَتْ بِعيْنَيْ ظَبْيَةٍ
تَحْنُو على خِشْفٍ، لَها وتَعَطَّفُ
ولَـهـا ذِراعــا بَـكْـرَةٍ رَحَـبِـيَّـةٍ
ولَها بَنانٌ بالخِضابِ مُطَرَّفُ[٩٤]

وقــال الوليدُ بــنُ يَزيد(الخَليفَةُ الأُمويُّ المَعروف)يَذكرُ ريقَ سَلمَى، وقد شَبَّهَهُ بِمَزيجٍ منَ المِسْكِ والزَّنْجَبيــلِ وألبانِ الإبلِ، أو الماء العذب الصافي:

فَـمـا مِـسْـكٌ يُـعَـلُّ بِـزَنْجـبـيـلٍ
ولا عَـسَـلٌ بِـألـبـانِ الـلِّـقـاحِ
بِأشهَى مِنْ مُجاجَةِ رِيقِ سَلمَى
ولا ما في الزِّقاقِ مِنَ القَراحِ[٩٥]

ومِمَّــا لَهُ صِلَةٌ بِالريــقِ وتَشبيهِهِ، تَشبيهُ حَديــثِ الحَبيبِ بِالعَسَــلِ في حَلاوَتِهِ كَقَولِ جِرانِ العَودِ النميري:

فَنِلنا سِقاطًا مِنْ حَديثٍ كأنَّهُ
جَنَى النَّحْلِ أوأبْكارُكَرمٍ تُقَطَّفُ[٩٦]

وقال أبو ذؤيــب الهُذلي[٩٧] في مِثلِ هذا المعنَى:

وإنَّ حَديثًا مِنْكِ لو تَبْذُلينَهُ
جَنَى النَّحْلِ في ألبانِ عُوذٍ مَطافِلِ[٩٨]
مَطافِلِ أبكارٍ حَديثٍ نِتاجُها
تُشابُ بِماءٍ مِثلِ ماءِ المَفاصِلِ[٩٩]

واشتهــرَ لِــذي الرمــة هــذانِ البيتانِ الجميــلانِ ،يَصِفُ فيهما حَديــثَ صاحِبَتِهِ المُشابِهَ لِلعَسَلِ:

ولَمَّا تَلاقَيْنا جَرَتْ مِنْ عُيُونِنا
دُمُوعٌ،وزَعْنا ماءَها بالأَصابِعِ[١٠٠]
ونِلنا سِقاطًا مِنْ حَديثٍ كأنَّهُ
جَنَى النَّحْلِ مَمْزوجًا بِماءِ الوَقائعِ[١٠١]

تَشبيــهُ عُنُقِ المرأةِ بِجيدِ الغَزالِ: يَتَّصِفُ الظَّبْيُ بِطُــولِ عُنُقِهِ ومَلاستِهــا ونُعومَتِها، وجَمــالِ انْتِصابِها، لِذا تُشَبَّهُ بِها عُنُقُ الفَتاةِ الحَسناءِ، وهــذا أمرٌ أدرَكَهُ شُعــراءُ العرَبِ فَمارسُوهُ واسْتَغَلُّوهُ أحسَنَ اسْتِغْلالٍ، وجَعَلوا

الفَرقَ بينَ الجيدَيْــنِ أنَّ جِيدَ الظَّبْي عاطِلٌ عنِ الحلي، بينَما جيدُ المرأةِ مُحَلًّى بِالعُقُودِ والقَلائدِ، مُمَّا يَزيدُهُ حُسْنًا وجَمالاً وإشْراقًا، كما قال امرؤ القيس:

وجِيدٍ كَجيدِ الرِّئْمِ ليسَ بِفاحِشٍ
إذا هيَ نَصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ(١٠٢)

ولم يَكتَــفِ النابغةُ بِذِكرِ جيــدِ صاحِبَتِهِ وتَشبيهِــهِ بِجيدِ الظَّبْيِ، وإنَّما تَوَسَّعَ فوَصَفَ أعلَــى صَدرِها، حيثُ تَظهَــرُ قَلائدُها التي تَهَــبُ هذا الصَّدرَ مَزيدًا منَ الإشْراقِ والنورِ واللألاء:

تَـرائبَ يَسْتَضيءُ الحَلْيُ فيها
كَجَمْرِ النارِ بُذِّرَ بِالظَّلامِ(١٠٣)
كـأنَّ الشـذرَ واليـاقـوتَ منْها
على جَيْداءَ فاتِرَةِ البُغامِ(١٠٤)

وقال الحادرة(١٠٥) في مِثْلِ هذا المَعنَى:

وتَصَدَّفَتْ حتى اسْتَبَتْكَ بِواضِحٍ
صَلْتٍ كَمُنْتَصِبِ الغَزالِ الأتلعِ(١٠٦)

وقال يَزيدُ بنُ الحَكَم الثَّقفي(١٠٧):

أمسَى بِأسْماءَ هذا القلبُ مَعمودا
إذا أقولُ صَحا، يَعتادُهُ عُودا(١٠٨)
كأنَّ أحوَرَ، من غِزلانِ ذي بَقَرٍ
أهدَى لها شَبَهَ العَيْنَيْنِ والجِيدا(١٠٩)

تَشبِيهُ صَدْرِ المَرأةِ: التَّرائبُ: جَمعٌ مُفرَدُهُ تَريبَــةٌ وهيَ مَوضِعُ القِلادَةِ في أعلى الصَّدرِ (مِمَّا يَلي التَّرْقُوَتَيْنِ). هذا الموضِعُ من جَسَدِ المَــرأةِ شَغَلَ فِكرَ الشعراءِ، فنــالَ قِسْطًا مِنْ عِنايَتِهِم. ومِنْ أوائلِ هؤلاءِ امرؤ القيسِ الذي أَسَرَهُ بَريقُ تَرائبِها فَشَبَّهَها بِمرآةٍ حيثُ قال:

مُهَفْهَفَةٌ، بَيضاءُ، غيرُ مُفاضَةٍ
تَرائبُها مَصْقولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ(١١٠)

لم يَتَمَكَّنْ شُعراءُ العربِ من تحديدِ شَبيهٍ لِصَــدرِ المرأةِ مِن بينِ أعضــاءِ الحيَوانِ، أيْ أنَّهم فَشِلــوا في اختِيارِ مَثيــلٍ مُقْنِعٍ مُحَدَّدٍ، وكانُوا فيمــا سَبَقَ يُجْرونَ مُقارَنَةً بينَ عُضْوٍ منَ المَــرأةِ بِمــا يُماثِلُهُ من أعضــاءِ حَيَوانٍ مُناسِبٍ ومُحَبَّــبٍ إلى قُلوبِهِم؛ فَعَيْنُ الحَبيبِ كَمُقْلَــةِ مَهاةٍ أو ظَبْــيٍ، وعُنقُهُ كَجيدِ غَزالٍ. أمَّا الصَّدْرُ (التَّرائبُ) فلم يَنجَحُوا في تَحديدِ عُضْــوٍ مُقابِلٍ، فَلَجــؤوا إلى تَوسيــعِ مَجالِ الــكلامِ، وتاهُوا في العُمُوميَّــاتِ. كقَولِ ذي الرُّمَّة:

بَرَّاقَةُ الجيدِ، واللَّبَّاتُ واضِحَةٌ
كأنَّها ظَبْيَةٌ أفضَى بها لَبَبُ(١١١)

وقال المُثَقِّبُ العَبْدي يذكرُ قَلائدَ الذهب على تَرائبِ صاحِبَتِهِ، فلم يَجِدِ شَبيهًا لِتَرائبِها بينَ أعضــاءِ الحيَوانِ، فمالَ إلى مُقارَنَةٍ بينَ

لونِ التَّرائبِ وبينَ العاجِ الأبيضِ، حيثُ قال:

ومِـنْ ذَهَـبٍ يَـلـوحُ علـى تَـريـبٍ
كَلَونِ العاجِ ليسَ بذي غُضُونِ(١١٢)

تَشْبيهُ خَصْرِ المرأةِ بِخصرِ الغَزال: ذَكَرنا أنَّ الظَّبْيَ كانَ حَيوانًا مُحَبَّبًا لِشُعراء العربِ، لـذا فقد أكثَروا مـن تَشبيهِ أعضـاءِ المرأةِ بِأشياءَ مـن أعضاءِ الغزال. وبما أنَّ العربيَّ أحبَّ المـرأةَ النَّحيلَةَ الخصْرِ، التي يَجولُ وِشاحُها ويَتَحَـرَّك، فكانَ الشَّبيـهُ المَعقولُ المُقْنِعُ بِشَكلٍ تـامٍ، هوَ خصرَ الظَّبْي وكَشْحَهُ كما قال طُفَيل الغَنَويّ:

ديـارٌ لِسُعدَى إذْ سُعادُ جَدايَـةٌ
منَ الأُدْمِ خَمْصانُ الحَشَا غَيْرُ خَثْيَلِ(١١٣)

وقال طَرَفةُ بنُ العبدِ، وقد جَعلَ خَصرَها كَخصْرِ مَهاةٍ تُزْجي(تَسُوقُ) وليدَها، تَتَّبِعُ بينَ كُثْبانِ الرِّمالِ أغصانَ ما تَرعاهُ منَ النباتِ:

ولَـهـا كَـشْـحـا مَـهـاةٍ مُـطْـفـلٍ
تَقْتَري بِالرَّمْلِ أفْنانَ الزَّهَرْ(١١٤)

وقال عَلقَمةُ بنُ عَبدَةَ يَذكرُ نُحُولَ خَصرِ صاحِبَتِهِ، وجَوَلانَ وِشاحِها، وضُمُورَ بَطْنِها.. وشَبَّهَها بِغَزالٍ فَتِيٍّ مِمَّا يُرَبَّى في البُيوتِ، ولا يُرافِقُ الرَّبْرَبَ (القَطيعَ) إلى المَرعَى:

صِفْرُ الوشاحَيْنِ، مِلْءُ الدِّرعِ، خَرعَبَةٌ
كأنَّها رَشَأٌ في البيتِ مَلزومُ(١١٥)

❁ ❁ ❁

تَشبيهُ أصابع كَفَّي المـرأة: وشَبَّهَ شُعراءُ العـربِ الأصابِـعَ في كَفَّي المـرأةِ الحسناءِ بِالأساريع، والأُسْروعُ أو اليُسْروعُ: دُودَةٌ كَدودَةِ القَـزِّ (الحَريرِ) التي تُشبِـهُ رُؤوسَ البَرِ لِعِمِ أوَّلَ خُروجِها. والأُسروعُ دودَةٌ لَطيفَةُ الشَّكلِ، ناعِمَـةُ الإهـابِ، بيضـاءُ اللونِ، لِـذا كانَ الشُّعَراءُ يُشبِّهونَ أصابِعَ الحِسانِ بِها، وذلكَ كَقَولِ امرئِ القيس:

وتَعطو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ، كأنَّهُ
أساريعُ ظَبْيٍ أو مَساويكُ إسْحِلِ(١١٦)

الهوامش

١- أوس بن حجر شاعر جاهلي، وهو زوج أمِّ زُهير بن أبي سُلمَى، ويُعَدَّ أستاذًا لِزُهير.

٢- الكامـل للمُبَرِّد ١٢/٢. آنِسَة: فتاة طَيِّبَـة النفس، يُحَبُّ قُربُها وحَديثُها. تُصْبي: تَستَميل. عَروب: مُحَبَّبَة لِزَوجِها. مكلاح: عابسة.

٣- ذو الرمة اسمهُ غَيلان بن عُقبة العدوي، شاعر إسلامي أكثر شِعرِه تَشبيب وبُكاء أطلال.

٤- تَشرئبُّ: تَمُدّ عُنُقَها. تَسنَح: تَظهَر.

٥- أدماء: من الأضداد (بيضاء وسَمراء)والمُراد بيضاء. والشطر الثاني يُشيرُ إلى بَريقِ لونِها.

٦- ديوانه ٧٩/٨٠.

٧- وضاح اليمن اسْمُهُ عبد الرحمن بن إسماعيل من آلِ خَولان، تَغَزَّل بأُمِّ البنين زوج الوليد بن عبد الملك فقتلهُ.

٨- أغاني دار صادر ١٦٨/٦. الكُنَّس: جمع كانس وهو الظبيُ في كِناسه أو مَكْنَسه (مَبيته).

٩- مختار الغزل لكاتب هذه السطور ص١٢٦. الخَنا: الفُحْش (وليتَهُ استَبدَلَ كلمة زوانٍ بأخرَى).

١٠-عمر بن أبي ربيعة المَخزومي القُرَشي، أشعَرُ قُرَيش، مُعظمُ شعرِه غَزَل.

١١-مكان رمي الجِمار للحُجَّاج.

١٢-القزّ: ثِياب حَرير. الحبَرات: مَلابس يَمانيَّة ثَمينة.

١٣-ديوانه ٨٥.

١٤-اسمُهُ عائذ بن محصن، من عبد القيس، أهل البحرين، مدَحَ المناذرة.

١٥-خَذَلنَ: تَأخَّرْنَ عن القطيع.ذات ضال: موضع، والضَّال: شَجَر. يَنُشْنَ: يَتَناوَلنَ.

١٦-ديوانه ٥٧. الكِلَّة: ستر رقيق. سدَلنَ: أرخَيْنَ. الوَصاوص: جمع وَصوص وهو البُرْقُعُ(غِطاء للوَجه فيه ثُقبانِ على قَدرِ العيْنَيْن).

١٧-أبوهُ زُهيرُ بنُ أبي سُلمَى، وهوَ صاحبُ (بانتْ سُعاد)الشَّهيرة في مدح النبي.

١٨-غَداة البَين: صَباح يوم الفِراق.

١٩-ديوانه ص١٠٩. عَوارض: جمع عارضة وهي الثَّنِيَّة منَ الأسنان. الظَّلم: الريق(ماء الأسنان) الراح: الخَمْر. مَعلول: مَمزوج.

٢٠-شاعر جاهلي، كانَ يُسمَّى طُفَيل الخَيْل لجَودَة وصْفِه لَها.

٢١-مُختار الغزل ص٩٠. جَداية: ظَبية فَتيَّة. الأُدم: البيض. خَمصان الحشا: ضامرة الخصر. خَثيل: ضَخمة البطن (ورُبَّما خانَهُ الذوقُ في استعمال هذه الكلمة).

٢٢-شاعرٌ أُمويٌّ غَزِلٌ، وهوَ ثَقَفيٌّ من أقارب الحجَّاج.

٢٣-أغاني صادر ١٤٥/٦. يَحكيها: يُشْبِهُها. سوالف: جمع سالِفة: وهيَ جانب العُنُق.

٢٤-أنازع: أُجاذبُ. أحور: شَديد بياض بياض العين، وشديد سَواد سَوادها.

٢٥-ديوانه ٣٣٣. وهنًا: بعدَ مُنتصف الليل. شابَ: خالَطَ. عاتق مختوم: خمر تُفتَح لأوَّل مَرَّة.

٢٦- شاعر العراق في عصره، فارسي الأصل، نظَمَ في مُعظَم فُنُون الشعر.

٢٧- اشرأبَّ: أوشَكَ. وكَفَ الدمع: سقَطَ.

٢٨- العمدة ١١٩/٢. القيان: الجَواري. شَنف: قُرط يُوضَع قي أعلى الأُذُن.

٢٩- وجدي بها: شوقي إليْها.

٣٠- ديوانه ٧٢. تَهادَى: أصْلُها تَتَهادَى. كَواعب: جمع كاعب وهي الفتاةُ التي نَهَدَ ثَديُها. أتْراب: جمع تِرْب وهنَّ المُتَماثلاتُ في السِّنِّ.

٣١- شاعر اليَمانية وفارسُهُم بالكوفة في العصر الأُموي، ثارَ معَ ابنِ الأشعث على الأُمويين فقتلَهُ الحَجّاج.

٣٢- الشذر: خَرَز أو لآلىء صغار تَكونُ في العقد.

٣٣- أغاني دار صادر ٣١/٦. يَعِنُّ: يَظهَرُ.

٣٤- الكامل ٣٨١/١. البراث: الأرض السهلة اللَّيِّنة.

٣٥- العرجي هو عبد الله بن عُمَر بن عَمْرو بن عُثمان بن عفان الأموي القُرشي، شاعر غَزِل وظَريف.

٣٦- الخَدّ الأسيل: الأملس المُستَوي. الخَلق العَميم: الشكل التام الطويل.

٣٧- مختار الغزل ٣٠١.

٣٨- شاعر دمشقي أموي شَهير.

٣٩- ديوانه ٩٩/١٠٠. وسنان: نعسان. أقصَدَهُ: أصابَهُ. سِنَةٌ: نُعاسٌ.

٤٠- اسمُهُ عامر بن الحارث، وجِران العَود لَقَبُهُ، شاعر إسلامي لهُ ديوان مَطبوع.

٤١- يَنضُو: يُلقي. الدرع: القميص. سبيكة: قطعة فضَّة. المَثاقيل: المَوازين.

٤٢- إراخ جمع أرخ. أخذَلَها: أجبَرَها على التَّخَلُّفِ عن القَطيعِ. واضح الخَدَّين مَكحول: ولَدُها الجُؤذر الصَّغير لتَرعاهُ.

٤٣- من أشهر شُعراء الجاهليَّة وأصحاب المُعَلَّقات

٤٤- ديوانه ٢٣٤. الأسرة: جمع سراء وهي الأرض الطيبة. عوهج: طويلة.

٤٥- لَبيدُ بن ربيعة العامري: شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات أيضًا.

٤٦- ديوانه ٢١٧. الفَرير: وَلَدُها المولود حديثًا. لم يَرم: لم يَبرح. الشقائق: جمع شقيقة؛ رَملةٌ مُستطيلةٌ فيها نَبْتٌ. طَوفُها: ذَهابُها ومَجيئُها. بُغامُها: صَوتُها.

٤٧- دُريد بن الصِّمَّة الجُشَمي البَكري من هوازن: شاعر جاهلي من المعمَّرين، أدركَ الإسلامَ ولم يُسْلِم.

٤٨- لسان العرب (خنس). التَّبْل: سقام الحُبّ.

٤٩-ديوانه ١٦٤. تَربَّعَتْ: قَضَت الربيع. آجال: جمع إجْل وهو قَطيع بَقَر الوحش.

٥٠-الصافات ٤٨-٤٩.

٥١-شاعر مخضرم، أسلم كبيراً، وأدرك القادسية.

٥٢-الظليم: ذكر النعام. يحفها: يحيط بها، وذكر النعام يشارك أنثاه في حضن البيض. جؤجؤ: صدر. جافٍ: غليظ. ميثاء: أرض لينة.

٥٣-بَطن قراقر: موضع، وأظُنُّ بَطن القطاة كذلك.

٥٤-الكشح: الخصر. مُضمَرة الحشا: نَحيلة الجسم. هَونة: رفيقة، وَئيدَة. مجبال: غليظة الخَلق (ضَخمة).

٥٥-العُمدة ٤٨/١. الذي مثل الكثيب: رِدْفُها الشَّبيه بكثيب الرَّمل.

٥٦-الرُّقيات: شاعر أموي كانَ مُناوئًا لبني أُميَّة مع مُصعب بن الزبير، ولمَّا قُتلَ مُصعب صالحَ الأمويينَ ومَدَحَهم.

٥٧-ملحق ديوانه ١٩٣. الأُدحيّ: حُفرةٌ في الأرض تكونُ مَبيضًا للنَّعام.

٥٨-ديوانه ٩٥.

٥٩-النقائض ١٠٠٦/٢. لم يُطمَثنَ: لم يُمْسَسْنَ.

٦٠-هو مَيْمون بن قيس، أكبَرُ الأعاشي وأشهرُهم، وهو من أصحاب المُعلَّقات ورجال الطبقة الأولى.

٦١-هركولة: ضَخمة العَجيزة، مُمتلئة الأرداف. فُنُق: مُتْرَفة، مُرَفَّهة. دُرم مَرافقُها: اللحم يُواري مَفاصِلَها. أخمصُها: باطِنُ قَدَمها.

٦٢-هيفاء: مَمشوقة القَوام، طَويلة. لَفَّاء: مُمتلئة الجسم. عوارضُها: ج عارضة وهي صَفحة الخَدّ (وقيل المُرادُ: ثَناياها). تَنْبَتِر: تَنقسم.

٦٣-غَرَّاء: بيضاء. فَرعاء: طويلة الشعر. الوجي: مِنَ الوَجَى وهوَ الحَفَى، مَرَض في حوافر الخيل الوَحِل: الماشي في الوَحْل.

٦٤-تُعالِجُ: تُجاذِبُ. قرنًا: صاحبًا. ذَنُوب المَتْن: ما نَتَأ من العجيزة في أعلى الفَخذ.

٦٥-هَونًا: برِفْق. الوَعث: الرمل. أوجَل: أبطأ.

٦٦-القَطوفُ: البطيء في سَيْره.

٦٧-ديوانه ٤٦١. رَخصات: لَيِّنات. مُتَشَمِّل: أصابتْهُ ريحُ الشَّمال.

٦٨-ابن عَجْلان: شاعرٌ يَعُدُّهُ المُحِبُّونَ قُدوةً لَهم، سَبَقَ جَميلاً وكُثَيِّرًا وقيسَ بنَ المُلوَّح.

٦٩- نَأَتْ وشَطَّت: ابْتَعَدَتْ. مُدنَف: شَديد المَرَض.

٧٠- مختار الغزل ٢٥٠. تَمايَسُ: تتَمايَلُ.أقطف: أبطأ.

٧١- أسحم: أسود. الأساود: الحيَّات السُّود. مُسْبَكِرّ: مُسْتَرسِل. مُنْسَدل: مَيَّال.جُفال: كَثيف.

٧٢- ديوانه ص٩١. أثيث: كَثيف. الفاق: الزيت المطبوخ.

٧٣- والسَّالِفَتانِ هُما جَانِبا العُنُق.

٧٤- والصُّدْغُ: جانِبُ الوَجْه، ما بينَ العَيْنِ والأُذُنِ.

٧٥- مختار الغزل ٦٢.

٧٦- ديوانه ١٤٧. الترياق: مادَّة مُضادَّة للسُّموم، تمنع السّم من العمل في الجِسْم.

٧٧- إسماعيل بن عبَّاد الطالقاني، وزيرٌ أديبٌ، كانَ وزيرًا لِمُؤيَّد الدولة وأخيه فخر الدولة الدَّيلَميَّيْن.

٧٨- تَشتُو: تدخلُ في الشتاء.

٧٩- مُختار الغزل ٧٧.

٨٠- أديب من أهلِ نيسابور مات في منتصف القرن الخامس الهجري.

٨١- مختار الغزل ٧٩.

٨٢- جازئة: ظَبية اجْتَزأَتْ بالرَّطبِ منَ العُشبِ عن الماء.

٨٣- شاعر من المُوالين لِبَني أُميَّة.

٨٤- أغاني دار صادر ٢٤/٧. الخُزامَى والنَّتَشْ: نوعان من النبات.

٨٥- شاعرٌ إسلاميّ عاصَرَ جَريرًا، واشتَبَكَ مَعَهُ في مَعرَكَةِ الهجاءِ، على الرغمِ من كونِهِ تَميمِيًّا مثلَهُ.

٨٦- تَعللت: تَمَتَّعت. غِرّ: لا تَجرِبَةَ لَهُ.

٨٧- المُفَضَّليَّة ٨٣/١٦. خَذول: ظَبية تَخَلَّفَتْ عن القَطيعِ لِرعايَةِ وليدِها. مُخرف: ولدتْهُ في الخريف. الضَّال والسَّمُر: نوعان من الشجر.

٨٨- خَرقاء: لَقَبُ صاحبتِه. الحبائل:جمع حِبالة، وهي آلَةُ الصَّيَّاد(يَدعو لَها ألاَّ تُصادَ).

٨٩- ديوانه ٤٩٥. جيد عاطل: لا يلبس القلائد.

٩٠- شاعرٌ أندلسيّ ضَرير، وهو صاحبُ قصيدة (يا ليلُ الصَّبُّ مَتَى غَدُهُ) الرائعة.

٩١- المَشْرَفِيّ: سيفٌ مَشهورٌ يُنْسَبُ لِمَشارِف الشام، أو مَشارف اليَمَن.

٩٢- أغاني صادر ١٦١/٦. تَفتَرُّ: تَفتَحُ فَمَها. مَنطِق: نُطق، كلام. تَضِنُّ: تَبْخَلُ.

٩٣- العَلَل: الشُّرب الثاني. الكَرَى: النعاس. قَرقَف: خَمْر.

٩٤-بَكرة: ناقة فَتيَّة. الخِضاب: الحنَّاء.

٩٥-أغاني صادر ٢٥/٧. الزقاق: جمع زِقّ، وهو وعاء من جلد. القَراح: الخالص من كُلِّ شيء.

٩٦-ديوانه ص٦٦. أبكار كرم: ثمار عنب نَضَجت في أول الموسم.

٩٧-شاعر مخضرم، اشتهر بالرثاء.

٩٨-عُوذ: جمع عائذ (مثل حامل)الناقة الحديثة الولادة. مَطافل: جمع مُطفِل: أيْ ذات طفل.

٩٩-أغاني صادر ١٩١/٦. تُشابُ: تُمزَجُ. ماء المفاصل: يَجري بينَ حِجارة، ويَكونُ صافِيًا.

١٠٠- وزَعنا: دَفَعنا.

١٠١- ديوان الحماسة ١٧٧/٣. الوقائع: مَوضع صُلب يَنبُعُ منهُ الماء.

١٠٢- ديوانه ٩٧. فاحش: طُولُهُ زائد عن الحَدّ.

١٠٣- أرادَ العكسَ (كَجَمْرِ النارِ بَدَّدَ الظَّلامَ) والعربُ يَفعلونَ ذلكَ كثيرًا.

١٠٤- ديوانه ص١٠١. الشَّذْر: اللؤلؤ. البغام:صوت الظبي.

١٠٥- الحادرة أو الحُوَيْدِرة: لَقبٌ يَعني(الضَّخْم) واسمُهُ قُطبة بن أوس:شاعر جاهلي مُقِلّ.

١٠٦- ديوانه ص٤٥ تَصَدَّفَتْ: انْحَرَفَتْ. استَبَتْكَ: أسَرَتْك. واضح: أبيض.صَلت: بارز.أتلع: طويل العُنُق.

١٠٧- شاعر أمويّ، كانَ مُناصرًا لِبَني أُميَّة.

١٠٨- مَعمود: أضناهُ العشق. يَعتادُهُ عُودا: يَنتَكسُ، فيعودهُ المرض

١٠٩- العمدة ١٢٣/٢. ذو بَقر: موضع.

١١٠- ديوانه ٩٦. مُهفهفة: نَحيلة الجسم. مُفاضة: سمينة. السجنجل: المرآة (رومي مُعَرَّب).

١١١- ديوانه ص٣. أفضَى: صارَ بها إلى فَضاء(خَلاء). لَبب: مُنقَطَع الرمل.

١١٢- ديوانه ٥٨.

١١٣- جَداية:ظَبيَة فَتيَّة. غير خَثيل: بَطنُها غير ضَخْم.

١١٤- ديوانه ٥١.

١١٥- صِفرُ الوشاح: نَحيلة الخصر. خَرعَبَة: فتاة ناعمة. في البيت مَلزوم: حبيس في البيوت، لا يَخرُج لِلمَرعَى، لِمَزيد من رِعايَته والاهتمام به.

١١٦- ديوانه ٩٨. تَعطو: تَتَناول. رخص: ناعم، لَيِّن. شَثن: خَشن، غَليظ. ظَبْي: هُنا اسمُ مَكان. مَساويك: جمع مِسْواك، وهوَ قَضيبٌ لَيِّنٌ تُنَظَّفُ بِهِ الأسنانُ بِدَلكِها بِهِ. إسْحِل: نوع من الشجر، يُطَيِّبُ رائحة الفم.

الدراسات والبحوث



الأيام الأخيرة للسلطان عبد الحميد في استانبول

نصر الدين البحرة ❁

في الثالـث والعشريـن من تموز سنة ألف وتسعمئـة وثلاث عشر، وقعت الحركة التي قام بها جماعة «الاتحاد والترقي» وكانت الضربة المباشرة الأكثر إيلاماً التي مهدت للإطاحة بالسلطان عبد الحميد العثماني.

وهـذه المناسبة تروق لي مراجعتها بين وقت وآخـر. والعودة على أوراق ومراجع حولها تجمعت لدي على مر السنين.

❁ كاتب وروائي وأديب (سوري)

العمل الفني: الفنان زهير حسيب

لقد جرت العادة أن يربط بعضهم بين نشأة «الاتحاد والترقي» المتفرعة عن حزب «تركيا الفتاة» وبين المحافل الماسونية الغربية، والحركات الصهيونية واليهودية.. وهذا موضوع هام وخطير لابد من وقفة مطولة عنده.. غير أن انتباهي انصرف هذه المرة، وقد غرقت بين أوراقي ومصادري، إلى مسألة أخرى، ربما كانت أكثر خطورة من حركة «الاتحاديين» وهي نفسها التي قرأنا في الكتب التاريخية المدرسية بعض شؤونها تحت عنوان «المسألة الشرقية».

وفي الواقع فإن هذا الأمر، يقتضي إجراء مداخلة تاريخية، للبرهان على أن المؤامرة الكبرى على فلسطين، بدأت منذ أكثر من نصف قرن على انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في «بال» أو«بازل» بسويسرا عام ١٨٩٧ بزعامة الصحفي اليهودي النمساوي «تيودور هيرتزل».

.. لا بد والحال هذا من العودة إلى مطلع القرن قبل الماضي، وقت أن وصل محمد علي إلى مصر عن طريق البحر، مع الجيش العثماني لإخراج الفرنسيين منها، واستلامه قيادة الفرقة الألبانية بعد مقتل قائدها، وكان هو يليه رتبة: «محمد علي آغا القولّي»، ومن خلال منصبه الجديد تمكن من الوصول إلى حكم مصر، واستصدار «فرمان» من السلطان العثماني بتعيينه عام ١٨٠٥.

واستطاع محمد علي، نتيجة الإصلاحات التي قام بها في مصر، أن يدعم مركزه فيها، وفي الوقت نفسه، فإنه صرف اهتماماً كبيراً نحو الجيش، فجعله جيشاً حديثاً قوياً مدعوماً بأسطول بحري حديث أيضاً أنشأ له داراً للصناعة ومدرسة لتدريب البحارة.

و اغتنم محمد علي فرصة خلافه مع والي عكا الذي «عرقل نقل الأخشاب إلى مصر، وامتنع عن تسليم الفلاحين المصريين الفارين من التجنيد الإجباري، ورفض سداد الديون التي كانت بذمته لمحمد علي»، فأرسل حملة، ظن السلطان العثماني أنها ستتوقف عند حدود عكا، وأنها ستؤدي إلى إضعاف الواليين نتيجة اقتتالهما، في حين يمكن أن يتدخل -أي السلطان- في اللحظة المناسبة..

ولكن ما حدث تجاوز ذلك تماماً، وفهم السلطان أنه هو المقصود بهذه الحرب، وأن قتال محمد علي مع والي عكا، لم يكن سوى ذريعة للوصول إلى بلاد الشام. وهكذا فإنه عزله، وأرسل جيشاً لقتاله، لكن إبراهيم باشا، قائد جيش محمد علي هزم الجيش

العثماني قرب حمص بعد أن كانت دمشق قد فتحت له أبوابها فدخلها دون قتال.. وتابع طريقه، ففتح حلب، ثم سار حتى دخل «أضنة» وأخضع إقليمها، واتجه نحو الأستانة «استانبول» فاصدم مع الجيش العثماني الذي أرسله السلطان لملاقاته، فهزمه في معركة «قونية» وغدا الطريق مفتوحاً أمامه.. نحو العاصمة العثمانية.

..ها هنا تنبهت الدول الأوروبية إلى هذا الخطر القادم من الوطن العربي، ولاسيما روسيا وبريطانيا، وكانت لكل منهما أسبابها، فإن روسيا تخشى من وقوع المضائق في هذه القبضة القوية الجديدة، وهي تفضل بقاءها في يد السلطان العثماني الضعيف، وتخشى بريطانيا من تنامي قوة محمد علي التي يمكن أن تهدد طريق الهند.

.. وهكذا عقدت اتفاقية«كوتاهية» في أيار ١٨٣٣ وتوقف القتال، ووافق السلطان العثماني على منح محمد علي ولاية سورية، وإقليم أضنة.

.. لم ترق هذه النتيجة للسلطان العثماني محمود الثاني، فإذا هو يعود إلى إعلان الحرب بعد ست سنوات على محمد علي، فالتقت القوات العثمانية بقوات إبراهيم في معركة«نزب» قرب «عينتاب» أواخر حزيران ١٨٣٩، فانتصر إبراهيم انتصاراً ساحقاً،كانت له عقابيل رهيبة، ذاك أنها جعلت الدول الأوروبية تفتح عيونها أكثر فأكثر، على تفاقم هذا الخطر الذي بات يجسده محمد علي وقوته العسكرية الضاربة، فلم يبقى إلا أن يتابع طريقه إلى الأستانة وينصب نفسه خليفة.. عوضاً عن محمود الثاني الذي مات خلال أيام القتال— بالطبع لم يكن على رأس الجيش — وخلفه ابنه عبد المجيد..

لقد تنادت الدول الأوروبية الخمس: فرنسا، بريطانيا، روسيا، بروسيا، النمسا، إلى اجتماع -بدعوة بريطانيا- لبحث «المسألة الشرقية»..وخرجت بمذكرة وجهتها إلى السلطان العثماني نصت على أن الدول متفقة فيما يخص المسألة الشرقية. و«أنها تتشدد في ألاّ يتم صلح أو يبرم أي اتفاق مع محمد علي ما لم توافق عليه هذه الدول»!- معاهدة لندن: ١٨٤٠-.

..في هذه الأثناء أنزلت بريطانيا قواتها على السواحل السورية، وأثارت مع السلطان العثماني «ثورات في الداخل».. فاضطر إبراهيم إلى الانسحاب.. من بلاد الشام١٨٤١ .. وكان محمد علي قبل تحركه نحو عكا، قد مد سلطانه على الحجاز ونجد



عام ١٨١٨ وعلى السودان عام ١٨٢٣وعندما فتح سورية بعد ذلك، كان المشرق العربي برمته قد أمسى تحت لوائه..

..وبدأت تصدر نغمات جديدة، وصارت تردد دعوات بإنشاء دولة «مسيحية» في المشرق تارة، ودولة «يهودية» في الموقع نفسه تارة أخرى. وهذا ما جاء في المذكرة التي وجهتها الحكومة الروسية في أكتوبر ـــ تشرين الأول ١٨٤٠ إلى حكومة بروسيا. ومؤداها أنه باتت تتردد أخيراً في أوروبة ـــ وخاصة فرنسا ـــ آراء مختلفة، متضاربة في الأغلب، حول الإجراءات التي يجب على الدول العظمى المتدخلة في أمور«المشرق» أن تتخذها في الوقت الحاضر كي تحقق الهدف الذي حاول الصليبيون في حروبهم الطويلة تحقيقه فلم يفلحوا، وقد عرض مشروع بإقامة دولة مسيحية في فلسطين، وإن كان هذا المشروع لم يناقش مناقشة جدية، وعرضت فكرة إحياء منظمة فرسان القبر المقدس ليعهد إليها بحماية المقدسات،بل إن هناك أفراداً فكروا في أن يدعوا اليهود المتفرقين في مختلف بلاد العالم للعودة إلى «مدينة سليمان»

..في هذه الفترة كان هناك ضابط بريطاني برتبة كولونيل، مقيم في دمشق، يدعى «توماس تشرشل» وقد قام بإرسال رسائل حفظت في سجلات مجلس إدارة نواب اليهود البريطانيين وجاء في إحداها: «بعد

إجبار جنود محمد علي على الانسحاب من بلاد الشـام أن من دواعي اغتباطه وسروره أن يفصل بين سوريـة وفيها فلسطين وبين مصر» ولكن كان من دواعي أسفه أن أوروبة عجزت عن فرض سلطانها المباشر أو غير المباشر، وأنها أعادتها إلى حكم السلطان العثماني. كتبت رسائل تشرشل بين عامي ١٨٤١ـــ ١٨٤٣ في دمشق وبيروت وكانت توجه إلى رئيس مجلس إدارة نواب اليهود البريطانيين يوم ذاك موسى مونتفيوري.

وينبه تشرشل في إحدى رسائله إلى خطورة فكرة الوحدة العربية التي تجمع مصر إلى بلاد الشام. كما لو أن انتصارات إبراهيم باشا حركت حساسيته بهذا الاتجاه، إضافة إلى ملاحظته إرهاصات انتفاضة العرب ونهضتهم القادمة، فإذا هو يعبر في هذه الرسالة عن قلقه «لأن تزايد ضعف السلطنة العثمانية قد يؤدي في المستقبل إلى انتفاضة شعوب المنطقة واتحادها».

ورأى تشرشل أن أوروبة حققت هدفاً سلبياً بإخراج مصر من بلاد الشام ولكنها عجزت عن تحقيق الهدف الإيجابي وهو إقامة حكم لا يتصور أن يعود للاتحاد مع مصر أو غيرها من الأقاليم».

ويصرح تشرشل: «في كلمة واحدة: إن سورية وفلسطين لا بد أن توضعا تحت الحماية الأوروبية، وأن تحكما بروح وأسلوب الإدارة الأوروبية، وسيتم ذلك حتماً في آخر الأمر».

..وقبل ست وخمسين سنة من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول، وجه توماس تشرشل رسالة إلى مونتفيوري جاء فيها ما يلي:

«لست أخفي عليك، رغبتي الشديدة في أن أرى مواطنيك –اليهود– يتحركون لإعادة وجودهم باعتبارهم شعباً مستقلاً، وأنا أعتقد أن ذلك أمر يمكن تحقيقه تماماً بشرطين: الأول أن يبدأ اليهود أنفسهم تبني هذه الحركة بالإجماع، وفي كل مكان. والثاني: هو أن تساعدهم الدول الأوروبية. إن على اليهود أنفسهم أن يبدؤوا. على زعمائهم أن يتصدروا هذه الحركة. عليهم أن يجتمعوا وأن ينسقوا فيما بينهم، وأن يتقدموا بالشكاوي. يجب أن يحدث ذلك في بلاد أوروبة كلها، وفي وقت واحد. ليست هناك حكومة أوروبية واحدة يمكن أن تغضبها مثل هذه التظاهرات والاجتماعات العامة. وستكون النتيجة أن يبرز بروز السحر عنصر جديد بين عناصر دبلوماسية المشرق، ولن تستطيع دول أوروبة أن تتجاهل هذا العنصر إذا تبناه مواطنوك من أغنياء اليهود

ذوي النفوذ. إن ذلك لن يثير الاهتمام فقط، بل سوف يحقق النتائج. إنكم لو وجهتم مواردكم لإحياء سورية وفلسطين فلن يكون هناك شك، في أن هذين البلدين سيعيدان إليكم استثماراتكم بربح وفير، ولن يكون هناك شك في أنكم ستنتهون إلى الحصول على السيادة.. على فلسطين على الأقل».

ويصف الدكتور محمد حسن الزيات، وزير خارجية مصر السابق هذا المشروع الذي فصّله الكولونيل تشرشل بأنه «يوضح الخطوات التي كان مطلوباً أن تكرس انفصال سورية وفلسطين خاصة عن المشرق العربي، وقيام الدولة اليهودية في فلسطين على الأقل».

ويستطرد قائلاً:

«إن التأثير الأوروبي لأولئك المستعمرين، ثم لدولتهم مضمون، لأن قيام هذه الدولة وبقاءها قوية، سيظل ضرورياً للحيلولة دون قيام تجمع جديد في المنطقة يهدد موازين القوى الدولية من جديد، كما هددها محمد علي. كما أن في وسع بريطانيا والدول الأوروبية أن تطمئن إلى إخلاص الدولة اليهودية، لأنها ستكون في حاجة دائمة إلى تأييدها لتعيش منيعة في الوسط الذي سوف تقوم فيه».

-٢-

أريد أن أتحدث عن الدور الذي لعبه «هيرتزل» في الإطاحة بالإمبراطورية العثمانية، كمرحلة في الطريق إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وكانت معه ـ بالطبع ـ وإلى جانبه ومن ورائه ومن أمامه.. الحركات اليهودية المتعصبة والصهيونية والماسونية، وقبل هذا وتلك مطامع الدول الكبرى الاستعمارية.. ولاسيما بريطانيا..

غير أني أود قبل ذلك أن ألقي نظرة عامة، على حالة اليهود النفسية والاجتماعية والسياسية في أوروبة.

ولا بد بادئ ذي بدء من التمييز بين أوضاع اليهود في شرق أوروبة ولاسيما روسيا، وفي غربها.

يقول المؤرخ اليهودي البولوني اليساري ايزاك دويتشر:

..ففي روسيا على سبيل المثال كان اليهود «مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة». ولم يكن لهم الحق أن يقيموا حيث يشاؤون، ولكن عليهم أن يظلوا في نطاق«المنطقة السكنية» المخصصة لهم. ولم يكن يمكنهم أن يملكوا الأراضي. وكانت بعض المهن محرمة

عليهم. كان وضعهم أحسن بقليل من حال الأقنان الروس أو البولونيين ولكن هؤلاء على الأقل لم يكونوا يتعرضون لحملات الإبادة ولانفجارات العداء للسامية وللمذابح الجماعية التي كانت عفوية. ومما له دلالته أن كلمة «بوغروم pogrom»: -مذبحة منظمة يذهب ضحيتها الآمنون كما يقول منير بعلبكي في «المورد» «ومذبحة منظمة مثل التي كانت تقام لليهود في روسيا. كما جاء في قاموس أوكسفورد الإنكليزي ـــ وتعني مذبحة اليهود الجماعية، جاءت من أصل روسي، رغم أنها دخلت بعد ذلك في معظم اللغات الأوروبية.»

..وينتهي دويتشر إلى التوقف عند «التضاد الفائق الذي كان يقوم بين وضع اليهودي في روسيا، وهو وضع قلق، وبين وضع أخيه في أوروبة الغربية».

.. في هذه الفترة التي تتراوح بين مطالع القرن التاسع عشر وأواخره، حتى المؤتمر الصهيوني الأول في «بال» عام ١٨٩٧، يمكن تمييز ثلاثة تيارات، تتوازع بينها اليهود في غرب أوروبة.

يقول الأول إن اليهودية هي دين لا أكثر ولا أقل، وقد عبر عن هذا التيار الحاخام الأكبر هيرمان أدلر رئيس حاخامي انكلترا إذ قال:

«لقد انتهى وجودنا القومي بعد سقوط فلسطين في أيدي الرومان -يعني ما حدث عام ٧٠م على يد القائد الروماني تيتوس، الذي قام أيضاً بسبي اليهود وتشتيتهم- وأصبحنا مواطني البلاد التي نعيش فيها، فنحن ننتمي إلى القومية البريطانية أو الفرنسية أو الألمانية، رغم تبعيتنا للدين اليهودي، دون أن يميزنا ذلك عن مواطنينا الآخرين في الحقوق والواجبات. وإن سئلت عن المحتوى السياسي لليهودية لأجبت بأن اليهودية، هي مجرد دين، وليس لها أي محتوى سياسي».

..ويفسر دويتشر هذا التيار، بأنه كان نتيجة العصر الذي تلا الثورة الفرنسية، فقد كان عصر الأنوار والتقدم، وشهد ذوبان اليهود في محيطهم.

أما التيار الثاني فيمثله كارل ماركس، وقد عبر عنه في دراسته المشهورة حول المسألة اليهودية، التي كتبها عام ١٨٤٠وربط فيها بين تحرير اليهود وبين تحرير المجتمع الأوروبي من نير الرأسمالية يقول ماركس:

«إن مسألة تحرير اليهود لم يعد لها وجود كموضوع منفصل. وإن جميع الجهود يجب أن تهدف إلى تحرير المجتمع الأوروبي، ولاسيما في الغرب من الرأسمالية، وما أن

يطرح نير الاضطهاد الرأسمالي الثقيل حتى يحصــل جميــع أفراد المجتمــع، بمن فيهم اليهود على المساواة والحرية».

ويلاحظ دويتشر مسألة غاية في الأهمية، في هذا المجال فهو يقول:

«كانــت تلمــح في النصوص الماركسية الأولى حول هــذا الموضوع بعضــ العداوة لليهــود، لا .. لأنهم يهود، ولكن.. باعتبارهم أعضــاء بارزيــن ومرموقــين في برجوازية أوروبة الغربية».

ثم يستطرد قائلاً:

«كان مؤكــداً أن وجــود اليهــود وجوداً مفضوحاً بين أصحاب البنوك والتجار يثير النــزاع ضدهم في أفقر طبقــات المجتمع الغربــي. وقــد حاول«بيبــل» والاشتراكيون الآخــرون وبينهــم «تروتسكــي» أن يبينوا للعمــال أن عليهم توجيــه نضالهم، لا ضد البورجوازيــة اليهودية وحدها -وهي لم تكن سوى شعبة صغيرة من الطبقة الرأسمالية- .. بل ضد البورجوازية عامة».

يمكن القول إن المؤتمر الصهيوني الأول، تولى بلــورة التيار الثالث، فالمشكلة اليهودية لا يمكــن أن تحل جذرياً، إلا إذ صار لليهود وطن قومــي يعيشــون فيه وينتمــون إليه، ويعملون على تعزيزه وتقويته.

وهنــاك رأي يــرى أن الصحفي تيودور هرتــزل، داعية الصهيونيــة الأول، كان في البدء مــن أنصار التيــار الأول الذي يؤمن بــأن المشكلة اليهودية تحل عن طريق ذوبان اليهود في المجتمعات التــي يعيشون فيها.. ولكن أمــراً هاماً اعترض هرتــزل، فجعله يتحول عن هذه القناعــة، تحولاً كاملاً إلى الإيمان بفكرة الوطن القومي لليهود.

كانــت هذه مسألة المحاكمة التي عقدت لضابط أركان في الجيشــ الفرنسي يدعى الفريــد دريفوســ واتهم خلالهــا بتسريب أســرار عسكريــة إلى الألمــان، فقد حوكم دريفوســ عــام ١٨٩٤ أمــام مجلس حرب وحكم عليه بالنفي المؤبد.

في المقابــل تحــرك اليهــود في حملــة إعلاميــة مكثفة، كان مــن وجوهها الكاتب الفرنسي الروائي الشهــير إميل زولا -وهو غير يهودي- الــذي كتب رسالة بعنوان «إني أتهــم» وعضــو مجلســ الشيــوخ الفرنسي «كيستنر» الذي دعا إلى إعادة محاكمة دريفوس ورد الاعتبار لــه، باعتبار أنه بريء وأن من سرّب الأسرار شخص آخر.. وهكذا أعيدت محاكمة دريفوس، عام ١٨٩٩، وخفف الحكم عليه بالنفي حتى عشر سنوات.

..وعــام ١٩٠٦ أعيــدت المحاكمــة مرة

ثالثة أمام محكمة للنقض.. وبرئ دريفوس. ويلاحـظ الذين تتبعوا مسألة دريفوس، أن الحركة الصهيونية استغلتها إلى أبعد الحدود لابتـزاز الـرأي العام الأوروبـي، وتصوير الأمر، كمـا لو كان انتقاماً مـن دريفوس.. لمجرد أنه يهودي.

وعلى هامش قضيـة دريفوس يسجل دويتشـر أمرين. الأول: أنهـا كانت انفجاراً للاّسامية في غرب أوروبـة. والثاني أنها سجلـت انعطافـاً في تاريـخ يهـود أوروبة الغربية.

..ولكـن ثمـة اعتراضـاً قويـاً على أن محاكمة دريفوس وحدهـا التي اطلع عليها هرتـزل بحكم عمله الصحفـي، هي التي صدمته واضطرته للعودة إلى يهوديته.

في كتابـه «الصهيونيـة.. بداية ونهاية» يقول أبو مازن عضو اللجنة المركزية لحركة فتح:

«المهمة الصحفية التي أتاحت لـ«هرتزل» الاطّلاع على بعض تفاصيل محاكمة دريفوس التـي لم تكن مأساوية إلى حد كبير، ولم يتبين مـا احتوته مـن ظلم إلا بعـد سنين طويلة من انتهائهـا -كان الأحرى أن تجعله مهنته هذه كصحفـي- يطلع على تفاصيل المذابح التـي كان يهود أوروبـة الشرقية يتعرضون لهـا، فتفجر لديـه من دوافـع الحنين إلى الصهيونية أضعاف ما يمكن أن تفعله قضية دريفوس».

هي ذريعة إذاً.. لا أكثر ولا أقل.

..مهمـا يكن من أمـر، وكائنة ما كانت نوايا هرتـزل، في السابق، فإنـه بدأ عقب المؤتمر الصهيوني الأول، تحركاً واسعاً، على عدة محاور، لإخراج الفكرة الصهيونية، إلى صعيد الواقع العملي.

المحـور الأول كان يـدور حـول اليهود أنفسهـم لإقناعهـم بفكرة الوطـن القومي في المرحلـة الأولى وتخليصهـم مـن فكرة الاندماج والذوبان في المجتمعات الأوروبية. على أن يلي ذلـك إعدادهم للهجرة، ووضع المخططـات التنفيذيـة لذلك، بعـد تذليل العقبـات التي يمكـن أن تواجههم ولاسيما الاقتصادية.

أما المحور الثاني. فإن مجاله كان الدول الكبرى، وخاصة الاستعمارية منها، من أجل جذبها للوقوف إلى جانب إنشاء وطن قومي لليهود، مؤكداً خلال ذلـك استعداد الدولة اليهودية السهر على مصالح هذه الدول في هذه البقعة من العالم. وهذا ما يتضح مثلاً، في إحدى رسائل هرتزل إلى أحد المسؤولين البريطانيـين، إذ إنه أشـار فيها إلى «إيجاد

طريق إلى الهند، هو الطريق الأقصر بالنسبة إلى بريطانيا». وجاء فيها أيضاً:«سيكون من مصلحة بريطانيا، بناء خط حديدي رأساً، عبر فلسطين، من البحر الأبيض إلى الخليج الفارسي».. وكان يسعى قبل كل شيء لدى هذه الدول، لتضغط على السلطان العثماني عبد الحميد، كي يسمح لليهود بإقامة وطن قومي لليهود.. وكانت هذه أهم نقطة في برنامج هرتزل، فقد كان يعلم علم اليقين، أن كل جهوده وجهود المنظمة الصهيونية لا قيمة لها، ويمكن أن تذهب أدراج الرياح، إن لم يحصل على موافقة السلطان على إقامة الوطن المذكور في جزء هام من إمبراطوريته.

ويذكر أن هرتزل عقد بعد ١٨٩٧ سبعة مؤتمرات في مدينة بال لمواصلة البحث في موضوع الوطن القومي في فلسطين.. وكان يحرص، عقب كل مؤتمر على أن يبعث ببرقية للسلطان عبد الحميد يحييه فيها، ويؤكد له ولاء اليهود باعتبارهم من رعاياه..

ولم يكن ذلك في الواقع سوى مقدمة وتمهيد للتحرك الأكبر، في بلاط السلطان عبد الحميد ذاته. والسعي من أجل لقائه مباشرة وجهاً لوجه، وعقد صفقة.. معه.. تنطوي على إغراءات، يمكن أن يسيل لها لعاب عبد الحميد، كما كان يتخيل هرتزل.

-٣-

لم يوفر هرتزل وسيلة من وسائل الإغراء والتأثير والضغط على السلطان عبد الحميد، من أجل الحصول على موافقته للحصول على وطن لليهود في فلسطين.. إلا توسل بها، بما في ذلك الاتصال بالمقربين منه، وكانت واسطته الأولى في هذا المجال هي الرشوة.

..وهكذا استطاع أن يقابل عام ١٨٩٧ الصدر الأعظم العثماني وابنه جاويد بك، ووزير الحربية وابنه.

يدهش المراقب للمدى الذي بلغته المحاورات، في هذا الموضوع، من ذلك مثلاً أن فلسطين رقعة كبيرة من الأرض، فما المانع أن يقتطع جزء منها ليكون وطناً لليهود؟! بل إن الأمر وصل إلى حد المساومة المكشوفة، فبقدر ما يمكن أن يدفع الصهاينة من مال لإنقاذ الخزينة العثمانية ينبغي أن تكون مساحة الأرض التي يحصلون عليها.

وفي هذه الأثناء بحث أمر مدينة القدس، فاستبعدها جاويد بك ابن الصدر الأعظم من أن يكون للصهاينة نفوذ فيها، نظراً لأنها مدينة مقدسة، ففيها مسجد عمر، ولا يملك السلطان أن يتنازل عنها، فرضي هرتزل بذلك.

وانتهى الطرفـان إلى أن علاقة الدولة اليهودية بالسلطان ستكون مثل علاقة مصر أو بلغاريا به.

وكتـب هرتـزل في هذه الأثنـاء مذكرة بمـا يقبله اليهود من السلطـان مقابل فك الضائقة الماليـة، يورد منها الدكتور محمد أحمد خلف الله ما يلي:

قال هرتزل:

«ترغب جماعتنا في عرض قرض متدرج من عشرين مليون جنيه إسترليني يقوم على الضريبـة التي يدفعها اليهـود المستعمرون لفلسطـين لجلالتـه. وتبلغ هـذه الضريبة التـي تضمنهـا جماعتنـا مئة ألـف جنيه إسترليني في السنة الأولى، وتزداد إلى مليون جنيه إسترليني سنويـاً، ويتوقف هذا النمو التدريجـي في الضريبة علـى هجرة اليهود التدريجية إلى فلسطين».

ويوضح هرتـزل أن تفصيلات التنفيذ، يمكن أن توضع في اجتماعات شخصية تالية، علـى أن يهب السلطـان اليهود الامتيازات التالية:

١- الهجـرة اليهوديـة إلى فلسطين لن تكون محـدودة العدد، ويجـب أن تشجعها الحكومة العثمانية وتيسـر السبل لها بكل وسيلة ممكنة.

٢- يعطى اليهـود المهاجرون الاستقلال الذاتي المضمون في القانون الدولي.

٣- يجب أن يقرّر في المفاوضات الشكل المفصل الـذي ستمارس به حماية السلطان في فلسطـين (اليهوديـة)، وكيف سيحتفظ اليهود أنفسهم بالنظام والقانون عن طريق قوات الأمن الخاصة بهم.

٤- يستطيـع السلطـان أن يصدر دعوة كريمة إلى اليهـود في مختلف البلاد للعودة إلى أرض آبائهم.

..كانت المفاجـأة الصاعقة أن السلطان العثمـاني رفض هذا كله تماماً.. لكنه قال: «يمكن للإسرائيليين أن يُستقبلوا ويستقروا» في الإمبراطوريـة العثمانية حسب الشروط التالية:

١- ألا يكونوا جميعاً في مكان واحد، وإنما يفرّقون في أماكن تعينها لهم الحكومة.

٢- يجب تحديد عددهم مسبقاً من قِبَل الدولة العثمانية.

٣- يُعطَون الجنسية العثمانية ويُسألون عن جميع الضرائب المدنية.

٤- يكونـون خاضعـين لجميـع قوانين البلاد كالأتراك تماماً.

ما الذي يمكـن أن يستنتجه المرء، وهو يستقرئ هذه الشروط التي وضعها السلطان

العثماني ؟! أليس أكيداً أنه كان عارفاً حق المعرفة، بأبعاد المؤامرة الصهيونية على فلسطين، وعقابيلها الخطيرة؟

أليس صحيحاً أنه قبل «باستقبالهم واستقرارهم» ضمن هذه الشروط الصعبة، كي يتخفف قليلاً من الضغوط الهائلة التي كانت تمارسها عليه الدول الاستعمارية. من أجل إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين؟! فإذا أضفنا إلى ذلك ضغوط الاتحاديين. والمحافل الماسونية.. فلا بد أن تتضح الصورة أكثر فأكثر.

يقول السلطان عبد الحميد في الوثيقة -الرسالة التي بعث فيها من القصر الذي سجن فيه في سالانيك إلى الشيخ محمود أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية – وكان السلطان من مريديه وقد نشرت صورة عنها بالتركية مع ترجمتها إلى العربية في مجلة «العربي» عام ١٩٧٢:

«إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني، بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.

إن هؤلاء الاتحاديين، قد أصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف. وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مئة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً. وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي:

إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً – فضلاً عن (١٥٠) مئة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً، فلن أقبل تكليفكم بوجه قطعي، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة، فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً.

..وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدوني إلى سلانيك فقبلت بهذا التكليف الأخير.

هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل أن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن التكليف بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة: فلسطين».

كان واضحاً منذ بداية إنشاء «الاتحاد والترقي» أن اليهود المنتشرين خلف المحافل الماسونية كان لهم هدف أساسي هو الإطاحة

بالسلطان عبد الحميد، وكانوا هم وراء التنظيم الذي بدأ نشاطه عام ١٨٩١ في جنيف.. ثم نقله إلى باريس.

يقول حسان حلاق: «ونظراً إلى المخططات المعارضة لحكم السلطان بدأ أعضاء الجمعية في عقد اجتماعاتهم السرية في المحافل الماسونية، وعقدوا اجتماعهم الأول في المحفل الماسوني الإيطالي، وفتحت السفارات الأجنبية أبوابها لكل مخطط عصيان على السلطان، وكانت انكلترا وفرنسا سابقتين على إيواء اللاجئين من معارضي الحكم الحميدي، وتركتهم يعملون في عواصمهما علناً لإسقاط السلطان».

ويتابع حسان حلاق نقلاً عن «ارنست رامزور» في كتابه «تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨» فيقول: «ونتيجة للتعاون الصهيوني الماسوني، قرر- محفل - «الشرق الأعظم» الفرنسي في عام ١٩٠٠ إزاحة السلطان عبد الحميد، وبدأ يجذب حركة «تركيا الفتاة» منذ بداية تكوينها».

..وعن جواد رفعت أتلخان الذي عاصر حكم السلطان عبد الحميد وكان مديراً لدائرة الأمن العام العثماني في أثناء الحرب العالمية الأولى، مما مكنه من الاطلاع على كثير من أسرار الحركة الصهيونية والمحافل الماسونية، ينقل الدكتور حسان حلاق في كتابه «الخطر المحيط بالإسلام»:

«إن المبادئ اليهودية والماسونية أثَّرت كثيراً على منتسبي جمعية الاتحاد والترقي، وحافظوا على تلك المبادئ حتى بعد الثورة، وهناك مسألة جديرة بالتدقيق والتأمل، أن اليهود المنتسبين إلى فرقة الاتحاد والترقي أصبحوا أصحاب الكلمة العليا والنفوذ في هذه الجمعية».

هناك أكثر من إشارة وتأكيد، أن اليهود، وخاصة يهود الدونمة، كانوا هم المحور الأساسي في جمعية الاتحاد والترقي التي أطاحت بالسلطان عبد الحميد.

يقول سيتون واطسون في كتابه «نهوض القومية في البلقان» إن أصحاب العقول المحركة لثورة الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨ كانوا يهوداً، ومن الدونمة، وأما المساعدات المالية، فإنما كانت تجيئهم عن طريق الدونمة ويهود سالانيك المتمولين ويعترف المؤرخ الصهيوني «اتش. ام كالن» في كتابه «الصهيونية وسياسات العالم» بأن أكثر أعضاء جمعية الاتحاد والترقي كانوا من «الدونمة» وممن عاشوا في المنفى، وكان هؤلاء تلاميذ السياسة الأوروبية تأتيهم المساعدات المالية من الرأسمالية العالمية، من فيينا وبودابست وبرلين وربما لندن وباريس، س. واطسون.

..لقد كانت «مناستير» و«سالانيك» من أخطر مراكز التآمر الصهيوني الماسوني ضد السلطان عبد الحميد، إضافة إلى «قوصوة». وكانت هذه التحركات تحظى برعاية انكلترا وفرنسا، وروسيا والنمسا وإيطاليا. وهذا ما يشير إليه السلطان عبد الحميد في مذكراته إذ يؤكد الدور الذي لعبته الدول الأوروبية في القضاء على الدولة العثمانية وعلى حكمه، فهو يقول:«إن منظمة مناستير كانت تدار بواسطة الإنكليز، بينما أعضاء تركيا الفتاة في سلانيك كانوا تحت تأثير ماسونيي ألمانيا وايطاليا .وبدأ أنور ونيازي- من ضباط: الاتحاد والترقي- تحت ضغط الماسونيين الألمان، مع جماعة سالانيك بالتحرك ضدي. وإن الاتحاديين في سالانيك كانوا يرون أن التحالف مع الإنكليز ضرورة ملحة، لأنها أكبر دولة بحرية».

..ترى ماذا كان رد فعل السلطان عبد الحميد الثاني، عندما علم يقيناً أن الأمر خرج من يديه وأنه معزول لا محالة، رغم أن جيشنا بكامله في «ألبانيا» كان ما يزال يدين له بالولاء؟ لماذا لم يفكر بمجابهة هذه الثورة ومواجهة المتمردين؟

الأستاذ سعيد الأفغاني يقدم وصفاً مدهشاً للحظات الأخيرة للسلطان في قصره، سمعها من بعض المعمرين الذين عايشوا أحد باشوات الدولة العثمانية: زاهد باشا الهبل:

لما اضطربت الحوادث وتمردت فرقة سالانيك أخبر الصدر الأعظم سلطانه بعصيان جيش سالانيك فقال السلطان: طيب. ولم يزد عليها. ثم أخبره باتجاه العصاة نحو العاصمة استانبول.

فقال: طيب. ولم يأمر بشيء، ثم أخبره بدخولهم العاصمة، ثم باتجاههم نحو قصره.. في كل ذلك يقول: طيب. ولا يزيد عليها.

وكان الصدر الأعظم شديد الهيبة للسلطان. ثم دخل آمر القوى في القصر يستأذن السلطان بضرب العصاة والمقاومة فمنعه، ثم عاوده القول، يريدون إذنه بالمقاومة فقال لهم:

«أعرف جيداً أن كل ما يريدون هو خلعي أو قتلي، وأنا شخص واحد، فإذا أمرتكم بالمقاومة سقط مئات القتلى منكم ومنهم، وأنتم جميعاً أفراد من هذه الأمة، والأمة ستحتاج إليكم فيما ينزل بها من شدائد».

ودخل الإنقلابيون ولم يقاومهم أحد وأبلغوا السلطان قرار خلعه.. ونقلوه بعيداً إلى قصر سالانيك.

..مهمـــا يكن من أمـــر، وكائنة ما كانت مواقف السلطان من الصهيونية والماسونية، وفكـــرة إنشاء وطن قومـــي لليهود، فإننا لا نستطيـــع المصادقـــة على ما نقلـــه الأستاذ الأفغـــاني حـــول رغبتـــه في حقـــن الدماء – فحسب– فثمـــة رأي هام في هذه المسألة، ذاك أن السلطان عبد الحميد اشتهر بذكائه ودهائه وحنكتـــه. وإذا كان الجيش الموجود في ألبانيـــا حينذاك منضبطـــاً تحت رايته وجاهـــزاً للقتال دفاعاً عـــن السلطان ضد الاتحاديين، فـــإن نتيجة مثل هذه المعركة لا يمكن أن تبعد كثيراً عـــن محاكمة السلطان العقليـــة، ذاك أن الـــدول الأجنبية الطامعة «بالرجـــل المريضـــ» وتركتـــه، وهـــي التي شجعت وغذت الانقلابيين بالدعمين المادي والمعنوي.. يمكـــن أن تتدخل وتحسم القتال في غـــير صالح السلطـــان.. أضف إلى ذلك شعوره بأن أراضي الإمبراطورية كلها، كانت تهتز وتميد تحـــت أقدامه.. ولاسيما الجزء العربي منها.

..على كل حال، فإن الجماعة الصهيونية، قدرت أن تتغلب على العقبة الكأداء الكبرى في طريقهـــا إلى فلسطين، فتـــلا ذلك وعد بلفور.. ثم الهجرة.

أمـــا العقبة الثانية، وهـــي تماسك بلاد الشـــام، وتكوينها وحـــدة سياسية جغرافية اقتصادية ثقافية واحـــدة: سورية الحالية، لبنان، فلسطين، شـــرق الأردن، فإن الحرب العالميـــة الأولى، ثـــم اتفاقيتـــي «سايكس– بيكو» و«سان ريمو» كانت كفيلة بإزاحتها من الطريق..

وهكذا أمسى الدرب كلـــه سالكاً.. نحو إقامـــة الوطن القومـــي لليهود في فلسطين، ومن ثم إعلان دولـــة الكيان الصهيوني في فلسطـــين.. بعد خمسين سنـــة تماماً حدده تيـــودور هرتزل في المؤتمر الصهيوني الأول في بال عـــام ١٨٩٧.. وكان ذلك في ١٥ أيار ١٩٤٨ !!

المراجـــع

١- العرب والترك- د. إبراهيم برو- دار طلاس ١٩٩١.

٢- الدول الإسلامية- القسم الثاني. تأليف: ستانلي لين بول. مطبعة الملاح ١٩٧٤.

٣- من هو اليهودي، اسحق دويتشر، ترجمة: نجاة قصاب حسن- دار العروبة للطباعة.

٤- إسقاط عرش عبد الحميد – رسالة ماجستير- بيروت: حسان حلاق.

٥- المؤامرة على فلسطين بدأت قبل هرتزل بنصف قرن- د. محمد حسن الزيات- مجلة العربي، العدد ٢٢٠ –آذار ١٩٧٧.

٦- سبب خلع السلطان عبد الحميد- الأستاذ سعيد الأفغاني/ العربي- العدد ١٦٩، كانون أول ١٩٧٢.

٧- بين هرتزل والسلطان عبد الحميد- د. محمد أحمد خلف الله- العربي- العدد٢٢٣ –حزيران ١٩٧٧.





وظيفـــة الأدب

د. عبد الباقي يوسف *

هل لـــلأدب رسالة يؤديها في المجتمع، أم أنه يكتفي بتسليط الضوء على نزعات الإنسان،

هل يقـــدم الأدب علاجا للأزمات التي تمر بهـــا المجتمعات، بمعنى هل تكمـــن مهمة الأدب في تقديم العلاج للنفوســـ، وأن الأديب هو طبيب نفسي بامتياز، وإن لم يمتلك هذه المهارة والموهبة لايكون أديباً، ويكون إنتاجه الأدبي ركيكاً دون أن يحظى بقرّاء..

* أديب وناقد سوري

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

كان عرب ماقبــل الجاهلية يقولون «إن الأدب كاد أن يكــون ثلثي الدين». والحقيقة فإن ما يميّــز المعرفة ويحفظ لها ديمومتها وتجدّدهـــا أنها لانهائية وكلمـــا يعرف المرء أمراً يكشف مدى جهله. كان سقراط يقول: «ازدد علماً، تزدد جهلاً».

في التراث العربي نرى العناية البالغة بالأدب، وقد تناول ابن النديم× ألوان الأدب في عصــره والعصور التي سبقته في كتابه / الفهرست / الذي وقع في عشر مقالات..

المقالة الأولى: وهي ثلاثة فنون:

- الفــن الأول: في وصــف لغات الأمم مــن العرب والعجم ونعــوت أقلامها وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتها.

- الفن الثــاني: في أسماء كتب الشرائع المنزلــة على مذاهــب المسلمــين ومذاهب أهلها.

- الفــن الثالث: في نعت الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأسماء الكتب المصنفة في علومه وأخبار القراء وأسماء رواتهم والشواذ من قراءتهم.

المقالــة الثانية: وهي ثلاثــة فنون، في النحويين واللغويين:

- الفن الأول: في ابتــداء النحو وأخبار النحويــين البصريــين وفصحــاء الأعراب وأسماء كتبهم.

- الفــن الثــاني: في أخبــار النحويــين واللغويين من الكوفيين وأسماء كتبهم.

- الفن الثالث: في ذكر قوم من النحويين خلطوا المذهبين وأسماء كتبهم.

المقالــة الثالثــة: وهي ثلاثــة فنون، في الأخبار والآداب والأنساب والسير:

- الفــن الأول: في أخبــار الإخباريــين والرواة والنسابين وأصحاب السير والأحداث وأسماء كتبهم.

- الفن الثاني: في أخبار الملوك والكتاب والمترسلين وعمال الخراج وأصحاب الدواوين وأسماء كتبهم.

- الفــن الثالــث: في أخبــار الندمــاء والجلساء والمغنــين والصفادية والصفاعنة والمضحكين وأسماء كتبهم.

المقالــة الرابعة: وهــي فنان، في الشعر والشعراء :

- الفــن الأول: في طبقــات الشعــراء الجاهليين والإسلاميين ممن لحق الجاهلية وصناع دواوينهم وأسماء رواتهم.

- الفــن الثــاني: في طبقــات شعــراء الإسلاميــين وشعراء المحدثــين إلى عصرنا هذا.

المقالة الخامسة: وهي خمسة فنون، في الكلام والمتكلمين.

- الفــن الأول: في ابتــداء أمــر الكلام والمتكلمــين مــن المعتزلة والمرجئــة وأسماء كتبهم.

- الفن الثاني: في أخبار متكلمي الشيعة الإماميــة والزيديــة وغيرهــم مــن الغلاة والإسماعيلية وأسماء كتبهم.

- الفن الثالث: في أخبار متكلمي المجبرة والحشوية وأسماء كتبهم.

- الفــن الرابــع: في أخبــار متكلمــي الخوارج وأحنافهم وأسماء كتبهم.

- الفــن الخامســ: في أخبــار السياح والزّهــاد والعباد والمتصوفة والمتكلمين على الوساوس والخطرات وأسماء كتبهم.

المقالة السادسة: وهي ثمانية فنون، في الفقه والفقهاء والمحدثين.

- الفن الأول: في أخبار مالك وأصحابه وأسماء كتبهم.

- الفــن الثــاني: في أخبــار أبي حنيفة النعمان وأصحابه وأسماء كتبهم.

- الفن الثالث: في أخبار الإمام الشافعي وأصحابه وأسماء كتبهم

- الفن الرابع: في أخبار داوود وأصحابه وأسماء كتبهم

- الفن الخامس: في أخبار فقهاء الشيعة وأسماء كتبهم.

- الفن السادس: في أخبار فقهاء أصحاب الحديث والمحدثين وأسماء كتبهم.

- الفــن السابــع: في أخبــار أبي جعفر الطبري وأصحابه وأسماء كتبهم.

- الفن الثامــن: في أخبار فقهاء الشراة وأسماء كتبهم.

المقالة السابعة: ثلاثة فنون، في الفلسفة والعلوم القديمة.

- الفــن الأول: في أخبــار الفلاسفــة الطبيعيين والمنطقيين وأسماء كتبهم ونقولها وشروحها والموجــود منها وماذكر ولم يوجد وما وجد ثم عدم.

- الفــن الثــاني: في أخبــار أصحــاب التعاليــم والمهندســين والارثماطيقيــين والموسيقيــين والحســاب والمنجمين وصناع الآلات وأصحاب الحيل والحركات.

- الفــن الثالث: في ابتداء الطب وأخبار المتطببــين من القدماء والمحدثــين وأسماء كتبهم ونقولها وتفاسيرها.

المقالــة الثامنة: وهي ثلاثــة فنون، في الأسمــار والخرافــات والعزائــم والسحر والشعوذة :

- الفن الأول: في أخبــار المسامرين



والمـــخـــرفـــين والمصورين وأسماء الـكـتـب المصـنفة في الأســـمـــار والخرافات.

- الفن الثاني: في أخبار المعزمين والمـشــعــوذيــن والسـحـرة وأسـمـاء كتبهم.

- الفن الثالث: في الكتب المصنفة في معاني شتى لا يُعرف مصنفوها ومؤلفوها.

المقالة التاسعة: وهـــي فـــنـــان، في المذاهب والاعتقادات:

- الفــن الأول: في وصــف مذاهــب الحرانية الكلدانيــين المعروفين في عصرنا بالصابئــة ومذاهــب التنويــه مــن المنانية والديصانية والحرمية والمرقيونية والمزدكية وغيرهم وأسماء كتبهم.

- الفــن الثــاني: في وصــف المذاهب الغريبــة الطريفة كمذاهــب الهند والصين وغيرهم من أجناس الأمم.

المقالة العاشرة: تحتوي أخبار الكيميائيين والصنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم.[1]

رسائل أخوان الصفا وخلان الوفا

تزخر المكتبــة العربية بنفائس الرسائل التي كانت بمثابة مؤلفــات مختصرة تطرح

أهــم وأعمق الأفكار والمواضيع، وقد عرفت المكتبات هذه الرسائل وحفظتها كثروة مكتبية ثمينة. نقف في هــذه العجالة بعض الشيء مع رسائــل أخوان الصفا وخلان الوفا التي تعد من الرسائل النفيسة التي تشير إلى مدى انفتــاح المسلمين على ثقافات وعلوم الدنيا، وتدعو إلى التحاور بين الحضارات..

ليس بمقدورنا إلى الآن التعرف على جميع الأخــوان بشكل صحيح، وليس بمقدورنا أن نحدد الزمان الذي كُتبت فيه رسائلهم التي تُعد ثــروة فكرية وثقافية ومعرفية، فهي لا تقل عن أهمية فلسفة ابن رشد..

أظــن أن الخلاف حــول معرفة هؤلاء نشــب عندما كثر ذكرهــم وحققوا نجاحاً وشهرة، ولو تحدث مؤرخ واحد عن حقيقتهم بشــكل واضح لما كان كل هذا الخلاف الذي سيحتــدم حــول انتمائهم المذهبــي داخل الجماعــة الإسلاميــة. وربما قصــدوا أن تشتهــر رسائلهم وعلومهم أكــثر من شهرة أسمائهــم وشخصياتهم، فنحــن نقرأ هذه الرسائل دون أن نتمكن من الاحتفاء بأسماء كانت خلف هذه الرسائل.

يقــول أبو حيان التوحيدي إن الوزير أبو عبد الله السعــدان (ت ٣٧٥ هـ) استخدم بعض العلمــاء وجمع كل أقوالهم وأحكامهم لتشكل في مجملها هذه الرسائل، وهم حسب التوحيدي:

ابن حجاج الشارع، أبو الوفاء البوزجاني، ابــن زراعة، أبــي القاسم الأهــوازي، شوخ شيعي، ابن عبيد الكاتب، أبو سعيد عبرام.

أمــا ابــن القفطي فيذكرهــم في كتابه «أخبــار الحكماء» ويقول بأنهــم: أبو أحمد المهرجــاني، وأبو سليمان محمــد بن معشر البسطــي، وأبــو الحســن علي بــن هارون الزنجاني.

ثــم تتعــدد المصــادر التي تــدور حول شخصيــات الأخــوان ومحاولــة التعــرف إليهــم ففي كتابه «نزهــة الأرواح» يذكرهم الشهرزوري ويشير إلى مؤلفي الرسائل الذين ورد ذكرهم عنــد التوحيدي وابن القفطي: أبــو سليمان محمد بــن مسعــود البسطي المشهــور بالمقدسي، وأبو أحمد النهرجوري، وعوفي البصري، وأبو الحسن علي بن هارون الصابي، وزيد بن الرفاعي.

وعلــى العمــوم فكثــيرة هــي التركات الثقافيــة والإبداعيــة العظمى التي خلدت دون ذكر مَن أبدعها، فهي تُنسب إلى أشخاص مجهولــين، ما هو هــام هنا هــو بقاء هذه الرسائــل لتشكل خزانة فكرية تعطي صورة طيبة عن منهج التفكير في مجتمعاتنا.

يقيّمون أنفسهم بشكل موجز على النحو التالي : «اعلم أيها الأخ البار الرحيم، إنا نحن جماعــة أخوان الصفاء أصفيــاء وأصدقاء كــرام كنا نياما في كهف أبينـــا آدم مدة من الزمان تتقلب بنـــا تصاريف الزمان ونوائب الحدثان، حتى جـــاء وقت الميعاد بعد تفرق في البلاد في مملكة الناموس الأكبر وشاهدنا مملكتنا الروحية المرتفعة في الهواء».

إنهـــم يدعون إلى إحـــلال نظام فلسفي يكـــون المسير للحياة كما يقول د. طه حسين في مقدمـــة الرسائـــل. وفي تعريفـــه يقول بابيز:«هـــي محاولة لردم الفجوة بين تيارين في التفكـــير فهي من جهـــة مشربة بالعقائد الشيعية، وخاصـــة الإسماعيلية، ومن جهة أخـــرى تنبع عـــن كثب أو تنتحـــل بالأخرى نظرية الفارابـــي السياسية، إن أجمل ما في أخوان الصفاء عدم تشددهم وعدم التمييز وعدم العنصرية فروح الإنسان مقدسة سواء كانـــت في المسيحي أو المسلم، في الأبيض أو الأسود».

وليســـ هنـــاك التعصب، فـــكل الأديان والمذاهـــب تحمـــل روح الله، ويعتمدون في مصادرهـــم على: «أن علومنـــا مأخوذة من أربعـــة كتـــب، أحدها الكتـــب المصنفة على ألسنة الحكمـــاء والفلاسفة من الرياضيات والطبيعيات، والآخر من الكتب المنزلة التي جاءت بها الأنبيـــاء صلوات الله عليهم مثل التـــوراة والإنجيـــل والفرقـــان وغيرها من صحـــف الأنبياء المأخـــوذة معانيها بالوحي من الملائكة، ومـــا فيها من الأسرار الخفية، والثالـــث الكتـــب الطبيعيـــة وهـــي صورة أشـــكال الموجودات مما هـــي عليه الآن من تركيب الأفـــلاك وأقسام الـــبروج وحركات الكواكـــب ومقاديـــر إجرامهـــا وتصاريـــف الزمان، واستحالة الأركان وفنون الكائنات مـــن المعادن والحيـــوان والنبـــات وأصناف المصنوعات على أيدي البشر، والنوع الرابع الكتـــب الإلهية التي لا يمسها إلا المطهرون، الملائكـــة التي هي بأيدي سفـــرة كرام بررة وهي جواهر النفوس وأجناسها».

بقـــي أن نعرف أن رسائلهـــم بلغت نحو اثنـــين وخمسين رسالة تشبـــه دائرة معارف عصرهـــم وهـــي موسوعـــة علميـــة ثمينة وقراءتهـــا تشـــكل متعـــة حقيقيـــة كبيرة لا تضاهيها متعة، إضافة إلى أننا نتعرف على دعوات انفتاحية، أو لنقل /عولمية/ حقيقية تحافظ على تراث وتقاليد ومعتقدات الناس بأشكالهم وأطيافهم وانتماءاتهم كافة.

الأدب واللغة

اللغـــة هي قلـــب الأدب، وبـــدون لغة لما استطاع الأدب أن يترسخ في الناس.

وقـــد رأى ابن جني (المتوفى سنة ٣٩٢

هـ): «ذهـب بعضهـم إلى أن أصل اللغات كلهـا إنما هو من الأصوات المسموعة كدوي الريح، وحنين الرعـد، وخرير الماء وشحيح البغـل، ونهيـق الحمـار، ونعيـق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيـب الظبي. تم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذه عندي وجه صالح ومذهب متقبَّل».[٢]

وهنـاك اتجاه آخر يرى بـأن اللغة هي مسألة غريزية وفطرية في الإنسان وحتى لو وضعنا عشرة أطفال في مكان منعزل فإنهم عندمـا يكـبرون سيعبرون عـن مشاعرهم بالإيماء أو الإشارات. وماكس مولر المتوفى سنة ١٩٠٠ يميل إلى هذا الاتجاه بقوله:«إن الفضـل في نشـأة اللغة يرجـع إلى غريزة زُوّد بهـا الإنسـان في الأصـل للتعبير عن مدركاته بأصـوات مركبه ذات مقاطع، كما زود باستعداد فطـري للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية وأصوات بسيطة».

وهناك اتجاه آخر يـرى أن الإنسان قد اخترع اللغة كما اخـترع المصباح الكهربائي مثـلاً أو مـا نشاهـده مـن الاختراعـات البشرية[٣]، والدليل أنه يطوّر لغته ويحدّثها مـن قـرن إلى قـرن وكذلك يخـترع لغات متعددة. إضافة إلى ذلك فإننا نجد اتجاها يدعو إلى عدم الخوض في البحث عن أصل اللغـة ودليل هـذا الاتجاه هـو أن الباحث سوف يبحث في دائرة مفرغة وبالتالي يعود من حيـث ما انطلـق. يمثل هـذا الاتجاه الإمام أبو حامد الغزالي الذي يحدد موقفه في كلمات موجزة يقول فيها:«أما الواقع في هذه الأقسام فلا مطمع في معرفته يقيناً إلا ببرهـان عقلي أو بتواتر خبر أو سمع قاطع، ولامجال لبرهـان العقل في هـذا، ولم يُنقل تواتر ولافيه قاطع، فلا يبقى إلاّ رجم الظن في أمر لايرتبط به تعبد عملي ولاترهق إلى اعتقاده حاجة، فالخوض فيه إذاً فضول لا أصـل له»[٤]. وابن السبكـي الذي جاء بعد الغزالي يؤكـد هذا الاتجاه بقوله:«الصحيح عندي ألاّ فائـدة لهذه المسألة، ولذلك قيل: ذكرها في الأصول فضول».[٥]

شعرية اللغة

وقـد استطـاع الأدب أن يفجر شاعرية اللغة، ثمة ديوان للشاعرة الرومانية كارولينا إيليـكا تحت عنوان طغيـان الحلم وثلاث عشرة قصيدة حب [٦]. تقول فيه:

أنـا أحلم بأوفيليا مـرة في الشهر تقريباً وهي تقطف زهوراً من بين الأعشاب لهملت، ولأنـه لايظهر، فإنها تعطيني إياها. مؤخراً أعتقـد بأننـي حلمت بها أكـثر، وفي الصباح أجد وروداً برية شبه ذابلة منتشرة في البيت.

نزعـت عنها الأشـواك، وسأصنـع منها حالاً سريراً ينام عليه أبسل الدراويش. ص١٦

وفي مزدوجة / مفاتن الليلة / ١ تصف عالم الحلم الخصيب:

كيـف أتـرك نفسـي علـى يديـك.. أنت الأكثر أنوثة مني

تعـد بالكثير، ولاتعطي شيئاً.. تهزني في المنام.. تقبلني على كل بقعة من جسمي،

يالها من فاجرة!

وتجعلنـي أحلـم عندمـا تقـولُ لي مندهشـة: كم يتناسق جسمك الأبيض على شعرك الأصفر

بـين ذراعـي الأشـد سـواداً مـن السـواد. ص٤٤

تعقد الشاعرة كـبرى آمالها على الحلم في اكتشـــاف دهشة وعذوبة شاعرية الكائن البشـري، فليس بوسعك – بتعريف الشاعرة – أن تعيشـ حالة الشاعريـة لديك إلا إذا استعنت بالحلم ولذلــك فهي تفتتح ديوانها مستشهدة بمقولة ساول بيلو: / أولو العقول الكبيرة ليسوا على يقين أبدا بأن كل ما حولنا ليس إلا حلمــا /. في القصيدة التالية التي تعنونها / أطفالي / تقــول: **أساعدهم على عبـور الشـارع، أجيبهم بصـبر، أخاف عليهم كثـيرا: فهـم بسهولـة يُخدعـون، وبسهولـة يُسرقون، وبسهولة يدعسهم الترام**

فهـم الأطفـال الأكـثر تأمـلاً، والذين لم يعودوا يلعبون

أقـرب ذكرياتهـم هـي ذكريـات الطفولة البعيدة

(أجسامهـم المتناقصة تتجه إلى طفولة جديدة)

هل كانوا كبارا وأقوياء، هل كانوا أطفالا ككل الأطفال

بالترددهم المقلق

بالرجفة أيديهم الذابلة تقديسا

بالفرحهم بكل شيء

هم ضعاف مثل صغار العصافير

هم كلهم أطفالي، أطفالي الذين شاخوا قلبي. ص ٥٥

ليس بوسع شـــيء أن يصد الشاعرة عن استغراقها في حلمهـــا الشاعري الذي تأتي منه بعناقيد الشعر اللؤلؤية الثمينة:

يحمـل الرمل الحامي، كنوم النساء أثر كعبك

على مقربة من البحر البنفسجي

علـى مقربـة مـن السمـاء البنفسجية، حيث روحي تستحم كثيرا

مالذي يكشفه لي مابعد الظهر هذا

إنـك أنـت العريـس النائـم في فراشـي العذري

الذي هربتُ منه. ص ٦٠

ثلاث عشرة قصيدة حب

حتى في ذروة لحظات الحب مع الحبيب فإن الشاعرة تترك خيالها مفتوحاً ليأتي لها بصور وأحلام تكـون أبهى من الواقع الذي تكون مستلقيـة في محرابه. ولعل قصيدة / كان يداعبنـي/ خير مثال على ذلك، فتقول فيها:

كان يداعبني

وأصابعه لم تكن خمسا

بل ستا

لم تكن ستا

بل سبعا

ليست سبعا فقط

بل ثماني

ليست ثماني فقط

بل تسعا

لم تكن تسعا فقط

بل عشرا

بل ثلاثة عشر

لذّةُ المداعبة كثّرت أصابعه

لذة الوجود تحتها تعزلني. ص ٧٦

ثمـة سـؤال يُطرح بقـوة وأنـت تقرأ قصائد هـذا الديوان الشعري وهو لماذا كل هذا الهروب مـن الواقع واللجوء إلى الحلم لاكتشاف لحظات المتعـة الأكثر قوة والأكثر شفافيـة في آن. ثمة قصيـدة تحمل لمسات من الواقع بعنوان / اسم أجمل /، قد تجيب على هذا السؤال تقول فيها:

بعيني الغائرتين، وبوجهي الشاحب

وقفت إلى الشباك أنتظر:

مطـر ناعم يتساقط في الوهاد، وتلتصق زخاته في النافذة

ووقفـتَ أنت إلى الشبـاك أيضا، منتظرا غيري:

تلـك التـي تنتظر، هـي الأخـرى، أحدا ينتظرني

يالها من سلسلـة ملتوية! حلقة تشابك حلقة

هيـا نطلق عليها اسما أجمل: هو الحب الذي لايُشاطَر! ص ٨٦

ولكن يمكـن للقارئ أن يكتشف رغم كل هذه الاحتفائية بالحلـم أن الشاعرة تشكو مـن أن حياتهـا مضت ولم تعشـ ولم تحب كفاية. تقـول في قصيدة/ مـن النار، ومن الجليـد/ بعد أن تستشهـد بمقولة لم تذكر قائلهـا: /ياللخسارة ! عندما أكون عاقلة، لم أكن شابة بعد/.

تروي القصيدة بضمير المخاطب:

بدأ شبابك يتلاشى الآن

وأنت تشعرين بأنك لم تحبي بما يكفي

تضعـين يدك على جبينـك: جليد على نار

حياتـك مخلوقة من نار وجليد، حياتك مزدوجة

أمـا زلـت تنظرين من بـين رموشك ذاك الذي تنظرين إليه لايصدِّق قط

لايصدق بأنك مملوكة منه فقط

مثـل صقـر عطشـان من الجـوع، يحلِّق أدنى فأدنى، ثم أقرب

والشـك فيـه يهـرول إلى شفتيـك المصبوغتين بالأحمر

بدأ الشباب يتلاشى الآن

وأنت تعرفين أنك لم تحبي بما يكفي

على ذلك تشهد الهدباء الخفيف

وسورنجانـة الخريـف التـي منهـا تفوح رائحة قديسة. ص ٨٨

ثم تنتهي الشاعرة إلى /قصيدة قصيرة لحياتي الطويلة/ فتقول:

لم يُكتب لي أن أكون غنية، أو سعيدة

ولكن ذات يوم امتلأ قلبي:

بالحب أو بالشعر

سيان ! حتى لو مت

أظل أعيش

لمجرد أن أصف شوقي

إلى حالة الشوق تلك..

ليس بوسع المرء أن يستفيض في الحديث طويلاً عن مناخات وأجواء هذا الديوان، لأن أي استفاضـــة لاتغني بـأي حال عن قراءته واكتشاف شعرية الحلم بين دفتيه..

بيانات السورياليـة

جــاء الفيلســوف والشاعــر والروائي الفرنســي أندريـه بريتــون إلى عالم الفكر المعاصر عندما علم بـأن المؤامرات الكبرى بدت تُحــاك على اللغة في محاولة لاغتيالها واغتيــال أي دور تقــوم بــه، فأصدر هذا الرجل مــع زملائه بيانــات سوريالية لأول مرة تدعــو إلى احــترام اللغتــين الباطنية والخارجيــة للإنسان، حتى لــو بدا الكلام هذيانا لأول وهلــة. لقد عاش بريتون حياة حافلة بطولها وعرضها. سافر كثيراً، وكتب كثــيراً، وعشق كثيراً، والتقــى أبرز رجالات عصره أمثال: فرويــد، وكريفيل، ودسنوس، وإيلوار، وآراغون، وموريز، وبيريه، وسارتر، وكامــو، وسوبو ،وأبو لينير، و فيشيه، ودالي، وبيكاسو.

ولد هذا الرجل الذي يعد علامة بارزة في تاريــخ الفكــر الفرنسي المعاصــر سنة ١٨٩٦ ودرســ الطب النفســي، وسرعان ما رأى ميلــه إلى التعبير عن أفــكاره بوساطة

اللغـــة، فأصدر عـــام ١٩١٩ ديوانه الشعري الأول الذي أسماه /مكتب الرهونات/ وبعد سنتين سعى في فيينا للقاء سيغموند فرويد فالتقاه، وبعد ذلك قام بتجارب عديدة حول التنـــويم المغناطيسي، ثم توالــت أعماله في الصـــدور، ولكن العمل الأبـــرز الذي أظهر اسمه في المشهد الثقـــافي الفرنسي المعاصر والعالمـــي فيما بعد كان عملـــه الدؤوب في وضـــع بيانـــات السورياليـــة، وبالفعل فقد ظهرت هذه البيانات للنور عام ١٩٢٤.

مدخل إلى بيان السوريالية

السورياليـــة اسم مذكـــر في الفرنسية، تعني آلية نفسانية صرفة يُقصد بها التعبير شفاهـــا أو كتابة أو بأيـــة طريقة أخرى عن سير الذهـــن الحقيقي. إنهـــا إملاء الفكرة في غيـــاب أية رقابة، يجريه العقل خارج كل اهتمام جمالي وأخلاقي. /وهي في التعريف الفلسفـــي موسوعيـــاً: تقوم علـــى الإيمان بالحقيقة الفوقية لبعضـــ أشكال التداعي المهملـــة قبلاً وبقدرة المنام الكلية وفي حركة الفكر الغير هادفة وتهدف إلى القضاء نهائياً على ما سواها من آليات نفسانية وإلى تولي حل مشاكل الحياة الرئيسية بدلاً منها/.

سأورد هنا بعض الأفكار الواردة في بيان السوريالية الثاني، يقول بريتون: الكل يعرف جيداً مـــا هو الإلهام ولا سبيل إلى إخطائه. فهو الذي زوّد حاجـــات التعبير السامية في كل زمان ومكان. ويقال في العادة إنه موجود (في) أو غير موجود. وإذا لم يوجد فإن شيئاً مما يصدر عـــن الحذق الإنســـاني المشاب بالمصلحـــة وبالحيلـــة المنطقيـــة وبالتمكن المكتسب من الجهد لايمكن أن يسلينا غيابه. إن هـــذه الثمـــار هي الكتابـــة الآلية ورواية الأحلام، تتميـــز في وقت معاً بأنها الوحيدة التـــي توفر مواد تقديرية رفيعة للنقد الذي يبدي في الميـــدان الفني حيرة غريبة، وبأنها تمكّن من إعادة تصنيف عام للقيم الشعرية، وبأنها تـــزود بمفتاح قـــادر أن يفتح إلى ما لانهاية ذلك الصندوق المتعدد الأعماق الذي يسمى الإنسان.

لقد عنى هذا الكاتب والفيلسوف أعماق الإنسان من خلال غالبية إبداعاته الشعرية والفلسفية والفكرية والأدبية، ذلك أنه رأى بـــأن الإنسان دوماً هو عمقـــه، وأن الإنسان عليـــه أن يبذل قصارى جهده للتعرف بذاته قبـــل أن يتعرف بالآخرين، فهو كلما يتعرف على أعماق ذاته، يتعرف على أعماق الآخرين من جهة، ويتعرف على أعماق الطبيعة التي يعيشـــ فيها من جهة أخـــرى. ولذلك أجمع فقهاء النقد وأئمة الفلسفة أن قراءة أعمال

هذا الكاتب تكون بمثابة المشكاة التي ينظر مـــن خلالها القارئ إلى أعمـــاق ذاته. يقول بريتـــون في كتابه /أمام الستـــار/: سيحكم التاريخ وحده إذا كانت البيانات التي جعلتها الوجودية تظهر حديثا في المقدمة قادرة على القيام بمثل هذا الدور، أو إذا كان نجمها لا يضيء ســـوى حقبة انتقالية قصيرة.. ليس هنا مجال البت في المسألة الشائكة التي هي معرفة ما إذا كان انعدام الأسطورة هو أيضا أسطـــورة وإذا وجب أن يرى فيـــه أسطورة اليوم. فعلى رغم الاحتجاجات العقلانية كل شيء يجري اليوم كما لـــوأن أعمالا شعرية وتشكيلية معينة، حديثـــة نسبيا تتمتع على الأذهـــان بقـــدرة تفوق مـــن كل جانب تأثير العمل الفني..

إن أندريـــه بريتون يحمـــل خصوصيته كشخصـــ مبدع جاء إلى هذا العالم، وأعماله تحمـــل خصوصيتهـــا الأدبيـــة بـــين معظم الأفكار التي طرحتهـــا شاعرية الإنسان في التاريخ الأدبي..

الأدب السردي

في كتابه:«بحـــوث في الرواية الجديدة» يرى ميشيل بوتـــور: ليس الروائي هو الذي يضع الروايـــة، بل الرواية هـــي التي تضع نفسهـــا بنفسهـــا.. وعـــن تعريفـــه للرواية الجديدة وكيفية كتابتها يقول: لا أستطيع أن أبدأ بكتابة رواية إلا بعد أن أكون قد درست تنظيمهـــا شهـــوراً عديـــدة، وإلا ابتداء من اللحظة التي أجدني فيها مالكاً المخططات الضروريـــة التـــي تبـــدو لي فاعليتها معبرة وكافيـــة بالنسبة للمنطقة التـــي استدعتني في بـــدء الأمر. وإذا مـــا تسلحت بهذه الآلة وبهذه البوصلـــة، وبهذا المخطـــط المؤقت، فإني أبدأ رحلتـــي التنقيبية وأبدأ المراجعة. إن هذه المخططات نفسهـــا التي أستلهمها، والتـــي بدونها ما كانت لأجـــرؤ على سلوك هـــذا الطريق ،قـــد تسمـــح لي باكتشافات تجـــبرني علـــى تغييرها، ويمكـــن أن يحدث ذلـــك من الصفحة الأولى، ويمكن أن يستمر حتى آخر تصحيـــح في المسودات المطبوعة، وهذا التفهـــم الواعي للعمل الروائي يذهب إلى الكشف عن الرواية بصفته كاشفا، وإلى جرها لتبدي أسبابها، ويطور فيها العناصر التـــي ستظهر كيفيـــة ارتباطها بما بقي من الواقع، وبـــأي شيء توضحـــه. عندئذ يبدأ الروائـــي يعرف مـــا يصنع وتبـــدأ الرواية بالإعلان عن نفسها».

ولهـــذا تم التركيز أو لنقـــل تم اكتشاف ضمـــير المخاطب وبوتور نفسه استخدم هذا الضمير بقوة وجـــرأة مثال على ذلك النص

الآتـــي لبوتور:«لقــد وضعت هــذا الضمير قدمك اليسرى على المزلق النحاسي وبكتفك الأيمــن تحــاول دون جــدوى أن تدفع باب القاطرة المنزلق: تدخل من الفتحة الصغيرة وأنــت تحتك بجانبها، ثــم حقيبتك المغطاة بجلــد حبيبي قاتم ذى لــون قنينة سميكة، حقيبتك الصغيرة كرجل معتاد على الأسفار الطويلة، تنتزعها بمقبضها اللزج بأصابعك التي سخنت» يعلق بوتــور على هذه المسألة قائلاً:«عندمــا يكون هنــاك شخص تروى لــه قصته الذاتيــة.. أو أي شيء عن نفسه لايعلمــه أو على الأقل لا يعرفــه بعد على مستوى الكلام، عندها تروى حكاية بضمير المخاطــب، وتكون دائمــاً حكايــة تعليمية وهكذا ففي كل مــرة نريد أن نصور تقدما للوعي، وتشكلا للــكلام أو لكلام ما، يكون ضمير المخاطب هو الأنسب».

ولكن ينبغي بالنتيجــة، لسبب أو لآخر، ألا يتمكــن هذا الشخص مــن رواية قصته وأن يمنــع عنه الكلام، ويدعهــم هذا المنع بالقــوة، وأن نسبــب بعد ذلــك وصوله إلى الكلام. هكذا يفعل المحقق ومفوض البوليس في استنطاقاتهمــا فإنهمــا يجمعان مختلف عناصر القصة التي يرفض الممثل الأساسي أو الشاهــد أن يرويهــا، أو لا يستطيــع أن يرويها، ثم ينظمان هــذه العناصر في قصة تروى بصيغة المخاطب لتفجير الكلام الذي رفضــ الراوي الإفصاح عنهــا أو لم يستطع الإدلاء بــه: «لقــد عــدت مــن عملك عند الساعة.. ونحن نعلــم من هذا الانقطاع أو ذاك أنك تركت منزلك عند الساعة.. فماذا فعلت بين هاتــين الفترتين ؟» أو «تقول أنك فعلــن كذا، ولكن ذلك مستحيل لهذا السبب أو ذاك، فلا بد إذن أنك فعلت كذا..».

لو كان الشخص يعرف هو نفسه قصته بكاملهــا، ولــو لم تكن لديه موانــع لسردها للغير، أو لروايتها لنفســه، لوجب استعمال صيغــة المتكلم: أنــه يــدلي بشهادته. ولكن الأمر يتعلق بأن تنتــزع منه إفادته انتزاعاً، إمــا لأنه يكذب أو لأنه يخفي الحقيقة عنا، أو يخفــي عن نفسه شيئــاً ما. وهكذا ففي كل مرة نرغب فيها وصف تطور حقيقي في الضمــير، أي خلق اللغة نفسهــا، أو أية لغة كانت، فإن صيغــة المخاطب هي التي تكون أكثر فعالية.

وبطبيعة الحــال فإن هــذا الضمير لا يصطدم مــع مسألــة الوصــف الخارجي للأشياء فيمكن من خلالــه أيضاً التصوير الخارجي.. وها هنا التصوير المدهش لكلود سيمون: تضاعفت الريــح، ظلت تعوي مدة

ثمانيـــة أيام وثماني ليال متتالية كالإعصار، تكســو الشــوارع بــالأوراق الجافــة وأفرع الأشجــار المكسورة، تكسر دعائم أشجار الكــروم وتخر الدعائــم الأخرى التي كانت تصمد لها بعنف.

يقــول ميشيل بوتــور: إن أبسط الصيغ الأساسية للرواية هي صيغة الغائب، وفي كل مرة يستعمل الكاتب فيها صيغة أخرى يكون ذلــك، نوعاً ما، على سبيــل «المجاز» فعلينا ألا نتقيــد بها حرفياً، بل نردها إلى صورتها الأساسية المضمرة. وهكذا نرى أن مارسيل بطــل روايــة «البحث عن الزمــن الضائع» يستعمــل صيغة المتكلم، ولكن بروست نفسه يصــر على أن هذه الصيغــة «أنا» هي شيء آخر، ويقدم على ذلــك حجة دامغة بقوله: «إنها رواية».

وفي كل مــرة تكون القصة خيالية تدخل الضمائر الثلاثة حتماً في الموضوع: ضميران حقيقيــان: الكاتــب الذي يــروي القصة، ويقابله في المحادثــة الضمير «أنا» والقارئ الــذي نروي لــه القصة، ويقابلــه الضمير «أنت». وأخيرا شخص وهمي هو بطل الذي نروي قصتــه، ويقابله الضمــير «هو» يعلم كل منا أن الروائي يبنــي أشخاصه، شاء أم أبى، علم ذلك أو جهله، انطلاقاً من عناصر مأخوذة مــن حياته الخاصة، وأن أبطاله ما هم إلا أقنعة يروي من ورائها قصته ويحلم من خلالها بنفسه، وأن القارئ لا يقف موقفاً سلبياً محضاً، بــل يعيد من جديد بناء رؤيا أو مغامرة ابتداء من العلاقات المجمعة على الصفحة، مستعيناً هو أيضاً بالمواد التي هي في متناول يــده، أي ذاكرته. فيضيء الحلم الــذي وصل إليه بطريقتــه هذه كل ما كان يغشــاه شيء من الإيهام. ففــي الرواية إذن يكــون ما يروونه لنا هو دائماً شخص يروي قصتــه ويقص علينــا. ووعي واقــع كهذا يسبب انتقــالاً في الرواية من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم.

يقول فرانز كافكا في مذكراته: /إن خير ماكتبته له دوافعــه في قابليتي لأن أستطيع الموت مسرورا وفي جميع هذه المقاطع الجيدة المتسمة بالإقنــاع القوي، كان المقصود على الدوام شخصاً يموت ويجد أن الموت صعب، وأنه ظلم، أو على الأقل نوع من القسوة يقع عليه ممــا يجعل ذلك في رأيــي على الأقل يؤثــر في القارئ. أمــا بالنسبة لي، أنا الذي أعتقد أني سأكون مسروراً على سرير الموت، فإن مثــل هذه الأوصاف لاتشــكل أكثر من

لعبة خطــيرة حفيفة، لهذا السبــب أستغل بدقة انتباه القــارئ المركز على الموت، فأنا في حالـــة فكرية تفوقه صفــاء وأحسب أنه سيشكو على سرير المــوت، أما أنا فشكواي ستكــون والحالة هذه أكمــل شكوى ممكنة لأنها لن تنفجر في فجاءة الشكوى الواقعية، بل ستتــم في جو من الجمـــال والصفاء /. فــترى حضور الموت طاغيــاً في كل مؤلفات هـــذا الكاتب، الموت الذي دائماً يأتي حاملاً الخلاصــ للأشخاص الذين بلغوا اليأس ولم تعد لديهـــم ذرة أمــل في أن يعيشوا لحظة واحدة، ولننظر إلى تصويره البارع في كتابة مشهد الانتحار لشخصيـــة غريغوار سمسا الــذي نهضــ ذات صباح وقـــد رأى نفسه وقـــد تحول إلى حشــرة ضخمة في رواية / المســخ/: /والآن؟ سأل غريغوار نفسه وهو ينظر في الظلمة حولـــه وللحال اكتشف أنه لم يعـــد بإمكانه التحـــرك إطلاقا. لم يفاجئه ذلك، بل بدا من غير الطبيعي أنه كان قادراً حتـــى الآن فعلا على دفـــع نفسه على هذه السيقان الصغيرة الرفيعة. وأحس من جهة ثانيـــة بارتياح نسبي. كان يشعر بالألم في كل أنحاء جســـده، لكن بدا له أنه يذوي ويذوي تدريجيا وسوف يذهب في النهاية كليا، وظل في هـــذه الحال من التفكير الفـــارغ والأمن حتى وقعت ساعة البرج معلنة الثالثة صباحا وظل يـــرى أن كل شيء خـــارج النافذة كان قد بدا يزداد ضوءاً ثم دون موافقته غطس رأسه على الأرض وتجدلت من منخريه آخر أنفاسه الضعيفـــة/. وفي مثل هذه الأوضاع فـــإن كل يـــوم يمر لايقـــدم فيه المـــرء على الانتحار بشكل ألما بالغـــا في نفسه، وكافكا نفسه يقول: /لقد عانيت طوال حياتي وأنا أتهرب من الانتحار/.

وتقول ساغـــان عن علاقتهـــا بالكتابة: /الكتابـــة سحرية بالمعنـــى الذي يرغب فيه كل النـــاس أن يكونوا كتّابـــاً، الكثيرون جدا يحتفظـــون بمخطوطات ويطلبـــون مني أن أقرأهـــا لهم، ذات يوم صادفت سيدة جميلة في إحـــدى المكتبات، فبادرتني قائلة: /كيف يمكننـــي أن أنشر كتاباً كبيراً إن كنت لاأجيد الكتابـــة ؟. أجبتها: تتخذين مساعداً يعينك علـــى الكتابـــة/. قالت: / حسنـــا وإن كنت لاأعـــرف ماذا أكتـــب ؟ قلـــت: /اسمعيني، عندما لانعـــرف عم نكتـــب ولاكيف نكتب، خـــير لنا أن ننسى ذلك. أُصيبتُ بخيبة أمل وردّدت: /وأسفـــاه، كم كنـــت أحب أن أكون كاتبة/.

هذه الكلمات التـــي تقولها ساغان بلغة سهلة بسيطة تعبر عن مدى جديتها في مسألة الكتابة إلى درجة أنها عندما تواجه الأحزان والمواقف الصعبـــة في حياتها فإنها لاتتردد من مواساة نفسها قائلة: /ولكنني أحيا لأنني أكتب/. وبعد كل هذا المشوار في عالم الكتابة والتألق والنجاح تنتهي ساغان لتقول: / إني متأكدة مـــن أني قد تغيرت، ولكن ليس لدي انطباع بأني نضجت وفهمت الشيء الكثير، وإني لأتســـاءل إن لم أكـــن في الثامنة عشرة أغزر معرفة مني اليوم. على كل حال، كنت حينها أكثر ثقة بنفســـي وبأحكامي، وأعمق تصميما، في العشرين نكون مترددين، ولكن مقتنعين. في شبابي – إن وسعني قول ذلك – كانت الأمور واضحـــة وكان هناك لطفاء وأشرار، ويساريون ويمينيون. أشياء بسيطة جداً، ولكن في غاية الوضوح، ذاك أمر يدعو للاطمئنان. عصر اليوم يلفه الغموض قليلاً. كل شيء مشوّش مع هذه العبادة للمال التي أضحـــت لاتطاق. أصبح نصـــف الناس من التابعـــين والنصف الآخـــر متعصبا، لم تكن الأمور هكذا في الماضي/.

بيد أن السعادة ماتزال تأتي من الكتابة، فتشعر بحياة جديـــدة وبدفق حيوي جديد مع إبداع كل سطـــر وكل صفحة وكل كتاب، وهي واثقة بأنها ســـوف تعثر على كلمات لم تكتبها بعد، وتقـــدم أفكارا لم تقدمها للقراء بعـــد. تقـــول: /السعـــادة. سعـــادة الكتابة وحسب، إنني متأكدة من أن الكاتب الرديء نفســـه يعيش لحظات سحريـــة عندما يعثر على الجملـــة المناسبة، والتوافق بين كلمتين في هذه اللحظـــات، هذه اللحظات وحدها، يشعر الكاتب بأنه كاتب حقيقي. إنني مولعة بحب الحيـــاة، قضيتها وأنا أعيش أكثر مما فعلـــت، وأنا أكتـــب أتمتع بحســـن السعادة، التعاسة لاتعلمنا شيئاً/.

صخرة الخلقين

هـــذه رواية تعنى بســـرد تاريخ الإنسان، تصـــور مراحل تطـــوره وكيف أنـــه اكتشف الحيـــاة وفق تدرج، كيف أنـــه انفتح وتعرف على هذا العـــالم وغدا أحـــد سكنته، وغدا يرتبط به بقوة.

روايـــة تجذبك مـــن السطـــر الأول إلى السطر الأخير، وأنت تقرأ هذه الرواية تشعر بأنك تقـــرأ رواية كتبت لك، ذلك أنها تروي السيرة الذاتية للإنسان الأول الذي جاء إلى هذا العالم.(٧)

صخرة الخلقين هي سيرة شبه أسطورية

تروي كيــف أن الله خلق هــذا العالم، ومن ثــم شاء أن يخلق كائنــاً بشرياً، وقد تم هذا الخلــق على هذه الصخــرة لذلك سميت / صخرة الخلقين/.

تروي الرواية: /لــكل شيء في الطفولة جذوة لاتخبو، والحماسة مستمرة من مرحلة لأخــرى، وفي تلك المدينة التــي انتقل إليها العــالم مصغراً، شيء ما يبدو كأنه أزلي، هنا أحضر الكون وبدا مختزلاً، واضح الحدود.

منــزل على البحــر يطل علــى صخرة الخلقين، ووالدة ترسم عــوالم تقنع الطفل، تبقى بعض جــذور القناعة إلى مابعد سني المراهقة، حيث تبدأ الدنيا بالتغير، والتاريخ يتلقاه الطفل من المدرســة، ومن ذاكرة أمه الشفهية، ومع ذلك فلتلك الذاكرة عوالم أكثر إدهاشاً من كتب التاريخ..

تُروى الحكاية على النحو التالي: /خلق الله الرجــل الأول نبينــا آدم علــى صخرة الخلقين - وأشارت من الشرفة إلى الصخرة - وكان جلوسه الأول على حجر الكرسي أنت تعرف أين هي، وبعــد خلقه علمه السباحة والأسماء كلها، وصار آدم يعرف عدد أسماء البحر، وعدد الحيوانات والنباتات والملائكة والجن وكل شيء.

مــن تلــك الصخــرة ابتــدأت سباحته الحقيقية، صخرة الخلقين، التي لاتبعد عن بيتــه، وعلى بعد يسير منها تقبع على العمق رمليــة الخلقين، وعند صعــوده الأول أعلى الصخرة أحس بالخشوع، في محاولته تخيل كيفية خلق آدم على تلك الصخرة.

انتابه إحساس أنه يضع يده على ركبتيه علــى ذات الأمكنة التي وضع جده آدم يديه وركبتيــه، استعاد قصة والدته، وأخذ يتأمل موضع الرأس وارتسمت عملية جبل آدم من الرمل الطين والكلس وماء البحر. إحساس بالرهبــة أمــام المقدس، هنا خلــق الرأس، وهنا تمــدد الجسد، وهنا موقــع الساقين والقدمين، قال لنفســه: آدم لم يخلق طفلاً، بــل رجلاً مكتملا. أحســ بالحزن من أجله فهو لايعرف أما له، ولم يعش طفولته..

ملائكة تنزل من السماء

تحيط بالصخرة

ضوءها الباهر ينير البحر

وهي تسبح للرب.. ص٣٥-٤٥

وعلى هذا النحو تستمر الرواية في سرد حكاية الإنسان للإنســان. إنها تروي تاريخ الإنســان، بعد ذلك تنتقــل إلى مواهبه، إلى أحلامه، أمنياته، رؤاه، منجزاته.

الإنسان هنا يشعر بمسؤولية بالغة تجاه الحياة التي جــاء إليها فتبدأ فعلية العلاقة

بينـــه وبين هذه الحياة، وهنـــا تكمن أهمية وخصوصيـــة مثل هذه الروايـــة التي تتناول هذا الموضـــوع لغلة عذبة وصـــور مدهشة، وتقنيات متعـــددة، والروائي / محمد الحاج صالح / طبيب عيون، كما أنه يمتلك موهبة التصوير، وهـــو فنان تشكيلي إلى جانب أنه قاص وروائي متمكن من عمله. وهنا تجتمع هذه المواهب لتخدم هذا العمل الروائي..

والحقيقة فإن قراءة هذا العمل ممتعة، هـــذا العمـــل الذي يرويـــه الروائـــي بكثير مـــن التـــأني والحكمة، وكأنه يـــروي حكاية متسلسلة لحفيـــده في ليالي الشتاء الطويلة، إنه يبنيه، وكذلـــك يجنبه الضجر، يمهد له الطريق حتى يكتشف الحياة، ويرى حقائقها ما أمكن.

وإذا ولجنـــا إلى طقوســـ حميمية هذه الحكاية الرواية نـــرى الدفق الشعري الذي يقـــول: الصور تتقلب في طريـــق عودته إلى الطفولة، تنبثق مـــن الأمكنة، يعيد تشكيلها وهو يلعب مع رفاق طفولته.

أولاد يلعبـــون الكـــرة، وآخـــرون العصا والدقس، وغيرهم السيوف، اثنان يتلاكمان، وآخران يتصارعان، وبعضهم يرفع الأثقال. حياة يومية تـــدور وكأن العالم كله تحول إلى هذه المدينة، يطوقها البحر والزيتون، خندق وقبـــاب، كنيسة بقي منهـــا أقواس متعانقة وزخارف، تعلو شامخة تطاول السماء، ورغم انهيار أجزاء من جدرانها العليا التي صمدت أقواسها تتحدى الفناء، مسجد يتصاعد منه صـــوت الآذان، حما وقمم، نسوة في الحمام صباحاً، ورجال في المساء.. ص١٥ - ١٦.

إنـــه تصوير للحياة وكيـــف أن أبناء آدم قد ملئـــوا الحياة وجعلوها دافئة، ومن جهة أخرى كيف أنهم باتوا يخافون على مدينتهم، ويحرسونهـــا، ويصرون علـــى تحقيق الأمن والعدل فيها، إنهم يسعون إلى أن تكون هذه المدينة أكـــثر أمناً، وأكثر دفئاً، وأكثر جمالية في هـــذه الروايـــة التصويريـــة التي تسجل حضوراً في المكتبة الروائية العربية..

الهوامش

محمـد بـن إسحـاق بن يعقوب النديم البغدادي - الورّاق - ويكنى بأبي الفرج نشأ في بيت علم وفكر فقـد كان أبـوه ورّاقـاً يميل إلى الفكـر والأدب وأورث لابنه هذا الميل إضافـة إلى أنه أورث إليه لقب (النـديم) وهـو لقب يشير إلى كثرة السهـر برفقة أهل العلم والـكلام والأدب.. (المتوفي حوالي عام ٤٣٨ هـ).

المراجع

١- ابن النديم -الفهرست- تحقيق رضا تجدد - طهران ١٣٩١هـ.

٢- الخصائص، أبو الفتح ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٣، ص٤٧- ٤٨، ١٩٨٦.

٣- بمعنى أن كل شعب اخترع لغة تنسجم مع تركيبته الاجتماعية.

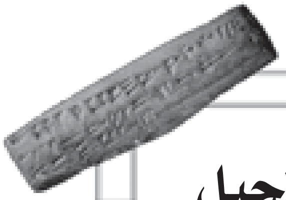
٤- التمهيد، تحقيق د. مفيد أبو عميشة، ج١.

٥- المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، ط ٢، ص ٢٦، ج ١، ١٩٩١ لبنان.

٦- طغيان الحلم وثلاث عشرة قصيدة حب. كارولينا إيليكا- ترجمة: جورج غريغوري. منشورات: دار نعمان للثقافة - بيروت ٢٠٠٢.

٧- صخرة الخلقين - رواية - محمد الحاج صالح - ١٥٩ صفحة من القطع الوسط - منشورات دار التكوين - دمشق - بيروت ٢٠٠٦.





دمشق في ديوان بدوي الجبل

عبد اللطيف محرز ❁

بــدوي الجبل من أهم الشعــراء، الذين جعلوا من دمشــق، خميرة فنية لأشعارهم، وقبلة عربية لأحلامهم، وشعلة روحية، تضيء دروب حياتهم.

لقــد عشق هذا البدوي الجبلي، دمشــق منذ فتوّته الأولى. وتصوّف في حبهــا طول حياته. لقد جعل منها حورية مــن لحم ودم، وراح يتغزل بها في قصائده. وقارورةً من حنين وعطر، ظل يحملها في غربته.

وسأحــاول الآن أن أقرأ المعالم المضيئة في صورة دمشق، كما رسمها هذا الشاعــر العاشق في ديوانه، مبتدئاً من (البواكير) في هذا الديوان. والبواكير

❁ شاعر وناقد سوري

العمل الفني: الفنان قحطان الطلاع.

هــي القصائــد التي اختارهــا الشاعر من ديوانه الأول الذي صدر عام ١٩٢٤م. وكان الإهداء لهذا الديوان الأول، ولهذه البواكير المختارة منه في ديوانه الجامع كما يلي: (إلى مثال البطولة العربية. إلى الشهيد الراقد في ميسلون. إلى تلك الروح الكبيرة التي تمرّدت على العبودية وعلى الحياة).(١)

فلنسر مــع هذه البواكــير، ولنقف عند قصيدة عنوانها (حياة أسير القيد لفظٌ بلا معنى)، وقد نظمت هذه القصيدة ١٩٢١م. أي عندمــا كان عمر الشاعــر ثمانية عشر عامــاً. وقد كتــب لها مقدمــة نثرية تقول: (الانتداب الفرنسي في عنفوانه؛ وفي الفورة مــن طغيانه. وقد جّزأ الوطــن شرَّ تجزئة؛ وأقــام دويلات في اللاذقيــة، وحلب، وجبل الــدروز. وقطع كل صلة بــين هذه الأجزاء، وبــين الأم الرؤوم، الخالــدة دمشق. واشتدّ تنكيله بالأحــرار الذين ينادون بالوحدة، في الوطن الواحد).

فمــا عســاه في هــذا الجــو السياسي العاصــف أن يقول للشام؟!! إنه لا يغنّي لها، بل يذرف الدموع، ولكنهــا دموع تترفع عن ذل البكاء، بل تتحــول من خلال الشعر إلى أسلحة للقتال، دفاعاً عن جنته الفردوسية، التــي تعبث بها شياطين إنسيّة. تلوّث صفاء مائها، وتروّع أمن ظبائها. ويحيّي المناضلين في غوطة الشام، مبشراً بالنصر:

سأبعث من شعري جياداً مغيرةً
عليها كُماةٌ، تُحْسنُ الضربَ والطَّعْنا
وأُذري على الأطلال، أطلال يَعْربٍ
مدامع حرٍّ، تستحيل قناً لُدْنا
يقولون: غنِّ الغوطتين. وهل رأوا
محباً على مثوى حبيبته غنى؟
فيا جنة الفردوس، لو لم يَعثْ بها
شياطين إنس، روّعوا الإنس والجنّا
ويا جنة الفردوس، لكنْ قطوفُها
بغير أكفّ الصيد من أهلها تُجْنى
فيا واردي ماءَ الشآم، رَوَيْتمُ
فللّه ما أصفى، ولله ما أهنا
ويا ناظري غيد الشآم، نعِمتمُ
فللّه ما أبهى، ولله ما أسنى
ويا عُصْبةً في الغوطتين. فتاهمُ
إذا جاد. لم يُتْبِعْ عطيّته منّا
أرى أنّ هذا الأمر، قد جَدّ جدّه
فكونوا لنا حصناً، نكنْ لكمُ حِصْنا
ولا تقنطوا من بارق النصر إنّني
أرى الفوز منكم قاب قوسين أو أدنى(٢)

❁ ❁ ❁

ثــم يعبر شاعرنا الفتى عــن حبه للشام وعن إخلاصه للعهــد القومي الذي يربطه بها، وبرسالتها؛ ويقرأ ما في أرحام الأمهات العربيات من أبطال تتهيأ للولادة وهي تحمل

سيف خالد بن الوليد، لتعيد أمجاد العرب من جديد.

لَئِنْ خان عهدَ الغوطتين عصابةٌ
رأوا بَيْعهم ربْحاً وألفيتُه غَبْنا
ففي الجبل النائي لعصبة جلّق
من القوم خِدْنٌ لم يَخُنْ في الهوى خِدْنا
أمينٌ على عهد الشآم كأنه
يرى وهو قسيس الحب، في جلّق لُبْنى
أديري عليَّ الكأسَ صِرْفاً وعلّلي
فَتاك. فقد أفنى الهوى منه ما أفنى
وغنيّ على لحن الشباب فإنني
لأعشق هذا الثغر، والناي، واللحنا
ولابدّ من يوم أغرّ محجَّلٍ
تطير الجبال الراسيات به عِهْنا
يصافح فيه قائم السيف خالدٌ
سيُرجع ظهر الأرض من حنقٍ بطنا

❁ ❁ ❁

وأنتقل إلى قصيدة ثانية من البواكير، وعنوانها (نغمات عودي)، وقد نظمها الشاعر ١٩٢٢م، وكتب لها هذه المقدمة النثرية:

(يلجأ الشاعر إلى عوده، فيناغيه ويناجيه. وسيرى القارئ في هذه الأبيات، كيف كانت تسيطر الفكرة القومية، في تلك الفترة، من الزمن، على نفوس الشباب حتى في بدوات لهوهم ومرحهم).

يقول الشاعر: إن نغمات عوده، وهي نبضات شعوره، تستشفّ من خلال ظلمة الأحزان، حضارة الشام، وجمالها الفتّان. وتأسف لأنَّ الزمان، قد سلبها تاج بني مروان:

نغماتُ عودي لا تُمَلّ لأنها
شعرٌ يفيض عواطفاً وشعورا
في ظلمة الأحزان من نغماته
نفسي الحزينة، تستعير النورا
سَلْهُ عن الزمن الخؤون وأهله
تَرَهُ عليماً بالزمان خبيرا
ورأى حضارة جلّق وجلالها
والمُلْك في تلك الربوع كبيرا
إذْ ماءُ جلّق كالرحيق عذوبةً
وظباءُ جلّق كالشموس سفورا
سلب الزمانُ بها ملوكَ أميّةٍ
تاجاً يشعّ ضياؤه؛ وسريرا(٣)

❁ ❁ ❁

ويقول شاعرنا في هذه القصيدة أيضاً. إن تراب الشام يستحق التقبيل. لا لأنه ينبت كل جميل، بل لأنه يضم ضريح صلاح الدين الأيوبي ذلك البطل الجليل:

يا لاثماً فيها الثرى من حبّه
أعلمتَ أنك تلثم الكافورا؟
ومعانقاً أغصانها من وَجْده
دلّلْ هواكَ فقد ضممتَ خصورا



هذا صلاح الدين، فاخشع إنه
ملك الملوك، مسالماً ومغيرا
طاف الجلال به مليكاً فاتحاً،
حيّاً؛ وطاف بلحده مقبورا
فالثمْ تراه، فقد لثمتَ خميلةً
للمكرمات. وقد شمَمْتَ عبيرا

❁ ❁ ❁

ومن قصيدة عنوانها (لبنان والغوطتان)، ألقيت في (جونية) اللبنانية بمناسبة تكريم شاعر القطرين خليل مطران ١٩٢٢م. أبيات يعبر فيها بدوي الجبل، عن الصلة بين لبنان والغوطة في الشام. وعن إيمانه بالقومية العربية، ولغة الضاد. ويحاول استنهاض شباب العرب لاستعادة مجدهم المغتصب:

لبنانُ، والغوطة الخضراء ضمَّهما
ماشئتَ من أدبٍ عالٍ ومن نَسَبِ
كلُّ الرّبوع، ربوع العرب لي وطنٌ
ما بين مبتعدٍ منها ومقترب
للضاد ترجع أنسابٌ مغرَّقةٌ
فالضاد أفضل أمٍّ بَـرَّةٍ وأب
تفنى العصور وتبقى الضاد خالدةً
شجيَ بحَلْق غريب الدار مغتصب
مالي وللناس.. جدَّ الناس كلّهمُ
وضاع قوميَ بين الجِدّ واللّعب
هل لابن دجلةَ حقٌّ غير مغتصبٍ
أم لابن جلّقَ إرثٌ غير منتَهب؟
أين الشباب، وفتيانٌ غطارفةٌ
كالأسد في الغيل. ماوانْبَتَها تَثِب؟
اليعربيون، لاحقدٌ، ولاغضبٌ
قد يُسْلَبُ الحقُّ بين الحقد والغضب

❀ ❀ ❀

ومن قصيدة كتبها الشاعر ١٩٢٣م تحت عنوان (فترقبوا الغارات من أيتامها)، هذه الأبيات التي تشير إلى عروبة دمشق، وإلى صفتي الجلال والجمال اللتين اشتهرت بهما الشام، في الجاهلية والإسلام ويحذّر من يظلم بني قحطان من غضبة سيوفهم في الميدان.

خَلُّوا الشآمَ وداميات كِلامها
لا تهتكوا الأستار عن آلامها
عربيَّة الأنساب تطرب للوغى
في جاهليّتها وفي إسلامها
البأس، كلُّ البأس في آسادها
والحسنُ كلُّ الحسن في آرامها
هيهات تنخذل الشآم، وقد بدا
أثَرُ القِراع على شَبا صمصامها
النارُ خامدة اللهيب فحاذروا
يا ظالمي قحطان من إضرامها(٥)

❀ ❀ ❀

والآن، إلى هذه الأبيات من قصيدة نظمت ١٩٢٤م. بعنوان (طمعُ الأقوياء). ولن أعلّق عليها بشيء، كي لا أخدش ما فيها من عذوبةٍ وسلاسة. ومن فصاحة وطلاقة. وأتمنى على القارئ الكريم أن يعيد قراءتها، لينعم بنعومة ألفاظها، ورقة ألحانها. وأن يقف متمعّناً، عند الحكمة العميقة في خاتمة أبياتها:

لاتَلُمْهُ إذا أحبَّ الشآما
طابتِ الشامُ مَربَعاً ومُقاما
ما رأينا الشآم إلاّ رأينا
منزلاً طيّباً، وأهلاً كِراما
هاتِ حدّثْ عن الشآم وحدّث
وأطلْ في الحديث عنها الكلاما
عن رُباها، عن غيدها سارحاتٍ
يتهادَينَ في الحمى، آراما

ما عرفت الغرامَ لولا رُباها
من رُبا جلّق، عَرَفْتُ الغَراما
من أغاني طيورها ساجعاتٍ
قد تعلمْتُ هذه الأنغاما
أعطني في ربوع جلّقَ يوماً
يا خليلي، وخذْ من العمر عاما
وأعِدْ ذكرها، رحيقاً مصفّى
وأدِرْهُ عليَّ جاماً، فجاما

❁ ❁ ❁

لاتظنّوا السلام في الأرض حَيّاً
طَمَعُ الأقوياء، غالَ السَّلاما
أرْهقونا، ماشئتمُ واظلمونا
وامنعونا، حتى الكرى والطّعاما
يفتك الظلمُ بالضّعيف ويُرْدي
بعد حينٍ بشُؤمه الظُّلاّما(٦)

❁ ❁ ❁

وختم من بواكير بدوي الجبل، بهذه الأبيات من قصيدة نظمت ١٩٢٤م، وعنوانها (تعالَوا نعدّ الصّيد). حيث يعلن البدوي عن هيامه بدمشق وعن افتخاره بأمجادها الأموية، وبكونها رمزاً للعزة العربية.

أهذي مغاني جِلَّقٍ والمعالمُ
لك الخيرُ، أم هل أنتَ وسنانُ حالمُ
بلى، هذه أمُّ العواصم جلّقٌ
وهذي ليوث الغوطتين الضّراغم
هنا ابنُ أبي سفيان أشرق تاجه
تؤيّده البيض الرِّقاق، الصّوارم
هنا العربُ الأنجاد، إن قام ظالمٌ
مَشَوْا بالقنا. أو يُرجعَ الحقَّ ظالم
لقد زعموا أنّي بجلّقَ هائمٌ
أجَلْ والهوى، إنّي بجلّق هائم
وأصفَيْتُ أبناءَ الشآم مودّتي
صغيراً، ومانيطت عليَّ التّمائم
إذا رضيَتْ عني صناديدُ جلّقٍ
فأهونُ شيءٍ ما تقول اللوائم
إذا ظلّ مجدُ العرب في الشام سالماً
فمجد بني قحطان في الشرق سالم(٧)

❁ ❁ ❁

وهذه القصيدة السابقة من بواكير البدوي، وخاصة البيت الأخير منها، تذكرّني ببعض الأبيات في قصيدة (مغاني الشّعْب) لأبي الطيب المتنبي، التي نظمها أثناء زيارته لبلاد الفرس في شيراز. حيث وصف جمال الطبيعة هناك، ولكن بشيء من الألم لغربة العربي عن أمجاده السابقة:

مغاني الشِّعْبِ طيباً في المغاني
بمنزلة الرَّبيع من الزَّمانِ
ولكنّ الفتى العربيَّ فيها
غريبُ الوجه واليد واللسان

❁ ❁ ❁

ويذكر دمشق وغوطتها والإنسان العربي

فيها ويصفه بالكرم والشجاعة:

ولو كانت دمشق ثنى عناني
لَبيقُ الثَّردِ، صينيُّ الجِفانِ
تَحِلُّ به، على قلبٍ شجاعٍ
وترحل منه عن قلبٍ جبانِ

يقول المتنبي: لو كنت في دمشق لوجد من يثني عناني إليه، ليطعمني الثريد في قصاع صينية. وذلك الرجل العربي الذي يستضيفني، يشجع لاستقبال الضيوف كرماً وبذلاً. ويجبنُ من فراقهم خوفاً وألماً.(٨)

❁ ❁ ❁

ولنغادر الآن بواكير البدوي وهو على عتبات الشباب، إلى متن ديوانه، وهو يبسط جانحيه في سماء الشعر كالعقاب. ولنقف عند قصيدة (عيد الجلاء) ١٩٤٦م.

هنا يغالي هذا البدوي في عشقه للشام، ويستخدم كل ما ورثه عن والده –ذلك الشيخ المتصوف العارف– من مخزون روحي– ليعلن عن تصوف في حب دمشق. وليتفنن في إلباسها ما يريد من تجليات الصفات الإلهية. فالله شاء ما تشاء. وهي جمرة (الحق)، ولكنها جمرة من ماء. وعلى رؤى أديمها تغفو الأنبياء. فلنزغرد لجنون الإباء والكبرياء، الذي يحمل صفات السماء.

الزغاريدَ، فقد جُنَّ الإباءْ
من صفات الله، هذي الكبرياءْ
بنت مروانَ، اصطفاها ربُّها
لا يشاءُ الله، إلاّ ما تشاء
هي في غسّان، بأسٌ وندىً
وهي في الإسلام فتحٌ وبَلاء
جمرة الحقّ، فسبحان الذي
صاغ هذا الجمر، من ظلّ وماء
الأديمُ السَّمْحُ عطرٌ، ورؤىً
ربما أغفى عليه الأنبياء
أيها الدنيا، ارشفي من كأسنا
إن عطر الشام من عطر السماء(٩)

❁ ❁ ❁

ويتأنق الشاعر في فنه الشعري الذي (نضج واستحصد) بحسب تعبير أحد النقاد(١٠) ليعقد مقارنة فنية خيالية بين دمشق، بربوتها، ودمّرها، وبين جنة الشهداء، هذه الجنة التي تلسعها الغيرة من حسن منافستها دمشق:

شهداءُ الحقّ في جنَّتهم
هزُّهم للشام، وَجْدٌ ووفاء
تضحك (الربوة) في أحلامهم
هل عن الربوة في عَدْنٍ غَناء؟
كلّما هبّت صَباً من (دُمَّر)
رنّح الجنّة، طيبٌ وغِناء
واعذروا عَدْناً على غيرْتها
إنها والشام في الحسن سواء

❁ ❁ ❁

والجنــة بعُــرف شاعرنا، عربيــة الدار والسكان والشمائل والعادات. أتراه يريد أن يقول –يارعــاه الله– بأن دمشق التي قادت العرب في فتوحاتهم لنشر رسالة السماء، قد فتحت لهم أبواب الجنة، لتصبح هذه الجنة عربيــة السمــات والأداء؟ وحيــث يستحم تاريخهــم بنديّ الحب الإلهي، ويتخلص من كل ما علق به من الأحقاد والبغضاء.

وإذا الفـردوس مجلـوٌّ على
مفرق الشمس فما فيه خفاء
عـربـيُّ الــدار والأهـــل معاً
والرحيـق المشتهى والنُّـدماء
حمحماتُ الخيـل في أفيائه
وقِرى الضيف، وترجيع الحُداء
آلُ مــــروانَ جـــلالٌ ونـــدىً
وبنـو العبّاس، هـديٌ وضياء
سَكب الله علـى أحـقـادهـم
من نـديّ الحبّ ما شاؤوا، وشاء

❁ ❁ ❁

ولا ينســى شاعرنا دمشــق في نضالها الدامي من أجل الجلاء، فيرسم هذه اللوحة الفنيــة لسكانها وهــم يتصــدّون للعدوان الفرنسي الغاشم، ويحققون النصر. فتضحك الظباء الأمويات لنعمة الجلاء وتضحك لها، ومعها نجوم السماء.

الـظِّـبـاءُ الأمـــويّـــات وفي
خدرها الدنيا: حمى اللهُ الظّباء
كلّما نـاديـنَ فتـيان الحمى
كـبّر الفـتـيـانُ، وارتـدّ الـنّـداء
نحن للغوطة في الجُلّى فِدىً
ولـهـذا الكحل في العين فداء
سقت الجرحى فلم يظمأ فتىً
رشف الكوثـرَ من هذا السِّقاء
شـهـداءَ الحــق، لا أبـكـيـكـمُ
جلّت الغـوطة عن ذلّ البكاء
جـلَّ هـذا الـدم أن يُـرثـى له
عــارُ سفّاكيـه أولى بـالـرثّـاء
يـا ظـبـاءَ الأمـويـين اضحكي
تضحكِ الدنيا ويغمرْها الصَّفاء
واغـمـزي الأنجـمَ هـذي أعْـيُنٌ
شأنها في الدهـر لمحٌ واجتـلاء
أعـــينٌ حـبُّـك قـد سـهَّـدهـا
فاغمريها بالمنى تغفُ السماء

❁ ❁ ❁

ولننتقــل إلى قصيدة أخرى في الديوان، عنوانها (جلونا الفاتحــين). حيث يخاطب الشاعــر دنيــا الأمويين، التــي انداحت في العالم هدايةً، وحضــارةً. وأصبحت للعروبة حصنهــا الحصين. وأعطــت لساحة المجد أبطالها الميامين:

ويــا دنـيـا أُمـيّــةَ لا تُـراعـي
شبابُكِ يغمر الرُّحْبَ الفِساحا

طلعتِ على العصور هدىً وخيراً
غداةَ طلعتِ غزواً أو افتتاحا
وعلَّمْتِ الحضارةَ فهي فجرٌ
على الأكوان ينساح انسياحا
وربَّ حضارةٍ طهُرتْ وطابت
وربَّ حضارةٍ وُلدت سِفاحا
وعلّمتِ المروءةَ فهي عطرٌ
من الفردوس، يسكرنا نِفاحا
وعلّمت العروبة فهي عِرْضٌ
لربّك لن يُهانَ، ولن يُباحا
أساحَ المجد حَسْبُكِ لن تكوني
لغير شبابك المأمول ساحا(١١)

❁ ❁ ❁

وأقف عند قصيدة بعنوان (دمعة على الشاعر عبد الحميد الرافعي). لأشرب من أبياتها قليلاً من رحيق الغوطة الخضراء، وشيئاً من عزة الشعر الذي يقسو على الظالمين ولا يخاف غضبة الظّلماء.

حبذا عهدنا على الغوطة الخضراء
والحسنُ دائم التَّجديدِ
وليالٍ لنا على الربوة المئناف
سكرى نعيمها الموعود
نتهادى على عيون الأقاحيِّ
ونغفو على شفاه الورود
أُنشد الشعر والشبابُ سُكارى
من مُعيدٍ منهم ومن مستزيد

لا أباليُ قد قسوتُ على الظالم
عَسْفَ الدُّجى، وعضَّ الحديد(١٢)

❁ ❁ ❁

وهذه أبيات من قصيدة كتبها الشاعر لحفل تكريمي أقيم لأستاذه مصطفى الغلاييني حيث يُؤَنسِنُ ورود الشام، ويسكرها بخمرة رغابة ونشوة عتابه، ونضرة شبابه:

أتذكر في الشآم لنا عهوداً
معطَّرَةً كأنفاس الكَعابِ
بدمَّرَ لا السّفوح مُعَطّلاتٌ
من الغزل النديّ ولا الروابي
وورود الشام تسكرها القوافي
وتهفو للتوجّع والعتاب
وتطرب للنديّ من المعاني
فتَجْزي بالظلال وبالمَلاب
لئن نضُرَت خمائلها فإني
خلعتُ على خمائلها شبابي
وودّعت الصِّبى فيها حميداً
ورحت أغشّ قلبي بالتّصابي(١٣)

ومن قصيدة البدوي في رثاء الزعيم اللبناني رياض الصلح، وكان لاجئاً سياسياً في لبنان آنذاك. هذه الأبيات التي يعبر فيها عن حنينه لغوطة الشام ويناجيها معتزاً بشعره:

غوطة الشام، هل شجاكِ بيانٌ
من قريضي، كأنه التَّنْزيلُ

وعتابٌ كالجمر صنتك عنه
جَزَعاً أن ينال منك عَذول
كلُّ مجدٍ يفنى ويبقى لشعري
شَرَفٌ باذخٌ، ومجدٌ أثيل

ويعاتب الشام ثائراً ولكن ثورة المحب:

ضنَّت الشام بالوفاء علينا
طَلْعَةٌ سَمْحَةٌ، وودٌّ بخيل
لامنا اللائمون في حبّ حسناءَ
مَلولٍ، وكلُّ نعمى ملول
لا تحاسبْ أخا هوىً في هواه
كلُّ ثغرٍ على الهوى معسول
أيّ بِدْعٍ في ثورةٍ من محبٍّ
قد يثور المقيَّد المكبول
لك مني الهوى، كما رنّح الفجرَ
نسيمٌ من غوطتيك عليل(١٤)

❁ ❁ ❁

وفي عام ١٩٦٢م وكان البدوي في تركيا، إحدى المحطات في اغترابه القسري. تمر الذكرى الثانية لوفاة صديقه فارس الخوري، فيكتب لهذا (الفارس) الدمشقي قصيدة رثائية. أكتفي منها بهذه الأبيات عن دمشق وذكرياته فيها:

يا شآمي، ياقبلة الله للدنيا
ويا راحها المصفَّى العتيقا
أُترعُ الكأس من هواك لِترْوى
كبدي من هواكِ، لا لتذوقا
مزّقيها تَغْمُرْك طيباً ونوراً
لا تَمَلّي الطّيوب والتّمزيقا
للم الفجرُ ذكرياتي دماً سَكْباً
ومجداً غَمْراً، وعهداً وثيقا
للم الفجرُ ذكرياتي، فما للمَ
إلاّ أقاحياً، وشقيقا(١٥)

❁ ❁ ❁

تنقل بدوي الجبل في فترة اغترابه، بعد لبنان، ما بين استنبول، وفينا، وجنيف. وكتب في غربته هذه مجموعة من القصائد التي تتصدر ديوان الشعر العربي.

قد نختلف مع هذا الشاعر الكبير في كثير من الأمور، وخاصة في الأمور السياسية. ولكن لا نستطيع، إذا كنا نحب الشعر ونتذوقه، إلا أن نقف في دهشة وإعجاب، أمام الفنية الشعرية التي يمتلكها هذا الشاعر، والتي تبدو واضحة جلية في قصائد ديوانه عامة، وفي قصائد غربته خاصة. هذه القصائد التي تدهشنا لا، لما فيها من شاعرية فذة، بل لما تتوهج به من حرارة وجدانية. وعاطفيةٍ قومية، وتوجهات إنسانية. وأمامي الآن أربع قصائد لهذا البدوي العجيب، قالها في غربته، (ابتهالات- البلبل الغريب- حنين الغريب- عاد الغريب). وسأعرض هنا ما ورد فيها عن دمشق. ولكن قبل ذلك أرى من المناسب أن أنقل للقارئ ما قاله الأديب أكرم زعيتر عن هذه القصائد.

قـال هذا الأديب في رسالـة وجهها إلى البـدوي: (وعـن أثر ابتهالاتـك في نفسي. تلك الابتهالات التي كاد الكثيرون، يحمدون بسببها ظلم الظالمين، قائلين: نِعْمَ اضطهاد العبقريين، إذا اجتنت الآداب الرفيعة جَنىً كابتهالات البدوي، وحبذا غربة العبقري إذا هو نفح الأدب بمثل (البلبل الغريب) و(حنين الغريـب). فأنت ترى يـا شاعري الكبير أن الناس أنانيّون. وقد يبلغ بهم حب ذواتهم أن يرضيهم ظلم العبقريين. وكم ترنّح بالنشوة أديب، أو متأدّب أو ذوّاقة، وهو يرتل قصائد العبقريين: وهي من بنات محنتهم، وثمرات شقوتهم).(١٦)

والآن لنقف عنـد دمشق في (ابتهالات) البدوي؛

يبدأ القصيدة بهذا البيت المفعم بالحسرة والحنين:

لا الـغـوطـتـانِ، ولا الـشَّـبـابُ، أدعـو هـواي فـلا أُجـابُ

وبعد عدة أبيات من هذا المطلع يخاطب الشام كما يلي:

ياشام، يالِدَةَ الخلود، وضمَّ مجدَكِ انتسابُ
مَنْ لي بنَزْرٍ من ثراكِ، وقد ألحّ بيَ اغتراب
فأشمُّه، وكأنه، لَعَسُ النّواهد، والمَلاب
وأضمُّه، فترى الجواهرُ، كيف يكتَنَزُ التراب
هذا الأديم شمائلٌ، غُرٌّ، وأحلامٌ عِذاب
وأمومةٌ، وطفولةٌ، ورؤىً كما عبر الشهاب
هذا الأديم أبي وأمي، والبداية والمآب

وفي المقطع الأخير يعود لمخاطبة دمشق بما يلي:

يا شامُ، عطرُ سريرتي، حبٌّ لجمرته التهابُ
لكِ مهجتي، وقبولها، منكِ الهديَّة والثواب
والنورُ في عيني، ولا مَنٌّ عليكِ ولا كِذاب
أنـا طـيرك الـشـادي، ولـلأنـغـام مـن كـبـدي انـسـراب(١٧)

❀ ❀ ❀

أمـا قصيـدة البلبل الغريـب فقد جاء مطلعها كما يلي:

سلي الجمرَ هل غالى وجُنَّ وعذَّبا
كفرتُ به، حتى يشوقَ ويعذُبا
ولا تحرميني جذوةً، بعد جذوةٍ
فما اخضلَّ هذا القلب حتى تلهَّبا

إلى أن يقول عن وطنه؛ وعن دمشق وبني أمية ما يلي:

ولي وطنٌ، أكبرته عن ملامةٍ
وأُغليه أن يُدعى -على الذنب- مذنبا
تنكّر لي عند المشيب، ولا قلىً
فمن بعض نُعماهُ: الكهولةُ والصِّبا
ومن حقّه أن أحمل الجرح راضياً
ومن حقّه أن لا ألوم، وأعتُبا
يمزّق قلبي البعدُ عمَّن أحبهم
ولكنْ رأيت الذلَّ أخشنَ مركبا

واستعطف التاريخ ضَنّاً بأمتي
ليمحوَ ما أُجزى به، لا ليكتبا
..ويارب، عزٌّ من أمية لا انطوى
ويا رب: نورٌ وهّج الشرق، لا خبا
وأعشق برق الشام إن كان ممطراً
حَنوناً بسُقْياه، وإن كان خُلَّبا
وأهوى الأديم السَّمْح ريّان مخصباً
سنابله نشوى، وأهواه مجدبا
مـآربُ لي في الـرَّبْـوَتَـيْنِ ودُمَّـر
فمَنْ شمَّ عطراً شمَّ لي فيه مأربا[18]

❁ ❁ ❁

وقـرأ شاعر الشام شفيق جبري قصيدة البدوي، فتأثر بها، ونظم على وزنها وقافيتها، قصيدة دعاها (بلابل الروح)، ومنها:

سلِ الشام من غنّى حماها فأطربا
ومن راح يسقيها الشراب المطيَّبا
فتى الشام غَنِّ الشام عني فإنني
بَحَحْتُ. فهل ألقى من الشعر مهربا؟
فما أنت إلا من عنادل جنةٍ
إذا غرّدت هزَّت ثراها فأعشبا
أخي في القوافي، لا أخي حول مكسبٍ
فما نبتغي في دولة الشعر مكسبا
فغرّد، وغنِّ الشام لحناً يهزّها
إذا قلتَ شعراً هاج منها وألهبا[19]

❁ ❁ ❁

وأشجت قصيدة شفيق جبري وصيفه البدوي، وغـدا إلى ضفة بحيرة (ليمان) في جنيف مرات. وتفتحت قريحته عن رائعة في نحو مئة وأربعين بيتاً دعاها (حنين الغريب) ردّ فيها تحية شفيق بأمثالها.[20]

يبـدأ البـدوي هذه القصيـدة بالتوجه للشاعر شفيق جبري قائلاً:

وفـاءٌ كمزن الغوطتين كريمُ
وحـبٌّ كنعماء الشآم قديم
يلمُّ شفيقٌ كوكباً بعد كوكبٍ
ونسَّق منها العقد، فهو نظيم
ففي كل بيتٍ ريقةٌ أو سلافةٌ
وريحانةٌ شاميَّةٌ ونديم

ويعلـن أنه وإن تغرب عـن الشام جسماً فهـو مقيم بها قلباً وروحـاً، وهو في غربته يصلـي لها، ويصـوم لأجلهـا؛ ويحتضنها بخياله:

تطوّحني الأسفار شرقاً وغرباً
ولكنَّ قلبي بالشآم مقيم
وأسمع نجواها على غير رؤيةٍ
كأني على طور الجلال (كليم)
وما نال من إيمانيَ السَّمْح أنني
أُصلّي لها في غربتي وأصوم
تبادهني عند البحيرة دمّرٌ
وروضٌ على أفيائها وشميم
خيالٌ جلا، لي الشام حتى إذا انطوى
تنازع قلبي عبرةٌ ووجوم

وقرّبها ما شئت حتى احتضنتها
وغابت بحارٌ بيننا وتخوم
وحيَّت من الرَّوْح الشآميّ نفحةٌ
وَلوعٌ بأشتات الطيوب لَموم

ويسرف في حب الشام تقديساً:

ويا ربّ، تدري الشام أني أحبها
وأفنى وحبي للشآم يدوم
وأسرف في الذكرى لأنزح نبعها
ولكنَّ نبع الذكريات جَموم
وفي كل أيكٍ لي على الشام منسكٌ
وفي كل دوح زمزمٌ وحطيم

وفي ختام القصيدة يستغفر الله لأنه اتخذ الشام قبلة له في الصلاة ويغفر الله له هذا الذنب الوسيم من الخيال الشعري:

ويارب، إن سبّحت والشام قبلتي
فأنت غفورٌ للذنوب رحيم
تهلّل عفو الله، للذنب عندما
أطلّ عليه الذنب وهو وسيم(٢١)

❁ ❁ ❁

وأخيراً تصبح الظروف الداخلية في سورية مهيّأة لعودة البدوي. فيعود، ويكتب قصيدته (عاد الغريب). فماذا يقول في هذه القصيدة؟

يحلف بالشام بأنه مازال يحمل بعض الجمرات في موقد قلبه، ولكنه الجمر الذي يعبق بالحب والعطر. ولا غَرْوَ في ذلك، فشاعرنا يحمل في سريرته بردى طول العمر.

وياله من أمر معجز، عجيب. يقبّل هذا الشاعر المدهش أديم الشام، فتلتهب شفاه الحور حسداً. ويبدو أن (شامَهُ) هذه تمتلك ميزة ربانية. فالله جلَّ جلاله، يطلعها على أسرار الروح ويجعل من ترابها مادة لصنع الروح والجسم معاً.

يعود البدوي إلى الشام، ليطلق قصيدته حمامة بيضاء. يعود إلى دمشق ليريح أتعابه في حرارة الدفء من أمومتها. ويغسل أحزانه بنضارة العيش من ربوتها.. ولنقرأ الآن، بإمعان هذه الأبيات، من هذه القصيدة:

حلفتُ بالشام هذا القلب ما همدا
عندي بقايا من الجمر الذي اتَّقدا
لثمت فيها الأديمَ السَّمح فالتهبت
مراشف الحور من حصبائها حسدا
ألملمُ الجمرات الخضر من كبدي
وأستردُّ الصِّبا والحبَّ والكبدا
عاد الغريب، ولم تظمأ سريرته
فقد حملتُ بها في غربتي بردى
قلبي الذي نضّر الدنيا بنعمته
رأى من الحقد أقساه، وما حقدا
مَرَّت عيون العدى والأصفياء معاً
فلست أملك إلا العطر والشّهدا
تفرَّد الله بالأرواح، لا مَلَلاً
جلا، له سرَّها الأعلى ولا بلدا

وميّز الشام بالنعمى ودلّلها
أنا الوفيُّ. وتأبى الغُرُّ من شيَمي
فمن ثرى الشام صاغ الروح والجسدا
كفرانَ نعمة من أسدى إليّ يدا(٢٢)
ضمَّتني الشام بعد النأي حانيةً
كالأمّ تحضن بعد الفرقة الولدا

المراجـــع

١- ديوان بدوي الجبل- دار العودة- بيروت- ط١، عام١٩٧٨، ص٤٣٣.
٢- الديوان، ص٤٤٣.
٣- الديوان، ص٤٦٦.
٤- الديوان، ص٤٦٩.
٥- الديوان، ص٥٢٦.
٦- الديوان، ص٥١٦.
٧- الديوان، ص٥٣٤.
٨- عبد اللطيف محرز، الشاعران بدوي الجبل والمتنبي (مقارنات ومختارات).مطبعة الرائد- طرطوس٢٠٠٢- ط١-ص١٦٦.
٩- الديوان، ص٩٤؟
١٠-هذا التعبير للدكتور طه حسين وصف فيه شعر المتنبي عندما بلغ مرحلة الشباب في كتابه (مع المتنبي)، ص١٣٤.
١١-الديوان، ص١١٤.
١٢-الديوان، ص٢٧٩.
١٣-الديوان، ص٤١٨.
١٤-الديوان، ص٢٤٥.
١٥-الديوان، ص٢٤٧.
١٦-أكرم زعيتر، بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧م، ط٢، ص١٣٤.
١٧-الديوان، ص٧٢.
١٨-الديوان، ص١٦٥.
١٩-نقلاً عن كتاب بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة لأكرم زعيتر، ص١٢٢.
٢٠-المصدر السابق، ص١٢٣.
٢١-الديوان، ص١٨٠.
٢٢-الديوان، ص١٧٠.

الإبداع

شعر :

قصة :

الإبـداع

جُـــذُور

شعر

سليمان العيسى ✻

لِلسِّنديانِ
جُذورٌ في قصيدته
ولِلسماءِ عبيرٌ في قوافيهِ
وللعصافيرِ لَغْوٌ..
كُلّما شَرَدتْ

✻ شاعر العروبة الكبير

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.



حكايةٌ منه.. يَرويها

وتَرويهِ

يقول شيئاً

هو الدنيا بزهوتِها

وتُشعِـلُ الأُفُـقَ

الداجي أغانيهِ

وَيرتمي جَسَداً

غاضَتْ شرارتُهُ

دَعْه إذاً

يتفيأْ غابَ ماضيهِ

سَقَـى العِطاشَ

زماناً

فَهو في ظَمَأٍ

لِحبّـةٍ مـن رمالِ

التيهِ

تَسقيهِ..

دَعهُ ثُمالاتِ عُمْرٍ..

كُلَّما فَرَغتْ

كأسٌ.. سَتُترِعُها نَزْفاً مآسيهِ

❀ ❀ ❀

الإبداع

أنا.. وحبيبتي.. وزهرةُ الياسمين

شعر

محمد منذر لطفي *

أهيمُ بهذا المساء الربيعيِّ.. أهوى الصبَّاحَ..

وأهوى عصافيرَهُ

واللُّحونْ

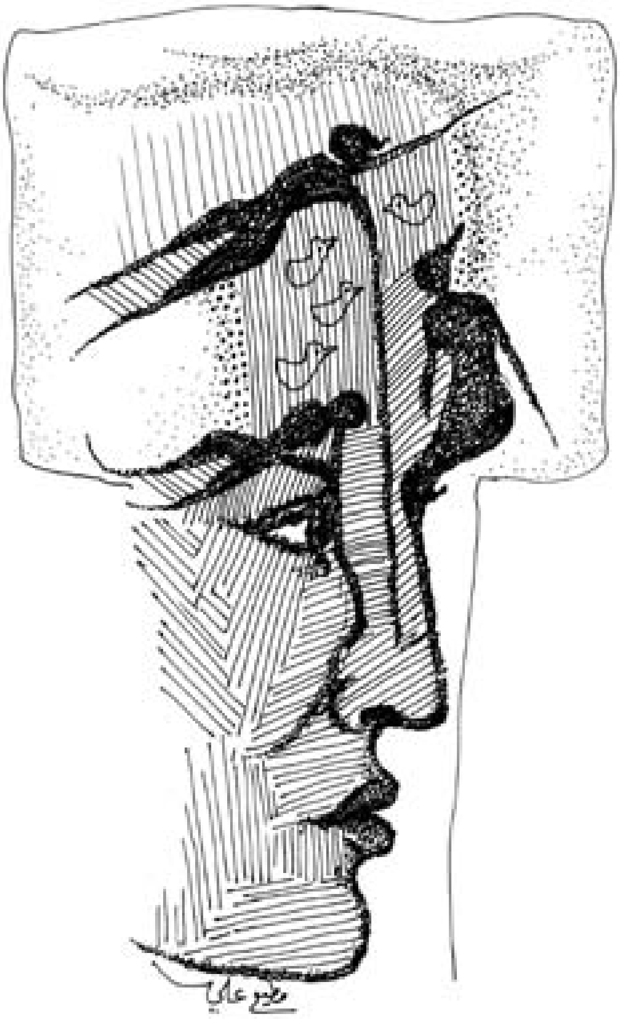
أهيمُ بهذا الجمال الفريد الذي راح ينشرُ عطرَ الوِرادِ..

مع الزَّيْزَفونْ

* شاعر سوري

العمل الفني: الفنان مطيع علي

وأعشقُ سحر ليالي
الربيعِ..
تُضــيءُ قناديلُهــا
بالمَسرَّاتِ..
تَحلــو مساءاتُهــا
بالجمالاتِ..
تَعبــقُ أنفاسُهــا
بالفُتونْ
وتزهــو صباحاتُها
بالزنابــق.. والفُــلِّ..
والياسمينْ
أَهيــمُ بعُرسِــ
الطبيعةِ..
هــذا الــذي وشَّح
الكونَ بالعطرِ..
والسِّحرِ..
والمُغْرياتْ
وأعشقُ نهرَ الجمالِ
الذي راحَ يَعزفُ للحبِّ ما شاءَ من أغنياتْ
وأهوى –لأجلِ حبيبــي المُغرِّدِ بالشعر–
سرْبَ العنادل..



رَفَّ البلابلِ..
شَدْوَ الطيورْ..!
وضوءَ النُّجوم.. وعطرَ الزُّهورْ
لقد عادَ «نَيْسانُ»..

عاد الربيعُ إلى البيت والحيِّ.. بعد غياب
ليالي الشتاءْ
وعاد العبيرُ.. وعاد الضياءْ
وها أنتِ يا زهرةَ الياسمين المُنوِّرِ.. عُدْتِ
تضوعينَ بالطيبِ..
آنَ الصباحِ.. وآنَ المساءْ
تُطلِّين يا أجملَ الزَّهراتِ على بيتنا
الشاعريِّ
بأجملِ لونٍ..
وأبهى رداءْ
فيمتلئُ البيتُ بالأرَجِ «البابليِّ»..
وبالنَّسماتِ العذابِ النَّشاوى..
ويمتلئُ الحيُّ بالطيبِ..
والحبِّ..
والأغنياتْ
فتولدُ في الحياةُ جديداً.. ويولَدُ في
الكون عرسُ الطبيعةِ..
يولدُ في الكون معنى الحياةْ..!

-٢-

ويا زَهرَ الياسمينِ الدِّمشقيِّ.. أنتَ المُتَوَّجُ
بينَ.. الزُّهورْ
وأنتَ المُحَبَّبُ دوماً إليَّ..
وأنتَ المليكُ..
وأنتَ الأميرْ.!
وأنتَ السَّميرُ لدى فاتناتِ «دمشقَ»..
لدى غانياتِ «حماةَ».. «وحمْصَ»..
وأنتَ الأثيرْ
لقد عادَ «نَيْسانُ» يغشى المغانيَ..
عادَ الهوى في العشيَّاتِ..
عاد الهوى في البُكورْ..!
وعادَ إلى الحيِّ نبعُ الحُبورْ
ونهرُ العبيرِ.. وبحرُ الضياءْ
وراح يلفُّ البساتينَ والعاشقين بأبهى
رداءْ
فأين أراكِ حبيبةَ قلبي..؟
وكيف أُعبِّرُ..؟..
كيفَ أبوحُ إليكِ بحُبِّي..؟..
وكيف الوصول..؟..
وأينَ اللقاءْ..؟
وكيفَ تُطِلِّينَ بدراً عليَّ.. على عَتمةِ
العمرِ..
نجماً يضوِّي ليلَ الأسى والشقاءْ..؟

فيرحلُ عن ناظري –بالشذا ..والضياءاتِ
والبوحِ– فصلُ الخريفِ..
ويرحلُ –بالدفءِ والحب والشِّعرِ– فصلُ
الشتاءْ
وتُمحى بعودتِكِ الحُلْمِ..
بالطَّلعةِ المُشتهاة السِّنونَ الظِّماءْ
فيحلو ربيع الطبيعة أكثر..
تحلو أغاني الصِّبا.. والجمالْ
ويحلو لقاءُ الأحبَّةِ.. يحلو الدَّلالْ
ويحلو زمــانُ الغرامِ الجديــد.. وتَحلو
ليالي الهوىَ.. والوِصالْ..!

-٣-

هو العمرُ يمضي بنا للغروبِ..
وأنتِ القريبةُ.. أنتِ البعيدةْ
وهذا ربيعٌ جديدٌ أطلَّ..
وزهرٌ جديدٌ..
وشوقٌ جديدٌ
ودنيا جديدهْ
فعودي مع النَّسمات الغَريراتِ..
عودي مع الياسمين الذي ضاءَ في البيت
مثلَ نجوم السماءْ
ومثلَ العذارى الجميلاتِ..
مثلَ ربيعِ النساءْ
فأنت كنوزُ المفاتنِ.. أنتِ رياضُ الجمالْ
وأنتِ كرومُ الهوى والدلالْ
وإني على الحب باقٍ..
وأغزلُ من ذكرياتي السِّلالْ
لأملأهــا –حين تأتين كوخــي– بأحلى
الثمارِ..
وأشهى الغلالْ
وإني –وإنْ طــال هذا البُعادُ– أظلُّ أحِنُّ
لدفءِ الوصالْ
أحنُّ لتلكَ الدَّوالي العِذابِ..
لنبع الهوى.. وبحار العطاءْ
وأبقى أحنُّ إليكِ..
إلى الحســن والشِّعــر.. والسِّحــرِ.. آنَ
الصباحِ.. وآن المساءْ
وآنَ الغيابِ..
وآن اللقاءْ..!
فأنتِ ربيعي ومعنى حياتي..
وأنتِ نعيمي.. ومنكِ الضياءْ
إذا عُدْتِ بيتي.. يعودُ الربيعُ..

وإنْ غبتِ عنهُ؟..
يعودُ الشتاءْ
وإن غبتِ عني..
يُقيمُ الشتاءْ..!
وإنْ غِبْتِ عني.. يُقيمُ الشتاءْ

الإبداع

قصص قصيرة جداً



قصة

نجيب كيالي *

بين زرقتين:

كلَّ يوم في الصباح والمساء يضع أمامه فنجان قهوة، يتأمل زرقةَ السماء، يبتهــج، ولما رأى زرقة عينيها من نافذة بيته خرج يركض خلفها! لم ينتبه إلى أنــه كان حافياً، وبـ(البيجاما)! لم يسمع تعليقات المارة وضحكاتهم! غابتْ في آخر الطريق، وهو مثلها غاب، وسجّله المختار في عداد المفقودين!

❀ ❀ ❀

❀ قاص سوري

العمل الفني: رشيد شمه.



مصير عروة بن الورد:

وجد عروةُ نفسه في مطلع الألفية الثالثة يتمشى في بلاد العرب، شهق، ما هذا؟ الجوع يقرص البطونَ كأيام الجاهلية! سلَّ سيفه، زمجر:

- أنا أبو الفقراء.

أحاطت به فوَّهاتُ بنادق يسددها إليه رجال وجوههم من نحاس! صاح أحدهم:

- ولك عروة بلا فقراء، بلا كلام فارغ.

أخذوه شحطاً إلى مكان يشبه البئر، وبعد استضافته هناك خرج جائعاً، أجَّل قضية الفقراء مؤقتاً، فتش عن شغل ليأكل، فقالوا له:

- من أين يا حسرة؟! خطط مكافحة البطالة تآمرت عليها دول خارجية.

حاول أن يعمل ممثلاً، لكنهم لاموه:

- ما هذا؟! نبرتك رجولية أكثر من اللازم! الصبايا اليوم يحببن الطراوة، ومعاملنا تصنع المناديل الورقية والعلكة، فكن ليناً كصناعاتنا، طرياً كما تهوى الصبايا، ليناً طرياً، هل تفهم؟

نكس عروة رأسه، أخذ يتلاشى حتى غدا مجرد نقطة حبر!

❀ ❀ ❀

على ورقة رسم:

مرضت أم المدير العام، جاءه الورد محمولاً بالأيدي والسيارات.

في الليل أخذ يقرأ ما فوق الريبان من

عبارات المجاملة.

حاجباه مشغولان، فمه مائل يتمتم: أف..أف.

ألقى نظرةً على أمه في غرفتها. الحمد لله بدأت تتحسن.

دخل إلى غرفة ابنته (يارا)، وجدها نائمة مع لعبتها.

لفت نظره فوق طاولتها ورقة رسم، ابتسم (مُشرقاً)، فقد عرف أنها لـ(وعد) صديقتها. وعد الكتكوتة تهوى الرسم، وعلى الأوراق ترسم أشياء غريبة: جَملاً له أجنحة، قطة لها خرطوم فيل. ترى.. ماذا رسمت اليوم؟

ارتعش المدير العام وهو ينظر إلى الورقة، قرَّب وجهه منها، احتضنها، أسرع بها إلى أمه، في طريقه اصطدم بأحد حوامل الورد، فلم يأبه بإعادته إلى موضعه!

شعشعَ وجه أمه ببريق العافية وهي ترى في الورقة ما يراه:

كانت وعد بقلم أصفر قد رسمت امرأةً فوق سرير، وبجانبها أرنب على صدره سماعة طبية، وبيده حقنة إبرتها ضخمة جداً، وعلى ظهر الورقة مكتوب بخط كبير: (عمو أبو يارا، الله يعافيلك أمك).

بعد يومين خرجت الورود ذابلةً من المنزل، أما الورقة فاحتفظ بها المدير العام بين أشيائه الثمينة.

❀ ❀ ❀

سالم وسليم:

اهتزت السيارة من قوة مناقشاتهما الحزبية! تعطلت فوق السكة التي تمر من الطريق، صفير القطار يأتي من بعيد، وهما يتزاوران!

– سالم من خلف المقود: تفضل: سيد سليم انزل، انظر ماذا جرى للمحرك؟ خبرتك في الميكانيك ما شاء الله.

– سليم: انزل؟! مستحيل.. قبل أن تسحب كلامك الوسخ الذي قلته في حزبنا: حزب الطريق الأخضر!

– سالم: وحضرتك.. ألم تقل كلاماً أوسخ منه ف ي حزبنا: حزب الحقيقة الساطعة؟! عليك أنت أيضاً أن تسحب كلامك.

–سليم: أموت تحت عجلات القطار، ولا أسحبه.

– سالم: وأنا أموت، ولا أسحب كلامي.

صفير القطار يقترب!

– سليم: من حسن الحظ أن القطار قادم من ناحيتك.. أي أنك هاهاها.. ستموت قبلي.

– سالم: معنى هذا أنني أكثر استعداداً للتضحية والفداء.

الصفير يقترب جداً.. جداً!

مرَّ القطار بجسده الثقيل فوق السيارة، سالم وسليم قفـزا في اللحظة قبل الأخيرة، تمزقت ثيابهما، لكنهما عادا إلى المواجهة!

- سليم (بفخـر): علَّمنا حزب الطريق الأخضـر: حزبنا أن نفر في الوقت المناسب، كمـا علمنا أن نكرَّ في الوقت المناسب. عاش حزبنا وحده.

- سالم (باعتـزاز): علَّمنا حزبنا: حزب الحقيقة الساطعـة أن نحافظ على حياتنا لنقلعَ عيونكم. عاش حزبنا وحده.

❁ ❁ ❁

عالم آخر:

نقلَ السمـاءَ إلى قبة روحـه، النسمات والغيوم.

بعضاً من الجداول والأزهار.

شيئـاً من النمل، والهـوام، والحشرات، والوجوه الطيبة.

لهذا حين يتعبـد الله يغوص في باطنه، وحينمـا يحاصـره القساة يرفـع حاجبيه مستهيناً:

- لا يهمّ، عندي هنا كلُّ شيء.

يشـير إلى صـدره، فيضحكـون، وهو يضحك من ضحكاتهم!

❁ ❁ ❁

رَوَاق:

نزلتْ به مصيبة تقصـم الظهر، سألته أمه:

- وماذا ستفعل الآن.

أفلت آهةً من أعماق روحه، قال:

- دعيني أولاً أسمع صوتها لأُرَوِّق.

فتح المسجلة، فجاءه صوت فيروز يتغلغل في خلاياه وفي خلايا الوقت.

❁ ❁ ❁

تعكير دم:

خرج (معين) مـن البيت، عدَّادات رأسه تعمل بصورة جيدة، ودمـه رائق، لكنَّ شاباً أزعر يقود دراجةً نارية أوهمه بأنه سيدهسه وهو يقطع الشارع! تراجع معين، تقدَّم، اختل توازنه، سقط، فارتفعـت ضحكات الشباب من حوله! نهض قائلاً:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

طلب مـن تلميذه في المدرسـة أن يفتح كتاب العلوم، ففتح ساخـراً كتاب القواعد، هـمَّ بأن يلكزه في صدغه، لكنه تذكر أن أباه رجل تنحنـي أمامه الرقـاب، فبلع غضبه متمتماً.

- لا حول.

في البيـت وضع رِجلـه في ظهر همومه رغـم طبول الحـرب في الأفـق، تناول مع زوجته طعاماً متواضعاً، شرب معها الشاي،

أحاط عنقها بذراعه، قال:

- اللهــم اجعل هذا البلــد آمناً حتى لو متنا فيه من الجوع.

امتلأت السماء فجأة بطائرات معادية، أفرغت من تحــت أجنحتها جحيماً من نار ونحاس ودخان.

سعى جاهــداً أن يقول: لا حول، لكنه لم يجد متسعاً من الوقت!

❀ ❀ ❀

موسيقا الألوان:

نفخ عازف الوتر صدره، صاح:

- أنا مَلكُ الأنغام، أنا.. أنا.

وأطلق نغمةَ تحدٍّ.

سَمعه الربيع، فقبَّله بشفاه نسمة، قال:

- سأهديك يا صديقي موسيقا مختلفة.. موسيقا لا تسمعها الآذان.

تمتم العازف.

- موسيقا لا تسمعها الآذان! الظاهر أنَّ عقلك مشوش أيها الربيع!

ابتسم الربيع قائلاً:

- تمهل، وانظر.

كانت الأرض معرضاً لا محدوداً لفصائل النبــات وألوانه مــن الأخضــر، والأصفر، الليلكي، والأزرق، و..

بحيرة هارموني فتحت ذراعيها للألوان وتدرُّجاتها، والمويجات فيها تتلوى وفق إيقاع عجيب، بعضه قرار، وبعضه جواب!

لحنٌ أخفت من خافت ينداح في القلوب، ولا تسمعه غير الأبصار!

- آااه!

سَكِرَ العازف، صفَّق، ثم صار تلميذاً في مدرسة الربيع.

❀ ❀ ❀

باب الله:

جلس تحــت القبــة اللامتناهية مجرد نقطة في ملكــوت التراب، كلُّــه يرشَحُ نحو الأعلى بدموعه ومآسيه.

- سيدي.

قال النور:

- تكلَّمْ.

- آه.. يا مولاي أفكِّر في العلة الأولى لكل ما يجري فوق الأرض من أهوال.. نحن؟ أم الزمــان؟ أم الطينُ الذي جبلتنــا منه؟ أم.. أستغفرك لما يخطر في بالي.

صمت النــور، خاف الجالســ، ظن أنه غضب، فانكمش حتى يكاد يذوب! لكنَّ يداً حانيةً لمستهُ، وفي أذنه ارتسمت كلمات:

- اشرب مزيداً مــن ماء الحيرة لتعرف الجواب. اشربْ.. اشربْ.

الإبداع



المرفـــوض

قصة

عمر الحمود*

الفراغ قاتلٌ وممقوتٌ إلى حدٍ لا يتخيّله إلا العاطلون عن العمل.

سنـــةٌ ثقيلة مـــرّتْ بشهورها الطويلة وأيامها المريـــرة بعد حصولي على الشهـــادة الثانوية، كرهتنـــي فيها جدران غرفتي الأربعـــة ونفرت مني أزقة الحارة ومقاهي المدينة ومحلاتها وبيوت الأصدقاء.

لم ألتحـــق بالجامعـــة، معـــدّل درجاتي التـــي حصلت عليهـــا لا يؤهلني لدخـــول جامعةٍ عامة، ودخول الجامعة الخاصة ضرب من المستحيل بالنسبة لأمثالي.

ولم أرضخ لقدري، واجهته بأسلحتي المتواضعة، ركضت مع أفواج العاطلين

* قاص سوري

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

عن العمــل وراء مسابقات التوظيف السرية والعلنيــة، ولا يهمني نوع العمل أو مردوده، أريد عمــلاً أحقق به وجــودي، هناك من قال:

(أنا أفكر، فأنا موجود).

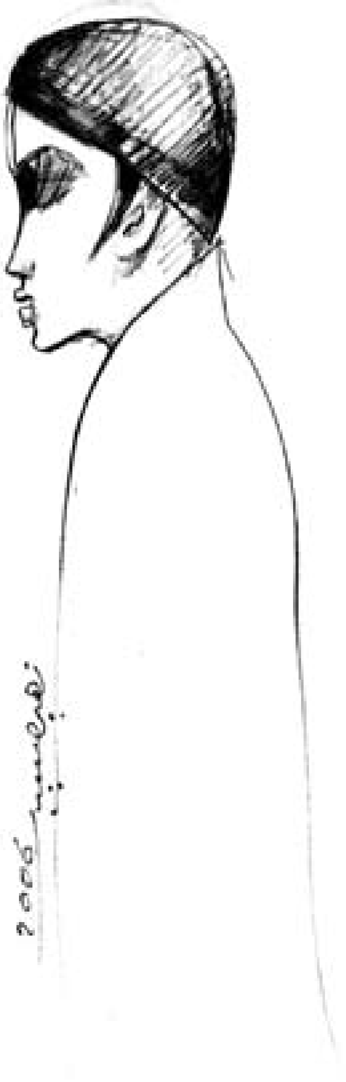
وأنا أقول: أنا أعمل، فأنا موجود.

وآمــل أن أجد فرصــة عمل في مركزكم تبعــد عني شرّ العوَز وفتــك الجوع ونوبات الجنون.

هذا جــوابٌ كتبته لســؤالٍ في استمارةٍ قدّمهــا لي المركــز الخاصــ للاتصــالات الحديثة، تقدّمْتُ إليه مع المئات من الشبّان الباحثين عن العمل.

ووجــد جوابي من يقرأه، وأصبحْتُ من الناجحــين في الفحص الكتابــي، فرحْتُ، وعــادت إليّ ثقتي بنفســي، فالدنيا مازالت بخــير، ووالدتي راضيــة عني كمــا يُقال، فالمركــز هــو المركــز الأول في المنطقة، إنه مركزٌ عصري تموّلــه مؤسسة غربية كبرى، يدرس سُبــل تطوير الاتصالات في المنطقة، وما يهمني فيه أنه يخلق فرص عمل للشبان العاطلين عن العمل من جيلي.

وعنــد الفحصــ الشفهــي أو المقابلــة كمــا يسمونهــا، عرفــت أني ناقص حظ، وأني منحوسٌ منحوس، فمدير المركز يرأس اللجنة الفاحصة التــي تقيّم المتقدمين من نواحٍ عديدة كسلامــة النطق ولياقة الجسم



وحسن المظهر العام، ولم أكن مرناً كما يريد، قلت رأيــاً أزعجه، فخســرت فرصة العمل التي وصلتّ إلى اليد، خطفها الشيطان كما تقول أمي.

دخلــت إلى اللجنــة في دوري، لفــت

نظري كثرة الشعارات العلمانية الملصقة على مداخل القاعة، وحبال اللاقطات العالية وضجيج أجهزة الكمبيوتر والتسجيل والهواتف الثابتة والمحمولة فيها، ولباس أعضاء اللجنة الذي يحاكي آخر ما توصلت إليه دور الأزياء الغربية، قرأ المدير إجابتي في الاستمارة، وكرر عباراتٍ منها قبل أن يرفع رأسه نحوي: واجهْتُ قدري بأسلحتي المتواضعة ... أنا أعمل، فأنا موجود.

و قال لمرؤوسيه: قولٌ رائع، قولٌ يناسب روح العصر.

وعدّل ربطة عنقه، ووجّه بصره نحوي، توقف عند لِحيتي الخفيفة، ولباسي البسيط الفضفاض، مدّ شفته السفلى مع هزّة من رأسه، وتحدث: أرى عليك مظاهر بالية لاتليق بالعصر.

و قبل أن يسمع جوابي شنّ هجوماً عنيفاً على كل الصلات التي تربطنا بالماضي، واعتبر الماضي سبباً لكل مصائبنا السابقة والحاضرة والتي ستحدث مستقبلاً.

وأيده عضوا اللجنة، وأضافا: إنْ لم نحولْ أنظارنا وقلوبنا إلى العالم المتحضر، فلن نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، راجعْ ما يكتَبُ في الإنترنيت عن تراثنا وتاريخنا وماضينا، وستتبرأ من الماضي حتماً.

قاطعتهما: من كان في مثل وضعي لا يملك حاسوباً، ولا يستخدم الإنترنيت.

ابتسما بعجبٍ، جاريتهما في الابتسام، فهما معذوران، يعيشان في بحبوحة العيش، ولا يعلمان بأحوال قاع المدينة وأطرافها.

و راحا يبحران في يمّ حضارةٍ أنجزت الإنترنيت وغيره، ويمجّدانها تمجيداً اختلطت فيه مفردات عربية ومصطلحات أجنبية مع مفردات من اللهجة المحلية، ويدعوان لنسف كل شيء، وبناء مجتمع حداثي يطابق مجتمعها.

فعادت إليّ صراحتي المعهودة، وقلت: لكل مجتمعٍ خصوصية، ولايعني هذا النوم على وسائد الماضي، أو الارتماء في أحضان العالم المتحضر، علينا أن نأخذ مايناسبنا من هذا ومن ذاك، ونبني علاقة ندّية مع الآخر، ووفق هذه الرؤية لن يتركنا الركب في آخره، ولن نذوب في أوله.

فهمس المدير للعضوين همسة التقطتها أذناي: مرفوض.

وقال لي: مصيبة إن اعتنق جيل الشباب فكرك، كيف تتطور البلد بفكرٍ سلبي، يقدس السالف والأسلاف!.

ولو سمح له الوقت لاتهمني بالتخلف والقصور العقلي، أو بالانتماء إلى تيارٍ ماضوي متشدد.

لمتُ نفسي، ولعنْتُ لساني، وحلقت لحيتي، وارتديت ملابس عصرية، عثرت عليها في سوق الألبسة المستعملة، ورجعت

أفتش الصحف بحثــاً عن إعلانات فرص العمل، وعثرت على إعلانٍ يسرّني، وتقدمت إلى المركز الخاص لإحيــاء التاريخ، وملأت استمــارة المعلومات بــكلامٍ معاكسٍ للكلام الــذي ذكرتــه في استمــارة مسابقة مركز الاتصــالات كي لا أُلدغ مــن جحرٍ مرتين، وقلــت: الفراغ مفسدة، وبوابــة من بوابات الانحراف، ومنــذ أن حصلت على الشهادة درتُ أبحث عن عملٍ يدرّ علي رزقاً حلالاً، ويشغلني عن تتبع عيوب الناس، وسأجد هذا العمل إنْ كتب لي قــدري ذلك، فالمرء مهما تحرر، وارتفع، يحكمه، ويسيّره القدر.

ووجــدَ من يقــرأ هذا الجــواب، وكان اسمي مــن الناجحين الأوائــل في الفحص التحريري، فرحْتُ، وعــاد إليّ الأمل بحياةٍ سعيــدة، فالمركز مــن المراكــز المحدثة في المنطقة التي تهتم بالتاريخ والتراث، وتموله دولــة غنية، ومايهمني فيه خلق فرص عمل للعاطلين عن العمل من جيلي.

وعند الفحصــ الشفهــي عرفت ثانية أني ناقص حــظ، وأنّ النحس يصلني، ولو صعــدّتُ إلى بروجٍ مشيّدة، فمدير المركز هو رئيس اللجنة الفاحصة، يقيّم المتقدمين من نواحٍ عديدة، كسلامة النطق ولياقة الجسم وحسن المظهر العام ولم أكن مرناً كما يريد، قلــت رأياً أزعجه، فخســرت فرصة العمل التي وصلت إلى اليد، خطفها الشيطان كما تقول أمي.

واقتنعْــتُ أنّ الاختلاف في الرأي يقود إلى الخلاف إنْ لم تكــن الأطراف المتحاورة على قدرٍ من الوعي.

دخلْتُ إلى اللجنة في دوري، لفتَ نظري كــثرة الشعــارات التاريخيــة الملصقة على مداخــل القاعة ولباس أعضاء اللجنة الذي يحاكــي الموديلات الكلاسيكيــة، وأذهلتني القاعــة المزينــة بنقوشٍ وزخــارف عربية ولوحاتٍ من خشبٍ محفور، قرأ مدير المركز إجابتــي في الاستمــارة دون أن يرفع رأسه، وكرر عباراتٍ منها: أريد عملاً يدرّ عليّ رزقاً حلالاً، ويشغلني عن تتبع عيوب الناس..

وقال لمرؤوسيه: قــولٌ رائع، قولٌ يناسب روح الشرع والاستقامة..

ونظــر إليّ، توقف عنــد ذقني الحليق، ولباسي العصــري بلونه الزاهي، وقال: أرى تشبهاً بالغــرب ولهاثاً وراء بدعه الحداثية، وإهمالاً لماضي الأمة المجيد.

وعــدّ الحداثــة وتقليــد الغــرب سبب مصائبنا الماضية والحاضرة والمصائب التي ستحدث مستقبلاً.

وقبــل أن يسمــع تعليقي أيــده عضوا اللجنة، وقرأا في لباسي إشاعة للغواية.

قلــت لهما: أعداد الشبــان التي ترتدي مثل هذا اللباس لا تحصى في البلدة.

ابتسما بغرابــة، جاريتهما في الابتسام،

ولم أعتــب عليهما، فهمــا يعيشان في عزلة، ولايعلمان بأحوال البلدة !.

وأضافــا: إنْ لم نحــب تراثنــا، ونحوّل أنظارنــا وأفعالنــا إليــه، سنفقــد هويتنا، ويلتهمنــا الغرب بين ليلــة وضحاها راجعٌ مانشَره السابقون عــن الغرب من فضائح، وستنفر منه حتماً.

واستخدما لغة المعاجم، وراحا بعيداً في تصوراتهما وأحلامهما عن مجتمعٍ محافظ، يأسره الماضي بــكل تابواته، ولايلوثه الغرب المشحون بالفحش والإباحية وصراع المصالح والمطامع.

فدفعتني صراحتي المعهودة إلى القول: لا يمكن العيش بعيداً عن العالم، علينا أن نأخذ منه ما يساعدنا في اللحاق بركب الحضارة مع الاعتزاز بجوانب تراثنا المشرقة والحفاظ على روحانيتنا وثقافتنا وقيمنا.

فهمس المدير للعضوين همسة التقطتها أذناي: مرفوض.

وقال لي: مصيبــة إنْ فكّر جيل الشباب مثلك، وسُحِر بالآخر، كيف نبني البلد برؤية هدّامة، تنزع القداسة عن قيمنا.

ولو سمح لــه الوقت لاتهمني بالانحلال والخلاعــة، أو الانتمــاء إلى تيــارٍ علماني متطرف.

وخسرت فرصــة العمل، ولمــت نفسي، ولعنت لساني وصراحتي التي جعلتني لا أكيّف أجوبتي مــع هوى السائل، أو أستعطفه، ولم يستمر اللوم مدة طويلة، فالمركزان السابقان ضعُفَا، وأُغلقا بعــد منافسةٍ شديدة بينهما وخلاف جرّ عليهما الإفلاس.

وعــدْتُ إلى تفتيشــ الصحف بحثاً عن إعلانات فرص العمل، ووجدْتُ في إحداها إعلاناً عــن فرصة عمــلٍ في مصنعٍ أهلي، يسعــى إلى وضع الرجــل المناسب في المكان المناســب، فركضت إليه، وحمدت الله لعدم وجود استمارة، أضع فيهــا إجابة، وأضطر بعدها إلى المحاورة، فأحصد الخسارة، ولكن ماكان ينتظرني أدهــى وأمر، فهناك دراسة تجمّــعُ فيها معلومات عــن المتقدم، وجاءت بإشــارةٍ تشير إلى علاقةٍ مزدوجة تربطني بمركــزٍ غربي التوجه وبمركــزٍ آخر شرقي التوجه، وتضع استفهاماً حول هذه العلاقة وذلك النهج المذبذب كمــا وسمته، وأنتجتْ هــذه الإشارة تأويلات وحــوارات، وضعت كلمــة (مرفوض) أمــام اسمــي، التقطتها عينــاي أثنــاء المقابلة، وجلبــت لي خسارة جديدة، وعدْتُ إلى عادتي، أفتش الصحف بحثــاً عن إعلانات فرص العمل، ولا يهمني هذه المرة إنْ كانت ضمن البلد أو خارجه.

آفاق المعرفة

آفاق المعرفة

المفردة العربية بين ضرورة الاستعمال وجمال الصياغة

د.فايز حداد*

لقد اتسمت اللغة العربية بسمات وخصائص تجلّت فيها مكانتها الكبيرة بــين لغات البشر وأن كثيراً من هذه الصفات انفردت بها هذه اللغة الكريمة التي جعلها الله لغة كتابه الكريم [١]، واللغة كل لغة إنما هي نظام ينسجم في وجود إنساني ويتجمع في موروث اجتماعي وكيان أدبي عبر عصور متعاقبة، وحسبــك أن تعلم أن العربية كانت طوال قرون عدة لغة العلم والحضارة في العالم المتحضر.[٢]

* أديب وناقد سوري

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

وقد صورت العربية بوضوح بانتشارها وحيويتها تاريخ الأمة وآدابها إذ حملت لنا أريج الأسلاف الذين تركوا لنا تراث البشر، وأن كثيراً من هذه الصفات انفردت بها اللغة الكريمة التي جعلها تعالى لغة كتابه الكريم [٣]. وحسبك أن تعلم أن اللغة العربية كانت ذخراً لا يمكن أن نفرط به أو نقصر في نقله إلى من يأتي بعدنا، والناظر في تاريخ الأمة يجد أن هذه العربية درجة في مراحلها التاريخية حتى اكتملت قوتها فوقفت عند شباب دائم لا يشيب بل يتجدد شبابها على هرم الزمن، وذلك بما استكن في طبيعة تكوينها من القوة التي تعطيها الحياة الدائمة.. بصيرورتها عمود القومية، ولسان مفاخرها، ومآثرها في الوجود، ثم نزل بها التنزيل لتكون عمود الدعوة العظمى، ولسان الشريعة والعقيدة والحضارة والفكر وانساحت مع العظماء والفاتحين العرب، في طبقات الأرض شرقاً وغرباً[٤] ثم نشطت في زماننا هذا فإذا هي لغة حية غنية بل إنها امتلكت كل أسباب الغنى والقوة والثراء، على نحو انبثق عنه في نفس القائمة بصورة عفوية تلقائية شعور عميق بأن هذه اللغة الفصحى ما تزال صالحة للحياة والحضارة[٥].

وكان حرص العربي على حياة لغته وقوتها وسلامتها، أمراً عاماً معروفاً، كما اعتز بها العلماء ومنحوها عناية فائقة، لتظل صحيحة نقية مهما زاغت الألسن عما كانت عليه من فصاحة ونقاء، أو كثر اللحن، واستشرى بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأمم، قال الزبيدي (ت٣٧٧هـ) ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها، وماضي جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان فدخل الناس فيه أفواجاً، وأقبلوا إليه أرسالاً، واجتمعت عليه الألسن المتفرقة واللغات المختلفة [٦]. ولقد ظلت أبصار العلماء مشدودة إلى المستوى اللغوي الذي نزل به القرآن الكريم من العربية فهو المثال الدقيق، والصورة الأرفع لما يمكن أن تكون عليه لغة تقوم على أساس موضوعي من الحس والتبصر والذوق والرهافة و«نعرف من حيث هي أثر لغوي صورة فذة لا يدانيها أثر لغوي على الإطلاق».[٧]

وقد منح هذا الحال سمع العربية قدرة فائقة على الحكم على النصوص والتصرف في توجيه الاشتقاق «فاكتسبت تلك الأذان المران والتمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة، وأصبحت مرهفة تستريح إلى كلام حسن وقعه أو إيقاعه [٨]، ولقد وازنت العرب بين ألفاظها، وقابلت في ذلك

بين أوزانهـــا، ووقفت على موازن الاستثقال والاستخفـــاف منها، بحس لغوي بين، ووعي ظاهـــر وفي هذه يقول ابن جني : فإن قلت : من أين يعلم أن العرب قد راعت هذا الأمر واستشفتـــه، وعنيت بأحوالـــه وتتبعه، حتى تحامت هذه المواضيع التحامي الذي نسبته إليها، وزعمته مرادا لهـــا؟.. وما أنكرت أن يكـــون القوم أجفى طباعـــاً وأيبس طيناً في أن يصلـــوا في النظر إلى هذا القدر اللطيف الدقيق الذي لا يصـــح أحد منا أن يتصوره إلا بعـــد أن توضح أنحاؤه، بـــل أن تشرح له أعضـــاؤه ؟ قيل له. هيهـــات ما أبعدك عن تصـــور أحوالهـــم وبعـــد أغراضهم، ولطف أسرارهم، حتى كأنـــك لم ترهم وقد ضايقوا أنفسهم، وخففوا عن ألسنتهم.[٩]

والعربية لم تعـــرف في تاريخ أهلها الذي سبق الإسلام أي لون من الضبط والتعقيد، وإنمـــا كانت تنطق عن الفطـــرة والسليقة.. والقياســـ الذي صـــار مصطلحاً علمياً بعد جمع نظام اللغـــة كان يعني عند أهلها قبل أن يخالطوا غيرهم قدرتهم الفذة في ترتيبها وتنويعهـــا وسيطرتهم على أوزانها، وقوالبها الدقيقـــة الجميلـــة، ونزوعهـــم إلى التغيير لإيجـــاد نمط مـــن التقابـــل والانسجام، إذ كانـــوا يمتلكون في هذا ملكـــة نقدية خاصة تعتمد سليقـــة لغوية أصيلة، فلما سعى أهل العلم إلى تأصيـــل قواعدها وجمع دقائقها، وضبطوا ظواهرها بعـــد استقرائها كشفوا لنا أن لها نظاماً فريـــداً ونمطاً خاصاً لأنه «نظام يكشف عن حقائـــق اللغة وأسرارها، ويعين بتحديد قاطع أن الحالة الخاصة بكذا توجب أن يكون فعلها من هذا الباب»[١٠] وأن يكـــون المشتق على هذه البنية وتلك الصفة، فكثرت أبنية اللغة، وتعددت مبانيها لارتباط ذلك بالمعاني أي أنها مـــن اللغات المتصرفة التـــي تتغير معانيها بتغـــير أبنيتها[١١]، فلما استكـــثرت من الألفـــاظ بالوضـــع جنحت إلى الصيـــغ والمخالفة بينها مـــا أمكن فهي «تميل إلى كثرة الأشـــكال والفتن في الصيغ الكثيرة».[١٢]

ولقـــد دلتنـــا النتائج التـــي كشفنا عنها بالاستقـــراء والتتبـــع أن عماد هـــذه اللغة ومرتكزها الأساســـ، ومقومها الأصيل إنما يرجع إلى السماع عن أهل اللغة وإن لم يهملوا القياســـ في حال الكـــثرة والغلبة، فإن الذي يـــؤول إليه الأمر في إيجـــاد الحكم وضبط النظام، وهو رأي أهل الكلام، والقياس ربما كان نافـــذاً قوياً من باب بعينه حتى قال ابن جني : «أعلم أن من قوة القياس عندهم من كلام العرب نحو قولك في قوله (كيف تبني



من ضرب مصـــل جعفر)» ضريب هذا من كلام العرب، ولـــو بنيت مثـــل ضبرب أو ضـــورب أو نحـــو ذلـــك لم يعتقد من كلام العرب لأنه قياس على الأقل استعمالاً والأضعف قياساً[١٣]. وأنت ترى أن سبب هـــذا النفاذ وتلـــك القوة عنـــده الكثرة والتمكن وهو محكوم برأي العرب، ولهذا قال ابن جني في خصائصـــه: «أعلم أنك إذا أداك القياس إلى شيء مـــا ثم سمعـــت العرب قد نطقـــت فيه شيء آخر مثل ما أجزتـــه فأنت فيه مخير تستعمـــل أيها شئـــت، فإن صح عندك أن العرب لم تنطق بقياسك أنت كنت على ما أجمعـــوا عليه»[١٤]، ويفهم من كلام ابـــن فارس أننا حين نقول غيرما قالوه أو نقيس قياساً لم يقيسوه، فإننا نفسد اللغة ونبطـــل حقائقها[١٥]. ونحـــن لا نستطيع أن ننكر أن القياســـ قانون لغوي، وأصل مسلّم به مـــن أصول هذه اللغـــة المحكمة، غير أن العلماء منـــذ نشأة علوم اللغـــة ربطوا هذا القياس بالسماع ووازنوا بينهما بميزان دقيق، وذهبوا إلى أنـــه أي القياس محكوم بضابط آخر يسميه الخليل (العدل) وهو صرف أهل اللغة للفـــظ أو الاشتقاق إلى جهة يريدونها قـــد لا تكون هي الجهة التـــي يفضي إليها القياس، جاء في كتـــاب سيبويه عن الخليل قوله : كل شيء في ذلك عدلت العرب تركت على ما عدلت عليه، وما جاء تاماً لم تحدث العرب فيه شيئاً فهو على القياس [١٦]، وقال

سيبويه: أعلم أن ليس كل حرف يظهر بعده الفعل يحذف فيه الفعل، ولكنك تضم بعد ما أضمرت فيه العرب من الحروف والمواضع، وتظهر ما أظهروا، وتجري هذه الأشياء على ما أجروا فقف من هذه الأشياء حيث وقفوا ثم قس بعد[١٧]، ثم إن في كلام العرب اقيسة منعوها، ومفردات لم يستعملوها، ومواد لم يأتوا بكل ما يمكن أن يشتق منها، إذ المشتقات فيها لا تجري على نسق واحد، والعربية لغة مشتقة والاشتقاق من أظهر صفات فقهها ولكنها قد لا تستعمل هذا ا المشتق أو ذاك وإن كان القياس يوصل إليه لكن العرب لم تنطق به، ونحن عند استقراء مواد اللغة وتتبع أحوالها نقف على الشذوذ والندرة، والقلة والكثرة، وكان لهذا أثره الواضح في وضع قواعد القياس، والحكم بصحته وربط كل ذلك بمقدار الاستعمال ومداه في ضوء ما بلغ من شواهد الاستعمال في كلام أهل اللغة، فقد يخبرنا أهل العلم مثلاً أن هذا الفعل (مات) وهم يريدون به في الأكثر الفعل الماضي الثلاثي الذي لم يؤثر استعماله عن العرب مع ورود مضارعه، أو أحد مشتقاته مستعملاً في لسانهم كما يراد به أيضاً ذلك الأصل الثلاثي المفقود لكلمة فصيحة مأثورة يزيد عدد حروفها في الأعم الأغلب على ثلاثة أحرف».[١٨]

ويبدو أن هذه التسمية وردت في معظم معجمات العربية نقلاً عن الخليل فهو أول من افترض وجود هذا الفعل جاء في (العين) قال الليث. سُئِل الخليل عن نصب (مرحبا) فقال. فيه كعين الفعل أراد أنزل أو أقم، فنصب بفعل مضمر فلما عرف معناه المراد أميت الفعل[١٩] «ومن ذلك أيضاً ترك استعمال (ودع) ثلاثي (يدع) و (وذر) ثلاثي (يذر) إذ يبدو أن العرب استغنوا عنها كما تركوا غيرها، وفي هذا دليل على أن المسموع هو الأصل وأن العربي يجد جمال لغته، ويحس حسن ألفاظها ويتذوقها ويدرك دقائقها سليقة وطبعاً، فيرتبط بذلك فاستعصت هذه اللغة الشريفة، الكريمة، اللطيفة»[٢٠] على الجمود والعسر، وقويت واستغنت. ولعل منهج العرب في اشتقاق مصادر الفعل الثلاثي أول المظاهر اللغوية التي تلقاها غنية متنوعة في هذا المجال إذ كيف نستطيع أن نلم هذه المصادر الكثيرة على نمط واحد مع أن الفعل من باب واحد تتشعب أقيسة مصدره عن أوزان، وأبنية متعددة، فإن العرب إذ تتوسع في لغتها بالاشتقاق وتنويع صيغه إنما تتصرف بحرية تجري مع غريزتها اللغوية في إقامة دلالات الألفاظ على المعاني ورموزها عن الفروق التي تميز معنى عن معنى».[٢١]

ومن المفيد أن نذكر هنا أن أهل الصرف يقولون: «والمصدر لا يدرك إلا بالسماع»[٢٢] وهذا يعني أن متعلم اللغة يلزمه ما جاء للفعل من مصادر، ويأخذ بما وردت به الرواية في ذلــك، وأن يدقق في هذه صيانــة للعربية، وعصمة للسانه من الخطأ، ولا ينبغي له أن يعول على القياس فيحصر أبنية هذا المصدر في قوالب عامــة تقوده إلى العنت والتعسف فمــن ذلــك ما يــتردد في طائفــة من كتب التصحيــح اللغوي في أننا يصح لنا أن نأخذ بالقياســ فنقل كلمة (نضوج) مصدر للفعل (نضج) مع أنه يرد في معجمات العربية التي وقفت عليها هذا المصدر؟ قال في الصحاح : نضج التمــر واللحم نضجــاً ونضجاً أي أدرك فهو نضيج وناضج وأنضجته أنا»[٢٣]. وفي اللســان : نضــج اللحم قديــد وشواء، والعنب والتمر والثمر ينضج نضجاً ونضجاً أي أدرك، والنضيج الاسم يقال: جاء نضيج هذا اللحم[٢٤]. فهذه الكتب المعتمدة وغيرها مراجعنا في الرواية، وليس لباحث أن يذهب إلى أنهــا أغفلت هذا المصدر المعروف اليوم وهو (النضوج) فإنــه يصعب التصديق بأن هذا لفظ قــد روي حين لم يرد ولا في أصل واحد من أصول اللغة ومعجماتها، فإن اللغة رواية، ولهذه الرواية شروط منضبطة ولقد أدرك العــرب قيمة مــا توارثوا فكانت للغة عندهــم منزلــة عرفها القاصــي والداني، وكان لنقلها عندهم شروط، وللاحتجاج بها شروط، ولروايتهــا صفات وكانوا يتحرجون ويدقــون صيانة منهم لحرمــة اللغة، ونأيا بألسنتهم عن الخطأ بها[٢٥]. ولهذا لا يعول على قول بعض المعاصرين بعد أن استعرض آراء طائفــة من أهل اللغة ومنعهم استخدام كلمة (نضوج) فقال: يخطئ من يقول : نضج العنب نضوجــاً بحجة أن الكلمة (نضوج) لم تسمــع عن العرب مصــدراً للفعل نضج بل سمع: النضــج، والنضــج والنضاج ولكن لم يرد هذا المصدر (النضوج) في المعاجم فإنه قياســي لأن الــوزن (فعول) يطــرد مصدر الفعل الماضي الثلاثي اللازم المكسور العين إذا دل على معالجة نحو : قدم قدوماً، صعد صعــوداً، لصق لصوقــاً، أزف أزوفاً، وعليه صحّ أن تقــول: نضج نضوجاً [٢٦]، ولا يقنع في هذا أيضاً قول الآخر لأنه لم يعتمد شيئاً ســوى القياس حين صرح بجــواز استخدام (نضوج) فقال. استعمــال النضوج مصدراً للفعل نضج فهــذا المصدر إن لم تنص عليه المعاجم مصــدر قياس وهــذا الوزن يطرد مصدر الفعل اللازم إذا كان علاجاً، ووصفه على فاعل نحو : قدم قدوماً، وصعد صعوداً،

وأزف أزوفــاً، ولصق لصوقاً [٢٧]، وهو كلام يشابه سابقه في الاستدلال والمثال.

ولقد جاء في كتــب الصرف : وأما فعل بالفتح اللازم فقياس مصدره (فعول) بضم الفــاء قعد قعــوداً، وجلســ جلوسا ونهض نهوضــاً ما لم تعتل، وإلا يكون على فعل بفتح فسكون أفعال كقيــام أو فعالة كنياحة، وما لم يــدل على امتنــاع وإلا فقياســ مصدره فعال. بالكسر كأبى إباء أو على تقلب فقياس مصدره فعلان بفتحــات كجال جولان[٢٨]. وهكــذا فــإن أوزان هذا المصــدر تختلف اختلافاً كبيراً ويرى د.فاضل السامرائي أن هــذا التعدد راجع إلى سببين هما، اختلاف لغات العرب واختــلاف المعنى وعنده سبب مهم فقد يكون لأحد المصدرين معنى يختص بــه لا يستعمل لــه المصدر الآخــر أو يكثر استعمالــه فيه [٢٩]، ويمكــن أن نضيف إلى ما ذكــر سبباً آخر هــو أن أهل اللغة قد لا يرتضون طائفة من الألفاظ، وإن قاد القياس إليها لأنها غير داخلــة في اختيارهم ولعدم انسجامهم مع ذوقهم العام، فإذا أقحمنا ما لم يرد في اشتقاقهم خرجنا على هذا الذوق، حملنــا اللغة على غــير مسارها فــإن لها نظاماً، ومنهاجاً، يدلان على عبقرية ومرونة والناطق بما يقصدون إلى إهماله ناسج على غير منوالهــم، وناطق بغــير منهجهم، هذا ومذهب جمهور أهل اللغــة فالقياس الذي تطمئن إليــه النفس، ويتفق مــع حال هذه اللغة قبولاً لتصــرف العرب، وإظهار دقائق كلامهــا، وليســ العبر في شيــوع الكلمة في زماننا فإن العربيــة المعاصرة تعرف ككلمة (رهيب) مثلاً ويكــثر استعمالها فهل عسانا نقبلهــا حملاً على القياســ وهي لم ترد في العربية، ولم تذكرها معجماتها.[٣٠]

والذين اعتنوا بالقياس والنظر فيما يعد مــن صلب كلام العرب، ومــالا يعد لم يثبتوا شيئــاً إلا بعد الاستقــراء التام، ولا نفوه إلا بعد الاستقراء التام [٣١] وهو لا يستمد أثره أو قوتــه إلا من التشبيه والصنعة، إذ يقاس الشيء على الشيء إذا كان علة حكم الأصل موجودة في الفرع، وقد يشبه شيء بآخر مع عدم وجود العلــة في الفرع، ولهذا ذهب د. تمــام حسان إلى أن القياس أشبه باستخراج الأحــكام الفقهية فيه ويمنــح دراسة اللغة وللأصوليــين أن يتكلموا عن الأصل والفرع والعلة والحكــم لأن نشاطهم كله يقوم على المضاهــاة والأقيســة المنطقية، أمــا اللغة ومنشؤها العرف العام فإنها تبعد عن القياس بعد العرف عنه، والأولى أن ندرس كل حالة علــى علاتها في ضوء استقــراء شامل، وأن

نستخرج قاعدتها من هذا الاستقراء، أي أن الأصل ما يقوله أهــل اللغة وينقل عنه وأن القياس ليس وسيلة منهجية في دراسة اللغة، وصحيح أن هناك ما يسمى باطراد القوانين الصوتيــة ومــا يسمــح بالصــوغ القياسي ولكن هاتــين نتيجتان مــن نتائج الملاحظة والاستقــراء لا وسيلتان من وسائل الدراسة والمنهج، وهو يذهب أن لامجال لتسلط القياس علــى اللغة، حتى إن الوضع في اللغة بدل أن يكون مسألة تقارن اجتماعي وبدل أن تكون معتــبرة في اللغة بما وراءها من قوة العرف، أصبحنا نرى الوضع اللغوي مسألة تمرين في القياســ، ووجدنا الكلمة تعتبر من اللغة بما روعي في صرفها من شروط القياس.[٣٢]

ولا أريد أن أمنع القياس أو أضيق دائرته فإن هذا حال من التزمت والمغالاة، فيه من تعسف وحجــر على اللغة وربمــا كان ذلك متأتياً من اعتماد كــثرة الأمثلة أو قلتها في القياســ وإن كان ورود اللفــظ ولو في مثال واحــد من كتاب من كتب اللغة أو معجماتها يكفي لجريانــه في مضمار اللغة، وعده من متنها، وجمهور كلامها وفيه ضمان لارتباطها بقانــون العــام الذي لا يذهــب بجمالها أو يفسد رونقها اللذين يتصلان بحسن تصرف أهلها، وبالحس اللغوي المرهف الذي اعتمد الذوق الرفيع.

قــال ابن الأثير: ومن هــذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العــدول عنها ولا يستفتى في ذلك إلا الذوق السليم، وهــذا موضع عجيــب لا يعلم كنه سره[٣٣]. وقال في موضع آخر: ولربما أخطأ بعض الناس في هذا الموضع وقاس عليه ما ليس بمقيس [٣٤]، فمن الصائب الملائم لروح العربية ونحن نواجه هذا الكثير الجديد من المفــردات أن نتعامل معهــا على وفق منهج أهلها في بنائهــم الثابت وتصرفهم الأصيل، ونميل إلى عدم الأخذ بما لم يعرفوه أو تركوه فلــم ينقل عنهم ولو برواية واحدة وردت في متنهــا الصحيح المهــذب، ولا شك أن تطور اللغة يعنــي مواكبتها للحيــاة، وإن ضرورة الاستعمــال تقتضي الجديــد من المفردات ولولا حاجة الناس إلى التعاون والترافد، لما احتاجوا إلى الأسماء، وعلى أن المعاني تفضل علــى الأسمــاء، والحاجات تجــوز مقادير السمــات، وتفــوت ذرع العلاقات كما يقول الجاحظ[٣٥]، وهو التوليد اللغوي الذي يعبر عنه أحد المحدثين بقوله، ولا ينفك المنظرون - تجريديــاً - في نشــأة اللغــة وتكاثرها، يلحون على المولد الحقيقي للظاهرة لربط

الحدث اللساني بعنصر الحاجة في الإنسان فيتعـين عندئذ أن السبب الذي به كثر كلام الناس واختلفت صور ألفاظهم إنما هو كثرة حاجاتهم [٣٦]. فـإن باللغة حاجة دائمة إلى تكثير الألفاظ ولكن الأمر في العربية خاصة يراعى فيـه اعتدال اللفظ، وتلاحم أجزائه وانسجامه مع طبيعة اللغة وطواعيتها، مهما اشتدت الحاجة إليـه أو استدعت الضرورة إيجاده وإدخاله صرح اللغة لضرورة يتطلبها التطور أو الحاجة دخول المعربات مثلاً فإن ضابط ذلك وأساسـه جمال المفردة والتئام موسيقاهـا والأخذ بمقياس أهل اللغة في نسج ألفاظها حفاظا على العربية.

ولقـد ورد في قواعد الصرف العربي أن نوعاً من الأصـوات الخفيفة هي (الذلقية) تدخـل في تركيب مـواد اللغة بشـكل بارز وخصوصـاً الرباعي فما فـوق فإن وجدت كلمة من أربعـة أصول مثل دحرج، زخرف، بعثر، صلدم، أو خمسة أصول مثل سفرجل، فـرزدق، فإنه لابـد من دخـول أحد هذه الأصـوات أو أكـثر في بنائهـا وإلا عـدت الكلمة دخيلة في العربية وهذه كلمة الخليل في مقدمتـه للعـين[٣٧].كل هـذا يتم بوعي أهل اللغة ورغبتهـم وعليه يجري التصرف والتوجيـه على وفق ظاهـرة عامة حققت لهذا اللسان العربي صفات صوتية وجمالية وجههـا الذوق المرهـف، والبنـاء المنطقي لإجـراء صياغة بديعة، وتعديـل مهم. كما يبدو أن دعوى إقامة المتن اللغوي، على أساس القياسـ لم يقل بها علماً وأن المتقدمين وهم أقـرب إلى العربيـة منا زمنـاً، وألصق بها مكاناً، وإن ذلك ينطوي في الوقت عينه على مخالفـة الواقع اللغوي في العربية، والتغافل عن الجانب الذوقـي عند العرب الفصحاء الذي كان وراء نطقهـم بالألفاظ على تلكم الصـورة اللغويـة لا على غيرهـا في صور القياس الجديد[٣٨]. فـإن نظرتنا إلى لغتنا الفصحـى ليست في الواقع نظـرة إلى لغة نتحـدث بها فحسب بل هـي نظرة مزدانة بالإجلال والاعتـزاز لأنها لغة أقدس كتاب وأكرم تراث ولأنها لغة الفكر والعلم والأدب في تالد العصور وطارفها والعربية لغة الأمة التي لا بديل لها عنها وهي ملك لكل الناس يتكلمونهـا ولكن ليسـ في حقهم جميعا أن يتصرفـوا بها حسب أهوائهـم [٣٩]. ويرجع أبـو الفتح ابن جني أمر هـذه اللغة التي لا يكاد يعلم بعدها ولا يحاط بقاصيها[٤٠] إلى تصرف العرب، ومـا منحوا في هذا الميدان من دقـة وصنعة عالية وإلى ما دلت الدلالة عليه من حكمة العرب التي تشهد بها العقول

وتتناصر إليهـــا أغراض ذوي التحصيل فما ورد على وجـــه يقبل القياســـ، وتقتاد إليه دواعي النظر والإنصاف حمل عليها، ونسب الصنعـــة فيه إليها وما تجاوز ذلك فخفي لم تأس النفســـ فيه، ووكل إلى مصادفة النظر فيه وكان الأمر بـــه أن يتهم الإنسان نظره، ولا يخـــف إلى ادعـــاء النقص فيما قد ثبت الله أطنابه، وأحصف بالحكمة أسبابه.(٤١)

الهوامش

١- فقه اللغة العربية/ د. كاصد الزيدي- جامعة الموصل- ص١٢١.
٢- العربية تواجه العصر/ د. إبراهيم السامرائي- ص٨٦.
٣- نظرات خاصة في قواعد رسم الكتابة العربية/ د. محمد بهجت الأثري- ص٢٢.
٤- كلم العرب في قضايا اللغة العربية/ د. حسن ظاظا- ص٥.
٥- طبقات النحويين اللغويين/ د. الزبيدي- ص١١.
٦- العربية/ يوهان فك – ترجمة: رمضان عبد التواب – ص١٦.
٧- دلالة الألفاظ/ د. إبراهيم أنيس- ص١١٥.
٨- الخصائص/ ابن جني- ج ١/ ص٧٣.
٩- شرح المفصل/ ابن يعيش- ج ٧/ ص١٥٣.
١٠-علم اللغة/ د. علي عبد الواحد وافي-ص١١٥.
١١-التطور النحوي للغة العربية/ برجستر اسر – ص١٠٣.
١٢-الخصائص/ ابن جني- ج ١/ ص١١٥.
١٣-نفس المصدر:١/١٢٦-١٢٧.
١٤-الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها/ ابن فارس- ص٥٧.
١٥-نفس المصدر: ١/ ١٢٦- ١٢٧.
١٦-كتاب سيبويه/ تحقيق عبد السلام محمد هارون- ج ٣- ص٣٣٥.
١٧-نفس المصدر: ١/ ٢٦٥-٢٦٦.
١٨-مسائل لغوية في مذكرات مجمعية/ الشيخ محمد حسن آل ياسين- ص١٣٩.
١٩-العين/ الفراهيدي- ج ٣- ص٢١٥.
٢٠-الخصائصي/ ابن جني- ج ١- ص١٨.
٢١-نظرات خاصة في قواعد رسم الكتابة- ص٢٥.
٢٢-دقائق التصريف/ أبو القاسم المؤدب- ص٤٤.
٢٣-الصحاح/ الجوهري- ص٣٤٤.
٢٤-لسان العرب (مادة نضج) ج ٣ – ص٢٠١.

٢٥-نحو وعي لغوي/ د. مازن المبارك- ص١٩٢.
٢٦-معجم الخطأ والصواب في اللغة/ د. اميل يعقوب- ص٢٥٥.
٢٧-في قضايا اللغة والنحو/ د. أحمد مختار عمر- ص١٤٢.
٢٨-شذى العرف في فن الصرف/ الشيخ أحمد الحملاوي- ص٧٣.
٢٩-معاني الأبنية في العربية/ د. فاضل السامرائي- ص١٨- ١٩.
٣٠-لسان العرب (رهب)/ ج ١- ص٤٣٦- ٤٣٩.
٣١-اللغة بين المعيارية والوصفية/ د.تمام حسان- ص٤٢.
٣٢-نفس المصدر، ص٤١.
٣٣-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.
٣٤-نفس المصدر:ج ١ – ص٢٨٦.
٣٥-الحيوان/ الجاحظ.
٣٦-التفكير اللساني في الحضارة العربية/ د. عبد السلام المسدي- ص٧٨.
٣٧-العين/ الفراهيدي- ج ١- ص٥٢.
٣٨-حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث/ د. محمد ضاري حمادي – ص٢٢٥.
٣٩-نحو وعي لغوي/ د. مازن المبارك- ص٥٨.
٤٠-الخصائص/ ابن جني- ج ٢/ ص١٦٨.
٤١-نفس المصدر: ج ٢- ص١٦٦-١٦٧.

آفاق المعرفة



الدلالات الإنسانية المعاصرة في مفهوم الاغتراب

د. علي أسعد وطفة*

يعد مفهوم الاغتراب Aliénation من أكثر المفاهيم الإنسانية استخداماً وشيوعاً في مجال العلوم الإنسانية، ومن أكثرها قدرة على وصف مظاهر البؤس الإنساني والقهر الاجتماعي عبر علاقة الإنسان بالطبيعة والمجتمع، وهو فوق ذلك يشكل مدخلاً منهجياً مميزاً تعتمده العلوم الإنسانية في تحليل الظواهر الاستلابية في واقع الحياة الاجتماعية(1). وإذا كان مفهوم الاغتراب يُعتمد كأداة تحليل منهجية في دراسة القهر الذي تفرضه الأوضاع الاجتماعية القائمة على الإنسان، فإنه في الوقت نفسه يشكل منطلقاً منهجياً لدراسة الأوضاع السيكولوجية الاغترابية للفرد في سياق تفاعله

* أستاذ التربية في كلية التربية- جامعة الكويت

- العمل الفني: الفنان أحمد الياس

مع معطيات وجــوده الاجتماعي، وهو وفقاً لهذا التصور يأخذ بأهمية التفاعل الجدلي بــين الاجتماعي والنفسي في دراسة ظواهر الضياع والاستلاب عند الإنسان المعاصر.

ويشهــد مفهوم الاغتراب تطــوراً كبيراً في ذاته يتجــاوب فيه مــع الطابع المتجدد للفكر الإنساني في ضوء التحولات الإنسانية الجديدة المعاصرة في مختلف ميادين الحياة وتجلياتها. وفي دائــرة هذا التجدد الفكري للمفهــوم تطالعنا مفاهيــم فرعية جديدة كالاغتراب الذاتي والاستــلاب الاجتماعي والاغتراب السيكولوجي. ويلاحظ اليوم أن التيارات الفكرية الجديــدة المعنية بالمفهوم تحاول أن تــوازن اليوم بين الرؤى الماركسية لهذا المفهوم وبــين التصورات التي يقدمها التحليــل النفســي في دراسة ورصــد أبعاد الحياة الاغترابية عند الإنسان.

وإذا كانــت نظرية ماركــس الاغترابية تشكل منطلق التحليل الكلاسيكي في ميدان الضياع والاستلاب والاغتراب فإن الأبحاث السوسيولوجية والسيكولوجية الجديدة حول المفهوم ذاته لا تقل أهمية وخطورة. لقد ألحّ كارل ماركــس وأكد علــى أهمية الجوانب الاقتصاديــة في مفهــوم الاغــتراب، وهذا التأكيــد أدى في غالب الأحيــان إلى إغفال وتهميش الجوانب السيكولوجية والإنسانية لهذا المفهــوم[٢]. ولكــن الأبحاث في مجال علــم النفس حول مفهــوم الاغتراب عملت وبصورة مستمرة على تحقيق التوازن وإعادة الاعتبار إلى الجوانب السيكولوجية للمفهوم في دائرة التــوازن والتناغم مــن المعطيات السوسيولوجية. وفي ظل التطورات الفكرية الجديدة فــإن التيــارات الفكرية الحديثة تعمــل باستمــرار على تحقيــق المصالحة والتــوازن بــين مفهوم الاغــتراب الماركسي ومفهــوم الاغتراب في التحليل النفسي. لقد أدى تأكيــد ماركســ على أهميــة الجوانب الاقتصادية في مفهوم الإنتاج أدى إلى إهمال الجوانب الإنسانية لهــذا المفهوم حتى عند ماركــس نفسه. فالإنتــاج الإنساني لا يقف عند حدود الاقتصــاد فحسب بل يرمز إلى الفعاليــة الإنسانية برمتهــا، ويجسد قدرة الإنسان نفسه علــى توليد المعطيات المادية والنفسية لوجوده.

فالإنســان كما يقــول هــنري ليفيبفر Henri Lefebvre: «يؤثــر في الطبيعــة ويتأثر بها وهو عندما يغيرها يتغير معها في الآن الواحــد، وبالتالي فإن العلاقة النشطة بين الإنسان والطبيعة لا تنطوي على خفايا وأســرار لأن هــذه العلاقة تتــم عبر العمل بصورة مركزية، فالإنسان يستطيع عبر العمل أن يتجاوز حدود الحياة العفوية المباشرة في

الطبيعــة، فهو ينتج ويبــدع أشياء متعددة، وهذه الأشياء تلبي حاجاته، ولكنها في الوقت نفسه تولد حاجات جديدة دون انقطاع، وهي في الوقت نفسه تعمل على تعديل الحاجات القائمة، وفي مجرى تحقيــق الإنسان لذاته في عالم الأشياء، فإن هذا الحضور الذاتي لا يعني ضياعاً للإنسان واستلاباً له، بل يرمز إلى نمائه وازدهاره».[٣]

يــرى إريك فروم، في هــذا الخصوص، أن الإنســان ينتج في سيــاق حياته مظاهر إنسانية متعددة مثــل : الاتصال الإنساني، والحــب، والإبــداع، وحرية اتخــاذ القرار في وهــي تجــارب إنسانية مضــادة لمفهوم الاغــتراب. وهــو في هذا السيــاق يعلن أن الفــن يمثل النموذج الأسمى للفعل الإنساني بوصفــه إنتاجاً إبداعياً يمكــن الإنسان من تجاوز عمليــة الوضعية الاغترابية في اتجاه دلالات إنسانية مؤكدة لمبدأ الهوية وتحقيق الذات الإنسانية Réalisation de soi.

هــذه الرؤى حول مفهــوم الإنتاج ودوره في تحقيق إنسانية الإنسان، أو بوصفه فعلاً إبداعياً يؤسس لتصور حول مفهوم الاغتراب ذاته، فالاغــتراب هو حالة تضــع الإنسان خارج ذاتــه، تحت تأثير نسق مــن العوامل التي تعيق إنتاجيــة الإنسان، وتعطل عملية الإبــداع لديه، وتدمــر إمكانياته في التعبير الحر عــن وجــوده، فتمنع عليــه ازدهاره وتفتحه الإنساني..

تعريف المفهوم: ظهــر مفهوم الاغتراب Aliénation لأول مــرة في عام ١٨٣٧ في استخدامات فالريــه Falret ليدل به على مظاهر الاضطراب العقلي، وبدأ هذا المفهوم فيما بعــد يوظف في مجال علــم الاجتماع والفلسفــة وعلــم النفــس الاجتماعي[٤]. وينطوي المعنى الأول لهذه الكلمة على معنى نقل الملكية من شخص إلى آخر إكراها. وقد استخــدم الفيلسوف الفرنســي جان جاك روسو مفهوم الاغتراب بمعنى تحول الإنسان إلى عبد للمؤسســات الاجتماعية والنماذج السلوكية التي أنشأها وذلك في سياق تطور التاريخ الإنساني.

ويرى ماركس في الاغتراب العملية التي يتحــول فيها الإنســان إلى حالة تشيؤ حيث يستعبــد من خــلال العمــل، ويصبح بقوة عمله سلعة تبــاع في الأسواق. فالعمل برأي ماركس هو الذي طــور الإنسان، وهو الذي زج به في أكفان العبوديــة وزنزانات القهر. فالعمــل كما يــرى ماركس يخلــق الإنسان ويطــوره ولكنه يمتصــ في الوقت نفسه كل قواه ويستعبده.[٥]

هذا ويحدد مولفــان سومان Melvin Seeman خمســة أبعــاد أساسيــة لمفهوم

الاغتراب هي : الحرمان من السلطة، غياب معنى الحياة، وغياب للمعايير، ومن ثم غياب للقيم، وإحساس بالغربة عن الذات[٦]. ويعني هذا المفهوم بصورة عامة كل أشكال القهر ومشاعر البؤس والشقاء التي يعاني منها الإنسان في الحياة.



فالإنسان كينونة جوهرها العقل والحرية والعمل والانتماء وكل ما من شأنه أن يمس هذه الأبعاد الأساسية لجوهر الشخصية يدفع الشخصية إلى حالة اغتراب واستلاب. فالاغتراب في حدود ما ننظر إليه ونوظفه في هذه المقالة هو : الوضعية التي ينال فيها القهر والتسلط والعبودية من جوهر الإنسان، وهو الحالة التي تتعرض فيها إرادة الإنسان أو عقله أو نفسه للاغتصاب والقهر والاعتداء والتشويه. وبالتالي فإن أدوات الاغتراب هي مختلف أدوات القهر، وكل ما من شأنه أن يعاند نمو الشخصية الإنسانية وازدهارها وتفتحها. وفي هذا السياق يمكن القول بأن مظاهر الاغتراب تتبدى في أشكال أحاسيس مفرطة بالدونية، واللامبالاة، والقهر، والضعف، والقصور والسلبية، والانهزامية. وتلك هي البوابة المنهجية لمفهومنا عن اغتراب الشخصية.[٧]

ويشير مفهوم الاغتراب إلى الحالات التي تتعرض فيه وحدة الشخصية للانشطار، أو للضعف والانهيار، بتأثير العمليات الثقافية والاجتماعية التي تتم في داخل، أو في

داخل المجتمع. ومن هذا المنطلق فإن العقد النفسية، وحالات الاضطراب النفسي، أو التناقضات تشكل صورة من صور الأزمة الاغترابية التي تعتري الشخصية. وهذا يعني في النهاية أن مفهوم الاغتراب يشير إلى النمو المشوه للشخصية الإنسانية، حيث تفقد فيه الشخصية مقومات الإحساس المتكامل بالوجود والديمومة.

ومفهوم الاغتراب هو الحالة أيضاً التي يتعرض فيها جوهر الشخصية للقسر والإكراه. فعندما تتعرض الشخصية الإنسانية في جوهرها العقلي، أو الثقافي، أو الاجتماعي، لنوع من التشويه والاغتصاب تحدث عملية اغتراب وتشويه. ووفقاً لهذه الصيغة يمكن القول إن مفهوم الاغتراب في الشخصية يتحدد بالجوانب التالية :

- حالات عدم التكيف النفسي التي تعانيها الشخصية: عدم الثقة بالنفس، القلق المستمر، الرهاب الاجتماعي، المخاوف المرضية.

- غياب الإحساس بالتماسك والتكامل الداخلي في الشخصية.

- حالة ديمومة العقد النفسية التي تعتري الشخصية : عقدة أوديب، عقدة الخصاء، عقدة النقص، عقدة الاضطهاد.. إلخ.

- ضعف أحاسيس الشعور بالهوية مثل : الشعور بالانتماء، الشعور بالجهد المركزي، الشعور بالحب، الثقة بالنفس، الشعور بالقيمة، غياب الإحساس بالأمن.

يقول أريك فروم إن الاغتراب «نمط من التجربة يعيش فيها الإنسان كشيء غريب، ويمكن القول إنه أصبح غريباً عن نفسه، إنه لا يعود يعيش نفسه كمركز للعالم وكمحرك لأفعاله، ولكن أفعاله ونتائجها قد أصبحت سادته الذين يطيعهم أو الذين قد يعبدهم»(٨). إن الفكرة السائدة في تفكير فروم عن اغتراب هي فقدان النفس لذاتها وفي هذا الفقد يكتسب ذاتاً ليست هي ذاتها الحقيقية أو ما يجب أن تكون عليه حقاً.

فالإنسان وفقاً لفروم يبدع أوثاناً يسجد لها وأصناماً يعبدها، وهنا يكمن جوهر الاغتراب عند إيريك فروم. في عملية الاغتراب، عند أريك فروم، يتنازل المرء عن نفسه إزاء استسلامه لقيم المجتمع السائدة خاصة في المجتمع الصناعي الحديث، يقول في كتابه الخوف من الحرية : « إن الفرد يكف عن أن يصبح نفسه إنه يعتنق نوعاً من الشخصية المقدم له من جانب النماذج الحضارية ولهذا فإنه يصبح تماماً شأن الآخرين وكما يتوقعون منه أن يكون.(٩)

فمفهوم الاغتراب مفهوم معقد يرتكز

إلى منظومة من العمليات الأساسية للعملية الاغترابية، ويمكن لنا في هذا السياق تحديد أربعة أبعاد أساسية في بنيته.

الإكـراه والتسلـط: العبوديـة التسلط الإكـراه مفاهيم مركزيـة تعتمد في تحديد الوضعيـة الاغترابيـة للإنسـان، فالإنسان المستلـب المغـترب إنسان فقـد حريته في الجوهـر، لأن الاغتراب لا يكـون إلا تغييباً للحرية. فالإنسان يكون حراً عندما يستطيع أن يمتلك زمـام نفسه ويسيطر على وسطه الشخصي الفيزيائـي والاجتماعي، ويكون حـراً عندما يكون قادراً علـى إبداع أشياء توضع في خدمته وتشكل أدواته في أن يكون أكـثر حرية وأكثر قدرة على التحكم بوجوده ومستقبلـه. وعلى خلاف هـذا التصور إذا كان الإنتاج الإنساني يأخذ طابعاً استعبادياً مضـاداً لحرية الإنسان، عبر عمليات القهر والتسلـط، فـإن الإنسان يتحـول إلى كائن مستلب مغترب مهزوم بكل المعايير والدلالات الحقـة في مفهـوم الاغـتراب، ولذلك فإن غياب المشاركـة في السلطة أو في القرارات التي توجه حياته ووجـوده يشكل واحد من أهم عوامل اغترابه واستلابه.

اللاانتماء: يشكل اللاانتماء ركناً أساسياً مـن أركان مفهوم الاغتراب، فأفراد الطبقة العاملـة، علـى سبيل المثـال، لايستطيعون التأثـير في الحيـاة الاجتماعيـة التي تعد إنتاجاً منظماً للطبقة البرجوازية التي تضع الطبقـة العاملة في خدمتهـا، وهنا في هذه الحالة لا يكون إنتاج الإنسان (إنسان الطبقة العاملـة) في خدمتـه بل يتحـول إلى شيء خارجي يستعبـد الإنسان ذاتـه، فالطبقة العاملة تنتج القوة الاجتماعية والاقتصادية وهذه القوة تتحول مـن جديد عبر الطبقة البرجوازية إلى قوة قهر وتدمير وعبودية ضد الطبقة العاملة التي أنتجتها، وهذا يعني أن العمل هنا لم يعد إنسانياً بل هو قوة خارجية قاهرة، ففي مجتمع مستلب (كما هو الحال في داخل طبقة اجتماعية مستلبة) لا يشكل الانتمـاء الاجتماعـي أداة لتحقيق الذات والهوية. فمفهوم الاغـتراب يقوم هنا على التناقض الاجتماعي الذي يتمثل في تقسيم العمـل وتجزئة الأدوار الاجتماعية وتشتيت التجربة الإنسانية. ومن هذا المنطلق يتجلى الاغتراب هنا في صـورة صراع بين الأدوار، ولاسيمـا في مستوى الصراع بـين الانتماء إلى العائلة أو الدولة، بين الانتماء إلى الأمة وبين الانتمـاء إلى الطبقة الاجتماعية، بين وعـي الذات ووعـي الآخر، بـين المصلحة الاجتماعيـة ومصلحة الطبقـة، بين الأنا والآخر، وهذه التناقضات الاجتماعية تعطل عملية تحقيق الـذات الاجتماعية كما أنها

تمنع عمليــة المشاركة في الفعالية السياسية للإنسان المحطم.

فالانتماء إلى جماعة أو طبقة أو مجتمع يتضمــن وضعية مــن وضعيــات التجانس الاجتماعــي، وبالتالي فــإن تحقيق الذات الاجتماعيــة عملية تقوم علــى أساس بناء علاقــة إيجابية مع الآخــر، وقد يكون هذا الآخر جماعة أو مجتمع أو شخص أو طبقة. وإذا كانــت هنــاك تناقضــات حقيقية في طبيعة هذه الانتماءات فإن هذه التناقضات تمنع الشخص في نهايــة الأمر من الانتماء إلى نفســه، أي تشطره، وبالتالي فإنها تمنعه من امتلاك هوية خاصة، أي الشعور بالكيان الواحد الذي يستجمع مختلف تجارب الفرد، أو الشعــور بامتلاك الإنســان معنى خاص لحياته الإنسانية.

الوعــي المزيف: يشكل الوعــي بالنسبة للإنســان طريقــة في الوجــود ومنهجاً في الكينونــة. والوعي هو التنظيــم الدينامي للحيــاة النفسيــة أنــه الحالــة أو الكيفية التــي يتمكــن الإنسان بموجبهــا أن يصبح موضوعــاً لذاتــه، أي أن يجعــل الفرد من نفسه موضوعاً للمعرفــة وأن يكون بالتالي عبر وعيه بذاته سيداً لنفسه. ومن هنا فإن أي تناقض بين الواقــع والتجربة من جهة، وبين الوعي الذاتــي من جهة أخرى، يشكل أحــد أهم عوامل الاغــتراب الإنساني. لقد أدرك ماركــس هذه الحقيقــة منذ البداية، وبيّن أن التصورات الخاطئة المشوهة أو هذه التي تنقطع عن الحقيقــة والتجربة تشكل إحــدى أهم العوامــل الكابحة لعملية تطور الإنسان وتعميــق إنتاجيته الخلاقة وتضعه في دائرة الاغتراب. لقــد بينت دراساته في «الأيديولوجية الألمانيــة» أن الوعي المزيف هــو مجموعة من التصــورات الخاطئة عن الواقع التي تؤدي في نهاية الأمر إلى تزييف الواقع نفسه وتشويــه معطياته وإلى تعطيل التطور الخلاق للإنسان.

ونحن في واقع الأمــر عندما نقابل بين الوعــي والوجود فإنه يمكن لنا أن نميز بين الوعي الذي يتوافــق مع معطيات التجربة، وهو شكل من أشكال الوعي الحقيقي، وهذا الذي يتعارض مع التجربة المعاشة وهو صيغة أخرى للوعي المزيف. فالوجود تجربة معاشه دون أن تكون كل تجربة داخلة بالضرورة في حقل الوعــي، وهذا ينسحــب على الأفراد والجماعــات. فالوعي المزيــف يشكل حالة من أكثر حالات الاغــتراب حضوراً وأهمية في الحياة الإنسانيــة. فالعلماء يقابلون بين الوعــي والوجود، أي بــين المعرفة والواقع، ويحاولــون اختصار المسافة الفاصلة بينهما فيكــون الوعي قــاب قوســين أو أدنى من

الحقيقة المعيوشــة وذلك بمساعدة أدواتهم العلمية والمعرفية.

فالفيلسوف يحلل حقل المعرفة أو الوعي ويدرس نظام التصــورات الخاصة بوجود الإنســان وذلــك بالعلاقة مــع مفهومه عن الإنســان مثل مفهوم الإنســان الكلي، وعالم الاجتمــاع يوازن بين تصوراتــه عن الحياة الاجتماعية مــع الحقيقــة السوسيولوجية الواقعيــة، بمــا يسمح لــه ببنــاء نظريته الاجتماعيــة ،كمــا أنه عالم النفــس أو عالم التحليــل النفسي يقابل بين وعي الفرد كما يتبدى عــبر تقصياته الاكلينيكية مع مفهوم الإنســان كما يراه عبر منظومتــه الفكرية، وهذا ما نراه عند فروم الذي قارن بين وعي الإنســان في المجتمــع الرأسمالي مع مفهوم الصحــة العقلية للفــرد. وباختصــار فإن هذا التباعد بــين التجربة والمعرفة، أو بين الوعي والوجود، يوضح لنا مفهوم الاغتراب بوصفــه وعياً مزيفاً يمكن أن يقارن بالوعي الموضوعي، وهــو شكل من أشــكال الوعي الذي يتشكل من قبل ملاحظ خارجي ويرمز إلى حقيقة وجودية أو تحديد ذاتي للحقيقة الموضوعية.

الجمــود والانقطاع: يكــون الإنسان لا يكــون مستلباً عندمــا لا يستطيــع تجاوز الوضعيات النفسيــة والحالات الاجتماعية التــي تحاصره وتحيط بــه. فالإنسان الذي لا يغــير الأشياء ولا يتغير يقــع في مستنقع الجمود والعدمية الاغترابية. وهذا يعني أن الإنسان الذي لا يؤثر في وسطه ولا يجدد في معالم وجوده هو إنسان يعيش حالة اغترابية إلى حدّ كبير. فالماركسية تفترض وجود نزعة أساسية نحو النمو الديالكتيكي عند الإنسان في اتجاه تجاوز الوضعيات الآنية فوراً، ومن هذا المنطلــق ومن أجل إزالــة التناقضات التي تعترض سبيــل هذا النمو الديالكتيكي عند الإنسان يعمل الإنسان على بناء أدوات جديــدة وأشياء متجــددة (مثــل الأنظمة الاجتماعية الجديدة) وبهذه الطريقة عينها تعمل هذه الحركة الديالكتيكية على إشباع الحاجات المتجددة وهــي في دائرة حركتها هذه تعــدل هذه الحاجــات وتغيرها في آن واحد.

فالإنسان كائن متغــير وهذا التغير وهو لا يبحث عن وضعيــة ثابتة نهائية بل وعلى خــلاف ذلك يسعــى إلى تحقيق حركة تغير دينامية ديالكتيكية في اتجاه أشكال جديدة من السلطة وأنماط متجددة من الانتماءات الاجتماعيــة، والإنسان المستلب هو الإنسان الــذي يعيش حالة جمــود تمنعه من تجاوز نفسه والظــرف الذي يحيط بــه، أي هذا الذي ينغلق على ذاتــه ولا يستطيع المبادرة

إلى الإنجاز والعقل. وبالتالي فإن الإنسان يعيش نسقاً من التناقضات الكبيرة في مختلف جوانب حياته ووجوده. ويمكن لنا في المستوى النظري أن نفترض أن هذه التناقضات توجد في أصل كل ممارسة إنسانية وفي كل عملية أو مرحلة من مراحل الإنتاج الإنساني بالمعنى الإنساني بالمعنى الواسع للكلمة.

والإنسان يمتلك نزعة سيكولوجية لتحقيق التوازن إزاء هذه التناقضات وتتجلى هذه النزعة في منظومة من العمليات النفسية التي تفعل فعلها في تحقيق التوازن الفرد وتماسكه إزاء التناقضات التي يواجهها. هذه العمليات النفسية تعمل على تحقيق التوازن بين تجربة الفرد وبين تصوراته العاكسة لهذه التجربة، وبمعنى آخر تحدث هذه العمليات توازناً حقيقياً بين وجود الفرد وذاته، كما أنها تعمل على تحقيق التوازن بين الهوية الفردية وصورة الفرد عن ذاته وهذا ينسحب على مختلف التناقضات التي تفرض نفسها في حقل التجربة الإنسانية للفرد أي في مختلف الاتجاهات والمواقف والقيم الصادرة عن الفرد.

وتعتمل في ذات الفرد النزعة الإبداعية جنباً إلى جنب مع النزعة التوفيقية. فالإنسان مفطور على نزعة الإبداع والتجديد والابتكار وتجاوز اللحظات الآنية في اتجاهات أرحب وأشمل تتجاوز الحالات الراهنة بوضعيات مستجدة. والإنسان يعيش حالة صراع مستمرة بين النزعة إلى التوازن والنزعة إلى التجديد والابتكار، وبالتالي فإن هذا الصراع المركزي (توازن وابتكار) يدخل في صلب التناقضات العاطفية والنفسية والعقلانية وفي مختلف مظاهر الحياة النفسية عند الإنسان. ويعيش الإنسان نظاماً معقداً من التناقضات المتداخلة والمتشابكة في اتجاهات أفقية وعمودية رئيسية وجزئية. فالتناقض بين تجربة الفرد الخاصة ووعيه بمعطيات هذه التجربة يستجمع في ذاته مختلف التناقضات الانفعالية والعقلانية التي تتجلى في الحب والحقد والكراهية والأمل والطموح والانفتاح.

الخلاصة:

يغطي مفهوم الاغتراب مختلف النشاطات الإنسانية والفعاليات الاجتماعية ومن هنا يجري التأكيد اليوم على الطابع الشمولي لهذا المفهوم الذي يتجاوز حدود النشاطات ذات الطابع الاقتصادي أو السياسي، وهذا يعني التحفظ على الموقف الماركسي حيث يتم توظيف مفهوم الاغتراب في التركيز على الجوانب الاقتصادية والسياسية للنظام الرأسمالي. إذا كان مفهوم الاغتراب يقارب

الشرط الإنساني بالدراسة والتحليل، وإذا كان تحليل الظاهرة الاغترابية قد بدأ مع اللحظة التي بدأ فيها التساؤل يدور حول دور بعض الأنظمة الاجتماعية القائمة كالمجتمع الرأسمالي، فإن ذلك كله لايمنع من التفكير في وضعية الفرد ومعاينة شروط وجوده الفردي والنفسي ومن ثم تحليلها من خلال مفهوم الاغتراب ذاته. وهنا يجب التأكيد على أهمية وحدة العوامل النفسية والاجتماعية بوصفها عوامل بنائية متكاملة في عملية الاغتراب.

لقد اعتمد الماركسيون مفهوم الاغتراب منطلقاً أساسياً لإدانة النظام الرأسمالي برمته. وهم مع ذلك لا يرفضون الجوانب الفلسفية لهذا المفهوم التي تتصل بمفهوم الإنسان ذاته وبغاياته الوجودية في الأصل، وبعبارة أخرى لايمكنهم رفض العوامل الفردية والسيكولوجية في بناء مفهوم الاغتراب. وعلى الرغم من الانتقادات الموجهة للتصورات الماركسية حول الاغتراب فإنه لا يمكننا أبداً أيضاً أن ننكر أهمية الجوانب الاجتماعية والاقتصادية التي تجد تقديراً أكبر في الفكر الماركسي. وفي كل الأحوال يتوجب علينا ألا نغلق بوابات الفهم الخاص بمفهوم الاغتراب لأن هذا المفهوم يأخذ أبعاداً اقتصادية واجتماعية ونفسية تتصف بالتنوع والتعدد.

ومن الأهمية بمكان في هذا السياق أن ندرك بأن الفهم «السيكوسوسيولوجي» (النفسي الاجتماعي) يمكننا من الكشف عن المسافة التي تفصل بين تجربة الفرد الخاصة وتجارب الجماعات التي ينتمي إليها. فمفهوم الاغتراب يصف لنا الشرط الإنساني ويساعد في تحليل حقل الانتماء الاجتماعي للفرد ويغطي في الوقت نفسه الفعاليات النفسية التي تعتمل في داخل الفرد. فالاغتراب مفهوم أداتي يمكننا من تحليل تأثير الشروط الخارجية والداخلية في تشكيل وعي الفرد وتوازنه النفسي. وبعبارة اختتامية يمكننا القول بأنه لا يمكن اختزال مفهوم الاغتراب إلى أحد أبعاده النفسية أو الاجتماعية، بل وعلى خلاف ذلك فإنه هذا المفهوم يجد ماهيته وخصوصيته في وحدته الجدلية الجامعة ما بين النفسي والاجتماعي أو مابين السوسيولوجي والسيكولوجي خارج الدلالة الأيديولوجية والسياسية للمفهوم، وبالتالي فإن الفهم الأعمق لدلالة هذا المفهوم لا يكون إلا بقراءة متأنية لنظام التفاعل بين العوامل النفسية والاجتماعية المولدة لمفهوم الاغتراب وذلك بعيداً عن الصبغة الأيديولوجية التي مني بها في بعض النظريات.

الهوامش

١- انظر: علي وطفة، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية: بحث في إشكالية القمع التربوي، عالم الفكر الكويتية، المجلد٧٢، العدد الثاني، أكتوبر/ديسمبر ١٩٩٨، ص/ص٢٤١-٢٨١.

٢- علي وطفة، الخلفيات التربوية المبكرة للاغتراب النفسي والعاطفي، التربية القطرية، مجلة تربوية فصلية محكمة، السنة ٢٨، عدد ٣١/ديسمبر/٢٠٠٠، ص/ص١٠٨-١١٨.

٣- Henri Lefebvre، Peur Connaitre la Pensee de karl Marx، Paris، Bordas، ١٩٤٨، p١١٩.

٤- كمال دسوقي، ذخيرة تعريفات مصطلحات أعلام علوم النفس، المجلد الأول، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٨،ص٧٧.

٥- انظر: حسن محمد حسن حماد، الاغتراب عند إيريك فروم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥.

٦- Madeleine Grawitz: Lexique des sciences siciales، Dalloz، Paris، ١٩٨٣، p.١٢.

٧- علي وطفة، المظاهر الاجتماعية للاغتراب الإنساني، مجلة المعلومات (مركز المعلومات القومي)، العدد٤٣، نيسان ١٩٩٦.

٨- مجاهد عبد المنعم، في الفلسفة المعاصرة، سعد الدين للطباعة والنشر، ط١، بيروت١٩٨٤، ص١٤.

٩- أريك فروم، ثورة الأمل، ترجمة ذوقان قرقوط، دار الآداب، بيروت، ص١٥٠.

آفاق المعرفة

المعاني النحوية عند البلاغيين

د. عبد الجليل مصطفاوي ❊

من الأمور البارزة في دراسات البلاغيين- ولاسيما الإمام عبد القاهر الجرجاني- التركيز على المعاني الإضافية التي تستفاد من الأحكام النحوية، والابتعاد عن البحث في الوظائف التي تمس الأدوات والجمل وغيرها؛ فاهتمامهم بهذه الأحكام لا يكون إلاّ بقدر ما توحيه من معان وظلال.

وما النظم عند عبد القاهر إلاّ توخي «معاني النحو وأحكامه بين الكلم. ولا يقصد بالنحو معناه الضيّق الذّي فهمه المتأخرون، وإنّما يريد المعاني

❊ أستاذ في كلية الآداب- جامعة تلمسان (الجزائر).

العمل الفني: الفنان سعد يكن.

الإضافية التي يصوّرها النّحو. وبذلك رسم في دلائل الإعجاز طريقاً جديداً للبحث النحوي تجاوز أواخر الكلمة وعلامات الإعراب، وبيَّن أن للكلام نظما وأن رعاية هذا النظم واتّباع قوانينه هي السّبيل إلى الإبانة والإفهام».(١)

وقد أكّد بعض الدّارسين المحدثين أنّ الطّريق الذّي فتحه الإمام عبد القاهر في الدراسات النّحوية يتماشى مع أحدث ما وصل إليه علم اللسان الحديث في أيّامنا من آراء. فما قرّره علماء اليوم من أنّ اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات(systeme de rapports) هو الأساس الذّي بنى عليه عبد القاهر كل تفكيره اللغوي مند أكثر من تسعة قرون(٢). ثم إنه استطاع أن يجمع في نظرية واحدة بين نظريتين: نظرية القواعد التحويلية التوليدية ونظرية البنيوية الوظيفية؛ وهو الأمر الذي تسعى إليه أحدث الدراسات اللغوية في وقتنا.(٣)

والحق إننا قد وجدنا- في حدود اطلاعنا على مصادر البلاغة العربية- بعض البلاغيين، وفي مقدمتهم الشيخ عبد القاهر الجرجاني، قد قفزوا بالقواعد النحوية قفزة نوعية خلصت النحو العربي من إسار الأحكام الوظيفية الجافة، وخرجت به إلى فضاءات أكثر رحابة تمثلت في إجراءات تطبيقية تحليلية للنظم القرآني وكلام العرب؛ فقد تحوّل النحو إلى دراسة أسلوبية تعبيرية تعنى بالمعنى أولاً وأخيراً.(٤)

وسنورد نماذج ههنا من تحليلات البلاغيين لنبيّن من خلالها كيف فهموا أحكام النحو وقوانينه، وكيف أفادوا من ذلك في إبراز المعاني والظلال التي توحي بها تلك القواعد والأنماط الثابتة التي وضعها النحاة الأوائل. ففي باب التقديم والتأخير نجد عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) يأخذ على النحاة المتقدمين كونهم لم يعنوا بهذا الأسلوب الذي يحمل كثيراً من أسرار البلاغة ولطائفها، وعجائب الإعجاز القرآني ودقائقه.

يقول في هذا الشأن: «اعلم أنّا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام. قال صاحب الكتاب× وهو يذكر الفاعل والمفعول، كأنهم يقدمون الذي بيانُه أهمّ لهم وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمّانهم ويعنيانهم، ولم يذكر في ذلك مثالاً.. ولتخيُّلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم وهوّنوا الخطب فيه حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبّعه والنظر

فيه ضرباً من التكلف. ولم تر ظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه».(٥)

فالتقديم والتأخير في القرآن الكريم وكلام العرب، كما يرى عبد القاهر، ليس مجرّد عناية واهتمام، بل هو شيء أبعد من ذلك؛ إذ به تتباين العبارات وتتفاوت الأساليب، فيعلو هذا ويسفل ذلك، وبه يرقى الكلام إلى سحر البيان أو ينحطّ إلى الركاكة والابتذال. وهو،مثلما يؤكّد، باب لا يدرك فضيلته إلا من تدبّر اللغة وأنعم النظر في ظلال معانيها وألوانها وتشكيلاتها التي تتباين بحسب مقتضيات التأليف والأحوال.

ولكي يوضّح هذه الفكرة ويبيّن قيمتها الجمالية والمعنوية يورد جملة من النماذج القرآنية والشعرية،ثمّ يحللها تحليلاً فنياً يوحي بعمق تأمّله وحسن تدبّره لأساليب العربية. ففي قوله تعالى:«أأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ»(٦) يحاول أن يشرح سبب تقديم الضمير (أنت) على الفعل فيقول: «..لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقرَّ لهم بأنّ كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقرّ بأنه منه كان. وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم:أأنت فعلت، وقال هو عليه السلام في الجواب: بل فعله كبيرهم هذا؛ولو كان التقدير بالفعل لكان الجواب: فعلت أو لم أفعل».(٧)

فتقديم الضمير (أنت) ههنا ورد لنكتة بلاغية وغاية فنية مقصودة؛ لأن الغرض من الكلام هو السؤال عن الفاعل وليس الفعل؛ إذ الفعل معلوم من قوم إبراهيم عليه السلام، فهم قد عاينوا أصنامهم ووقفوا عليها فوجدوها محطمة مهشّمة.

ولنأخذ نموذجاً آخر، من غير باب التقديم والتأخير، وهو هذه الأبيات للشاعر الرّقيق البحتري الذي يقول مادحاً:(٨)

بَلَوْنا ضرائبَ مَنْ قد ترى
فما إنْ رأينا لفتحٍ ضريبَا
هو المرءُ أَبْدَتْ له الحادثا
تُ عزماً وشيكاً ورأياً صَليبَا
تنقَّل في خُلُقَيْ سؤدد
سماحاً مُرجًى وبأساً مَهيبَا
فكالسيف إنْ جئتَه صارخاً
وكالبحر إنْ جئتَه مُستثيبَا

فعبد القاهر الجرجاني يتكئ، في تحليل هذه الأبيات، على معطيات علم النحو التي تغدو عند مفاتيح يلامس بها لغة الشاعر فيقول: «فإذا رأيتها قد راقتك، وكثرت عندك، ووجدْتَ لها اهتزازاً في نفسك فعد فانظر في السبب واستقص في النظر،فإنك

تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر وعرف ونكر، حذف وأضمر، وأعاد وكرّر، وتوخّى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النّحو، فأصاب في ذلك كلّه، ثمّ لطف موضع صوابه وأتى مأتى يوجب الفضيلة.

أفلا ترى أنّ أوّل شيء يروقك منها قوله:هو المرء أبدت له الحادثات، ثمّ قوله: تنقل في خلقي سؤدد بتنكير السؤدد وإضافة الخلقين إليه، ثمّ قوله: فكالسيف وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ؛ لأنّ المعنى لا محالة: فهو كالسيف، ثمّ تكريره الكاف في(و كالبحر)،ثمّ أنْ قرن إلى كلّ واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه، ثمّ أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله: (صارخاً) هناك و(مستثيباً) ههنا. لا ترى حسنا تنسبه إلى النظّم ليس سببه ما عددت، أو ما هو في حكم ما عددت، فاعرف ذلك»[9]. فتأمّل كيف تحوّلت القواعد النحوية عند الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى شيء يتحرّك،



شيء يخفي وراءه أسراراً وظلالاً.

وقد نهج الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) السبيل نفسه الذي رسمه عبد القاهر؛ فقد حفل مصنّفه (الكشّاف) بنماذج لاتحصى حلّل فيها عديداً من الآيات والأشعار. فهو يقف عند دلالة التعبير بصيغة المضارع (تُصبح)، في قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً»[10]، قائلاً: «فإن قلت: هلاّ قيل: فأصبحَتْ، ولِمَ صُرفَ إلى لفظ المضارع؟ قلتُ: لنكتة فيه، وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان،

كما تقــول: أنعم عليَّ فلان فــأَروحُ وأغدو شاكراً له، ولو قلــتَ: فرُحْتُ وغَدوتُ لم يقع ذلك الموقع».[11]

ويشــرح في قولــه تعــالى: «وَإِذَا خَلَــوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِــمْ قَالُــواْ إِنَّا مَعَكْــمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ»[12] ترابط الجمل وتآلفها فيقول: «فإن قلت: أنَّى تعلّق (إنما نحن مستهزئون) بقوله (إنّا معكم)؟ قلتُ:هو تأكيد؛ لأنّ قوله (إنّا معكم) معناه الثبات على اليهودية وقوله (إنّما نحن مستهزئون) ردّ للإسلام ودفع له منهــم؛ لأنّ المستهزئ بالشــيء المستخفّ به منكــر له دافع؛ لكونه معتدّاً به، أو استئناف كأنّهم اعترضوا عليهم حين قالوا إنّا معكم، فقالوا: فمــا بالكم - إن صــحّ أنّكم معنا- توافقــون أهل الإسلام، فقالــوا: إنّما نحن مستهزئون».[13]

وتأمّل أيضاً تحليلــه العجيب للمكوّنات اللفظية والتركيبية في قوله تعالى: «وَاشْتَعَلَ الرَّأْســُ شَيْباً»[14]؛ فقد أشــار إلى فصاحة العبــارة مبيناً مــا فيها مــن تناسق وحسن تركيب،فقال: «شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشــاره في الشعر، وفشوِّه فيــه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مــكان الشعر ومنبته وهو الرأس وأخرج الشيب مميزاً، ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأســ زكريا؛ فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة».[15]

وفســر دلالــة اقــتران الليــل بالمفعول لــه والنهار بالحــال في قوله تعــالى: «اللَّهُ الَّــذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْــلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً»[16]، وعدم جعلهما حالين أو مفعولاً لهمــا لمراعاة حق المقابلــة والتطابق بينهما قائــلاً: «هما متقابلان من حيث المعنى؛ لأن كل واحــد منهما يؤدي مــؤدّى الآخر؛ ولأنه لو قيل: لتبصروا فيه، فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل ساكناً- والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج وساكن لا ريح فيه- لم تتميز الحقيقة من المجاز».[17]

أمّا ضياء الديــن بن الأثير فقد وجدناه يعتمــد هو أيضاً، في شــرح النصوص، على التحليــل والتطبيق في ضــوء معطيات علم النحو كما في قوله تعالى: «فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً، فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَــةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِــتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً»[18]. فقد رأى أن في الآية دليلاً علــى أن حملها به ووضعها إياه كانا في زمن قصــير؛ لأنه «عطف الحمــل والانتباذ إلى المــكان الذي مضت إليه والمخاض الذي هو

الطلق بالفاء، وهي للفور. ولو كانت كغيرها من النســاء لعطف بثمَّ التــي هي للتراخي والمهلة؛ ألا ترى أنه قد جاء في الأخرى «قُتِلَ الإِنسَــانُ مَا أَكْفَرَهُ×مِــنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ×مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ× ثُــمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ»[19]؛ فلمــا كان بين تقديــره في البطن وإخراجه منه مــدة متراخية عطف ذلــك بثّم، وهذا بخــلاف قصة مــريم عليه الســلام فإنها عطفت بالفاء».[20]

ثــم يذكر أن المفسريــن اختلفوا في مدة حمــل مريم عليها السلام؛ فمــن قائل إنها حملت كباقي النساء،ومن قائل إن المدة كانت ثلاثة أيام، وقيل أكثر من ذلك، بينما رأى هو أن الآيــة مزيلة للخلاف؛ لأنها دلّت صراحة على أن «الحمل والوضع كانا متقاربين على الفــور من غير مهلة، وربما كان ذلك في يوم واحد أو أقل».[21]

ومــن الآيات التــي تناولهــا أيضاً قوله تعالى«قُتل الإنسانُ مــا أكفره، من أيِّ شيء خلقــه، من نطفةٍ خلقه فقــدَّره، ثم السبيلَ يسّره، ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره»[22]. فقد قال مبيناً دلالة الحروف العاطفة: «ألا تــرى أنه لما قال (من نطفةٍ خلقه) كيف قال (فقــدَّره) ولم يقل (ثم قدره)؛ لأن التقدير لما كان تابعاً للخلقة وملازماً لها عطفه بالفاء، وذلك بخــلاف قوله (ثم السبيل يسَّره)؛ لأن بين خلقه وتقديره في بطن أمه وبين إخراجه منــه وتسهيــل سبيله مهلة وزمانــاً؛ فلذلك عطفه بثم. وعلــى هذا جاء قوله تعالى «ثم أماتــه فأقبره، ثم إذا شــاء أنشره»؛ لأن بين إخراجه مــن بطن أمه وبين موتــه تراخياً وفسحة، وكذلك بين موته ونشوره عطفهما بثــم. ولما لم يكن بين مــوت الإنسان وإقباره تراخ ولا مهلة عطفه بالفاء».[23]

وتظهر أيضاً إفادتــه من علم النحو في تحليله قولــه تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَــا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ× ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَــا الْعِظَامَ لَحْماً ثُــمَّ أَنشَأْنَــاهُ خَلْقاً آخَــرَ»[24]. يقول: «ففي الآية المتقدم ذكرها «مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ »[25] فعطف التقدير على الخلــق بالفاء؛ لأنه تابــع له، ولم يذكر تفاصيل حال المخلــوق. وفي هذه الآية ذكر تفاصيــل حاله في تنقّله، فبدأ بالخلق الأول وهــو خلق آدم من طــين، ولما عطف الخلق الثــاني الذي هو خلق النســل عطفه بثم لما بينهما من التراخي، وحيث صار إلى التقدير الذي يتبع بعضه بعضاً من غير تراخ عطفه بالفــاء، ولما انتهى إلى جعلــه ذكراً أو أنثى- وهو آخر الخلق- عطفه بثم».[26]

وهكـذا يمكـن القـول إن مدرسة عبد القاهـر كان لهـا الأثـر الطيـب في قراءة النصوص، وفي ملامسة إيحاءاتها واستكناه دلالاتها؛ فقـد استطاعت بثقافتها النحوية العميقـة، وبغوصها في أودية الكلام العربي ومجازاته أن تضع أمام الباحثين المنهج الذي يمكن أن يكون أحـد أهم الأدوات والمفاتيح التـي نلج بهـا فضـاءات النصـ العربي وأبعاده معتمديـن على معطيات علم النحو وقواعده.

الهوامش

١- القزويني وشروح التلخيص، د.أحمد مطلوب،ص:٢٢٨.

٢- ينظر الميزان الجديد، د.محمّد مندور ص:١٧٥.

٣- ينظر الموجز في شرح دلائل الإعجاز، د.جعفر دك الباب:١٢٣

٤- ينظر في هذا الشأن كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني؛ فقد حفل بتحليلات عجيبة للتقديم والتأخير والحذف وأسلوب القصر والجملة الحالية والإخبار بالفعل أو الاسم، وغيرها من الأساليب.

(*) يقصد بصاحب الكتاب شيخ النحاة عمْراً بن عثمان سيبويه المتوفّى في سنة ١٨٠هـ.

٥- دلائل الإعجاز: ٨٠-٨١.

٦- الأنبياء:٦٢.وسياق الآية «قَالُوا أأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ× قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إن كَانُوا يَنطِقُونَ».

٧- دلائل الإعجاز: ٨٤.

٨- دلائل الإعجاز:٦٥.

٩- دلائل الإعجاز:٦٥.

١٠- سورة الحج، الآية٦٣.

١١- الكشاف:١/٣٥.

١٢- سورة البقرة، الآية١٤.

١٣- سورة البقرة، الآية ١٤.

١٤- سورة مريم، الآية ٤.

١٥- الكشاف:٢/٤٠٥.

١٦- سورة غافر، الآية ٦١.

١٧- الكشاف:٣/٣٧٦.

١٨- سورة مريم، الآية ٢٢-٢٣.

١٩- سورة عبس، الآية ١٧-٢٠.

٢٠- المثل السائر:٢/٥١.

٢١- نفسه:٢/٥١.

٢٢- سورة عبس، الآية ١٧-٢٢.

٢٣- المثل السائر:٢/٥٠-٥١.

٢٤- سورة المؤمنون، الآية١٢-١٤.

٢٥- سورة عبس، الآية ١٩.

٢٦- المثل السائر:٢/٥٢.

المصادر والمراجع

١- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق الدكتورين محمد رضوان الداية وفايز الداية، دار الفداء، دمشق-١٩٨٣ ، ط١.

٢- القزويني وشروح التلخيص،د.أحمد مطلوب،منشورات مكتبة النهضة، بغداد-١٩٦٧، ط١.

٣- الكشاف، الزمخشري، دار المعارف، بيروت.

٤- المثل السائر، ابن الأثير،تحقيق: محمد محيي الدين،مطبعة مصطفى البابي الحلبي،مصر-١٩٣٩.

٥- الموجز في شرح دلائل الإعجاز، د.جعفر دك الباب، دار الجليل، بيروت-١٩٨٠،ط١.

٦- في الميزان الجديد، د.محمد مندور،مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة- مصر.

آفاق المعرفة



حوسبة المعجم العربي ومشكلاته اللغوية

عبد الله أبو هيف *

تواجه اللغة العربية تحديات راهنة ومستقبلية كثيرة مما يستدعي عمليات النهوض بواقعها ومجاوزة أوضاع التهميش والإهمال والركود في معالجة مشكلاتها المتصلة بمخاطر الاستتباع والهيمنة والعولمة، ما لم تواجه هذه المشكلات بالإسهام العربي في إنتاج مجتمع المعلومات، وثمة خطر أشد ناجم عن الضعف العربي الداخلي في النظر إلى هذه المشكلات لدى الجهات المعنية باللغة العربية ومن وزارات التربية والثقافة والإعلام والتعليم

* أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

العالي إلى المجامع اللغوية ومؤسسات البحث العلمي والنشر والمعنيين باللغة

العربيــة علماء وأدبــاء وفنانين وفنيين استسلامــاً أمام هــذه التحديات ومؤثراتها الأجنبيــة المتفاقمــة على أن الأمــر يتعلق بمسألــة حية هي أن مواجهــة العولمة تعني الإسهام في امتلاك سلطة المعرفة بمفهومها الجديــد الذي لا يخرج كثــيراً عن أهداف مجتمع المعلومــات في إثارته لقضايا حقوق الإنســان وحريــة الــرأي وإدارة الأنترنــت والتنــوع الثقافي، وتسميّ بعضــ الأطراف الأمر الأخير «الاختلاطــات الثقافية» عند التــذرع بمواجهة العولمــة، ويستدعي ذلك، بالنسبة للغة العربية ربط المعلوماتية بالتنمية اللغويــة لأن المشــكلات اللغويــة لا تتصل بالجانب اللغــوي وحده، فثمة اندماج واسع وعميــق للغة في مجتمع المعلومات المستقبلي إذا أردنــا المشاركــة فيــه والانضواء تحت لوائه، وإذا كان مجتمع المعلومات ما يزال في مرحلة الطفولــة كما أشارت القمة العالمية لمجتمع المعلومات (جنيــف ١٧ كانون الأول ٢٠٠٣)، فإن الإسهام في إنتاج المعلومات هو المنطلق الرئيس لمواجهة التحديات الراهنة والمستقبليــة، وتستند هذه المواجهة للتنمية اللغويــة إلى حلــول قومية ووطنيــة للبنية التحتية للمعلوماتية بجوانبها «الاقتصادية» و«حماية الملكيــة» و«الأمــن الثقافي» وغير ذلك والتعليــم المتخصص، وأظهرت القمة المذكورة أن تحدي اللغة وثيق الصلة بتحدي التعليم والتدريب التقني على المعلوماتية[١] لإدخال اللغة العربيــة في مجتمع المعلومات المقبل الذي بدأت علاماته وبشائره بالنسبة للكثيريــن بالإشــراق والفاعليــة، ولعلَّ أهم مشكلــة مستقبليــة بالنسبة للغــة العربية وتنميتهــا هي الإسهــام في تقليص الفجوة الرقمية بــين المجتمعــات العربية ومجتمع المعلومات.

وقد اخــترت أن أعالــج مسألة حوسبة المعجم العربية ومشكلاتــه اللغوية والتقنية أنموذجاً لتحديــات العصر أمــام مستقبل اللغة العربية.

١-مقدمة (تأطير علاقة اللغة العربية بالحوسبة):

شكلــت نظريــة المعلوماتيــة، ولا سيما الحوسبة، تحديــاً معرفياً بالنسبة للغة منذ نضوج هذه النظريــة النسبي في أربعينيات القرن العشرين، ورأى ميلكا افيتش Milka Ivit في كتابه «اتجاهــات البحث اللساني» Tends in Linguistics أن هذه النظرية طوّرت الدرس اللغــوي المعاصر بتعاضدها

مع المناهج المعرفية الحديثة مثل اللسانيات البنيوية «فيما وضحته من أن اللغة نظام يتشكل من وحدات محددة تحديداً دقيقاً، ويرتبط بعضها ببعض بعلاقات متبادلة، وأن هذه الوحدات محدودة من حيث العدد، وليست كبيرة، ولكن توليفاتها تمتد إلى ما لا نهاية. واعتماداً على هذه المقولة نجح علماء الرياضيات في تطبيق منهجهم التحليلي على اللغة».(٢)

ونهض البحث العلمي الذي أفضى إلى حوسبة اللغة على مميزات متعددة لابدّ من مراعاتها والأخذ بها مثل العلاقة بين المنطوق والمكتوب والعلاقة بين الصريح والضمني والعلاقة بين اللغة ومفاتيحها الرمزية والرقمية (شيفراتها) والعلاقة بين قواعد الاستصحاب اللغوي (أصل الوضع ـ أصل القاعدة ـ العدول عن الأصل ـ الرد إلى الأصل..) والعلاقة بين بلاغية اللغة وبلاغتها التي تؤدي إلى تفاقم عمليات التناقل المفتاحي الآلي (الشيفري)، والعلاقة بين اللغة والمفتاحية الآلية (التشفير)، والعلاقة بين الحوسبة والوحدات اللغوية المختلفة (المعجمية ـ الصرفية ـ الصوتية ـ النحوية ـ الدلالية ـ التركيبية) ضمن بناها الخاصة لدى التوليد والتحويل والتوزيع.. إلخ. ويتطلب ذلك الإجابة على مصاعب جمة هي تحديات في الوقت نفسه فيما يخص الأصول والزوائد من السوابق واللواحق ونحوية الآلة وإجراءاتها التقنية التالية، ناهيك عن مسائل التواصل القائمة على الحلول التقنية للمجاز والاستعارة والرمز والأمثولة والتمثيل الثقافي الذي ينتقل من ثقافة الكلمة إلى ثقافة الصورة، وفي سبيله للتأطير بالثقافة الرقمية.

لقد تنبه اللغويون العرب مبكرين إلى ضرورة العناية باللغة العربية والتنبه للمخاطر المحدقة بها فيما يفرضه العصر من تحديات، فأفتى عدد كبير من كبار الكتاب والأدباء عام ١٩٢٣ بفتاواهم لصون لغتهم وتطورها «إزاء المدنية الغربية الحديثة وما يجدر به أن يقتبسه منها إلى غير ذلك من المسائل الخطيرة التي تشغل أذهان المفكرين»(٣). ورأى المفكرون العرب مثل إخوانهم من اللغويين أن تحديث اللغة العربية يستدعي استخدام المعاجم والقواميس في شغلها الجديد و المعاصر بالاستفادة من مبتكرات الحضارة وعلومها التي تسير في العالم بخطوات سريعة لا يمكن اللحاق بها دون جهود مخططة ومبرمجة ومدروسة، وهو أمر لم يعد العرب أنفسهم له، بوصفها



مشكلة حضارية في اعتقادهم، وأضاف معن زيادة (لبنان) على سبيل المثال «أن حل المشكلة اللغوية يكون عبر المزيد من التعليم والثقافة وارتفاع مستوى العلم والمعرفة».(٤)

ولطالما دعا اللغويون العرب إلى تنمية اللغة العربية في العصر الحديث، ولا سيما تطوير المعاجم العامة والخاصة، فكتب عبد العزيز بن عبد الله (المغرب) أن المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي الذي تأسس عام ١٩٦٩ عني ببحوث العلماء والمجامع اللغوية وبنشاط الكتّاب والأدباء والمترجمين وبالتعاون مع شعب التعريب في البلاد العربية وبالعمل بكل الوسائل الممكنة على أن تحتل اللغة العربية مكانتها الطبيعية في الثقافة العربية، وبمتابعة حركة التعريب خارج حدود الوطن العربي، وأورد إنجازات هذا المكتب في تنسيق المصطلحات وتأليف المعاجم العلمية والمعاجم الخاصة بالمصطلحات الحضارية جزءاً من معجم المعاني والمعجم المقارن الهادف إلى تفصيح العامية وإصدار دورية فصلية «اللسان العربي».. إلخ(٥)، على أن هذه الجهود لم تلتفت إلى تأثير نظرية المعلومات على اللغة العربية، بينما تواصل هذا التأثير على اللغة منذ خمسينيات القرن العشرين.

واللافت للنظر أن غالبية اللغويين العرب غفلوا عن تأثيرات الحوسبة على الدرس اللغوي العربي، ومنه المعجم حتى وقت متأخر، فكتب أحمد أبو سعد (لبنان)

عـن «المعاجـم العربية في واقعهـا الراهن وخطـة تطويرها» عـام ١٩٩٧، واقتصر في رسم الخطة المتبعة في وضع المعجم المنشود على ثـلاث تجارب قام بهـا، لا علاقة بها بحوسبة المعجـم، وهي جمعه ألفاظ الحياة الدائرة علـى ألسنة العامة من أبناء الشعب في البيت والشارع والسوق والورشة والحقل ومجموع تراكيبهـم وعباراتهم الاصطلاحية التـي يأتـون بهـا في تضاعيـف كلامهم، وضمهـا في كتاب أصدره عام ١٩٨٧ بعنوان «قاموس المصطلحـات والتعابير الشعبية»، والتجربـة الثانية هي قيامـه بجمع طائفة كبيرة من التراكيب والعبارات التي استعملت في التاريـخ قديمه وحديثه بمعـانٍ تتجاوز معانيهـا المعجميـة إلى الدلالـة على معان أخـرى اكتسبتها من اصطـلاح الناس على استعمالها بهذه المعاني، وصدر هذا الجمع في كتاب عام ١٩٨٧ أيضاً، وجعل عنوانه «معجم التراكيب والعبـارات الاصطلاحية العربية القديم منهـا والمولد»، والتجربة الثالثة هي انصرافـه إلى جمع ما يظن من كلام الناس أنـه عامي، وهو صحيح فصيـح، أو ما هو وارد في قواميـس اللغة، ولكنه غير مستعمل في كتابات الكتّاب، وغرضه من ذلك أن يعيد الاعتبار لما صـحّ من كلام العامة داعياً إلى استعماله، لما فيه من وهج الحياة، ولاعتقاده أنه قـد تتوافر فيه الخصوبة وقدرة التعبير ما لا يتوافـر في غيره، وقد ظهر عمله هذا عام ١٩٩٠ بعنـوان «معجم فصيح العامة». وتأكد اشتغاله المعجمي بعيداً عن الحوسبة في المخطـط الواجب الالتزام بـه، ويتألف من إجراء عملية مسح شامل للمادة اللغوية تشمل نتاج كل العصور، ودراسة ما جمع من المادة اللغوية في ضوء ما تدعو إليه الحاجة منهـا وإسقاط الممـات والمهجور والحرص علـى إيـراد معلومات عن اللفـظ أكثر من مرادفه ونقيضه وتفسيره بما يتفق مع العلم وتقديم الشروح والتعريفات للقارئ خالصة مختصرة واضحـة لا غموض فيها، فالمعجم لإزالة العجمة لا للزيادة فيها، وأخذ التطور الدلالي بعين الاعتبار بإثبات معاني الكلمات بما يحقق دلالتها القديمة والوصل بينها وما تطور إليه معناها في مجال الاستعمال، وفتح صفحات المعاجم لكلّ ما تولّد حديثاً ودمجه في متنهـا والاستفادة مـن لغة العامة في ما وضعته لما ليس له مقابل في الفصيح.(٦)

ولعل الاهتمـام الأول بحوسبة اللغة هو الصادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، حين خصت إشكالية استعمال اللغة العربيـة في مجـال اللغة العربيـة بدراسة

مستفيضة قام بها عدد من المختصين بالمعلوماتية بالدرجة الأولى، فليس هؤلاء من علماء اللغة أو المشتغلين بها، غير أن أطروحاتهم في منتهى الأهمية مما يستدعي تضافر جهودهم مع اللغويين العرب باختصاصاتهم المتعددة، فقدم محمد بن ساسي (تونس) نبذة تاريخية عن استخدام اللغة العربية في مجال المعلوماتية، اقترح مروان البواب ومحمد حسان الطيان (سورية) وسالم الغزالي (تونس) أسلوب معالجة اللغة العربية في المعلوماتية (الكلمة والجملة عند الباحثين الأولين والمعالجة الآلية للكلام المنطوق عند الثالث)، ووضع محمد مراياتي (سورية) توصيفاً عملياً لتعامل الأجهزة والمعدات مع الحرف العربي، ووضع محمد بن أحمد (تونس) رؤية علمية للغة العربية والنظم الحاسوبية والبرمجيات، وأكمل أحمد أبو الهيجاء (الأردن) هذه الرؤية بتحديد المواصفات والمقاييس لتعريب المعلوماتية، على أن اهتمام هؤلاء الخبراء لم يجاوز تشخيص إشكالية حوسبة اللغة العربية إلى حوسبة مكوناتها مثل المعجم والمفتاحية الآلية لعلائقه الكثيرة الناجمة عن هذه الحوسبة، فذكر محمد بن ساسي على سبيل المثال أن الإشكالية قائمة على تقديم حلول لكتابة الحروف العربية لبعض الأقطار والمنظمات العربية التي تطالب بأجهزة معربة، ويستلزم ذلك وضع مفتاحية آلية (شفرة) عربية موحدة حتى يلتزم بها كل مسوقي تجهيزات الحاسوب، لأن ذلك سند البرمجيات في تعريب التطبيقات الحاسوبية والبرمجيات، وهي عملية تهتم خاصة بإيجاد حد بينيّ وبين البرنامج والمستفيد باللغة العربية، و«تعريب نظم تشغيل الحواسب وتعريب البرمجيات التي أعدت بطريقة تساعد على تعريبها، ذلك في نطاق ما يسمى بعملية تدويل البرمجيات، وهي منهجية اعتمدت حديثاً لتغطية الحاجيات المتزايدة لملاءمة البرمجيات إلى لغات ومحيطات ثقافية واجتماعية معينة».(٧)

وأفاد محمد مراياتي أن ثمة إشكالية تستدعي مضاعفة الجهود لوضع تعامل الحرف العربي مع الأجهزة والمعدات مثل:

«١- ترميز الحرف المكتوب وتقييسه.

٢- ترميز الحرف المنطوق.

٣- توزع الحروف العربية على لوحة الملامس

٤- تقييس الأقلام العربية وإظهارها على الشاشات والطابعات.

٥- تحرير النصوص وتنضيدها.

٦- معاملة الحرف العربي على شبكات الاتصال من حيث نقل المعلومات أو أمنها.

٧- ضغط النصوص العربية بغية خزنها في ذاكرة الحاسوب اقتصادياً.

٨- تحاور المعوقين مع الآلة باللغة العربية».[٨]

واعترف هؤلاء الخبراء، على أهمية إنجازهم في حوسبة اللغة العربية خلال ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته أن السعي لحوسبة اللغة مازال قاصراً، «ولابدّ من الإسراع في العمل في نطاق لجنة عربية موحدة تعمل تحت مظلة عربية حتى نتمكن من التوصل إلى مواصفات عربية موحدة».[٩]

وكانت جهود نبيل علي (مصر) الأبرز في درس حوسبة اللغة العربية من خلال الشروع في البرمجيات التي ميزت بين هندسة اللغة (هندسة) واللغويات الحاسوبية (علوم الحاسوب) ونظرية المعرفة (الفلسفة) تمهيداً لوضع إطار تقانة المعلومات من منظور لغوي. إن علاقة اللغة بهندسة الحاسوب متبادلة حين يستخدم الحاسوب لإقامة النماذج اللغوية وتحليل فروعها المختلفة، وذكر قائمة من تطبيقاتها في مجال اللسانيات هي:

- الصرف الحاسوبي
Computational Morphology.

- النحو الحاسوبي
Computational Syntax.

- الدلالة الحاسوبية
Computational Semantics.

- المعجمية الحاسوبية
Computational Lexicology.

- علم النفس اللغوي الحاسوبي
Computational Psycholinguistics.

ويستدعي كلّ مجال من هذه القائمة تطويراً للغات البرمجة التي تقرّب بين «اللغات الاصطناعية واللغات الطبيعية بهدف تسهيل التعامل مع الكومبيوتر دون وسيط برمجي. إن الهدف الأسمى لبرمجة الكمبيوتر هو أن يتعامل الفرد معه مباشرة بلغته الطبيعية، لا من خلال لغات اصطناعية مثل البيسيك والفورتران والكوبول وخلافه.. يمكننا القول إن علم اللغة الحديث قد دخل إلى مصاف العلوم الدقيقة من المدخل السليم، فقد قام على النموذج الرياضي للنحو التوليدي الذي يتميز بقابلية عالية للمعالجة الآلية Computationally وبالتالي للتطبيق الهندسي العملي».[١٠]

ويلاحظ أن الدراسات اللسانية العربية بتعبير مازن الوعر (سورية) قد حوت «محاولات جادة لتطويع تقنيات الحاسوب للغة العربية بما يتوافق مع شخصيتها ومحارفها ورسومها من جهة، ولمواءمة قواعد اللغة العربية وخصائصها للحاسوب من جهة أخرى بادئة ببرمجة الحروف والنصوص العربية بهدف تحسين الاتصال الآلي بين الإنسان والحاسوب».(١١)

ونجم عن هذه المحاولات إشكاليات تتطلب المعالجة المستمرة، ولا سيما المعرفة اللغوية الصرفية والصوتية والتركيبية والدلالية كما أشرنا في مطلع البحث، إذ لا يتعلق الأمر بالاشتقاق والنحت أو بظاهر الألفاظ فحسب، بل يجاوزه إلى التأصيل والمقارنة والعقلنة والنظم المستوعبة لثنائيات اللغة الجمة كالأصيل والدخيل والفصيح والعامي والعربية والأجنبية والعربية والفئوية المحلية.. إلخ.

وتتفاقم هذه الإشكاليات ما لم تتلاق الوظائف الحاسوبية في تثمير أبعاد اللغة العربية وثراء معانيها وخصوصيات بناها كالحاسوب النسبي Analog والرقمي Digital نحو تفعيل النظم الإشارية والرمزية والدلالية للكلمة في نسيجها التركيبي والمجازي.

صار لازماً وميسوراً في الوقت نفسه تحديث اللغة العربية من خلال الحوسبة للإجابة على المشكلات اللغوية والتقنية الكثيرة، ومنها حوسبة المعجم العربي.

٢- اللغة العربية وتحديات الحوسبة:

ثمة تحديات كثيرة للحوسبة أمام اللغة العربية من النشر الإلكتروني وأهمية تعريبه إلى شمولية منظومة اللغة العربية بالحاسوب، وأكتفي بالإشارة إلى قضية التفكير العربي بالحاسوب وتطوير استطاعة اللغة العربية المعلوماتية تمهيداً للنظر في حوسبة المعجم العربي ومشكلاته اللغوية والتقنية.

إن النظر في تحديات المعلوماتية أمام اللغة العربية يستدعي مواجهة قضية التفكير بالحاسوب، كتابة وتثقيفاً واستعمالات تقنية في المهن والأعمال الكثيرة التي يقوم بها الحاسوب. وثمة من يبادر إلى القول إننا ربحنا أشياء مثل السرعة والتخزين والخيارات الآنية ولكننا خسرنا أشياء مثل التدقيق والتأمل والمراجعة الأسلوبية. غير أن القضية أعقد من ذلك بكثير، لأنها القضية متعددة الوجوه والإشكاليات من النطق إلى الكتابة إلى الإيصال إلى الابتكار والإبداع مما يتعلق بطبيعة اللغة نفسها وبخصائص اللغة العربية في استخداماتها المعلوماتية،

وقد ثبت بالممارسة طواعية اللغة العربية لتقانات المعلوماتية سواء في أساليب معالجة الكلمة والجملة، أو في المعالجة الآلية للكلام المنطوق، أو في تعامل الأجهزة والمعدات مع الحرف العربي، والأهم قابلية اللغة العربية واستطاعتها المثلى لاحتواء النظم الحاسوبية والبرمجيات، مثلما ثبت أيضاً سعة ميادين استخدام اللغة العربية في المعلوماتية كالتوثيق والتخزين والتعليم والتعريب والإبداع والاتصال، فحُلت المشكلات المتصلة بالحرف العربي، وصارت المعدات والأجهزة متوافرة نسبياً، ولاسيما أعمارها ومدى انتشارها الإقليمي والمقدرة على الإنفاق المتواصل عليها لمجاوزة صعوبات إنجاز برمجيات ونظم متداخلة ومتطورة، على أن أمراً آخر لابدّ من مراعاته وتقديره وهو أن النظم الأساسية ونظم التشغيل في مجملها أصبحت متاحة باستعمال الحرف العربي، وساعد على ذلك اتساع سوق المعلوماتية العربي مما جعل شركة «ميكروسوفت» تتيح للتداول المستمر عدة نظم معلوماتية مكروية تأخذ بعين الاعتبار خصوصيات اللغة العربية، حتى غدا ميسوراً استخدام اللغة العربية في ميادين الابتكار والإبداع والاتصال عن طريق الذكاء الاصطناعي وتطويع الخيال المعلوماتي وتقاناته لحاجات استعمال اللغة العربية.

ويذكر محمد بن ساسي (تونس) إشكاليات متعددة لابد للمعنيين باستخدام اللغة العربية في المعلوماتية أن يواجهوها، شأن المشتغلين باللغات الأخرى، بالنظر إلى التقدم الهائل والمتسارع لتقانات المعلوماتية وإمكاناتها الجبارة مثل «الإشكالية التي كانت متمحورة حول الحرف العربي فأصبحت الآن متمركزة حول اللغة ككل من مصطلحات إلى معالجة الكلمات والجمل (استخراج الجذور ـ تطبيق الأوزان ـ وضع خوارزميات للغة) من ناحية، وتوفير تطبيقات تلبي حاجة المستفيد من ناحية ثانية. كما أن التقييس لم يؤدّ دوره إلا في بعض الحالات النادرة، فالمواصفات العربية لم تطبق في غالبيتها، لأن الأقطار العربية لم تتخذ الإجراءات العملية لتطبيقها، ولم تقم بالعمل التحسيسي اللازم. وثمة أيضاً ضعف المصطلحات وفقدانها الذي أصبح عائقاً مهماً أمام تعريب المعلوميات ونشرها والاستفادة منها على أحسن الوجوه».(١٢)

إن ثمة جهوداً كبيرة مبذولة اليوم بين علماء العربية والمعلوماتية لمواجهة مثل هذه الإشكاليات، وأشير، على سبيل المثال،

إلى جهد توصيف العربية، مثلما فعل نهاد الموسى (الأردن)، تمهيداً لإدغام اللغة العربية وقواعدها وخصائصها في المعلوماتية، إذ «يتوجه الوصف بكلّ ما ينظمه من عرض النظام اللغوي إلى الإنسان بما ركب في العقل الإنساني من قابلية لاستدخال هذا النظام بقواعده ومعطياته وآليات عمله في معالجة ذلك وبرمجته. وهي قابلية كامنة في العقل الإنساني تزوّده بحدس قادر على ملء ثغرات الوصف».(١٣)

ومبلغ القول، حسب الموسى، أن الوصف للإنسان وأن التوصيف للحاسوب، فللإنسان حدس، وليس للحاسوب حدس، وللإنسان فهم وليس للحاسوب، حتى الآن، فهم. ويفيد هذا الرأي أن توصيف اللغة (من أجل استخدامها في الحاسوب مثلاً) يتخذ بعدين آخرين: كمياً ومنهجياً. أما الكمي فيتعلق بالذاكرة الحافظة؛ ذلك أن ذاكرة الحاسوب تفوق الذاكرة الفردية من هذه الجهة؛ إذ يمكنه استيعاب معجمات اللغة ونصوصها بل تراثها جميعها، فإذا رتب له المرء مفاتيح ذلك أمكنه استدعاء كل ما شاء من المعطيات التي يشتمل عليها بأسرع وأوسع مما تطيقه الذاكرة الفردية.(١٤)

ولو تأملنا فضاءات استخدام اللغة العربية في نظم تشغيل المعلوماتية لهالتنا النتيجة على الرغم من أن مجهودات التعريب، حسب محمد بن أحمد (تونس)، لم تكن في مستوى هذه الأهمية الوظيفية، ويمكن تفسير هذا العزوف بصعوبة الموضوع وبضرورة تشريك أو إقناع مصنعي الحواسيب بهذه الضرورة، فمازال موقف الشركات المصنعة للحواسيب متوسطة الحجم وكبيرته يعتمد على إقرار ضرورة تشغيل الحواسيب في محيط ثقافي مغاير للمحيط الذي شهد نشأتها دون الاقتناع بضرورة استنباط نظام تشغيل يكون عربي التصميم والتطوير والاستفادة.

أي أن مجهودات شركات تصنيع الحواسيب خيّرت الاعتماد على قدرتها الذاتية بالتعاون في بعض الأحيان مع خبرات عربية عاملة تحت لوائها لإصدار نسخ عربية أو بصفة أدق نسخ من نظم التشغيل قادرة على التعامل مع الحرف العربي تحصيلاً ومعالجةً واسترجاعاً وعرضاً على الشاشات والطابعات على اختلاف أنواعها.

وبالرغم من تعدّد المعوقات فإن عزيمة تطويع تقانة المعلوماتية في مختلف أبوابها كانت وراء عدد من التجارب لأقلمة نظم التشغيل، وإن توجهت معظم هذه التجارب إلى نظم تشغيل الحواسيب العائلية والحواسيب الشخصية.

وقد باتت تجارب تشغيل المعلوماتية

باللغة العربية معروفة، وغدت منطلقاً للتطوير القائم والمستمر من حيث المنهجية والغائية، ولعله من المفيد أن نشير لبعض هذه التجارب:

فالتجربة الأولى تمت بالكويت من خلال مشروع الأستاذ عبد الرحمن الشارخ وشركته «العالمية» التي صنعت حاسوب عائلي «صخر» يعمل بنظام MSX الياباني والذي تمت كتابته بالعربية مما جعل حواسيب من صنف «صخر» تشتغل في محيط عربي أصيل.

أما التجربة الثانية فهي التي انطلقت ضمن شركة «أليس ALIS» التي بعثها الأستاذ بشير حليمي الجزائري المنشأ بكندا والتي حاولت تصميم نظام عربي ARABIC DOS موائم لنظام MS-DOS المطوّر من طرف بيت البرمجيات الأمريكية MICROSOFT لصاحبها Bill Gates قبل أن تتفق الشركتان على إدماج النسخة العربية ضمن قائمة النسخ المتوفرة بعديد اللغات في نظام التغشيل MS-DOS.

أما التجربة الثالثة فهي التي حاول من خلالها بعض الخبراء العرب من توفير نظام اليونيكس UNIX بالعربية تماشياً مع ما لاحظوه من أهمية متزايدة لهذا النظام، ولسعة استغلاله سواء على الحواسيب الصغرى أو المتوسطة أو الكبرى.[١٥]

ولعلنا بعد ذلك نجاوز الاهتمام بقضية التفكير بالحاسوب إلى المضي عميقاً في تطوير استخدام اللغة العربية واستطاعتها المعلوماتية.[١٦]

٣- حوسبة المعجم العربي:

عدّ محمود فهمي حجازي (مصر) حوسبة المعجم من أهم مجالات علم اللغة الحاسوبي وأكثرها تلبية للمتطلبات العلمية والثقافية في الدول المتقدمة في العالم المعاصر. إذ «يقدم الحاسوب خدمات كبيرة للبحث اللغوي والأدبي من خلال المعاونة في إعداد معجمات المدونات، والمقصود بمعجمات المدونات كل الأعمال المعجمية التي تقوم على الإعداد المعجمي لمجموع الكلمات الواردة في نص محدد». وتتجلى أهمية الحاسوب في صناعة المعجم فيما يلي:

«- تعرف الحروف والكلمات آلياً.
- تخزين المادة.
- ترتيب المادة طبقاً للنظام المطلوب.
- استرجاع المادة أو بعضها.
- استكمال أجزاء من المادة أو من الشرح.

- تعديل بعض المعطيات.
- حذف بعض المعطيات.
- النقل المباشر إلى المطبعة.
- تجديد المعجمات بسهولة.
- الحصول على أجزاء محددة من داخل المادة المخزونة لبحثها». (١٧)

وحدد حجازي فوائد حوسبة المعجم الأخرى في المجالات التالية:

ب- إن بنك المعطيات اللغوية يتجاوز تخزين الكلمات إلى النصوص:

- يقوم على الحاسوب في كل العمليات المذكورة (في تقصي أهمية الحاسوب في صناعة المعجم).
- يخزن النصوص كاملة.
- يفيد في تعريف سياقات الاستخدام.
- في دراسة الأبنية الصرفية والتصريفات.
- في دراسة العلاقات النحوية بين المفردات.
- في دراسة مستويات الاستخدام: علمي/ صحافي/ رسمي/ ودي.. إلخ.

ج- بنك المصطلحات شكل من أشكال الحاسوب يقتصر على المصطلحات وما يتصل بها:

- يخزن المصطلحات مصنفة طبقاً للتخصصات العامة والدقيقة.
- يذكر المصطلح و مقابله بلغة أخرى أو أكثر من لغة.
- يذكر مع المصطلح تعريفاً له.
- يمكّن من صنع معجمات المصطلحات وتجديدها وطبعها بسهولة.
- يعاون المترجمين المتخصصين بتقديم المصطلحات لهم.
- تكون الإفادة من البنك عن طريق طرفيات Terminal أو بطبع المصطلحات على قرص مدمج CD». (١٨)

وأضاف حجازي فائدة أخرى للحاسوب في مراحل صناعة المعجم لدى متابعة نمو المفردات وتكوّن التراكيب في اللغات العالمية الكبرى مما يتيح لصناعة المعجمات بعد ذلك المساهمة في إحداث نهضة حقيقية في سياق ثقافي مجتمعي.

ووجد مازن الوعر أن حوسبة المعجم العربي هامة جداً في وضعه وتنظيمه، «ولكنه يفتقر إلى من يقوم بدراسته، لأنّ من يبحث في الاتجاه المعجمي قليل أو نادر في العالم العربي، علماً أن هناك معاجم حاسوبية وإلكترونية متنوعة في الغرب تساعد على السرعة والدقة في إيجاد المصطلح للمفهوم المستحدث». (١٩)

واجتهد خبراء الحواسيب في توصيف

حوسبة المعجم، بالنظر إلى منظومتين هما معجم الوحدات الصوتية وبرنامج التأليف اعتماداً على نظام تأليف الكلام العربي، إذ تخزن الوحدات الصوتية في معجم، وتكون قابلة للاستعمال في كلمات أخرى، وتعالج «كل واحدة منها بوضع علامات على الجزء الثابت في كل من الصوتين اللذين يكونان الوحدة وعلى فترات التذبذب للأصوات المجهورة»(٢٠)، وإذا كانت حوسبة المعجم تصل إلى تخزين الوحدات الصوتية ومعالجة الكلام المنطوق، فإن معالجة الكلام المكتوب أيسر، وتفيد حوسبتها في البعد الاتصالي من جهة، وفي خدمة اللغة العربية حفاظاً على الهوية الثقافية من جهة أخرى.

وقد بدأت بعض المجامع اللغوية العربية وإنجاز مشروعاتها في إطار «حوسبة الذخيرة اللغوية العربية» مثل المجمع الجزائري للغة العربية؛ بهدف «حيازة أهم نتاج اللغة العربية من أدب وعلوم على وسائط حاسوبية لتوفير بنك معطيات نصية عربية محوسب يمكن نشره عبر شبكة الأنترنت ومن خلال وسائل رقمية ليتسنى لأي مستخدم الاطلاع عليه بكلّ يسر».(٢١)

وقد أفاد موسى زمولي (الجزائر) إلى علامات هذا المشروع وأسئلته قبل الخوض في الأجوبة واقتراح الحلول من حيث بداءة مشروع الحوسبة وشروط انتقاء النصوص لضمّها للذخيرة والمستخدم المستهدف لذخيرة اللغة العربية المحوسبة، فثمة مواقع عربية كثيرة على شبكة الأنترنت تجعل قابليات الوصول إلى برمجيات عديدة متاحة مثل نظام القرآن الكريم ونظم المواريث والحديث الشريف.. إلخ، وضرورة التنسيق فيما يتعلق بإنشاء شبكة بيانات حاسوبية عربية ومواجهة العوائق الفنية التي تعترض حيازة هذه الذخيرة اللغوية. وعرض زمولي أمثلة من التطبيقات الحالية لحوسبة اللغة العربية التي لا تواكب عمليات حوسبة اللغة العربية، ومنها حوسبة المعجم العربي، وأورد عدداً من التوصيات النافعة في هذا الإطار مثل اختيار المؤلفات واختيار المنهجية وتحديد الأولويات والاستناد على أبحاث اللسانيات وضبط الجانب الفني والمحافظة على سلامة المشروع من خلال اعتماد قواعد وقائية وأمنية وتأمين الموارد البشرية اللازمة والتمويل والتشريعات التي تحثّ المثقفين والمراكز الاتصالية على توفير إنتاجهم على وسائط رقمية لتسهيل مهمة الاستفادة منها.(٢٢)

وتؤدي حوسبة اللغة العربية إلى تسيير

شبكة الأنترنت التي تجمع بين «عدة شبكات معلوماتية فيما بينها لتسمح للمشتركين فيها في كل أرجاء العالم بالتحاور فيما بينهم وتبادل المعلومات»، وهذه «أحدث وسيلة اتصال تختزل الوقت والمسافات، وتساهم في رفع مختلف الحواجز التي تحول دون المرور الحرّ للمعلومات إرسالاً واستقبالاً، سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى المؤسسات أو الهيئات».[٢٣]

وتلبي شبكة الأنترنت خدمات كثيرة من نظم نقل الملفات والبريد الإلكتروني إلى النقاش الحرّ والتعليم عن بعد والاطلاع على المعلومات، وتندرج الملفات النصية ومثيلاتها في خدمة حوسبة المعجم العربي مثل الصور الثابتة والأصوات والصور المتحركة والواقع الافتراضي والنص المنهل Hyper text (وهو النص الذي يكون مسجلاً في ملف يتضمن وسائط اتصالية متعددة كالنص والصورة والصوت.. إلخ).

وقد أنجز خبراء المعلوماتية في سورية المعجم الحاسوبي ضمن قاعدة معطيات data base وعلى القوانين الصرفية والنحوية لقواعد الاشتقاق. ويحتوي على جميع الجذور المعجمية الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية. وقد بلغ عددها في إحصائهم ١١٣٤٧ جذراً توزعت على النحو التالي:

١١٥ جذراً ثنائياً، وهذه الجذور هي تراكيب لا اشتقاق فيها.

٧١٩٨ جذراً ثلاثياً، وهي أكثر الجذور خصوبة.

٣٧٣٩ جذراً رباعياً، وهي دون الثلاثية في الخصوبة.

٢٩٥ جذراً خماسياً، وهي أقل الجذور خصوبة.

واعتمدت هذه الإحصائية على خمسة معاجم أصول هي «جمهرة اللغة» لابن دريد و«تهذيب اللغة» للأزهري، و«المحكم» لابن سيده، و«لسان العرب» لابن منظور و«القاموس المحيط» للفيروز أبادي، بلغت في مجموعها ٤٣ مجلداً، ومما يجدر ذكره أن المعجم الأكبر «تاج العروس من جواهر القاموس» ستنجز حوسبته في مطلع هذا العام حسب إعلان المجلس الوطني في الكويت.

كما يحتوي المعجم الحاسوبي على جميع الأفعال الثلاثية والرباعية، المجردة والمزيدة، التي بلغ عددها في الإحصائية ٢٣٤٩٠ فعلاً، وجميع هذه الأفعال المخزنة في المعجم الحاسوبي سماعية، سواء في ذلك أبواب تصريفها الستة للأفعال الثلاثية المجردة

أو صيــغ مزيداتها الخمســ عشرة للأفعال المزيــدة (١٢ للثلاثــي المزيــد و٣ للرباعي المزيــد)، واشتمل المعجــم الحاسوبي أيضاً على المعــارف المعجميــة السماعية التي لا يطّرد فيها قياس نحو أبواب تصريف الأفعال وحروف التعديــة ومصادر الأفعال الثلاثية والأسماء الجامدة والصفات المشبهة.. إلخ. أما مــا يطّرد فيه القياس كالأسماء المشتقة ومصـــادر الأفعال فوق الثلاثية، فإن المعجم خلو منها، لأن الحاسوب قادر على توليدها وفق قواعد الاشتقاق المحددة لها، ولا حاجة لأن تكون مخزنة في معجمه.[٢٤]

٤ – خاتمة:

لقــد أظهــرت دراسة حواسبــة المعجم العربـــي أن المشــكلات اللغويــة والتقنيــة الناجمة عن هذه الحوسبة كثيرة بالنظر إلى خصوصيات اللغة العربيــة وتراثها العريق والــثرّ من جهة وأهميــة تحديثها، ولاسيما معجمها من جهة أخرى سبيلاً لصون الذات وتثمير معطياتها التاريخية والوجودية باللغة أداة لسلطة المعرفة في صوغها الجديد.

المصادر والمراجــع

١- قمة المعلومات (جنيف ٢٠٠٣) هل تقلص الفجوة الرقمية؟ في مجلة «السياسة الدولية» (القاهرة)، العدد ١٥٥ ، يناير ٢٠٠٤ ، ص ٦٩-٨٦.
٢- اتجاهــات البحــث اللســاني: ميلكا افيتش، (ترجمة سعد عبد العزيــز مصلوح ، ووفاء كامل فايد) المشروع القومي للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص٤٣٢.
٣- «فتــاوى كبــار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغــة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية»، وزارة الثقافة ، دمشق، ٢٠٠٣ ، ص٣.
٤- المصدر نفسه . ص٢٢٨.
٥- «المعاجــم الحديثــة العامــة والخاصة»: عبــد العزيز بن عبد الله: في كتاب «تنميــة اللغة العربية في العصر الحديث»، وزارة الشؤون الثقافية ، تونس ، ١٩٧٨ ، ص١٣٢-١٤٧.
٦- المعاجــم العربيــة في واقعهــا الراهــن وخطة تطويرها: أحمــد أبو سعد، القاهــرة ، ١٩٩٧ ، ص٢٢٤-٢٢٥.
٧- استعمــال اللغــة العربية في مجال المعلوماتية . نبذة تاريخية: محمد ابن ساسي، في كتاب «استخدام اللغة العربية في المعلوماتية»، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، ١٩٩٦ ، ص١٩.
٨- تعامل الأجهزة والمعدات مع الحرف العربي: محمد مراياتي، في المصدر السابق نفسه، ص٧٩.

٩- المواصفات والمقاييس لتعريب المعلوماتية: أحمد أبو الهيجاء، في المصدر السابق نفسه، ص١٨٠.
١٠- الثقافة العربية وعصر المعلومات: نبيل علي، سلسلة عالم المعرفة ٢٦٥، الكويت، ٢٠٠١، ص٢٥٧-٢٥٨.
١١- اللسانيات والحاسوب واللغة العربية: مازن الوعر، في صحيفة «رؤى ثقافية» (دمشق)، العدد ٤، ١٣ أيلول ٢٠٠٣، ص٢٣.
١٢-«استخدام اللغة العربية في مجال المعلوماتية: نبذة تاريخية»، مصدر سابق، ص٢٠.
١٣-«التوصيف: مقاربة في حوسبة العولمة»: نهاد الموسى، في كتاب «مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية»، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ٢٠٠١، ص٣٩٠.
١٤-المصدر السابق نفسه، ص٤٠٤-٤٠٥.
١٥-«اللغة العربية والنظم الحاسوبية والبرمجيات»: محمد بن أحمد، في كتاب «استخدام اللغة العربية...»، مصدر سابق، ص١٢٥.
١٦-«اللغة العربية وتحديات العولمة»: عبد الله أبوهيف، في كتاب «مؤتمر اللغة العربية أمام تحديات العولمة»، بيروت، ٢٠٠٢، ص٤٦٦-٤٩٨.
١٧-المعجمات العربية وموقعها بين المعجمات العالمية: محمود فهمي حجازي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٢، ص١٨.
١٨-المصدر السابق نفسه. ص١٨-١٩.
١٩-مصدر سابق: مازن الوعر، ص٢٣.
٢٠-المعالجة الآلية للكلام المنطوق: التعرّف والتأليف: سالم الغزالي، في كتاب «استخدام اللغة العربية في المعلوماتية» مصدر سابق، ص٧٢.
٢١-«التجارب الراهنة حول حوسبة النصوص التي تعتمد اللغة العربية»: موسى زمولي: في مجلة «اللغة العربية»، الجزائر، العدد ٧، خريف ٢٠٠٢، ص٢٧٤.
٢٢-المصدر السابق نفسه، ص٢٧٤-٢٨٨.
٢٣-«الأنترنت. دراسة اتصالية ومصطلحية»: محمود ابراقن، المصدر السابق، ص٣٠٠.
٢٤-أسلوب معالجة اللغة العربية في المعلوماتية: الكلمة. الجملة: مروان البواب، (ومحمد حسان الطيان)، في كتاب «استخدام اللغة العربية في المعلوماتية»، مصدر سابق، ص٢٧-٢٨.

آفاق المعرفة



بوزيدون: أول فيلسوف وعالم موسوعي من سورية

د. إحسان هندي ❁

يعتقــد أغلب القــرّاء بأن الفيلسوف أرسطو كان أغــزر الفلاسفة ثقافة وعلمــاً في مرحلة ما قبل الميلاد، وأن الأثر الذي تركه بالنسبة لمن جاء بعده كان من الأهمية إلى الحد الذي سمي به «المعلم الأول»!

ونحن لا نريد هنا أن نحطّ من مكانة أرسطو ولكننا نكتفي بالإشارة إلى أن الشهرة التي اكتسبها قد عَتَّمت جزئياً على شهرة فلاسفة موسوعيين آخرين لا يقلــون عنه شهرة مجداً، ومن هؤلاء «بوزيدون» أو بالأحرى «بوسيدونيوس Poseidonius»

❁ أديب وباحث سوري

العمل الفني: الفنان مطيع علي

الفيلسوف والعالم الموسوعي السوري الذي عاش بين منتصف القرن الثاني والقرن الأول قبل الميلاد.

وهذا الفيلسوف- العالم هو مثل رفاقه من مؤسسي ومبدعي «الحضارة الهيلينيستية»[1] معروف في الغرب ومجهول من قبل أبناء وطنه في الشرق، ولذا أخذنا على عاتقنا تكريس هذا المقال التعريفي به، وذلك ضمن فقرتين نتحدث في الأولى عن حياته، وفي الثانية عن إبداعاته في مجال الفلسفة والعلوم.

أولاً: لمحة عن حياته:

ولد بوسيدونيوس في مدينة أفاميا السورية الواقعة على ضفة نهر العاصي[2] عام ١٣٥ ق.م. وبعد قضاء فترة طفولته وفترة تعليمه الأساسي في هذه المدينة ارتحل إلى روما لإتمام تعليمه العالي، وهناك درس «الفلسفة الرواقية Stoïcisme» على يد أستاذه «بانا يسيوس Panaetius».

وفي عام ٩٥ق.م –وكان قد بلغ الأربعين من عمره- هاجر إلى جزيرة رودس، التي كانت على أعلى درجة من الازدهار العلمي، وهناك أنشأ مدرسة لتعليم الشباب اليونان والرومان مبادئ الفلسفة الرواقية والعلوم الكونية.

وبلغ من اتساع علمه وحنكته السياسية أن حكومة رودس أعطته جنسيتها في العام التالي لوصوله، ثم اعتمدته سفيراً لها في روما خلال سنتي ٨٧ و٨٦ق.م في عهد القنصلين (ماريان Marian) و (سولان Sullan)، وأن الخطيب الروماني المعروف «شيشرون» قد سافر من روما إلى رودس سنة ٧٧ق.م خصيصاً لكي يستمع إلى محاضراته، وبقي على اتصال معه بالمراسلات بعد عودته إلى روما، كما أن القائد الروماني «بومبيوس»، الذي احتل سورية عام ٦٧ق.م، عرّج في طريق عودته من سورية إلى روما على جزيرة رودس لكي يستمع إلى محاضرات بوسيدونيوس ويجتمع به[3]، وقد حاول أن يقنعه بكتابة تاريخ حياته ولكن بوسيدونيوس اعتذر بلباقة عن ذلك، كما زاره من مفكري روما الآخرين كل من (فيلليوس) و(كوتا) و(لوسيلليوس)..

وقام بوسيدونيوس بعد ذلك سياحات كثيرة في بلاد اليونان وإسبانيا وإفريقيا وصقليا ودالماسيا ومصر وغاليا[4] وبلدان أخرى، وما كان بوسعه أن يقوم بكل هذه السياحات لولا تزويد السلطات السياسية في روما له بجواز سفر خاص نظراً لمكانته العلمية والسياسية في رودس.

وبفضل زياراته لهذه المناطق الجغرافية جميعاً تمكن من وضع خارطة للعالم المعروف في ذلك الوقت.(٥)

ولم تكن رحلات بوسيدونيوس هذه لمجرد السياحة بل كان يستغلها لإجراء بحوث ميدانية، ففي مدينة الإسكندرية قام بحساباته الأولى لقياس محيط الأرض، وفي مدينة قادِس الإسبانية درس حركة الأمواج، وفي الجزر الإيونية، الواقعة قرب صقلية درس البراكين، وفي بلاد الغول (غاليا) درس طبائع السِلْتيين Celts.

ثانياً: مؤلفاته:

كتب بوسيدونيوس اثنين وخمسين كتاباً، ومن المؤسف أنه لم يصلنا أي كتاب كامل منها، وإنما بقيت بعض المقاطع، كما أن التاريخ حفظ جزءاً آخر منها عبر مؤلفات الكتّاب الآخرين.

ولم يكرر بوسيدونيوس نفسه في أي واحد من هذه الكتب حيث إن كلاً منها مستقل في بابه.

وها هي لمحة موجزة عن الموضوعات التي كتب فيها:

١- في الفلسفة:

ترأس بوسيدونيوس المدرسة الرواقية في جزيرة رودُوسْ التي تخرج منها جماعة من الشبان الرومان واليونان والسوريين.

وبعد موته بحوالي قرن أتى الفيلسوف «سينيكا» ونهل من معينه، وساهم في تثبيت أسس هذه النظرية وظل تأثيره في أوروبة، فيما يتعلق بالفلسفة الرواقية لمدة خمسة قرون أخرى بعد موته.

ومن الجدير بالذكر أن حفيد بوسيدونيوس، جاسون بن مينيكراتيس، تابع جده في إدارة مدرسة رودس في الفلسفة الرواقية، بعد موت الجدّ عام ٥١ق.م.

٢- في المنطق:

اعتمد بوسيدونيوس على مفهوم الـ(لوغوس Logos)، الذي اشتق منه اسم المنطق (Lalogique) في اللغات الأجنبية، ولكن هذا لم يمنعه من الخوض في عملية الجدل أيضاً.

٣- في الروحانيات:

وكأي فيلسوف آخر انقاد بوسيدونيوس للبحث في شؤون الروح وأمور ما وراء الطبيعة، ونجد هذا بشكل خاص في كتابيه اللذين يحملان العنوانين التاليين بعد ترجمتهما إلى الفرنسية من اليونانية:

- في الروح Sur L>âme.
- في الآلهة Sur Les Dieux.(٦)

٤- في التاريخ:

أرّخ بوسيدونيوس بدقة المرحلة التي عاش فيها، وخاصة ما بين ١٤١ و٨٨ق.م، وذلك في كتابه الموسوم: «تواريخ Histories»، والذي حاول أن يتم به كتاب سلفه المؤرخ «بوليب» الذي يحمل عنوان «تاريخ العالم World History». وقد صاغ بوسيدونيوس كتاباته التاريخية بأسلوب ممتع يختلط فيه التأريخ بالأدب بالفلسفة، وهو أسلوب قلَّ أن يجاريه فيه كاتب آخر.



٥- في الفيزياء الطبيعية:

اعتمد بوسيدونيوس على ما يمكن تسميته «بالنظرية السمياتية» في تفسير الظواهر الكونية الفيزيائية، حيث اعتقد بوجود علاقات تجاذب ودي بين عناصر الكون المختلفة من أرض وشمس وقمر وسماء ومحيطات وغير ذلك، بحيث يشبه توازن هذه العوالم بين بعضها كما تتوازن عناصر الجسم الإنساني بين بعضها. وهكذا يوجد هناك تجاذب متوازن بين الظواهر والأشياء حتى إذا بدت لنا هذه منفصلة آنياً عن بعضها!

وقد شرح ذلك بشكل مفصّل في كتابه الذي يحمل عنوان «مدارات الأجرام السماوية The Circular Motions of the Celestial Bodies».

وإذا أردنا أن نكون موضوعيين في هذا المجال يستحسن أن نشير إلى أن بوسيدونيوس كان موفقاً في أغلب تحليلاته كإثباته مثلاً أن المدّ البحري يتأثر بمواقع القمر، ولكن التوفيق كان بجانبه أحياناً كادعائه مثلاً بأن القمر يرسل أشعة حارة باتجاه موج البحر مما يتسبب بالمدّ!

٦- في الفلك:

كتب بوسيدونيوس مطولاً في الفلك، وأهم كتاب له في هذا المجال هو كتاب: «في المذنَّبات Peri Meteoron». كما حاول هذا العلاّمة الموسوعي أن يقيس حجم الشمس وبعدها عن الكوكب الأرضي، وقد توصل إلى أرقام أكثر دقة من الأرقام التي قدَّمها سلَفُه آريستار خوس Aristar Chus في هذا المجال، وكان يعتقد بأن الشمس تبث طاقة حيوية هي التي تسبب بقاء العالم المحيط بها.

٧- في الجغرافيا والإتنولوجيا (علم الأعراق):

شرح بوسيدونيوس في كتابه الذي يحمل عنوان «الأوقيانوس والمناطق المحيطة به About the Ocean and the Adjacent Areas» تأثير الإقليم على طبائع الناس، وهو ما يسمى «جغرافية الأعراق Geography of Races» ومما يقول في هذا السياق مثلاً إن موقع إيطاليا في وسط أوروبا ومناخها المعتدل هما اللذان ساعداها، بل ودفعاها، على إنشاء الإمبراطورية الرومانية(٧)؟

- وفي مجال «علم الخرائط Carthography» كان بوسيدونيوس واحداً من أوائل من رسموا خارطة صحيحة للعالم المعروف في أيامه تلك، وكان أول من قال إن من يبحر من المحيط الأطلسي باتجاه الغرب يمكنه أن يصل إلى الهند، وهو الرأي الذي أخذ به كريستوف كولومبس بعد حوالي خمسة عشر قرناً (١٤٩٢م) فوصل إلى أمريكا وما يسمى اليوم «جزر الهند الغربية West Indies».

- وفي مجال الجغرافيا الطبيعية قاس بوسيدونيوس محيط الأرض استناداً لموقع الكوكب Canopus بالنسبة للناظر إليه من مدينة الإسكندرية جنوباً، ومن جزيرة رودس شمالاً، حيث وجد أن فرق زاوية النظر بين الموقعين هو ٥ درجات و١٤ دقيقة واستنتج

من هذا أن محيط الأرض يساوي ٢٤٠,٠٠٠ «سْتَادْيا» وبما أن طول السّتادْيا الواحدة هو عُشر الميل فهذا يعني أن محيط الأرض هو ٢٤,٠٠٠ ميل. وإذا علمنا أن طول الأرض يبلغ حسب آلات القياس الدقيقة هو اليوم ٢٤,٩٠١ ميل نستنتج أن حساب بوسيدونيوس كان دقيقاً إلى حد معقول.

٨- في الميثيولوجيا (علم الأنواء الجوية):

تكلم بوسيدونيوس أيضاً عن الأنواء الجوية وأسباب تشكل الغيوم والرذاذ والمطر والصقيع وقوس قزح والرياح والعواصف.

٩- في التكتيك:

ألّف بوسيدونيوس كتاباً في «فن الحرب The Art of War»، يقول عنه المؤرخ الروماني «آريان Arrian» إنه كتاب موجه إلى نخبة القادة المختصين بالعلوم العسكرية. ولكن بعض خصومه يتهمونه بأنه أخذ معلومات هذا الكتاب من القائد الروماني بومبيوس، الذي كان واحداً من المعجبين به كما ألمعنا أعلاه.

١٠- في الشعر الفلسفي:

يحفظ لنا التاريخ الأدبي قصيدة فلسفية واحدة من شعر بوسيدونيوس، وهي تبحث في عبثية الوجود الإنساني على الكوكب الأرضي، وتحمل عنواناً معبراً هو «دعوة للنسيان Invitation to oblivion»(٨) وهي تحوي كثيراً من معالم الفلسفة الرواقية المترفعة وغير المبالية، وتقول:

«لماذا أنا ولدت، ومن أين أتيت؟(٩)
وكيف حدث أني موجود حيث أنا الآن؟
لا أعلم شيئاً، وكيف بوسعي أن أعلم أي شيء.

❁ ❁ ❁

أنا كنت لا شيء، ومع هذا فقد ولدت،
وقبل مضي مدة طويلة سأعود ثانية إلى العدم،
أنا لا شيء، ودون أية قيمة!

❁ ❁ ❁

هذا هو مصير أي إنسان كما أرى
ولهذا إِمْلأ الأقداح بمزيج النبيذ
لأنه عن طريق النسيان، والنسيان فقط
يمكن لنا أن نتحدى الفناء»

١١- في العلوم الأخرى:

إضافة إلى ما ذكرنا أعلاه بحث بوسيدونيوس أيضاً في «علم التنجيم Astrology»، و«علم النبات Botany»، و«علم المياه Hydrology»، و«علم طبقات الأرض Geology» و«علم

الأخــلاق Ethics» و«علــم الأنثروبولوجيا Anthropology».

أثره الفكري بعد موته:

توفي بوسيدونيوس في جزيرة رودس عام ٥١ق.م. ولكــن أثره لم ينعــدم بموته، بل أثر في فكــر وفلسفة وكتابات عــدة أجيال من معاصريــه وممن أتوا بعده مثــل شيشرون، ليفي، بلوتــارك، سترابو، وقد قال عنه هذا الأخير: « بوسيدونيوس هو الفيلسوف الأكثر ثقافة في عصرنا».

ويمكن القول، دون خشية من اقتراف أية مبالغــة، إن فلاسفة ومثقفي ومؤرخي العالم ظلــوا متأثرين به طيلــة خمسة عشر قرناً على الأقل، أي حتى نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة.

الهوامــش

١- انظر مقالنا عن الشاعر السوري ميليا غروس في العدد الصادر بشهر كانون الأول من هذه المجلة (المعرفة).

٢- تقع هذه المدينة قرب بلدة «شيزر»، في شمال غربي سورية حالياً.

3- Philippe Hitti: «History of Syria» London 1951- pp. 259260-.

٤- غاليا هي فرنسا حالياً.

٥- انظر صورة الخارطة المرفق.

٦- يأسـف كاتب هذا المقال لاستخدامه ثلاث لغات أجنبية (الفرنسية والإنكليزية واليونانية أحياناً) لتنوع المصادر الخاصة بالبحث.

٧- أخذ الفيلسوف والأديب الفرنسي فولتير بهذه النظرية (جغرافية الأعراق).

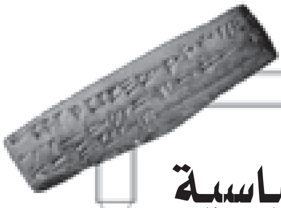
٨- عثرنـا علـى نص هـذه القصيدة، في موجـودات المكتبـة العمومية لمدينـة «تامبا»/ ولايـة فلوريدا الأمريكية.

٩- مـا أشبـه هذه الفلسفة بفلسفة عمر الخيام، وما أشبه البيـت الأول من هذه القصيدة بقول إيليا أبو ماضي: جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت.

١٠- للاستزادة يمكن الرجوع إلى كتاب:

I. G. Kiddiposidonius - 3volu mes - 1995

آفاق المعرفة



نظرة في نشوء النظم السياسية في العالم الإسلامي

د. شهرت يفقاتشوف ⊛

الإسلام لم يقف على عتبة العولمة التاريخية والسياسية عند الربع الأخير من القرن العشرين وحسب بل ووضع الإنسانية المعاصرة أمام الكثير من المشاكل المتعلقة بالثقافة الاجتماعية، والحضارية، والأيديولوجية، والاجتماعية السياسية وغيرها من مجالات تطور العالم الإسلامي. وهو ما ظهر من المواد العلمية الكثيرة المنشورة والتي تناولت بالدراسة والتحليل عوامل الإيمان في الدين الإسلامي وخاصة في المجال السياسي، وركزت تلك المواد من

⊛ رئيس قسم العلاقات الدولية والعلوم السياسية بمعهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

خلال عدة محاولات على اكتشاف الأسباب التاريخية التي أدت للتعصب الأخذ بالظهور خلال القرن الماضي وشمـل النظم الدينية والمؤسسات الإسلامية. ونستطيع فهم تأثير التقاليـد الإسلامية والظواهر المرتبطة بها على الأوضاع المتشكلة في الدول الإسلامية، علـى المستويـين الإقليمـي والعالمـي من خلال مصطلـح «العامل الإسلامي»، ومدى قـوة العوامل التي تنعكـس دائماً من خطر نشاطـات الإسلاميين الذيـن يستخدمون الإسلام لأهـداف سياسية، وكنظم سياسية وليست دينية بحتة.

وخـلال سبعينيات وتسعينيـات القرن العشريـن شملت تلـك التفاعـلات الدول الإسلامية ليس في الشرقين الأوسط والأدنى فقط بل وفي القارة الآسيوية بأسرها، بينما بقيت أوروبا وأمريكا معتمدة كما كانت على تقاليد الحضارية المسيحية الأوروبية.

ومن متابعة للأحداث التي جرت في بلدان الشـرق الأوسط، ورافقتهـا ظاهرة تنشيط القوى السياسية والاجتماعية، تحت شعارات إسلاميـة وحظيـت بانتشار علـى المستوى العالمي. ورغم أن تلك الشعارات خدمت قبل كل شيء النضال القومي والتحرري للشعوب الإسلامية ضد الاستعمـار الغربي وشملت تعابير مناهضـة للإمبرياليـة، ولكن الذي حدث خلال السنوات العشرين الأخيرة أنها كانت تستخدم من قبـل جماعات متطرفة كعامل إسلامي وبطرق متفاوتة شملت إكراه غيرهم من المسلمين وحتى ضد حكوماتهم. وأدت إلى تحريك وتطوير والإساءة لأوضاع المسلمـين على الصعيـد العالمي. واستندت تلـك الجماعات في توجهاتهـا على القرآن والسنـة، واتهمـت المجتمعـات الإسلامية الحديثة والحكومات بالابتعاد عن «الإيمان الحقيقـي» تحـت شعار «بعـث الخلافة»، وقامت بنشاطـات أخذت طابـع الإرهاب المستمد من «خلفيات دينية».

ويشـير الخـبراء إلى تزايد عـدد تلك الجماعات الإرهابية الدينية في العالم، والتي كانت في عام ١٩٩٠ لا تزيد عن ٣٣منظمة، منها ١٤ إسلامية، فأصبح عددها ٧٤ منظمة في عـام ٢٠٠٥ منهـا ٤٦ إسلامية. وهو ما وفر لوسائل الإعلام الجماهيرية فرصة نشر مواد تناولتها أوساط المحللين في الكثير من الدول وتظهر ملامح لتفاعلات حديثة أطلق عليها تعبير «التهديـدات الإسلامية»، ومن وجهة نظرنا ما هذا إلا مثال حقيقي لثنائية التفكير والمعايير عند البعض. ومع ذلك ظل استخدام الدين السياسي من قبل المتطرفين

والإرهابيين يثبت صعوبة وعدم فاعلية التحليلات السطحية للتفاعلات الجارية في المجالات الحياتية، والثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، في البلاد التي يسكنها مسلمون، وربطها بالتفاعلات الجديدة الجارية في النظام الدولي الجديد بعد انتهاء «الحرب الباردة».

ورافقت الكثير من الصراعات الإنسانية في العالم المعاصر مع دخولها الألفية الجديدة ودفعت للمقدمة مشكلة نشر أفكار ما يسمى بـ«التعصب الإسلامي». ونحن نفهم بالـ «التعصب الإسلامي» الحركة السلفية التي تطالب بالعودة إلى البدايات، النظيفة للإسلام كما كانت في عهد النبي محمد (ص).

وتعود السلفية بشكل عام لرجال دين تميزوا خلال المراحل التاريخية للعالم الإسلامي ورفعوا شعارات تدعو للعودة إلى أسلوب الحياة وإلى الإيمان كما كان في بدايات المجتمع الإسلامي أي عهد «السلف الصالح»، وصنفوا كل التغييرات اللاحقة في التقاليد الإسلامية كبدع.

ومن وجهة نظرنا يمكن الفصل بين «التعصب الإسلامي» كاتجاه سياسي إيديولوجي وكحركة من أجل بعث البدايات التاريخية للقيم الشرعية، والقواعد والعلاقات في المجتمع الإسلامي.

ويشير الكثير من الباحثين إلى أن أسباب داخلية كانت تدعو لإضفاء طابع سياسي على الإسلام، ومن ضمنها كان ظهور حركات تطرف دينية سياسية، ظهرت في جميع الأديان الأخرى في العالم، ومن الخطأ حصرها بأنها إسلامية فقط أو أنها تتميز بملامح العالم الإسلامي وحده.

ومع ذلك نرى أنه من الواضح أن الحقائق الجارية داخل العالم الإسلامي تلعب دوراً كبيراً في تطوير الإسلام كدين وأسلوب للحياة. وكانت مادة هامة للأبحاث التي أجراها مؤلفين معاصرين. وهنا لا بد من الإشارة إلى حقيقة أن أكثرية المنظرين المسلمين كانوا ينطلقون من مصادر إسلامية سياسية معاصرة، للإشارة إلى أهمية العوامل الأخرى المحيطة بالعالم الإسلامي. وكان من بينهم الشخصية الإسلامية المعروفة سعيد أبو العلا مودودي (١٩٠٣-١٩٧٩)، الذي أشار إلى أن «كل خارطة الحياة الإسلامية تمر من خلال أركان الإسلام. ولهذا نريد في أي اتجاه إيديولوجي إسلامي ندرسه أن نتوجه نحو الجذور وننظر إلى المبادئ الأساسية للإسلام». وهذا مهم جداً



للدراسات الجارية في العالم الإسلامي والمنطلقة من المبادئ السياسية والأسس التي تعتمد عليها تلك الأفكار.

ولكن هناك حالات واضحة في الكثير من الأبحاث التي قام بها بعض الباحثين الغربيين وتناولت المبادئ السياسية في الإسلام وأظهرت محاولات للتحليل عن طريق وصف العبادات الإسلامية، بشكل غير واقعي تماماً أو بإضفاء التطرف على جوهره، أو من خلال تناولها للظواهر الأيديولوجية ودور الحركات الإسلامية في الحياة الاجتماعية والسياسية في الدول الإسلامية.

وأشار بروفيسور السوربون م.أركون، إلى أنه هناك «أعمال كثيرة تناولت الأصولية الإسلامية (السلفية) ولكن دون أن تسلط أي ضوء على الإسلام، بل على العكس تركت الناس يعتقدون أن الإسلام بجوهره هو عبارة عن اغتصاب وعنف. ولكن العنف والاغتصاب هو جزء من المجتمع الإنساني بشكل عام، لأن كل جماعة دينية تعتبر أن دينها هو وحده الصحيح، ولهذا تلجأ إلى استخدام العنف دائماً ضد الناس المتمسكين بقناعات أخرى».

ويرى هذا العالم، أن الأعمال الإرهابية التي جرت في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أدت إلى ظهور تفسيرات كثيرة عن هذا الحدث في العالم وأنها كلها غير صحيحة وغير واقعية تماماً. ومن بينها كانت نظريات أعطت الأفضلية للجوانب الاقتصادية للـ«التعصب الإسلامي» وربطته بالجذور الثقافية لأيديولوجية المجتمع الإسلامي، وطرحتها كبديل للأيديولوجية الغربية. ورغم ذلك اعتبر م.أركون، أن السبب الرئيسي لأهمية العامل الإسلامي هو فيما حدث في العديد من المجتمعات الإسلامية خلال نصف القرن الأخير وشكلت مراحل هامة من التطور بالاتجاه المعاكس لتطور المجتمع الأوروبي. وأضاف أنه إذا كان قد قضي في فرنسا على سلطة الكنيسة المبنية على السلطة الإلهية خلال الأعوام ١٧٨٩ و١٧٩٢، فعلى العكس من ذلك جرت في إيران حركة أعادت السلطة السياسية الدينية للأئمة عام ١٩٧٩، وأخذت صورة تطور المجتمع الإسلامي ملامح من التعصب الإسلامي، للمحافظة على بعض الخصائص التي تربط بين العلمانية والدين، والدولة والدين، وكانت كلها تتمتع بخصائص إلهية منفتحة على غيرها من الأديان السماوية، وأتت من وجهة نظرنا من أن:

أولاً: الإسلام كدين وأيديولوجية هو ظاهرة وشريعة تمثل القواعد الحقوقية والأخلاقية لجميع المسلمين مبنية على الإيمان لمعرفة أصول تنظيم جميع أوجه الحياة.

ثانياً: الإسلام يشير إلى جميع الجوانب في الحياة الخاصة كالمسيحية، ويرتبط بالأمة، أي أن المؤمنين (أمة الله).

ثالثاً: ومن القضايا الأساسية في الإسلام كانت العلاقة بين الدين والسياسة.

رابعاً: ولكن لا يوجد في الإسلام مدرسة دينية لعبادة الله وللحقوق كمؤسسة، معترف بها من قبل جميع المسلمين، تعمل على نقل التقاليد الإسلامية، مثل الكنيسة في المسيحية، وهذا أدى في النهاية، إلى توسع أفكار حاملي المعرفة، حيث ظهر تعبير العلماء في أوساط رجال الدين، والعارفين بالنصوص الدينية وتفسيرها ولكنهم بقوا غير موحدين في الإسلام وغير منظمين كما هي الحال في الكنيسة المسيحية.

وهذا أدى بدوره أثناء الأزمات التي مر بها العالم الإسلامي إلى شيوع قاعدة القيم ليصبح تعبير الـ«أمة» رئيسياً، وهو ما حدث أيام الإمام الحنبلي ابن تيمية (١٢٦٣-١٣٢٨)، عندما عاش العالم الإسلامي أعمق

أزمـة تاريخية. وحـارب ابن تيميـة بشدة البـدع، وطالب بضرورة التوجه إلى الشريعة في جميـع مجالات الحياة، من خلال القرآن والسنـة، لأن فيهما بنية حيـاة الأمة وأداة استمرارهـا بعد موت النبـي (ص) وخلال مرحلـة الخلفاء الراشديـن الأربع، وهو ما يدعوا لشخصية السلف الصالح.

وركزت فكرة العبادة هذه على بناء «الأمة النقية»، وهذا يعني إعادتها إلى الشكل الذي كانـت عليه أيام النبي محمـد (ص). وكان فكر ابن تيمية في القرن الـ١٨ الأساس الذي اعتمد عليه محمـد ابن عبد الوهاب (توفي عام ١٧٩٢)، لبعث وتطويـر أسس السلفية كحركة دينية سياسية.

واستمـرت محاولات نشـر الإصلاحات في الإسـلام ولم تـزل مستمرة حتـى الآن، ولكننـا لنفهم هذه العملية من الضروري أن نحـدد مفهوم «نشر الإصلاح» الذي أخذ به في العمليـات التي أخـذت مكانا فما جرى ويجري في العالم الإسلامي.

و«الإصلاحـات» لغوياً هـي إعادة بناء، وتغيير، وفيها تكمن مساعي الإنسان لترشيد الأشـكال أو العثـور علـى أشـكال جديدة للأشياء، والظواهر، والبنى وغيرها. وبقدر مـا يجـري تحسـين وترشيـد الاتجاهات المتقدمـة، فهي تدعـو «للتحديث». وحركة التحديث في الإسلام، يمكـن ربطها بفكرة مفهـوم «الإصـلاح» أي إجـراء إصلاحات بمضامـين جديـدة، و هذا يعنـي تكييف الظروف الداخلية والخارجية، التي تغيرت مـع ملامح العصـر. ومنـه أن كل من رأى نماذج متكاملة للبنى الاجتماعية، والمجتمع، والدولـة، أو الشخصية الفردية في السابق، يرى أن الترشيـد والتحسين يعنيان التقدم، أو العودة في التفاعلات إلى الأصول الأولى، وهذا يعني إلى السابق. وهذه «الإصلاحات» تسمـى بالأصوليـة أو السلفيـة، وترتبط جزئيـاً، بالجهـود، الموجهـة نحـو إعادة الأشكال الأولى، والنماذج الأصيلة. وهي نفس الأفـكار والمبادئ الدينيـة والسياسية التي دعا إليهـا ابن تيمية، ومحمد عبد الوهاب، والشيـخ ولي الله(١٧٠٣- ١٧٦٢)، وأثـرت تأثيراً كبـيراً على تطور الفكر الإسلامي في الهند وباكستان.

وهو ما يوصلنـا إلى استنتاج أن إمكانية النظـر في عدد مـن الحـركات الإسلامية التقليدية، يشير إلى أولئك الذين يعتبرون من الضروري الحفاظ علـى التراث الإسلامي كمـا تركه الأجداد: ويعتبر دعاة الحداثة أن إصـلاح الإسلام هو مـن واجبهم من أجل

جعلـه قادر على المنافسـة في ظروف العالم المتغير؛ والأصوليـين (السلفيين)، المقتنعين بضرورة العـودة إلى المصـادر الأولى، وإلى الإسـلام النقي، وأسس العبادات الإسلامية السلفية ما هي إلا من الظواهر التي تدعوا لها الوهابية، التي تدعوا إلى أصولية من نوع خاص في نظرية تطبيق الإسلام السياسي. ونعني هنا جماعات المنظرين الذين يعتبرون أن من واجبهـم الديني إحداث تغيير يحقق شعـار السلفيين وخططهـم لإقامة المجتمع والدولة الإسلامية، التي تتمتع بشكل تاريخي يشبه مجتمع صحابة النبي محمد (ص).

وبدايـات التفاعـلات الإصلاحيـة في العالم الإسلامي (أواسط القرن الـ١٩) كانت متجهة نحو إعادة تشكيل الأمة، لتكون قادرة على منافسة المجتمعات الغربية، ومن قادتها كانت شخصيـات إصلاحية إسلامية منها: رفعت الطهطاوي، وسعيد أحمد خان، وخير الدين التونسي، وعبـد الرحمن الكواكبي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبدو، الذين دعوا إلى ضرورة أقلمة الإسلام مع الظروف المعاصـرة. وكانـوا مقتنعـين بـأن الدول الإسلامية يمكـن أن تصل إلى التقدم، دون أن تتخلى عن منجزات الحضارة الإسلامية. وكان هدفهـم تحقيق النهضـة الإسلامية، التـي تنهي تخلف الـدول العربية وتبعيتهم للدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى.

وكان مـن بـين منظـري الحداثة علي عبـد الـرازق (١٨٨٨-١٩٨٦) رجل الدين والسياسـي المصـري. وأثـار ظهـور كتابه «الإسـلام وأسـس السلطـة» (١٩٢٥)، جـدل في المجتمع الإسلامـي، مباشرة بعد أن قضـى مصطفـى كمال أتاتـورك على السلطنـة والخلافة العثمانية خلال سنوات ١٩٢٢و١٩٢٤، ولإعادتـه النظر في الأفكار والتقاليد الدينيـة، التي تعتبر أساساً للفهم الإسلامي للسياسـة. وأشار عبد الرازق في كتابـه إلى أن مبـادئ الخلافـة غريبة عن الإسـلام، وليسـت واردة في القرآن، ولا في السنة، واعتبر أن الخلافة هي الحكم باسم الرسول (ص)، وأنها توحد السلطتين الدينية والعلمانية في أيدي الذين من أتوا من بعده. واعتـبر عبد الرازق، أن كل ما تركه الرسول (صـ) هو عبارة عن قسم صغير من المبادئ التنظيمية والقوانين الضرورية للحفاظ على حيـاة ونشاطات الدولـة. ووصل إلى نتيجة مفادها أن محمداً (صـ) وضع أمامه ليس أهدافاً سياسيـة وحسب، بل أهدافاً دينية، وأنه لم يؤسس لخلافة إمبراطورية. وعبر عن قناعته بأن مبـادئ الخلافة أعاقت التقدم

في المجتمعات الإسلامية، وأصبحت مصدراً لكل شيء سيئ، في تاريخ الإسلام والأمة.

أما الجيل التالي من المفكرين المسلمين، من أتباع محمد عبدو، فقد انقسموا لمدرستين متناقضتين:

ينتمي للمدرسة الأولى فيها رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥)، الذي يمكن وصفه بمنظر السلفية. وأثبت أن أسباب تخلف الأمة هي في فقدان المسلمين لجوهر الدين تحت تأثير الحكام المنحرفين، وأن «الإسلام الحقيقي يضم شيئين هما الاعتراف بالوحدانية والشورى في مسائل الدولة، ولكن الحكام المنحرفين سعوا لينسى المسلمون الشرط الثاني، وشجعوهم على تجاهل الشرط الأول». وأشار رشيد رضا في كتاب «الخلافة» إلى أن الإسلام يتضمن القيادة، والإحسان والسياسة الاجتماعية، وأن المجال السياسي يوفق بين جوهر الإسلام والنشاطات السياسية، وأشار لتعدد الآراء في المسائل السياسية والبحث الفردي واستقلال الآراء والاجتهاد مقابل التقليد والتقيد التام بآراء الشخصيات المعترف بها. وأشار إلى أن الهدف من السياسة هو الحفاظ على الدين وخدمة مصالح المجتمع.

ومن بين تلاميذ محمد عبدو كان قاسم أمين (١٨٦٥-١٩٠٨)؛ ومحمد لطفي السيد (١٨٧٢-١٩٦٣)؛ اللذان كونا اتجاهاً آخر، واختبرا التأثيرات الظاهرية للمجددين المسيحيين على المدرسة العلمانية، وكان من بينهم من حصل على تعليمه في الكلية العلمية البروتستانتية، وعاشوا في مصر، أمثال: شبلي شميل (١٨٥٠-١٩١٧)، وفرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢)، وسلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٨)، ونيقولا حداد (١٨٧٨-١٩٥٤) وغيرهم من العرب المسيحيين، الذين دعوا لأفكار وطنية، وللوحدة والأخوة بين المواطنين، بغض النظر عن الدين أو الظروف الاجتماعية.

ووضع قاسم أمين، وأحمد لطفي السيد، وتلاميذهم مبادئ المجتمع العلماني، الذي شغل الإسلام فيه المكانة الهامة، ولكنهم لم يلعبوا دوراً قيادياً في مجال الحقوق والسياسة. بل سعوا للتوفيق بين الأفكار العلمانية والإسلامية، وطوروا فكرة محمد عبدو عن تناسب التغييرات الاجتماعية في سعي منهم لتحويلها إلى فكرة للفصل بين الدين والمجتمع عملياً وبعمق.

وأظهر سير التطور التاريخي أن نموذج التطور الاجتماعي والسياسي، الذي قدمه الإصلاحيون المسلمون لبى على الأقل

حاجة الدول التي طبقت في الحياة العملية مبادئ الإسلام التقليدي ومبادئ المؤسسات الغربية، وهو ما أدى إلى ظهور منظمات سياسية، خلال خمسينيات وستينيات القرن الماضي أخذت الجذور العربية الإسلامية في أفكارها منتقدة الليبرالية القومية للنموذج الغربي.

وقامت الحركات الأصولية المتطرفة بتقديم مبادئ سياسية، تثبت سيادة الإسلام في جميع نواحي حياة المجتمع. وكان الهدف النهائي للحركات الأصولية تحقيق الثورة في المجتمع الإسلامي عن طريق العنف من أجل القضاء على النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي القديم وفرض مصادر الشريعة الإسلامية على المجتمع.

وارتبطت الأصولية بمنظرين سياسيين مسلمين متطرفين أمثال: سيد قطب، والإمام آية الله خميني، وأبو العلا مودودي.

ويمثل سيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦) الجناح المتطرف لمنظمة «الإخوان المسلمين» في مصر. ويعتبر أن الإسلام وحده يمكنه إنقاذ الإنسانية من «أكوام أوساخ» المفكرين الكافرين. وحسب رأيه أن ابتعاد السلطات عن الشريعة كمصدر للسلطة سيؤدي إلى سيادة الجهل والشرك، وأن انتشار هذا «التيه» برأي سيد قطب هو نظام المؤسسات الديمقراطية الغربية.

أما الإمام آية الله موسوي خميني (١٩٠٢-١٩٨٩) رجل الدين الشيعي الإيراني، وقائد الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩ والقائد الروحي لإيران من عام ١٩٧٩ وحتى عام ١٩٨٩ فاعتبر أنه من الضروري لجميع المسلمين الاتحاد للكفاح ضد أعداء المسلمين، وقبل كل شيء ضد الغرب. واعتبر قوانين الشريعة تقدمية، ومتكاملة وشاملة تصلح لكل العصور، وقاد الإمام الخميني حملة ضد التأثير الغربي في إيران و نظام الشاه حليف الغرب.

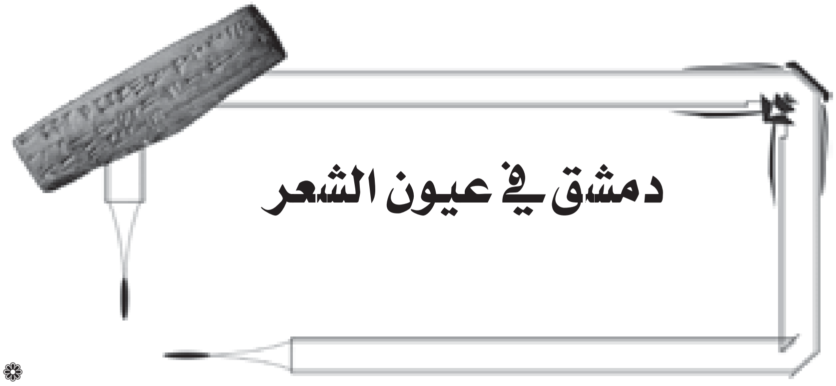
أما المفكر والشخصية السياسية الأخرى في الاتجاه الأصولي أبو العلا مودودي الذي دعا لنشر فكر ما يسمى بـ«النهضة الإسلامية». وكان من أنصار إقامة دولة إسلامية في باكستان، حيث لجأ أعضاء منظمته بعد تقسيم الهند عام ١٩٤٧. وأثبت أبو العلا مودودي في كتابه «مختصر تاريخ بعث الحركة في الإسلام» (١٩٨٦) أن الإمام الغزالي طهر الفكر الإسلامي من الفلسفة اليونانية، وأوجد تأثير لمبادئ الإيمان، واكتشف روح الجهاد مرة أخرى، ووضع برنامجاً للتعليم، وأدخل المبادئ الأخلاقية

في الإسلام ودعا أعضاء الحكومة أو الشخصيات الرسمية، إلى الالتزام بالإسلام، وانتقد التأثير الغربي على المسلمين، وأشار إلى أن الحضارة الغربية أثرت على الجيل الشاب من المسلمين تأثيراً عميقاً، وأصبحوا معها ينظرون إلى كل شيء من زاوية وجهة النظر الغربية، وفقدوا استقلالهم الفكري، تحت تأثير «السيادة الغربية».

وعلى هذا الشكل نرى خلاف في الجوهر الأساسي للمبادئ السياسية للإصلاحات الإسلامية، ووحدة في الهدف مقبول في كل الدول الإسلامية. وعلى هذا الأساس تم وضع مبادئ «الدولة الإسلامية»، و«الإدارة الإسلامية»، و«الاقتصاد الإسلامي»، و«الاشتراكية الإسلامية». ومبادئ «الدولة الإسلامية» أو الخلافة التي يمكنها أن تحقق «نماذج إسلامية» للمنظمات السياسية في المجتمع في الظروف المعاصرة، وتعتبر أن السلطة دينية وعلمانية، ومبادئ العدالة هي في توزيع الثروات الاجتماعية، وفي توجيه الاقتصاد وفقاً للشريعة الإسلامية.

ومع ذلك يعتبر الكثير من المسلمين المعاصرين أن قوة الدولة هي في تدعيم التفاهم الاجتماعي بغض النظر عن الوحدة بين العلمانية والدين، واعتبروا على العكس أن فصل الدين عن المجتمع والسياسة هو أمر مقبول في الأمور الدينية وممكن مع تواجد هيئات دينية في إطار الدولة العلمانية، واعتبروا أنه من غير الممكن استخدام الإسلام للوصول لأهداف سياسية.

آفاق المعرفة



دمشق في عيون الشعر

د. كمال فوزي الشرابي ❁

في البداية أحب أن أُلفت نظر القراء الكرام إلى أن كلمتي (عيون الشعر) في العنوان إنما تعنيان بعض ما قيل من خيرة الشعرين القديم والحديث في أم الزمـــان وأقدم عاصمة في الدنيا دمشقنا الحبيبة الرائعة. ولقد لاحظت من مطالعاتي ومراجعاتي في شتى الكتــب والدواوين القديمة والحديثة أن هناك أكثر من مئتي شاعر أشادوا بعاصمتنا الخالدة وتغنوا بها.

❁ شاعر وباحث وعضو في اتحاد الكتّاب العرب

- العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

والجدير بالذكر أنني تحدثت، في مقالٍ سبق لي نشره، عن بعض هؤلاء الشعراء تحت عنوان (دمشق في أشعار القدامى والمحدثين). ويطيب لي الآن أن أقدم ثلاثة من كبار الشعراء عالجوا الموضوع ذاته وكانوا من المجلِّين فيه:

١- أنور العطار

الشاعر العبقري المنعزل

نبدأ مع الشاعر الدمشقي الأصيل أنور العطار. (ولد بدمشق سنة ١٩٠٨- وهناك رواية أخرى تقول إنه ولد سنة ١٩١٣، وتوفي بدمشق أيضاً سنة ١٩٧٢، أي أنه عاش ٥٩ سنة). شاعرٌ غنائيٌّ ابتداعي -رومانتي- أولعَ بالوصف وخصوصاً وصف الطبيعة - طبيعة دمشق الساحرة- وعبَّر عن أحاسيسه وخلجاته وأفكاره بشعرٍ مبتكرٍ رقيقٍ تتميز ديباجته بالقوة والنقاء. كان معجباً بأحمد شوقي -أمير الشعراء وتأثر به، وكان يحفظ الكثيرَ من أشعاره المعروفة وغير المعروفة. له ديوان وحيد مطبوع هو «ظلال الأيام».

هذا الشاعر ظلم نفسه حياً.. وظلمناه ميتاً! بحسب تعبير الأستاذ الصديق الراحل عبد الغني العطري في كتابه الشهير «عبقريات شامية». ظلم نفسه لأنه عاش منطوياً على ذاته في عزلةٍ مغلقة، بعيداً عن الأضواء كما يقال. ولعمري إنه ليستحق أن يذكر ويقرأ على الدوام، وأن تقام له حفلات تأبين، وأن تطبع أعماله خوفاً عليها من النسيان. أما أعماله غير المطبوعة وهي دواوين شعر فهي: «البواكير»، «وادي الأحلام» «البلبل المسحور»،«منعطف النهر»، «علمتني الحياة»، «ربيع بلا أحبة».

تضاف إلى دواوينه هذه كتبه النثرية وهي: «الوصف والتزويق عند البحتري»، «أسرةُ الغزل في العصر الأموي»، «الخلاصة الأدبية»، «شوقيات لم تنشرها الشوقيات»، «ألفُ بيتٍ وبيت».

يقول في قصيدةٍ عنوانها «دمشق»:

دمشق ائتلاقُ الربيعِ الجديدِ
واشراقةُ الفجرِ إما ابتسمْ
وريحانةٌ نُدِّيت بالهوى
وزنبقةٌ رُوِّيت بالحكمْ
على مهدِها رائعاتُ النبوغ
وفي ساحِها قَبَساتُ الهِممْ
وفي تُرْبها المسكُ مسكُ الخلودِ
وفي جدِّها العِطْرُ عطرُ الشيمْ
تندَّت مسارحُها بالسَّماحِ
وماجتْ أباطحُها بالكرمْ
وما هي إلاَّ كتابُ البقاءِ
وما هي إلا سِجلُّ العِظَمْ

مطافُ الجلالِ، مَرادُ الجمال
مــلاذُ العـهـود، مـقـرُّ الـذممْ
مــلاعــبُ حــافـلــةٌ بـالمنـى
مــراتــعُ طـافـحـةٌ بـالـنـعـمْ
فما يعرِفُ القلبُ معنى الأسى
وما تُـدرِكُ الـروحُ طَعْمَ الألمْ
عـلـى كـلِّ قـلـبٍ محـبٍّ ربـابٌ
تُـغـنـي، وفي كـلِّ ثـغـرٍ نـغَـمْ

❁ ❁ ❁

٢- أحمد الصافي النجفي

الشاعر والفيلسوف البوهيمي

هــذا البــدويُّ الملتــفُ بعبــاءةٍ صوفيةٍ عادية، والمعتمــر كوفيةً وعِقــالاً بسيطين، والمرتدي ســروالاً فضفاضاً جيوبه الواسعة لا تحصــى، كان يلتفت إليــه كلَّ مرة نرتاد فيها مقهى البرازيل أو مقهى الكمال أو نمرٌّ من أمامهما.

هــذا الشاعــر الذي لم يتــزوج ولم يكوِّن له أسرةً كان بوهيميــاً من الطراز الأول في حياته. واسع المعرفة، أنيس المعشر إذا لم تثير غضبه أو تثقِلُ عليه.

ولــد ببغداد سنــة ١٨٩٦، وتــوفي عام ١٩٧٧، أي أنــه عاش ٨١سنة. شاعرٌ وصفٍ وغــزلٍ وفلسفةٍ وهجــاءٍ وسخريةٍ وملحٍ من فحول الشعراء في هذا العصر.

هو في رأي الكثيرين أفضل شاعرٍ ترجم رباعيات الخيام شعراً عربياً مبيناً وذلك عن الفارسية التي كان يتقنها لأنه درس أصولها وقواعدها في إيران.

أعماله غزيرة، فأما دواوينه فهي تسعة: حَصــاد السجــن/ اللفَحَــات/ هواجس/ الأمواج/ التيــار/ الأغوار/ ألحانُ اللهيب/ أشعةٌ ملونــة/ شرر/ وأمــا مؤلفاته النثرية فهي: كتابُ هزلٍ وجَد/ شبابُ السبعين/ بلا اسم/.

عــاب عليه أناســ كِبَرَ سنِّــه وأن نفسه ما تــزال خضراء فأجابهــم ارتجالاً بهذين البيتين:

سنيٌّ بـروحـي لا بـعـدِّ سنيني
فـلأسـخـرنَّ غـداً مـن التسعينِ
العمرُ للسبعينِ يركضُ مسرعاً
والـروحُ باقـيـةٌ عـلـى العشرينِ

نزح الصافي النجفي من العراق إلى دمشق واختارها بلداً له ومقراً. وأحبها فتغنَّى بها في عــدة قصائد من أجــود شعره. يقول في إحدى هذه القصائد بعنوان «دمشق»:

أتيتُ جِلَّقَ مجتازاً على عَجَلِ
فأعجبتنيَ حتى اخترتُها وطنا
لا يبرحُ الحسنُ يوماً عن مرابعها
كأنما الحسنُ من قِدْمٍ بها افتتنا



لا يرتضي الطَّرْف شُغُلاً عن محاسنها
حتى تعاديَ فيها المقلةَ الوسنا
أيقنتُ أنيَ من أهل الجنانِ ففي
دمشقَ أسكنُ جناتٍ تفيضُ هنَا
عجبتُ ممَّن أتاها كيف يبرحُها
فهل يرى في سواها عن دمشقَ غنى
ماجنَّـةُ الخلدِ إلا للذي سكنا
بها وما النـارُ إلا للذي ظعنا
يكاد ينسى غريبُ الدار موطنَه
في رَبْعها ويعافُ الأهلَ والسكنا
إني امـرؤٌ عـربـيٌّ والعُـلا نَسبي
في أيِّ أرضٍ أرى عُرْباً أرى وطنا

٣- أحمد رامي

سيِّـد كُتَّاب الأغـاني وشاعرُ الشباب

لا شـك في أن أحمد رامي، بما أَلَّفه من أغانٍ لكبار المطربين والمطربات، هـو نسيجُ وحده وسيد مـن كتب الأغنية لا في مصـر فحسب بل في العالم العربي بأسره أيضاً. أحصيتُ ما كتب من أغانٍ ولأم كلثوم وحدهـا فبلغت أكثر من مئـةٍ وستين أغنية من أصل ثلاثمئةٍ وثمانٍ غنتها هذه المطربة العملاقة.

يقول أحمد رامـي في لقاء صحفي عن كيفيـة تعرُّفه إلى مطربـة العصر والأجيال كوكـب الشرق: «نُمي إليَّ، وأنـا أدرسُ اللغةَ الفارسيـةَ بباريـس سنـة ١٩٢٤، أنه ظهر في سمـاء مصـر كوكب جديد مـن كواكب الفـن، فتاةٌ في مَيْعَـةِ الصَبّا تغني القصائد والموشحـات، وقيل لي إنها تغني قصيدة من قصائدي مطلعهـا (الصبُّ تفضحُه عيونُهْ) أخذتهـا عـن عميد الغنـاء في ذلك الحين المرحوم الشيـخ أبي العُلا محمد الذي أخذ الغناء عـن فقيـد الفن عبـده الحامولي، وشاقني هـذا الخبر فـكان أول همي عند

عودتي إلى الوطن أن أسمع ذلك البلبل الجديد.. وهكذا تمّ التعرُّف بيني وبين الآنسة أم كلثوم».

-انتهى باختصار-

ولد أحمد رامي عام ١٨٩٢ وتوفي عام ١٩٧٨ أي أنه عاش ستةً وثمانين عاماً. شاعرٌ تعبيري من الدرجة الأولى، عبقريته في الوصف والغناء لا تضاهى، لُقِّب بشاعر الشباب. له ديوانان مطبوعان هما: أغاني رامي/ وديوان رامي.

يكتب الفصحى بمثل السهولة والسلاسة والتصوير والابتكار التي يكتب بها العامية المصرية. أحبَّ دمشق فغناها بهذه القصيدة الجميلة:

يا روضةً في ربوعِ الشام يانعةً
ترنَّم الطَّيرُ فيها وهو نشوانُ
وللغديرِ على ترجيعهِ نغمٌ
من الخريرِ له ضَرْبٌ وأوزانُ
تمايلَ الغصنُ فيها وانثنى طرباً
لمَّا شجتهُ ترانيمٌ وألحانُ
هذي ثمارُك طابتْ في مغارسها
وذاك غُصنُك يندى وهو فينانُ
أبتْ على كلِّ جانٍ أن يَمُدَّ يداً
إلى جَنَاها وتحت الظلِّ يَقظانُ
يحمي حماها ويفديها بمهجتهِ
ويقطعُ الليلَ فيها وهو سهرانُ

❁ ❁ ❁

ياروضةً بردى في وشي بُرْدتهِ
يختال بين رُباها وهو جذلانُ
على حواشيكِ أمجادٌ مخلَّدةٌ
لها من الذكرِ تاريخٌ وديوانُ
غنَّى الزمانُ بها تيهاً وردَّدها
من جانبِ الليلِ أحبابٌ وخِلانُ
رأوا من الشام -تحيا الشامُ- رابطةً
لها على العهدِ أنصارٌ وأعوانُ
طاروا إلينا خفافاً يومَ محنتنا
وأرخصوا الروحَ، لاذلُّوا ولا هانوا
وألَّفت بيننا حُرِّيةٌ كتبتْ
صحيفةً بدمِ الأحرارِ تزدانُ

❁ ❁ ❁

ياإخوةَ الشامِ تاهتْ مصرُ مفخرةً
وعزَّ فيها بكُمْ أهلٌ وجيرانُ
إنَّا على العهد لا يَثني عزيمتنا
عن نُصرةِ الحقِّ أحداثٌ وأزمانُ
مرَّت علينا الليالي وهي عابسةٌ
وأشرقَ الصبحُ فيها وهو ضَحيانُ
ونحن عندكمُ في خيرِ منزلةٍ
وأنتمُ عندنا للعينِ إنسانُ

آفاق المعرفة



دور وكالات الأنباء العالمية في تحديد أطر السياسات الخارجية وتنفيذها

د. محمد البخاري (١)

تعتبر وكالات الأنباء العالمية من المصادر الهامة للأنباء الدولية التي تعتمد عليها وسائل الإعلام الجماهيرية لإعداد موادها عما يجري حولنا من أحداث في العالم العاصف دائم المتغيرات الاقتصادية، والعلمية، والتكنولوجية، والسياسية، والاجتماعية. خاصة وأن الكثيرين يعتبرون وكالات الأنباء العالمية جزء لا يتجزأ من سياسات القوة التي تعتمد عليها القوى العظمى لتحقيق جزء هام من سياساتها الخارجية والدفاع عن مصالحها الحيوية في أنحاء

(١) أستاذ في جامعة طشقند (أوزبكستان)

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

مختلفة من العالم[٢]. وتعتبر فرنسا المهد الذي رأت فيــه أول وكالة أنبــاء عالمية النور عام ١٨٤٥، والتي أشار لدورها الهام أنوريه دي بلزاك في مقالة كتبهــا عام ١٨٤٠ ونشرتها إحدى المجــلات الباريسية «بــأن الجمهور يمكــن أن يصدق أنه يوجــد صحف كثيرة، ولكــن في الحقيقة لا توجــد سوى صحيفة واحــدة.. فللسيد هافاس مراسلين في العالم بأسره، وتصله الصحــف من بلدان مختلفة في الكــون، وهــو الأول.. لأن كل الصحف الباريسية امتنعت، لأسباب مادية عن العمل لحسابها تجنباً للمصاريف، ولكن المصاريف التي يتحملها السيد هافاس هي أكبر، ولهذا كان له الاحتكار. وكل الصحف التي امتنعت في الماضي عن ترجمــة الصحف الأجنبية، وعــن اعتماد مراسلــين لها، تتلقــى اليوم المساعدة من السيــد هافاس الذي يزودها بالأخبــار الأجنبيــة في ساعة محــددة لقاء مبلغ شهري .. وتقوم كل صحيفة بصبغ تلك الأخبــار التي يرسلها السيــد هافاس إليها باللــون الأبيضــ أو الأزرق أو الأخضــر أو الأحمر..»[٣]. ويعتبر شارل هافاس اليهودي الفرنسي، أول من أطلق اسم وكالة أنباء على الوكالة التي حملت اسمه أي وكالة هافاس، في باريس عام ١٨٤٥، وكانت أول وكالة تمارس تجارة الأخبار والإعلانات في العالم[٤]. وقد استفاد هافاس من الخبرة التي تكونت لدى الصرافين في مراسلاتهم منذ القرن السادس عشــر، واستفــاد خاصة مــن الحادثة التي سمحت لأسرة روتشيلــد التي كانت تمارس المراسلة مع الصرافين، أن تصبح من الأسر الثريــة عندما علمت بخــبر انتصار انكلترا في معركة واترلو قبــل حكومة ملك انكلترا بثمــان ساعات. كمــا استفــاد هافاس من الموقع الهام لمكتبه الذي افتتحه عام ١٨٣٢، وســط العاصمة الفرنسيــة باريس بالقرب من مركز البريد، وبورصة باريس التجارية، والمحكمــة، ومقرات الصحــف الباريسية. ومنذ عام ١٨٥٧ أخذت وكالة هافاس تتمتع بشهــرة واسعة، تتناســب وشعارها (المعرفة الجيدة والسريعة)، واستعملت وكالة هافاس كل الوسائــل المتاحة آنــذاك للقيام بعملها، من استخدام الحمام الزاجل في الاتصالات اليومية بين باريســ، ولندن، وبروكسل، إلى استخدام التلغراف الذي اخترع عام ١٨٣٧، ووضــع في الخدمة العامة عام ١٨٥٠، وعبر الكبــل البحري الذي امتــد تحت مياه بحر المانش عام ١٨٥١، وتحت المحيط الأطلسي عام ١٨٦٦، واستخدمت كذلك التيليسكربتور في عام ١٨٨٠. وكانت وكالة الأنباء الفرنسية

وريثة وكالة هافاس أول من استخدم الراديو تيليسكربتور في العالم عام ١٩٥٠. وعندما عانت وكالة هافاس من أزمة مالية حادة، أثناء الأزمة الاقتصادية العالمية، في ثلاثينات القرن العشرين، قامت الحكومة الفرنسية بالتدخل لمساعدتها مادياً.

ولما انهزمت فرنسا أمام ألمانيا النازية مع بداية الحرب العالمية الثانية، وقعت وكالة هافاس تحت السيطرة الألمانية، وحكومة فيشي الفرنسية الخاضعة لألمانيا، ووضعت تحت إشراف الديوان الفرنسي للإعلام، وخضعت لرقابة الحكومة الفرنسية وجماعة تجارية ألمانية اعتباراً من خريف عام ١٩٤٠[٥]. في نفس الوقت الذي اتخذت فيه الحكومة الفرنسية الحرة من لندن مقراً لها تقود منها المقاومة ضد النازية، وليتحول بذلك مكتب وكالة هافاس في لندن وبعض مكاتبها الأخرى في العالم إلى أداة من أدوات كفاح حكومة فرنسا الحرة والحكومة المؤقتة في الجزائر ضد الاحتلال النازي. وبعد هزيمة النازيين وتحرير فرنسا من احتلالهم عام ١٩٤٤، صدر مرسوم عن الحكومة الفرنسية بتاريخ ٣٠ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٤ يقضي بإنشاء وكالة الأنباء الفرنسية (AFP)، كوريثة لما تبقى من وكالة هافاس، وتمتعت من الناحية القانونية باستقلالها كمؤسسة عامة مستقلة مالياً، مع إمكانية حصولها على إعانات مالية من الحكومة الفرنسية. وفي عام ١٩٥٤ ترأس وكالة أنباء AFP جان ماران، وكان يعمل فيها آنذاك نحو ٢٠٠٠ موظف و٧٠٠ صحفي، ولها ١٨ مكتباً في فرنسا، و٩٢ مكتباً في الخارج، ومراسلين في ١٥٧ دولة، وكانت توزع حوالي ٥٠٠ ألف كلمة يومياً، إضافة لمصالحها في ١٣٨ دولة، و١٢٤٠٠ مشترك بين صحيفة ومحطة إذاعية ومحطة تلفزيونية، و٤٤٧ مشترك خاصاً. ووزعت وكالة أنباء AFP أنباءها باللغات الفرنسية والإنكليزية والإسبانية والألمانية والعربية والبرتغالية. إضافة لامتلاكها مراكز استماع للإذاعات الأجنبية، وخاصة إذاعة موسكو وبعض الدول الشرقية، والشرق الأوسط والشرق الأقصى. وكان مركزيها في ليما وسنغافورة يرسلان الأنباء الهامة مباشرة للمشتركين في أمريكا اللاتينية وقارة آسيا دون الحاجة لإرسالها عبر باريس. وحققت أعمال وكالة أنباء AFP عام ١٩٦٧ نتائج بلغت ٨٩,٨١١,٦٠٠ فرنك فرنسي، في الوقت الذي كانت فيه ميزانيتها لذلك العام لا تزيد عن ٥٠ مليون فرنك فرنسي فقط[٦]. وحسب مصادر وكالة أنباء



AFP فهي تنقل الأنباء بصدق وموضوعية، وتتسم بطابع استقلالي. ولكن المتابعة الموضوعية لما تنشره فعلاً يظهر بوضوح أنها وسيلة من وسائل السياسة الخارجية الفرنسية، من خلال تركيزها على نقل الأخبار وفق الأولويات التي تراها مناسبة لها، وبما يتناسب والمواقف الفرنسية، ومما ساعدها على الانتشار الواسع في العالم الخبرة الطويلة التي تكونت لديها، والمناخ السياسي السائد في فرنسا، وإمكانياتها المادية والتقنية وقدرات السياسة الخارجية الفرنسية، إضافة لدعم الحكومة الفرنسية.

أما في بريطانيا فقد افتتح عام ١٨٥١ جوليوس رويتر اليهودي الألماني الذي اكتسب الجنسية الإنكليزية عام ١٨٥٧، وتعلم في باريس على يد شارل هافاس، مكتباً للأنباء في لندن كشركة تجارية عادية، وسرعان ما تحول هذا المكتب إلى وكالة للأنباء ووسيلة هامة من وسائل السياسة الخارجية البريطانية، الأمر الذي ظهر جلياً واضحاً إبان الحرب العالمية الثانية. واستفاد رويتر من مد الكبل البحري بين دوفر وكالي، ليوفر عامل السرعة في إرسال واستقبال الأنباء. ومن ثم حصوله على موافقة سرية أثناء الحرب الأمريكية لمد كبل بحري عبر المحيط الأطلسي ربط

بين مينائي كــروك، وكروكابين على ساحل إيرلاندا، وسير سفناً أبحرت بمحاذاة السفن الأمريكية لتلتقط محافظ الأخبار الجاهزة منها وإيصالها لمراكــز التلغراف التابعة له موفراً بذلك حوالي ثمان ساعات من الطرق المألوفة آنذاك. وأطلــق على تلك الطريقة اسم التلغراف الناقصــ. وهي الفكرة التي استفادت منهــا الصحافة الأمريكية عندما أنشــأت كبريات الصحــف في نيويورك أول وكالــة للأنبــاء واتفقت مع سفــن الركاب المتوجهة عــبر المحيط الأطلســي لالتقاط الأخبار الواردة من أوروبا عام ١٨٤٨ بسرعة أكثر من انتظارهــا في نيويورك. ومنذ عام ١٩٤١ تحولت وكالة رويتر للأنباء إلى مؤسسة مستقلة «تروست» وفــق المفهوم البريطاني. وضم هــذا التروست: نيوزبيــبر بروبيتورز أسوسيشن، وشركة الصحف اللندنية، وشركة الصحافة، وشركة الصحافة الجهوية، وشركة الصحافة الاسترالية، وصحافة نيوزيلندة، وتعاونية الصحف الاسترالية والنيوزيلندية. ومعنى ذلــك أن وكالة رويتر كانت ملكاً غير قابــل للتجزئة لعموم الصحــف في المملكة المتحدة، باستثنــاء الصحافة الشيوعية غير الممثلة في تلك الشــركات، وعمل في الوكالة آنذاك نحــو ٢٠٠٠ موظف و ٥٠٠ صحفي، وكان لهــا ٧٥ مكتبــاً في ٦٩ دولــة، وكانت تــوزع حوالي ١,٣ مليون كلمة في اليوم على ٦٥٠٠ مشترك و٤٧٧٠ صحيفة في ١٢٠ بلداً في العالم. وكانت تملــك أكثر مراكز الرصد الإذاعي في العالم، وأوسع خط للتيليسكربتور في العالم، يبلغ طوله ٧٠٠, ٩٩٠ كلم حتى عام ١٩٦٧ بامتياز استخــدام نافذ لمدة خمسين عامــاً. ومنذ عــام ١٩٦١ استخدمت الكبل البحري الممتد تحت مياه المحيط الأطلسي بين لندن ونيويورك.(٧) وأثناء الحرب العالمية الثانية تعرضــت وكالة رويــتر لأزمة مالية حادة، دعــت الحكومــة البريطانية لتقديم المساعــدات لها، إلا أنها سرعان ما استغنت عن تلك المساعدات. ويقــول الرسميون في وكالة رويــتر، أن وكالتهم هي مؤسسة تمثل الصحافة البريطانيــة أساساً، وأنها تتوخى الموضوعية والدقة في أخبارها، ولكن تحليل مضمون موادها الإعلامية يبين أنها وسيلة مــن الوسائــل الفعالة للسياســة الخارجية البريطانيــة، وأنها كسائــر وسائل الإعلام الجماهيريــة البريطانية تستخــدم أساليب غايــة في الدقة لإخفــاء نواياها الحقيقية، الأمر الذي يساعدها على القول بأنها تعمل بموضوعية.

وفي العاصمــة الألمانيــة برلــين افتتح

اليهودي الألماني برنـارد وولف الذي تتلمذ في باريس على يد شارل هافاس، مكتباً صحفياً له أطلق عليه اسمه عام ١٨٤٩. ومن ثـم أنشأ خط تلغراف للدولة البروسية ربط بين برلين وأكس لاشبال، وبقيت وكالة وولف للأنباء أكبر وكالة أنباء في أوروبا حتى هزيمة ألمانيا النازية على أيدي الحلفاء في الحرب العالمية الثانية[٨]. وكانت هذه الوكالة واحدة مـن أكـثر الوسائل الفعالة مـن بين وسائل تنفيذ السياسة الخارجية الألمانية، وخاصة أثنـاء العهد النـازي، حيث أثبتـت تفوقها حتى على وكالة معلمـه هافاس الفرنسية. وانتهت هذه الوكالـة بهزيمة ألمانيا النازية، لتحل محلها وكالة الصحافة الألمانية DPA التي تأسست عام ١٩٤٩ في هامبورغ كشركة تعاونية يملكها ناشـري الصحف ومحطات البث الإذاعـي، على قاعدة وكالـة الأنباء DENA في المنطقـة الخاضعـة للولايات المتحدة الأمريكية من ألمانيا، ووكالة الأنباء DPD في المنطقـة الخاضعـة لبريطانيـا، ووكالة الأنبـاء SUEDENA في المنطقة الخاضعة لفرنسـا، وافتتحت ٤٦ مكتباً لها في ألمانيـا و٧٠ مكتباً في الـدول الأجنبية. وحصلـت DPA من مراسليهـا في ألمانيا ومختلف العواصـم العالمية يومياً على ٢٠٠ ألف كلمة وزعت منها الثلث على مشتركيها عبر شبكتهـا الإلكترونية للتوزيـع، لتصبح بذلـك وسيلة مـن وسائل تنفيـذ السياسة الخارجيـة لألمانيـا الاتحاديـة، وفق الدور المسموح لها بـه في السياسة الدولية. وبعد انهيار الاتحاد السوفييتـي، وحلف وارسو، والمنظومـة الاشتراكية، وهـدم جدار برلين الشهـير، وانضمام الأراضـي الشرقية التي كانت تعـرف بجمهورية ألمانيا الديمقراطية إلى ألمانيـا الاتحادية في مطلـع تسعينيات القـرن العشرين، جرت محاولة فاشلة خلال صيـف ١٩٩٠ لدمج وكالـة الأنباء DPA مـع منافستها وكالة أنبـاء جمهورية ألمانيا الديمقراطيـة ADN، وفي عام ١٩٩٢ سلم مجلس الوصاية وكالة الأنباء ADN لبولكو هوفمان صاحب Effectenspiegel A G في دوسلدورف، والذي يملـك أيضاً القسم الأكبر من رأس مال وكالة: DEUTSCHER DEPESCHEH – DIENST لتصبـح بذلك وكالة الأنباء الألمانية DPA، ووكالة ADN، ووكالة DDP (DEUTSCHE DEPESCHEN – DIENST) مـن وسائل تنفيذ السياسة الخارجية لجمهورية ألمانيا الاتحاديـة، إلى جانب وكالات الأنباء الدينية EPD وKNA و VWD.

أمــا في الولايــات المتحــدة الأمريكية فقد كونت بعض الصحــف الأمريكية عام ١٨٤٨ بنيويورك جمعية أطلقت على نفسها اســم جمعية أخبــار الميـنــاء، لتستفيد من خدماتها الإخبارية. وفي عام ١٨٥٦ تبدل اســم هذه الجمعية إلى نيويــورك أسوشيتد بريســ (AP) وتبــع ذلــك قيــام عدد من وكالات الأنباء الصغيرة في أنحاء مختلفة من الولايات المتحدة الأمريكية. وكان الهدف من إقامة تلك الــوكالات، الاقتصاد في نفقات الحصــول علــى الأنبــاء، وأدى اتجاه هذه الوكالات نحو التركيز إلى نشوء الاحتكارات الإعلامية داخل السوق الأمريكية. ويشترك في عضويــة مجلســ إدارة AP عــدد من ممثلي الصحف والإذاعات الأمريكية، طبقاً لإسهاماتهم المالية، ويتكــون مجلس الإدارة من ١٨ عضواً يتــم انتخابهم مرة كل ثلاث سنــوات، ويعــين هذا المجلســ المدير العام للوكالــة. وتعمــل الوكالــة بشــكل مستقل معتمدة في مواردهــا المالية على اشتراكات المشتركين فيهــا، وكان لها ٣٤ مكتباً رئيسياً دائماً، ومئات المكاتب الصغيرة، وكانت تملك ٦٠٠ ألف كم من خطوط التلغراف عبر أكثر مــن ١٠٠ دولة في العالم، وبلغ عدد موظفيها ٧٥٠٠ موظف، وتشكلت الوكالة أساساً على شكل جمعيــة تعاونية دون أهــداف معلنة، وبلغ عــدد المشتركين فيهــا ١٧٧٨ صحيفة ومجلــة أمريكيــة، و٢٠٤٢ محطــة إذاعية وتلفزيونيــة، وكانت تــوزع في اليوم أكثر من ٣ ملايــين كلمــة، علــى ٨٥٠٠ مشترك في العالم[٩]. وفي عــام ١٩٥٨ اندمجت كلاً من: وكالة يونايتيــد بريســ أسوسييشين. التي تأسست عام ١٩٠٧ نتيجة لاندماج عدد من وكالات الأنباء الأمريكية المحلية، ولم تشترك هــذه الوكالة منــذ تأسيسهــا في الاحتكار الدولي للأنبــاء مفضلة العمل بحرية داخل ســوق الأنبــاء العالميــة، كجمعيــة تعاونية (شركة تجارية)؛ ووكالــة إنترناشيونال نيوز سيرفيس. التي تأسســت عام ١٩٠٩ وكانت عضــواً في الاحتكار الدولي للأنباء؛ وشكلتا مــع بعضهما بعــد الدمج وكالــة اليونيتيد بريس إنترناشيونال UPI كمؤسسة تجارية عادية، لهــا ١٤٨ مكتباً في الولايات المتحدة الأمريكية، و١٠٠ مكتبــاً موزعة في مختلف دول العــالم. وبلغ عــدد موظفيها حوالي ١٠ آلاف موظف. ووزعت أكثر من ٤ ملايين كلمة في اليوم إلى ١١٤ دولة في أنحاء العالم بـ ٤٨ لغة. إضافة لامتلاكهــا لقناة خاصة لتوزيع الصور الفوتوغرافية (أونيفاكس) تعمل على مدار الساعة. وبلغ عــدد مشتركيها ٣٦٠٩

صحف، و٢٣٢٥ محطة إذاعية و٥٢٨ محطة تلفزيونية، و٦٢٢ مشتركاً خاصاً[١٠]، وتعتبر وكالات الأنباء الأمريكية أداة فعالة من أدوات تنفيذ السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، بفضل الانتشار العالمي الواسع الذي تتمتع به، ولاعتماد الكثير من وسائل الإعلام الجماهيرية في شتى أنحاء العالم عليها كمصدر لتلقي الأخبار العالمية. وهو ما أثبتته دراسات تحليل المضمون التي تناولت خدمات تلك الوكالات، حيث تبين أنها تعرض مختلف الموضوعات وفقاً لمفهوم السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، والأولويات التي تطرحها تلك السياسة، ومن خلال متابعتها لتطورات الأحداث من خلال الخبر والتعليق، واستخدام مصطلحات Semantics[١١]. ومن المعروف أن وكالات الأنباء العالمية توزع أخبارها وفقاً لأولويات سياستها الإعلامية الخاصة، فإذا كان هناك خبراً عاجلاً وضعت في مقدمته عبارة Snap أو Urgent التي ترتبط بالأصوات العالية التي تحدثها أجراس أجهزة استقبال الأخبار، بقصد التنبيه لأهمية الخبر ،وأثبتت دراسات تحليل المضمون أن هذا التوزيع كان مطابقاً للسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية في أكثر الحالات المدروسة. وهذا يعني أن وكالات الأنباء العالمية الأمريكية تعتبر أداة من أدوات تنفيذ السياسة الخارجية الأمريكية، وتعكس الأدوات الأخرى التي تعتمد عليها السياسة الخارجية الأمريكية، إضافة لتمتع وكالات الأنباء بخصائص إضافية منها تعدد المصادر التي تستقي منها الأخبار، ومنافستها لغيرها من وكالات الأنباء العالمية في الحصول على الأخبار، وتوزيعها لتلك الأخبار على مشتركيها قبل حصول الوكالات المنافسة على تلك الأخبار. وهو ما يعرف في عالم الصحافة بالسبق الصحفي. إضافة لتمتع وكالات الأنباء الأمريكية بقدرات مالية وتكنولوجية هائلة، وكوادر مؤهلة كفوءة تجعل منها أكثر قدرة على التنافس من وكالات الأنباء العالمية في دول العالم الأخرى.

ومن الناحية التاريخية نرى أن وكالة الأنباء الفرنسية هافاس Havas، ووكالة الأنباء البريطانية رويتر Reuter، ووكالة الأنباء الألمانية وولف Wolff، قامت بتقسيم العالم قبل أكثر من قرن ونيف من الزمن إلى مناطق نفوذ إعلامية، تمشياً مع السياسات الاستعمارية التي كانت تتبعها آنذاك الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وبروسيا وبريطانيا، الشركاء الثلاثة في

الاحتكار الدولي للأنباء، وكان همهم الوحيد آنذاك الحصول على الربح ودعم الحكومات المتعاونة معهــا في الداخل والخارج، وتقدم لها المساعدة والمــؤازرة للاحتفاظ بالسلطة والأوضاع الراهنــة. واتفقت وكالات الأنباء الثــلاث على تنسيــق أعمالها عــام ١٨٥٦ لتجنب المنافسة، وتحقيق معدلات عالية من الربــح، وتزايد الاحتكار الدولي للأنباء بعد توقيع اتفاقية الأنباء بينهم عام ١٨٧٠ وقاموا بتقسيــم العالم إلى عدد مــن مناطق النفوذ، يكون لكل منهــا وكالة أنباء معينة لها الحق الكامل في جمع وتوزيــع الأنباء. وعلى هذا الأساس منحت وكالة الأنباء الألمانية وولف حــق السيطرة على جمع ونقــل الأنباء من وإلى ألمانيــا والنمسا وهولندا واسكندينافيا والإمبراطوريــة الروسيــة والبلقان، وكانت وكالة أنباء فيينا آنذاك تابعة لوكالة الأنباء الألمانيــة وولف. بينما منحــت وكالة الأنباء الفرنسيــة هافاس نفس الحــق في إيطاليا، وسويســرا، وإسبانيــا، والبرتغــال، وأمريكا الوسطــى والجنوبية، ومصــر بالتعاون مع وكالــة الأنبــاء البريطانية رويــتر. ومنحت وكالة الأنباء البريطانية رويتر نفس الحقوق في الإمبراطورية البريطانية والشرق الأقصى والإمبراطورية العثمانية، ومصر بالاشتراك مع وكالة الأنباء الفرنسية هافاس، أما وكالة الأنبــاء الأمريكية الأسوشيتــد بريس التي كانت عضــواً صغيراً في الاحتــكار الدولي فمنحــت نفس الحقــوق داخــل الولايات المتحــدة الأمريكية فقط. بينمــا اعتمدت وكالــة الأنبــاء الروسيــةThe Russian Telegraph Agency على وكالة الأنباء الألمانية وولــف. ورغم تمتع وكالــة الأنباء الأمريكيــة الأسوشيتــد بريس بعــد إعادة تنظيمها، بكامل العضوية في هذا الاحتكار الــدولي، خلال السنوات العشــر الأولى من القــرن العشريــن، إلا أنهــا لم تحقق نجاحاً ملحوظاً أمام منافسة شركائها في الاحتكار، ورفضت طلب الصحف الأمريكية الجنوبية للتعاون معها بعــد أن ضاقت تلك الصحف ذرعــاً من الدعاية الفرنسيــة والأنباء التي كانت تزودهــا بها وكالة الأنبــاء الفرنسية هافاس.

وبــدأ الاحتكار بالتداعــي عندما بدأت وكالــة الأنبــاء الأمريكيــة اليونيتيد بريس التي لم تدخل في عضويــة الاحتكار العالمي للأنباء، بمنافسة وكالــة الأسوشيتد بريس، في ســوق الأنبــاء العالميــة، ودخولها سوق أمريــكا الجنوبيــة، فما كان مــن الاحتكار الــدولي إلا أن منح وكالــة الأنباء الأمريكية

الأسوشيتد بريس العضو في الاحتكار حق السيطرة المطلقة على تلك السوق، واستمرت تلك الحال حتى مطلع ثلاثينيات القرن العشرين حين خرقت وكالة الأنباء الأمريكية الأسوشيتد بريس الاتفاق المبرم مع الاحتكار الدولي، وبدأت باستغلال السوق اليابانية الغنية متحدية بذلك الاحتكار القائم لوكالة الأنباء البريطانية رويتر فيها.

وأظهرت بعض الدراسات الإعلامية أنه إضافة للاحتكار وتوزيع مناطق النفوذ في عملية التبادل الإعلامي الدولي، فإن وسائل الإعلام الجماهيرية الدولية، حرصت على نقل وتوزيع الأخبار والتعليقات والتحليلات السياسية والاقتصادية والعسكرية من منظور المصالح التي تمثلها، آخذة بعين الاعتبار مصالحها السياسية والاقتصادية، وهذه معضلة لم تزل تعاني منها الدول الأقل تطوراً والدول النامية والدول الفقيرة، المضطرة لاستخدام ما يصلها من المصادر الإعلامية الدولية، متأثرة في أكثر الأحيان بمواقف تلك المصادر، وهذا يفسر محاولات بعض الدول الأقل تطوراً والدول النامية، التكتل عالمياً وإقليمياً لإنشاء وسائل إعلام جماهيرية قوية، يمكن أن تخلصها من هيمنة واحتكار وسائل الاتصال ووسائل الإعلام الجماهيرية الدولية، في جمع ونقل وتوزيع ونشر الأنباء عالمياً.[١٢]

أما نظام الحكم الجديد في روسيا بعد استيلاء البلاشفة على السلطة عام ١٩١٧، فقد أنشأ وكالة التلغراف الروسية التي باشرت عملها ابتداء من عام ١٩١٨، وبعد قيام الاتحاد السوفييتي تغير اسمها إلى وكالة تلغراف الاتحاد السوفييتي TASS وكانت تابعة لمجلس وزراء الاتحاد السوفييتي السابق ويديرها أحد أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي السابق، وتجمع الأخبار من ٦٠ دولة، وتوزعها على المشتركين في ٤٠ دولة، إضافة لاحتكارها تجميع وتوزيع الأخبار داخل جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، باعتبارها المصدر الوحيد والإلزامي لجميع الصحف السوفييتية، وكان يعمل فيها حوالي ١٥٠٠ موظف، ومقرها موسكو، وتوزع حوالي ١٥٠٠ كلمة في اليوم كلها نصوص رسمية وشبه رسمية[١٣]. وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي تحولت هذه الوكالة إلى وكالة ITAR TASS بينما تحولت فروعها في الجمهوريات السوفييتية السابقة: لاتفيا، وليتوانيا، واستونيا، وبيلاروسيا، وملدافيا، وأوكرانيا، وجورجيا، وأرمينيا، وأذربيجان،

وتركمانستان، وأوزبكستـــان، وطاجكستان، وقازاقستان، وقرغيزستان إلى وكالات أنباء وطنية للجمهوريات التي استقلت.

وفي عـــام ١٩٦١ أنشـــأت الحكومـــة السوفييتية وكالة نوفوستي الصحفية، لإنتاج المواد الإعلامية التي تعكس أوجه الحياة في الاتحاد السوفييتي السابق، وتعد هذه الوكالة مكملة لوكالة تاســ في الإعلام السوفييتي، وتعمـــل في إطـــار السياســـين السوفييتين الداخلية والخارجية، وسارت وسائل الإعلام الجماهيريـــة السوفييتيـــة، في إطار النظام الشيوعي السوفييتي الذي استخدم الدعاية كوسيلـــة من الوســائـــل الأساسيـــة لتحقيق أهدافه، من خـــلال الإقناع وغسل الأدمغة، والتلقين الإيديولوجي، والتركيز على وجهة النظـــر السوفييتية فقـــط، وإهمال وجهات النظر الأخرى كافة خاضعة تماماً لسيطرة الحزب الشيوعي السوفييتي، ولاسيما لجنته المركزية، ومكتبه السياسي، ولم تعرف وسائل الإعـــلام الجماهيرية السوفييتية طيلة فترة حياتها السبق الصحفي، كما هي الحال في وسائل الإعلام الجماهيرية في غرب أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية والدول السائرة على النمط الغربي. وكثيراً ما كانت تحدث أحداثاً جسيمة في الاتحاد السوفييتي نفسه وفي دول العالم الأخرى دون أن تنقلها وسائل الإعلام الجماهيريـــة السوفييتية بناءً على تقدير السلطـــات السوفييتيـــة، ولهذا كان المواطـــن السوفييتي ملمـــاً بمسائل من نوع خاصـــ يحصـــل عليها بناءً علـــى حسابات السلطة السوفييتيـــة، ولا يعرف الكثير مما يدور حوله من شؤون العالم. وكثيراً ما كانت الأخبار تذاع بتأخر كبـــير يتجاوز عدة أيام أحياناً بعد وقوع الحدث(١٤). وكانت الأخبار التـــي تنقلها بعيدة عـــن الموضوعية، وتنشر الحقائـــق التي تدخل في إطـــار السياستين الداخليـــة والخارجية للدولـــة فقط. وبهذا كانـــت وكالتـــي تاس ونوفوستـــي أداة طيعة مـــن أدوات دعايـــة السياســـة الخارجيـــة السوفييتية، حتـــى إن الكثير من الدول غير الشيوعية كانت تتجنب الاعتماد على وكالة تاســـ، وأن بعضـــ تلك الـــدول اشتركت في وكالة تاس مجاملة للإتحاد السوفييتي كقوة عظمـــى آنذاك. وكانت تنشـــر حيزاً ضئيلاً جـــداً مـــن الأخبار التـــي يوزعهـــا الإعلام السوفييتي، وخاصـــة تلك التي تمس بشكل مباشر الاتحـــاد السوفييتي السابق وحلفائه المقربـــين، واقتصر اعتمادها على ما توزعه وكالات الأنباء الغربية فقط.

وكانت وكالات الأنبـــاء الوطنية تمارس

جمع وتوزيع الأنباء الداخلية في الدولة المعنية وترتبط بوكالات الأنبـاء العالمية باتفاقيات ثنائية تخولهـا التقاط الأخبار التي توزعها تلـك الوكالات ومن ثم توزيعها داخل الدولة المعنيـة من خلال شبكـة توزيعها الخاصة، وبالمقابـل كانت وكالة الأنبـاء العالمية تلك تحتكر توزيع أنبـاء وكالات الأنباء الوطنية المرتبطـة معها عالميـاً أي أنها كانت حجر العثرة الـذي يعيق توزيع تلك الأخبار بشكل مباشر. ومـع ذلك كانت هناك وكالات أنباء وطنيـة تمتعت بشهرة دوليـة تتعدى حدود الدولة المعنية، ومن أشهر هذه الوكالات:

في القارة الآسيويـة: وكالة أنباء الصين الجديـدة التـي أنشأتهـا جمهورية الصين الشعبية في ١ أيلـول/ سبتمبر ١٩٣٧ لتحل مـكان وكالة أنبـاء الصين الحمـراء التي أسسـت عـام ١٩٢٩[١٥]. وتخضـع هـذه الوكالـة للإشـراف المباشر لمجلـس الدولة والحزب الشيوعـي الصيني، وهي المصدر الوحيد للأنبـاء بالنسبـة لوسائل الإعلام الجماهيرية الصينيـة. مقرها في العاصمة بكين، ولها مكاتـب في شنغهاي، وشن يانغ، وهان كيو، وسيان، وتشينغ كينغ، وعدد كبير من المراسلـين في أنحاء الصين، و٥٩ مكتباً خارج الصين منها ١٨ مكتباً في دول لا تقيم علاقـات دبلوماسيـة مع الصـين، ونشرت وكالـة أنباء الصين الجديـدة يومياً حوالي ٦٢ ألـف كلمـة، منها ٣٢ ألـف كلمة تعالج الأخبار المحلية و٣٠ ألف كلمة تعالج الأخبار الدوليـة، إضافة للتقاريـر الصحفية التي تعكس وجهة النظـر الرسمية الصينية من الأحداث المحليـة والعالمية. ووكالتي الأنباء اليابانيتـين: وكالة أنباء كيودو نيوزسرفيس، ووكالة أنباء جيجـي بريس سرفيس، اللتان أسستـا عـام ١٩٤٥ بعـد اختفـاء الوكالة الرسمية للأنباء Domei[١٦]. وتعتبر وكالة كيودو التعاونية أول وكالة استخدمت طريقة Telefax لإرسـال المعلومـات عام ١٩٤٩، كما واستخدمت Tele type Kanji الذي أقيم بالقـرب من طوكيـو وافتتح نحو ٥٠ مركزاً وشبكة مـن المراسلين خارج اليابان، منـذ عـام ١٩٦٠. أما وكالـة أنباء جيجي فقد تشكلت كشركة مساهمة تهتم بالأخبار الاقتصادية والماليـة، ومن ثم بدأت بتوسيع خدماتهـا الإعلامية اعتباراً من عام ١٩٦٥ لتشمل الأحـداث كافـة. وأول وكالة أنباء كورية كانت وكالة أنباء خيبان تخونسين التي تأسست عام ١٩٤٥ مباشرة بعد إعلان قيام جمهورية كوريا، وتبعتها العديد من وكالات الأنبـاء الوطنية الصغـيرة التي بمعظمها لم

تستطع الاستمرار في العمل لصعوبات عدة. وفي عام ١٩٨٠ ونتيجة لاندماج وكالتي الأنباء الكوريتين الجنوبيتين خابتون، وتونيان ظهرت وكالة أنباء ينخاب تخونسين التي استطاعت السيطرة على الخدمات الإخبارية في كوريا بعد ابتلاعها لثلاث وكالات أنباء وطنية صغيرة، لتصبح بذلك وكالة الأنباء المسيطرة في جمهورية كوريا. ويعمل فيها ١٠٠ مراسل و٣٠٠ صحفي، ولها ١٣ مكتباً إعلامياً في أوروبا وأمريكا الشمالية والشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا. وتتعامل مع ٤٥ وكالة للأنباء بينها وكالات الأنباء العالمية الكبيرة أسوشيتد بريس، وUPI، ورويتر، وفرانس بريس، وتقدم خدماتها الإعلامية باللغة الكورية لـ ٥٠٠ مشترك محلي، وتقدم خدمات إعلامية بحدود ٥٠٠٠ كلمة يومياً باللغة الإنكليزية لـ ١١٠ مشتركين أجانب.[١٧]

وفي القارة الأوروبية أنشأت إيطاليا وكالة أنباء (ANSA)(١٨): على أنقاض وكالة أنباء Stefani التي عملت دون انقطاع من عام ١٨٥٣ حتى هزيمة الفاشية في الحرب العالمية الثانية. وفي ١٣ كانون ثاني/ يناير ١٩٤٥ بدأت أنسا عملها كشركة تعاونية ذات مسؤولية محدودة، تضم الصحف الإيطالية اليومية كافة.

وفي القارة الإفريقية تعد وكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية (MENA)[١٩] أول وكالة أنباء في مصر ومنطقة الشرق الأوسط والقارة الإفريقية، أنشأت عام ١٩٥٦ كشركة مساهمة تمتلكها الصحف المصرية مناصفة مع الدولة، وانتقلت ملكيتها بالكامل عام ١٩٦٢ إلى الدولة وأصبحت إحدى الشركات التابعة لاتحاد الإذاعة والتلفزيون، ومن ثم انتقلت ملكيتها إلى مجلس الشورى المصري عام ١٩٧٨. وللوكالة مكتبين رئيسيين في القاهرة وباريس، ويعمل فيها ١٠٦٧ موظفاً منهم ٣٩٠ صحفياً، وتبث الوكالة يومياً: نشرة أنباء الشرق الأوسط باللغة العربية بنحو ٥٧ ألف كلمة تقريباً؛ ونشرة أنباء الشرق الأوسط باللغتين الإنكليزية والفرنسية بنحو ٢٣،٨٠٠ كلمة تقريباً؛ والنشرة الدولية الخاصة بنحو ١٣،٢٦٠ كلمة تقريباً؛ والنشرة الاقتصادية بنحو ١٧،٩٣٠ كلمة تقريباً. كما وتبث التحقيقات والصور للمشتركين في داخل مصر وخارجها، وللوكالة ٤ مكاتب و٢١ مراسلاً داخل مصر، و٣٠ مكتباً ومراسلاً في العواصم العالمية. وتتبادل الوكالة الأنباء والصور مع ٢٥ وكالة أنباء عربية وأجنبية،

ولها إسهام في تطوير التعاون الإعلامي بين الدول العربية والإفريقية. وتسهم في تدريب الكوادر الإعلامية للدول العربية والصديقة عن طريق دورات تدريبية منتظمة في مجال التحرير والإدارة والهندسة الإعلامية، وتقيم علاقــات تعاون مــع وكالات الأنباء العالمية ووكالات الأنبــاء العربية ووكالات أنباء دول عدم الانحيــاز ووكالات الأنبــاء الإفريقية عن طريق الاتفاقيــات الثنائية، وهي وكالة الأنبــاء الوحيدة في العالم الثالث التي تسمح بتدفــق الأنباء محليــاً إلى وسائــل الإعلام الجماهيرية المصرية من خلال كافة وكالات الأنباء مباشــرة ودون تدخل أو وصاية منها كوكالــة قومية في مصر. وقــد دخلت وكالة أنباء الشرق الأوسط عالم الكمبيوتر منذ عام ١٩٩٠، وبدأت باستخدام الأقمار الصناعية في نقل الأخبار اعتباراً من ٢٥ تشرين أول/ أكتوبر ١٩٩٤.

وهناك تجمعات لــوكالات الأنباء تأخذ إما طابعاً إقليمياً أو قارياً أو منحى سياسياً معينــاً أو تخصصاً، مثــال: اتحاد وكالات الأنباء الأوروبية الذي يضم أكثر من ١٦ بلداً أوروبياً؛ واتحاد وكالات الأنباء العربية الذي يضم وكالات أنباء الــدول العربية؛ واتحاد وكالات الأنباء الإفريقية الذي يضم وكالات أنبــاء الــدول الإفريقية؛ واتحــاد وكالات الأنبــاء الأسيوية، ..وغيرهــا من التكتلات والتجمعات.

وهنــاك وكالات متخصصــة تقــدم خدمات في موضوع معين ديني أو رياضي أو فني..إلخ، أو مــواد إعلامية جاهزة للنشر، أو صــور صحفية، مثــال: وكالة فيدس في الفاتيكان؛ ووكالة الأنباء الإسلامية؛ ووكالة جويســ تلغرافيك؛ ووكالة كيوسنون؛ ووكالة أجيب؛ ووكالــة دلماس؛ ووكالــة إنتربريس؛ ووكالــة فامــا؛ وتعتبر وكالة أوبــيرا ماندي التي تمثــل في أوروبا مصالــح: King>s Features Syndicate Americain، مــن أقدم الــوكالات الصحفية المتخصصة في تقــديم النصوص الصحفية الجاهزة في العالم، أنشأها بول وينلكار عام ١٩٢٨، لتوزع المقــالات بلغات العالم المختلفة عن الأحداث الهامة، ومقالات عــن الشخصيات الكبيرة في العالم، وريبورتاجات مصورة. وتتميز هذه الــوكالات بفهمها العميــق لأذواق الجمهور وميولــه العلمية، والاقتصاديــة، والثقافية، والفنية.

وفي الختام لابد من التأكيد على ملاحظة هامة وهي أن معظم وكالات الأنباء الوطنية في دول العالم كما هي الحال في الدول النامية

تخضع تماماً لسلطة القانون في تلك الدول، إضافة لخضوعها للرقابة الصارمة من قبل الدولة التي تمارس نشاطاتها الإعلامية داخلها[٢٠]، وهو ما يستدعي التفكير جدياً في ما تدعيه بعض الجهات العالمية لنفسها من ديمقراطية وحرية كلمة وحرية التصرف واتهامها لبعض الدول وخاصة الدول النامية التي تحاول الخروج من دائرة تأثير تلك الجهات بغياب الديمقراطية وحرية الإعلام وكأن تلك الدول تعيش دون قوانين ناظمة لشؤون الإعلام في بلادها.

الهوامش

١- أ.د. محمد البخاري: عربي سوري مقيم في أوزبكستان، دكتوراه علوم في العلوم السياسية DC، اختصاص: الثقافة السياسية والأيديولوجية، والقضايا السياسية للنظم الدولية وتطور العولمة. بروفيسور قسم العلاقات الدولية والعلوم السياسية والقانون بمعهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية.

٢- للمزيد انظر: أ.د.محمد البخاري: «العولمة وقضايا التبادل الإعلامي الدولي في ظروف العلاقات الدولية المعاصرة» أطروحة للحصول على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية DC، من أكاديمية بناء الدولة والمجتمع. الاختصاص: الثقافة السياسية والأيديولوجيات؛ المشاكل السياسية للنظم العالمية والتطور العالمي». طشقند: ٢٠٠٥. (باللغة الروسية، بحث غير منشور).

-UNESCO: World Trends of News Agencies، in International Communication Media، Channels، Functions Edited by Heinz Dietrich Fischer and John C. Merrill. New York، Hastings House Publishers، 1970، pp. 5765-.

٣- رولان كايرول: الصحافة المكتوبة والسمعية والبصرية. ترجمة مرشلي محمد. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر، ١٩٨٤، ص١٠١-١٠٢.

٤- نفس المصدر، ص١٠٢.- د.محمد علي العويني: الإعلام الدولي بين النظرية والتطبيق. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٠، ص١١٠، ود. عبد العزيز الغنام: مدخل في علم الصحافة. الجزء الأول، الصحافة اليومية. دار النجاح. بيروت ١٩٧٢، ص٨٠.

٥- رولان كايرول: مصدر سابق، ص١٠٥.

٦- نفس المصدر السابق. ص١٠٥-١٠٦.

٧- نفس المصدر السابق. ص١٠٣-١٠٦، ٥٦٨-٥٦٩.

٨- نفس المصدر السابق- ود. محمد علي العويني: المصدر السابق، ص١١١، -وهيرمان ماين: وسائل الإعلام

الجماهيرية في جمهورية ألمانيا الاتحادية، كوللوكيوم، ألمانيا ١٩٩٦، ص١٢٨- ١٣٠. (باللغة الروسية)

٩- د. عبد العزيز الغنام: مدخل في علم الصحافة. ج ١، الصحافة اليومية. بيروت: دار النجاح، ١٩٧٢، ص٨١-٨٢.

١٠-نفس المصدر السابق. ص١٠٧-١٠٨.

١١-د.محمد علي العويني: مصدر سابق، ص١٠٧.

١٢-نفس المصدر السابق. ص٦١-٦٣.

Theodore E. Kruglak: The International News Agencies and the Reduction of International Tensions، Symposium Ljubljana، ١٩٦٨. op. cit.، pp. ٢٤٠-٢٤٤.

١٣-رولان كايرول: مصدر سابق، ص١٠٤-١٠٨.

١٤- Charles R. Wright: Mass Communication، A Sociological Perspective، New York، Random House. ١٩٥٩. pp. ٢٦-٣٤.

١٥-رولان كايرول: مصدر سابق، ص٦٠٧-٦٠٩.

١٦-نفس المصدر السابق. ص٥٩٦.

١٧-كوريا أرقام وحقائق. الخدمات الإعلامية لجمهورية كوريا، سيؤول ١٩٩٣. ص١١٨-١١٩. (باللغة الروسية)

١٨-رولان كايرول: مصدر سابق، ص٥٤٤-٥٤٦.

١٩-الكتاب السنوي ١٩٩٥. وزارة الإعلام، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة ١٩٩٦. ص٣٨٠-٣٨٢.

٢٠-د. محمد علي العويني: مصدر سابق، ص١١٢. ورولان كايرول: مصدر سابق، ص١١١-١١٣.

المراجع

١- أحمد صوان: أوراق ثقافية.. عن الإعلام وعيد الصحفيين. // دمشق: تشرين، ١٩/٨/ ٢٠٠٧.

٢- صفات سلامة: الإعلام العلمي العربي: الواقع.. والمأمول. // لندن: الشرق الأوسط، ٢١/٨/٢٠٠٧.

٣- د. محمد البخاري: العلاقات الدولية في ظروف الثورة المعلوماتية. //دمشق: المعرفة، العدد ٥١٩ كانون أول/٢٠٠٦. - التبادل الإعلامي الدولي والعلاقات الدولية. مقرر جامعي. معهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية، ٢٠٠٦. (باللغة الروسية) - التفاعلات السياسية في وسائل الإعلام الجماهيرية. مقرر جامعي. معهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية، ٢٠٠٦. (باللغة الروسية)- مبادئ الصحافة الدولية في إطار العلاقات الدولية. مقرر جامعي. معهد

طشقنـد الحكومـي العـالي للدراسات الشرقيـة، ٢٠٠٦. (باللغـة الروسية)- الإعـلام التقليدي في ظـروف العولـة والمجتمـع المعلوماتي.// جدة: مجلـة المنهل، العـدد ٥٩٢/أكتوبـر ونوفمبر ٢٠٠٤. - قضايـا التبـادل الإعلامي الدولي في ظـروف العلاقات الدولية المعاصرة. مقـرر جامعي. معهد طشقنـد الحكومـي العالي للدراسات الشرقية، طشقند: مطبعة «بصمـة» ٢٠٠٤. (باللغة الروسية) - العولمة والأمن الإعلامي الوطني والدولي. //الرياض: مجلة الدراسات الدبلوماسية، العدد ١٨، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م. - المعلوماتيـة والعلاقات الدولية في عصر العولمـة.// الرياض: مجلة «الفيصل»، العدد ٣٢٠ صفر ١٤٢٤ هـ/أبريل ٢٠٠٣. - العلاقات العامة والتبادل الإعلامي الدولي. مقرر لطلاب الدراسـات العليـا (الماجستير)، معهد طشقند الحكومي العـالي للدراسات الشرقية، ٢٠٠١. (باللغة الروسية) - «دور وسائل الإعلام الجماهيرية في التنمية والثقافة والتعليم» أطروحة للحصول على درجـة دكتوراه الفلسفـة في الأدب phD (صحافة) من جامعة موسكـو الحكومية، ١٩٨٨. (باللغة الروسيـة، بحـث غـير منشـور) - «دور الصحافة السوريـة في التنمية والثقافـة والتعليم» أطروحة للحصـول على درجة الماجستير في الصحافة. جامعة طشقند الحكومية، ١٩٨٤. (باللغة الروسية، بحث غير منشور).

٤- فيصـل عباس: مديـر قسـم الأخبـار الدوليـة في الـ «بـي. بي. سـي»: لا نسعـى لمجـاراة «العربية» و«الجزيرة». // لندن: الشرق الأوسط، ٢٠٠٧/٨/١٩.

آفاق المعرفة



دور الإدارة البيئية في تنظيم المردود الاقتصادي للتنمية المستدامة

د. محمود صالح سليمان *

١- مفهوم الإدارة البيئية وأساليب تطبيقها:

لابد لنا في البداية من تحديد مفهوم الإدارة، فالإدارة العلمية: هي فكر منظومي يركز على طبيعة الأنشطة التي تستخدم فيها قواعد المعرفة وأنظمة الاتصالات والبرمجيات الذكية لمساندة صانعي القرارات ودعمهم في اتخاذ القرارات الصائبة. إن المنظمات الاقتصادية والاستثمارية والتنموية تعترضها تحديات وإشكاليات متعددة في ضوء المتغيرات السريعة والمتلاحقة، لذلك لابد من استخدام التقنيات العالية لمواجهتها، وهذا يحتاج إلى برنامج

* باحث وأكاديمي سوري

العمل الفني: الفنان مطيع علي

شامــل وطمــوح يحتــوي علــى المحددات الأساسية التالية:

١- القــدرة علــى استيعــاب التقنيات الملائمة وتسخيرها لخدمة أهداف المنظمة بما يتفق مع التوقعات المستقبلية.

٢- تنميــة المــوارد البشريــة، وتحسين معرفتها وخبرتها لتطوير الأداء وتجويده مع خفض التكاليف وزيادة الأرباح.

٣- القــدرة على صنع استراتيجية بيئية متواصلــة تحقق أفضل استخــدام للموارد الطبيعية وتلبــي الحاجات من منظور بيئي إنمائي.

وهــذا يعني أن وظائــف الإدارة البيئية تشمل المجالات التالية:

١- مجــال التخطيط البيئــي: أي وضع الخطــط اللازمــة لتحقيــق الأهداف عبر الاستراتيجيــات والسياســات والبرامــج المعتمدة.

٢- مجــال التنظيــم: لابد مــن السعي إلى الاستخدام الأفضــل للموارد الطبيعية بطريقة توازن بين الحاضر والمستقبل.

٣- مجال الرصــد والتحليل: وهنا لابد من استقــراء المستقبــل وتحديد الحاجات في الحاضــر والمستقبــل، ومحاولــة الإفادة المتواصلة من الموارد الاقتصادية، مع محاولة اكتشاف الموارد البديلة التي تحد من حالات التدهور أو استنزاف المــوارد البيئية للبقاء في دائــرة الأمــان حاضــراً ومستقبلاً لدى تشغيلها.

فما مفهوم المنظومــة الإدارية البيئية ؟ هــي كيان واحد يضم مجموعة من المكونات تتفاعل بعضها مع بعض عبر تقنيات مخطط محدد يوصلنا إلى ما نريده من أهداف فردية أو مركبة، ويتكون من عدة عناصر:

١- مدخلات المنظومة: وهي تمثل الموارد الأوليــة التي يمكن إدخالها لإجراء عمليات تحويلية من خلال أساليــب معينة للوصول إلى أهداف محددة.

٢- تحويــلات المنظومة: وهي الأساليب الفنيــة اللازمة لتحويل المدخلات إلى نواتج أو قيم مضافة.

٣- مخرجــات المنظومة: وهــي بمنزلة النتيجــة النهائية التي تقــدم فيها السلع أو الخدمات بشروط ومواصفات معينة، وهذا يتم داخل إطار المنظومة وقيودها، وفي بيئة المنظمة المحيطة بها.

تعد هــذه المنظومات بمنزلة المنظومات الرئيسيــة، وتوجد منظومات أخرى فرعية، وكلهــا تتكامل في أداء أدوارها لنحصل على مخرجات ذات كفاءة عالية.

تعـددت المدارس الفكريـة التي توضح أساليـب الإدارة البيئيـة، ويمكن تحديدها بثلاثة اتجاهات فكرية هي:

١- الفكر الوظيفي: ويعتمد على وظائف الإدارة التقليدية، ونظم الأنشطة في المنظمة مع تخطيطها ومتابعتها.

٢- الفكر السلوكي: ويعتمد على السلوك الإنسـاني والتنظيمـي في قيـادات أنشطة المنظمة.

٣- الفكر التنظيمي: وهو الفكر العلمي الـذي يعتمد كليـاً على أنشطـة المنظومة المتكاملـة فيما بـين كياناتهـا المختلفة، و لتحقيق ذلـك تستخـدم الأدوات العصرية التـي تمثلهـا قواعـد البيانـات وأنظمة المعلومـات وأنظمة اتخاذ القـرار ودعمه، وكذلـك الأساليب الرياضيـة والإحصائية وبحوث العمليات وغيرها.

خلاصـة القـول: إن الإدارة البيئية هي الهيكل الوظيفي للمنظمـة لوضع الخطط وممارسة المسؤوليات والإجراءات والعمليات وإمكانيات التطوير، وتنفيذ السياسة البيئية ومتابعتهـا لتحسـين أداء المنظمة، وخفض آثارها الضارة بالبيئة أو محاولة منع حدوثها كهدف رئيس للإدارة البيئية.

مفهوم التنمية المتواصلة (المستدامة) والانعكاسات الاقتصاديـة والاجتماعية في غياب الإدارة البيئية.

لو فكر علماء العـالم في اختيار موضوع يتفق عليه الجميع في مختلف أرجاء المعمورة فلن يجدوا أفضـل من الموضوعات المتعلقة بأزمـة البيئة، هذه الأزمة سرعان ما تستثير الجماعة الدوليـة التي تعنيها حماية البيئة المحليـة منهـا والإقليميـة والدوليـة، كما يفيدها تحسين الظروف البيئية بالتخطيط والتنسيق وبالإدارة الواعية والإدارة اليقظة لتحقيـق التـوازن بـين متطلبـات التنمية والمحافظة على البيئة الطبيعية.

إن المنظمات الإقليمية والدولية أسهمت إلى حـد كبير في إعداد الدراسات والبحوث والتقارير التي تخدم قضايا البيئة والتنمية، وعملـت على تنشيـط المشروعات والبرامج البيئيـة والعمـل علـى تنفيذهـا، كما أن المؤتمرات والندوات التي عقدت تحت مظلة هذه المنظمات أسهمت بدور جيد في تحقيق التفاعـل والتجـاوب بين حكومـات الدول وشعوبهـا ودفعتهـم إلى الاهتمـام بالبيئة، وخلقـت التوعيـة البيئية، وبينـت آثارها الاقتصاديـة والاجتماعية وحددت المخاطر التي قد يتعرض لها الوسط الحيوي كله.

إن مـا يواجهـه المجتمـع الـدولي من

إخفاقات في التنمية وفي إدارة البيئة وتزايد المشكلات البيئية الحرجة التي ظهرت في القرن العشرين وما تزال في القرن الحالي تتزايد بمعدلات مخيفة موسعة الفجوة بين الأمم الغنية والفقيرة من جهة مؤثرة على إنتاجية الموارد الطبيعية ومعدلات الاستهلاك محدثة التدهور البيئي والتلوث الذي أصابها، هذا يفرض عليه البحث عن الحلول والسبل الكفيلة بإيقاف التدهور وصيانة الموارد الطبيعية.

من يتأمل الاتجاهات البيئية الحالية والقادمة سيجد أنها تهدد الكوكب بتغيير جذري سيطال أذاه الكائنات الحية وغير الحية لأن الكثير من أشكال التنمية يقوم على استنزاف الموارد الطبيعية وهذا سيؤدي إلى تقويض التنمية الاقتصادية وإحداث تأثيرات سيئة على أحوال المجتمع والكون معاً.

كل ذلك يؤكد الحاجة الماسة إلى مفهوم جديد للتنمية يكون شاملاً ودائماً، يسعى إلى تحقيق التقدم المستمر وتحقيق الرفاهية



لأبناء المجتمع الحالي وأجياله القادمة مع الحفاظ على الموارد الطبيعية وسلامة البيئة.

وقد ثبت أن التنمية المتواصلة هي السبيل إلى ذلك وهي هدف الشعوب الصناعية والنامية معاً، لأنها تضمن الاستجابة

لمتطلبات التنمية وحاجات الشعوب في الحاضر دون المساومة على الأجيال القادمة وصيانة ما يضمن لها حاجاتها المستقبلية.

لكن التنمية المتواصلة تحتاج إلى تعاون الدول جميعاً وانسجامها كي تلبي حاجات الشعوب جميعها في إطار التنمية والقدرة الإنتاجية للموارد الطبيعية، وهذا لا يكون مجدياً إذا لم تف الدول بالتزاماتها وتنفذ ما عليها في إطار عملية ديناميكية تحدث تغييرات في استغلال الموارد وتوجيه الاستثمارات والتنمية التكنولوحية واختيار البدائل اللازمة وهذا لا يتحقق إلا بمساندة الإدارات السياسية لاتخاذ القرارات على المستويات الدولية والإقليمية والمحلية.

إن مفهوم التنمية المتواصلة يقدم الإطار اللازم للجمع بين سياسات التنمية واستراتيجيتها في آن معاً لأن التنمية المتواصلة تلبي حاجات الحاضر وحاجات الأجيال المقبلة. ولها مفهومان أساسيان:

١- الحاجات الأساسية لفقراء العالم، وهذه يجب أن تكون لها الأولوية المطلقة.

٢- القيود التي تفرضها الحالة التكنولوجية والتنظيم الاجتماعي على قدرة البيئة لتلبية حاجات الحاضر والمستقبل.

التنمية المتواصلة هي تنمية داخلية قوامها الاعتماد على الذات وتلبية حاجات السكان، وليست غايتها الإنتاج من أجل الإنتاج ذاته، مع وعي كامل لبعدها البيئي ساعية إلى تحقيق التعايش الأفضل بين الإنسان والطبيعة، وينبغي لهذا التعايش أن يقوم على علاقة حميمة تجعل المكونين يخضعان للتعديلات المفيدة.

لا يوجد مخطط قياسي واحد للتنمية المتواصلة في التنفيذ، فهناك أنظمة اقتصادية واجتماعية متعددة ومتباينة في دول العالم، ولكل منها ظروفه واعتباراته الخاصة.

وإذا كانت آليات التعاون الدولي اليوم تتعاظم وتتزايد بين الشرق والغرب لخلق نظام دولي يحقق التنمية المتواصلة، ويضمن استمرارها فإنه يجب على الدول كلها ألا تغفل التعاون بين الدول الغنية والفقيرة لأن موارد الكرة الأرضية للجميع، وما لم تتحقق المساواة الاقتصادية والاجتماعية بين شعوب العالم لتحقيق الأمن البيئي لهم فإن العالم سيظل يعاني من الأزمات البيئية المتصارعة والمتشابكة، ولابد لتحقيق هذه التنمية من قيام المجتمعات كلها بتلبية الحاجات الإنسانية عن طريق زيادة الإنتاج وتأمين الفرص المتساوية في العمل والحياة الكريمة،

وهذا لا يتـم إذا لم تتعاون الدول فيما بينها مـن جهة، وتسعـى إلى إيجـاد التوازن بين الزيـادة السكانية والموارد الطبيعية حتى لا تهـدد أنظمة الطبيعة الحافظة للحياة على هذا الكوكب بمخاطر مختلفة.

هـدف التنميـة المتواصلة هـو تحقيق العدالة النسبية في استغلال الموارد الطبيعية لمصلحـة الشعـوب في إطـار استراتيجية جديدة.

أهداف نظم الإدارة البيئية:

١- إن التعـاون الفعال يسهم في تحديد التنبؤات المستقبلية المتوقعة بدقة في خارطة الموارد الطبيعية وطرق توزيعها واستغلالها واحتياطاتهـا. وهـذا يساعـد في وضـع السياسات التخطيطيـة والبرامج التنفيذية لتحقيـق التنمية المتواصلـة وتوفير الموارد المتاحة كماً ونوعـاً على المستويين الإقليمي والدولي.

٢- إن توفـير نظم المعلومات يمكننا من إجراء عمليات الرصد والتحليل والتصنيف والمعالجـة للبيانـات عن المـوارد الطبيعية بصفـة دورية مع إيجاد نظام تأمين وحماية ووقاية للبيئـة الطبيعية والموارد البيئية من التدهـور والأخطار الجسيمـة المتوقعة في المناطق المجاورة.

٣- تقـدم النظـم خدمـات المعلومات البيئيـة الممثلـة في تقاريـر وإحصائيـات وإجابـات وإعداد رسومـات بيانية، وتقدم المعونـة الفنية لجميـع المستفيدين من هذا النظـام، وتسهم في تكوين وحـدات محلية للمعلومـات البيئية تشـكل النقطة المركزية الوطنية لرصد البيانات البيئية وجمعها في أجهزة الدولة ومؤسساتها.

٤- إن توفر المعلومات بمواصفات قياسية يسهم بشكل فعال في بناء النماذج الاقتصادية والإحصائية وإعدادها وتقييمها.

٥- زيادة طاقة النظم وقدرتها على إجراء التحليـل والمقارنة والتشخيـص والمعالجة للمشكلات البيئية المعاصرة.

٦- إن إنشاء قاعدة البيانات البيئية هو بمنزلـة الأنظمة التخطيطيـة التي تساعد راسمي السياسـات الاستراتيجية في إعداد برامج التخطيـط والمتابعة، وفـي مراقبة تنفيذ الخطة الاقتصادية كما تساعدهم في اتخاذ القرارات وتقييم واختبار المشروعات الاقتصادية المؤثرة على المستوى القومي بما يؤدي إلى أفضل طرق الاستفادة من الموارد الاقتصادية بلا تبديد أو تبذير مع المحافظة على أنظمة البيئة الطبيعية.

٧- مـن أهـداف النظـم أن تقوم بدور مزدوج أو ثنائي في شبكة الحياة الطبيعية.

٨- حـان الوقت للاستفـادة من تطور

تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بما يساعد على إمكانية تخزين البيانات البيئية ومعالجتها وتداولها، بطريقة دقيقة وسريعة وفورية عند الحاجة أو الاسترجاع بما يحقق الاستفادة من أنظمة تحسين إنتاجية الموارد ورفع كفاءة التشغيل والإنتاج من خلال الأساليب العلمية والفنية عند تصميم الخطط والبرامج الاقتصادية لاستخدام الموارد المتاحة بما يعطي أكبر منفعة اقتصادية ممكنة، وأقل فاقد ممكن.

أهداف التنمية المتواصلة: وقد أجمع العلماء على أهمية التنمية المتواصلة التي تحتوي ثلاثة أهداف جوهرية هي:

١- الهدف الاقتصادي:

ولتحقيقه يجب تحديد الأنشطة الاقتصادية كافة التي يتم من خلالها الاستغلال الرشيد للموارد الطبيعية المتاحة طبقاً لمبدأ التخصيص الأمثل، وتمثيلها كماً ونوعاً، وتبيان المخصصات الكمية من المواد اللازمة لهذه الأنشطة مع المفاضلة بينها في تحقيق مبدأ الكلفة والعائد.

٢- الهدف الاجتماعي:

تحقيق معدل نمو اقتصادي يضمن لأفراد المجتمع كلهم حياة اجتماعية مقبولة مع توفير الخدمات والمرافق الأساسية التي تؤمن حياتهم من المخاطر المتنوعة، وتضمن تحقيق مستويات معيشية جيدة بعيداً عن الاستخدام الجائر للموارد الطبيعية.

٣- الهدف البيئي:

لابد من رصد الظواهر الايكولوجية كلها وتحليلها ومتابعتها وتقييمها للحفاظ على البيئة الطبيعية من التلوث والتدهور وتحقيق التوازن البيئي حفاظاً على حياة الإنسان والكائنات الأخرى والموارد التي تشكل مصدر التنمية. لهذا يتضح بجلاء الحاجة إلى نظام المعلومات لإدارة الموارد الطبيعية ليشكل النظام الفرعي في نظام المعلومات البيئية التي تحقق سياسات التنمية الاقتصادية المتواصلة ومن خلالها يمكن السيطرة على أهم المشكلات البيئية تجاه الموارد الطبيعية والبيئية الممثلة في:

١- مشكلة استنزاف الموارد الطبيعية.

٢- حماية البيئة من التدهور.

التوصيات المقترحة:

ندعو الفكر الإداري المعاصر، وخبراء الاقتصاد، وعلماء البيئة إلى إعادة التفكير المنظومي في النظم الإدارية البيئية في ضوء المتغيرات الإقليمية والعالمية سواء الاقتصادية أو التكنولوجية أو البيئة أو الاجتماعية من خلال مفهوم إعادة الهندسة

الإداريــة البيئية في المنظمــات الاقتصادية والتنموية من حيث:

١- أساليب الإدارة.

٢- مفاهيم الأداء البيئي التنموي.

٣- الآليات المستخدمة في إدارة المعرفة.

٤- تكوين فرق العمل المتوازنة.

٥- تطويــر أنظمــة الرصــد وشبكات البيانات.

٦- الاستعانة بالأنظمة الداعمة لاتخاذ القرارات.

٧- استخدام تقنيــات الأنظمة الخبيرة وأنظمة المعلومات الجغرافية.

٨- الاستعانــة بالطاقة الحقيقية لطرق المعلومات السريعة.

و أخيراً الاهتمام بتأهيل وتدريب وتنمية المــوارد البشرية العاملــة في المجال البيئي الإنمائي بشكل متواصل، حتى يمكن الوصول إلى بنــاء منظمات المعرفــة المعاصرة بهدف الوصــول إلى إدارة الجــودة الكلية للموارد البيئية لتحقيق التنمية المستدامة.

المصـــادر

- **الهندسة البيئية البرامج المتكاملة لروسيا الاتحادية وزارة التعليم العالي والعلوم الأساسية ١٩٩٧-٢٠٠٠.**
- **د.فيدرودمان، الثروة الطبيعية للأمم المتحدة- تطويع السوق لاحتياجات البيئة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة، القاهرة، مترجم ١٩٩٩.**
- **تسديــر، بــراون، إنقــاذ الكوكب، كيف نبنــي نظاماً اقتصادياً عالميــاً متواصلاً بيئيــاً، الدار العربية للنشر والتوزيع القاهرة، مترجم ١٩٩٥.**
- **لورانــس اسكنــدر، دبلوماسيــة البيئــة، التفاوض لتحقيق اتفاقيــات عالمية أكثر فعالية، الجمعية المصرية لنشر المعرفة، مترجم، القاهرة ١٩٩٧.**
- **بيري، سميث، قواعد ومعدات للقادة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة، مترجم، القاهرة ٢٠٠٠.**
- **كريتوفر، فلافين، طوفان الطاقة، الدار الدولية للنشر والتوزيع، مترجم، القاهرة ١٩٩٧.**
- **السعيد عاشور، ثورة الإدارة العملية والمعلوماتية، الجمعية المصرية لنشر المعرفة، مترجم، القاهرة ١٩٩٧.**

- نظم الإدارة البيئية والايزو ١٤٠٠٠، سلسلة علمية متميزة لنشر ثقافة الإدارة الحديثة والمعلوماتية بغية تطوير المؤسسات والشركات التي تسعى للريادة. دار الرضا للنشر سورية
- دمشق. رسالة ماجستير، إعداد رعد حسن الصرف البيئة والتنمية، الأعداد ١٩٩٧/٤، ١٩٩٧/٦، ١٩٩٧/٩، ١٩٩٩/١٦، ١٩٩٩/١٨ بيروت، لبنان.
- د.أحمد فيصل العمر «محركات الاحتراق الداخلي» الجزء الثاني، منشورات جامعة حلب، كلية الهندسة، ص٢٧١، حلب ١٩٨٢.
- د.أحمد مدحت إسلام «التلوث مشكلة العصر»، عالم المعرفة، العدد ١٥٢، ص٢٧٦، الكويت ١٩٩٠.
- أحمد ناصيف، دور الإعلام والتشريعات البيئية في تحقيق التنمية المتواصلة، رسالة دكتوراه ١٩٩٦ جامعة عين شمس.-
- أحمد مصطفى ناصيف، فاعلية نظم المعلومات البيئية في التنمية الاقتصادية، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، معهد الدراسات والبحوث البيئية، قسم القانون والاقتصاد والإدارة البيئية، القاهرة ١٩٩٢.

آفاق المعرفة



بين مسلول بشارة الخُوري.. ومسلول نديم محمَّدْ
(قراءة في تراجيدية النصيّن)

يوسف مصطفى*

الأدب العظيم عبر التاريخ الأدبي كان ذلك الأدب المنبعث من أعماق عذابات النفس الإنسانية، ومعاناتها.. سواء كانت هذه العذابات هي تجربة ذاتية عاشها المبدع الأديب، أو كانت ما شاهده الأديب، وعاينه، أو سمع به في محيطه القريب أو البعيد.. فأحس به، وتفاعلت صوره وألوانه الأليمة المؤثرة في أعماق نفس المبدع، وإحساسه.. لتتجلى تالياً نصوصاً إبداعية في جنس أدبي أو آخر. شعراً، أو قصة، أو رواية، أو ملاحم طويلة ما زالت خالدة حتى

* أديب وناقد سوري

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

اليوم تصور حروبــاً، وويلات، وكوارث ألمت بالبشرية، وأثرت في تاريخها.. وفي تقديري أن الإبداعات الكبــيرة عالمياً، وعربياً كانت في قسم هام منها هي (إبداعات تراجيدية) فمــن وصف حريق البصــرة لابن الرومي.. إلى (مرثيــة أبــي الإصبع العــدواني) بفقد أولاده الأربعة، إلى مرثية (أبي البقاء الرُّندي في الممالك الأندلسية) ومــا آلت إليه.. إلى ملحمة (الشيــخ والبحر) لآرنست همنغواي وعذابات ذلك البحار الشيخ الذي لم يعد من رحلته إلا بهيكل السمكة التي أكلتها أقراش البحــر، وكانت هي رحلة الحيــاة، وأنها لا شيء إلخ.. هذه الإبداعات الكثيرة.

مقاربتــي اليوم هــي لنصَّــين شعريين أليمــين معاصرين همــا: نصــ (المسلول) لبشــارة الخوري ونصــ (المسلــول) لنديم محمد. في نصــ (الأخطل الصغير) يتحدث عــن (مسلول) عرفه في محيطــه.. فجسده مشاهد صورية رائعــة في الجمال، والدقة، والاشتغال على تجليات التفاصيل المرضية، وملامحهــا ليصنــع بذلــك نصــاً إبداعياً لــه ومضاتــه الصورية المسافــرة بعيداً في النفس الإنسانية، وله اشتغاله الجميل على الجزيئات الحركية؛ والتفاصيل الجسدية في لوحات رسم بالألوان الصفراء وتداعياتها.

يقول بشارة الخوري:

هـذا الفتـي بـالأمسِ صـارَ إلى
رجـلٍ هـزيـلِ الجسـمِ مُـنـجَـردِ
مُتَلَجْلِـجِ الألـفـاظِ مضطربٍ
متـواصـلِ الأنـفـاسِ مُضطـردِ
متجعـدِ الخـديـنِ مـن سَـرَفٍ
متـكسـرِ الجـفـنـينِ مـن سُـهُـدِ
عـيـنـاهُ عـالـقـتـانِ في نـفـقٍ
كـسـراجِ كـوخٍ نـصـفُ متَّـقِـدِ
أو كالحُباحبِ[1] باخ[2] لامعُهُ
يبدو من الوجناتِ في خُـدَدِ[3]

يبدأ النصــ إخبارياً بوضع مــاآل إليه هذا الفتي (هــذا الفتي بالأمس صار إلى)، والأمســ هنا ليس اللحظة الزمنية المعروفة (الأربعــة وعشرون ساعة) إنــه أمس زمني يمتدُّ لشهور أو أكثر.. لكنَّ استخدام الأمس جــاء في تقديري مقاربــةً لنسبيــة الزمن فاليوم كالأسبوع، والأسبوع كالشّهر، والشهر كالسنة وهكذا يمضي العمر سريعاً كما قيل: (الدّهــر يومــان).. لقد تحــول ذلك الفتى النضــر إلى رجلٍ هرمٍ هزيلٍ غادرته الصحة والنضارة.. في التدرج الوصفيِّ يبدأ الشاعر من العضوية العليا وهي (الوجه)..

وكلنــا يعلم موقــع الوجــه في تجليات الحالــة النفسيــة والمرضيــة.. فالوجه هو

مرآة الداخل الإنساني من أيام الحكيم (أبي قــراط) الذي كان يقــرأ المرض من نظرته للوجه، وعلاماته، فالنطــق (مُتَلَجْلِجٌ) لدى الفتى المريض، وألفاظه لا تفصح معانيها.. وأصواتها تختلط حروفهــا ومخارجها وقد أضــاف الشاعر إلى صفــة (التَلجْلُجِ) صفة الاضطــراب (أي فقدان التــوازن النطقي، والنطق مصــدره عقليٌ دماغــي، ووسيلته التعبيريــة اللسان.. المظهــر المرضي الآخر هو اضطــراب التنفس) متواصــل الأنفاس مضطــرد فعطــب النسيــج الرئــوي جعل حركة التنفس سريعــة شهيقاً وزفيراً لضيق سعة الرئة بفعــل تآكلها المرضيِّ الذي فتك ببنيتها، ونسيجها.. أمــا الانتقال التدرجي الثالــث فهــو قولــه (متجعــد الخدين من سرفٍ).. لقد أودى المرض بنضارة الخدين، ومعــروف موقع الوجنات في إطلالة الوجه، وعافيته ولفظة (التجعــد) توحي بالزبول، والهرم وغيره.

بعدهــا يقــول: متكســر الجفنــين من سهــدٍ، فإذا كان (التجعــد) صفة الوجنتين (فالتكســر) صفــة الجفنــين إنــه تغضن الجفــن، وذهــاب حيويته، وانطــواؤه على بعضــه، ومحصلة ذلــك في البعــد ضعف البصــر وتلاشيه (عينــاه عالقتان في نفق) لقد غــارت كتل عينيه وكأنهــا نصف ضوء السراج ضعفاً وبريقــاً.. أما النفق فإيقاعه إيقاع الظلام والخوف والمجهول، وتداعيات ذلك وتوازياته النفسية، ونصف السراج هو نصف الرؤية أو أقلها.. في إعادة رسم صورة العينــين بمشهدية أخــرى يستدعي حشرة (البصبوص) ما يعرف (بذباب الليل) الذي يطلــق من مؤخرته ضــوءاً خافتاً يقول: (أو كالحُباحبِ باخَ لامعهُ) فضوءه بين الانطفاء والومض الضعيف.. بعد الانتهاء من وصف الوجه وما يحمله ينتقل إلى أجزاء أخرى من الجسم. أصابع اليدين وحركة الرِّجلينِ:

تـهـتـزُّ أنمــلُــهُ فتحسبُـهَا
ورقَ الخَـريـفِ أُصيبَ بـالبردِ
يمشـي بـعـلـتـهِ عـلـى مـهـلٍ
فكأنه يمشي على قَصَـدِ(٤)

أناملُ المسلول تهتزُ.. لقد فقد سيطرته في التحكــم بحركــة أصابعــه، والأداء المطلوب.. لكن الصورة الرمزية الرائعة هي تشبيه اهتزاز اليديــن بورق الخريف الذي أصابه وابل الــبردِ، والمقاربة الصورية هي: إن المريضَــ غدا في خريف عمــره بعد أن كان ذلك النضر الجميــل فأصابعه أضحت ورق الخريف اليابس وقد بعثره البرد ومزق أجزاءه، إنها صورة التشظي، والضياع.. أما



مشية المسلــول فهي مشية التمهل وكأنــه يمشي على الشــوك.. إنها مشية التعثر والألم، ومعادلــة الشــوك ووخزِهِ النفسي الداخلي.

الانتقالــة الوصفيــة الثالثة قول الشاعر:

ويمـجُّ أحيـانـاً دمـاً فعلى
منـديلـه قطـعٌ من الكَبـدِ
قـطـعٌ تـقـولُ تمـوتُ غـداً
وإذا تـرقُّ تقـولُ بعـدَ غدِ
والمـوتُ أرحـمُ زائـرٍ لفتىً
متـزمـلٍ بـالـداءِ مغتمدِ
قد كـانَ منتحراً لو أنَّ لهُ
شبهَ القُوى في جسمه الخَضدِ(٥)
هذا قتيلُ هوىً ببنتِ هوىٍ
فــإذا مــررتَ بـأختـهـا فحِدِ

تراجيديــة الصــورة في البيــت الأول والثاني هي صــورة (قطع الدم) التي تخرج مــن رئتيــه.. الإضافة الملفتــة فلسفياً هي ما تقوله قطــع الدم، وتوحي بــه فبعضها ينبئ بالمــوت القريب ربمــا لكبرها وحمرة دمهــا، وبعضها مشهدة أقل إخافة لصغرها وقلــة دمها.. حضور لون الــدم هو حضور الخوف والقلق.. أما الكبدُ فهو بدلالة الرئة والجوف، وربما اقتضى الكلمة (روي الدال) لكنها تحمل دلالة الداخل، وقرب التشابه في حساسية العضويــن.. الرئة، والكبد.. يرى الشاعــر أن الموت هو الأفضل لمن يحيط به الداء. هذه الإحاطة التي تشبه (الغمد).. في استــدراكٍ ملفتٍ ورائع أيضاً يقول الشاعر: إنَّ مانعه من الموت هو ضعف جسمه، وعدم قوتــه العضوية لتنفيذ موتــه وانتحاره، أما رغبــة الموت فهــي حاصلة لديــه.. جدلية العلاقــة بين (الرغبة والممكــن).. قد تكون

صورة الشِّلو بين مخالب الأسد /مألوفةً، ولا تضيف جديداً جمالياً للنص.. كانت خاتمة النص حكمية وعظيــة خلاصتها: إن ما آل إليه هــذا الفتى سببــه استسلامه لنزواته، وشهواته من شــرابٍ، وجنسٍ، وعربدةٍ أودت به لهذا المــآل فعليك قارئي العزيز الانتباه، والابتعاد عن هذه الأهواء والمسارات.

حمل النص مستوىً (تراجيدياً متقدماً) في وصف مشهدية المسلول.. كانت مقاربات الوصف ماديــةً في مفرداتها: هزيل الجسم -متَلَجْلِجِ الألفاظ- متجعد الخدين- متكسر الجفنــين- تهتز أنمله- يمجُّ دماً- إلخ. هذه الصور المادية اختزنت في ألفاظها وحروفها فضاءً أليماً، ومعاناة عميقة، وفتحت خيالاً واسعاً في تصور ماآل إليه المريض، وأوحت بتداعيــات سيكولوجية نفسيــة تسافر في عمــق عذابات النفس الإنسانية.. كان تدرج الوصــف منطقياً: مــن الوجــه وتفاصيله إلى اليديــن والرِّجلــين، والرئتين إلى العبرة والخاتمــة الحكمية الوعظيــة.. كان لهذا النصــ (جماله التراجيديَّ الخاص) وتميزه في اختيار الموضوع والاشتغال على تفاصيله الماديــة، والإنسانيــة.. رغــم خشونة (روي الدال) وعــدم انسيابيتــه، وإيقاعه القليل الموسيقــي فقد عوضت دلالــة ألفاظه هذا الضعف في موسيقى الرويِّ.

واضــحٌ الانتقــاء والبحــث في اختيــار مفــردات النصــ، وربطهــا الصــوري، في تقديري أدى النص غرضه بشكلٍ ومضمون رائعين، ولاعجب في ذلك فـ(بشارة الخوري) علمٌ شعريٌ كبير في أدبنا العربي.

انتقل إلى النصــ الثاني في وصف حالة (التــدرن الرئــوي) للشاعــر الكبير (نديم محمــد).. والوصــف هنا (تجربــة ذاتية) عاشها الشاعر حيث أصيب بهذا المرض عام (١٩٤٩) ونقــل إلى (مصحِّ بحنس) في لبنان حيث تداوى منــه، والنص هو مــن ديوانه (آلام) يقول نديم محمد:

رئــةٌ مصَّها فــمُ الــدَّاءِ فانهرَّتْ
كـطـينٍ رخـــوٍ ببـيـتٍ خَـــرابِ
وضـلـوعٌ كـأنَّـهـا قـفـصُ الـطـيـرِ
عـجـافٌ مـفـتـوحـةُ الأبـــوابِ
ونضيحٌ منْ زهرةِ القلبِ في الحلقِ
مــريــرٌ كـــأنَّـــهُ مـــن صَـــابِ
وسعالٌ كساحقِ الكرزِ الأسودِ
بـئـسَ الـعـصـيـرُ في الأكـــوابِ
ونصالٌ تـدبُّ في اللحمِ والعرقِ
دبـيـبَ الـلـهـيـبِ في الأحـطـابِ

استهــلَّ الشاعر بوضع الرئــة، وماآلت إليه.. فالدَّاء مصَّها، وأفرغ محتواها فغدت كالطين الذي أصابه وابل المطر في بيت طيني

خــربٍ متهدمٍ.. فجسمه هو البيت الخراب، والرئة غدت طينه المتداعي فعريت جدران البيــت وبانــت حجارتــه، وأضلاعه غدت كأنها قفص الطــير العجاف التي ماتت في بريتهــا. فأكلَ النمل لحمهــا، وبقي قفصها الصدري خــاوٍ يابسٍ تعصــف بين ضلوعه الريــح. أمــا نسيج الرئــة الداخلي فيخرج مع السعال بلون (الكرز الأسود المسحوق).. لكنه بئس العصير، والشراب.. وصف ارتفاع الحرارة التي تلازم (المسلول) بالنصال التي تــدبُّ في اللحم والعِرق هو الأوعية الدموية والعصبية. هذا الدبيب هو النار المشتعلة في الأحطاب.

بعد هــذا الوصف التشريحــي المرضي ينتقــل الشاعر لوصف الانعكاسات المرضية على حالته العامة يقول:

خفَّ جسمي حتى لتسألُ عني
العينُ من مَقْعَدي.. ومِنْ جِلبَابي
مائتُ اللونِ ضائعُ اللفظِ في
الحَلقِ.. كأنّي مفرَّغٌ من إهابي
لا يحسُّ الترابُ مشي عليهِ
فكأني أمشي وراءَ الترابِ
وكأني سيفٌ دفينٌ من البَدءِ
صدئٌ محطمٌ في قِرابِ

صورٌ حيةٌ تقمَّصَها الموتُ مُريعاً.. في جَيئةٍ.. وذَهابِ

هذا القسم من النص يتحدث عن نتائج المرض وفعله الجسمي.. لقد ضعف جسمه واشتد هزاله، ولم تعد عينه تعرفه. فهو لم يعد يعرف ذاته. لقد انشطرت الذات الإنسانية بين الواقع الجسمي، والرؤية العينية.. إنها الرؤيــة العقلية النفسيــة التي ترفض هذا الحال، وهذا المآل. لكن ما العمل؟!.. شحب لونــه (مائت اللــون) ضعف صوتــه (ضائع اللفــظ)، وعند بشــارة الخــوري (متَلجِّلِج الألفاظ).. موت اللون، ومظهر الوجه يقابله (تجعد الخدين) عند بشارة الخوري.. يقابل (خفة الجسم) عند نديم قول بشارة:

ويكادُ يحمُلُهُ لما تركتْ
منه الصَّبابةُ مُخلَبُ الصرُدِ[٦]..

كـم هي مبالغة هذه الصـورة أن يحمل الطـير الصغير جسـم (مسلـول) الأخطل الصغير.. أما جسم (نديم محمد) والتجربة ذاتيــة فهي قولــه (لا يحس الــتراب مشي عليه) إنه تلك الريشة الخفيفة التي لا يحس بوجودها الــتراب.. لكن الصــورة الرمزية الكبــيرة هي قول نديم محمد (فكأني أمشي وراءَ الترابِ) ومــن يمشي تحت التراب فهو يمشي إلى العدم، والفناء، والتلاشي، والدودِ

والتحــول إلى تــراب، ولو قال نــديم (كأني مائت تحت التراب) لما كان قال شيئاً. روعة رمزية الصورة هــي: (المشي تحت التراب) إنهــا رمزيةٌ (نــديم) وهو رائــدٌ فيها، وفي بعضها يقارب رمزية (بودلير) ويفوقها.

حمل النصــُّ بناءً تراجيدياً ملفتاً أدواته الوصف المادي: رئة مصَّها فم الداء –انهرت كطين رخو– سعال كساحــق الكرز– نصال تُدب في اللحم والعِرق– مائت اللون– ضائع اللفــظ– زهرة القلب– إلــخ.. كلها تراكيب أدت دلالات المعنــى، وحملــت إيقاعــات الألم، والتشظــي. كان إباء (نديم) وعنفوانه ومقاومته واضحٌ في قولهِ:

وكـأني سيفُ دفـينٌ من البَـدءِ
صــــدئٌ.. محـطـمٌ في قِــرابِ

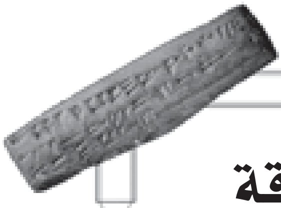
أقول: هــذان النصّان (لبشارة الخوري، ونديم محمد) هما مــن جميل ما قرأت في غرضهما الوصفي في أدبنا العربي الشعري منــه بخاصــة.. تذكرت وصــف (الحمَّى) للمتنبــي.. تجلــت عبقريــة الشاعرين في الوصــف والتصوير وربط المــادي المرضي بالنفســي الداخلــي وتمزق هــذا الداخل، وتشظيه الألمي.. حمل النصان تدرجاً منطقياً في الوصف والبناء التراجيدي المتدرج الذي يعلــو وينتهي بذروةٍ حكميــةٍ، أو فلسفيةٍ أو رؤيةٍ وعبرةٍ أراد الشاعران إيصالها عبر هذه الرسائل الشعرية الخالدة.

كان رويّ (نديم محمد) روياً بائياً غنائياً.. وهــو جزء قليل مــن الألم الكبير عند (نديم محمد) في ديوانه (آلام) رحم الله الشاعرين، ودعوة لقراءة إبداعهما من جديد.

الهوامــش

١- الحُباحِبْ: البصبوص. ذباب الليل الذي يطلق ضوءاً.
٢- الخُددْ: الحفرة.
٣- باخ: لَمَعَ.
٤- القَصَدْ: الشَّوك.
٥- الخَضِد: الضعيف.
٦- الصُّرَدْ: طائر ضعيف وصغير.

آفاق المعرفة



الحوار وإشكالية العلاقة بين الأنا والآخر

زياد عبد الكريم النجم*

الحوار مطلب جوهري لا بد منه ولا غنى عنه للأسرة الإنسانية برمتها، إذا ما أرادت أن تعيش في حالةٍ من الوئام والسلام أو أرادت أن تربأ بنفسها عن الانحدار إلى حالةٍ من الهمجية والبربرية، أو أرادت أن تنأى بنفسها عن خطـر الانزلاق في شرك آفات الخلاف والصدام والصراع، فالحوار كان ولا يزال السبيل القويم إلى التعايش والتواصل بين مستويات الوجود الإنساني كافة أفراداً وأمماً وحضارات. فلقد شكل الحوار على مر العصور المناخ

* باحث سوري (ماجستير فلسفة)

العمل الفني: الفنان أحمد الياس.

الملائم الذي تم من خلاله تشريح الكثير من الأفكار والطروحات والقضايا الخلافية، كما أنه عالج الكثير من الإشكاليات المطروحة على الساحات الفكرية والثقافية، فكانت ثمراته تأتي أكلها كلما توافرت له الشروط والمقومات وانتفت عنه الموانع والمعوقات.

فما هو معنى الحوار؟

وما هي عوائقه ؟

وما هي شروطه ومقوماته ؟

أولاً- معنى الحوار لغةً واصطلاحاً:

الحوار من حيث الدلالة اللغوية يعني المراجعة بين طرفي الحوار أي يعني المناقشة والأخذ والرد في موضوع معين، وقد ورد في قاموس لسان العرب، «الحوار هو الرجوع، وهم يتحاورون، أي يتراجعون الكلام، والتّحاور هو التجاوب والمجاوبة، والحوار هو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، والمحاورة مراجعة المنطق في المخاطبة»[1]

و في قاموس محيط المحيط «.. وحاوره محاورةً وحوراً جاوبه وراجعه في الكلام.. وتحاور القوم تجاوبوا وتراجعوا الكلام بينهم.. استحاره استحارةً: استنطقه».[2]

إذاً للحوار معنى واسع يستوعب كل أشكال وأساليب المناقشة والتخاطب سواءً كانت هذه الأشكال والأساليب منبعثة من خلاف بين المتحاورين أو عن غير خلاف.

وأما معنى الحوار اصطلاحاً فهو الحديث بين شخصين أو أكثر. وقد رأى البعض بأن الحوار «لا يمكن أن يكون إلا بين أطراف متكافئة تجمعها رغبة مشتركة في التفاهم، ولا يكون نتيجة ضغط أو ترغيب، لذلك كان الحوار أعم من الاختلاف ومن الجدل، وصار له معنى حضاري بعيداً عن الصراع، إذ الحوار كلمة تتسع لكل معاني التخاطب والسؤال والجواب» [3]

ومما سبق يتضح لنا كيف أن الحوار هو من نتاج التعايش والتسامح والتعاطف والتفاهم كما أنه وليد الرغبة في الوصول إلى الحقيقة.

وهنا يأتي السؤال: إذا كان هو نتاج لكل ما سبق ذكره وله ماله من الأهمية فما هي العوائق التي تحول دون وجوده والاستفادة من ثمراته ؟

ثانياً- عوائق الحوار:

إن من أهم أهداف الحوار، فتح أقنية التواصل والتعايش بين المتحاورين، ولكن ثمة جملة من المعوقات التي تحول بين الحوار وبين تحقيقه لأهدافه ومراميه.

فما هي أهم معوقات الحوار ؟

١- التعصب الأعمى:

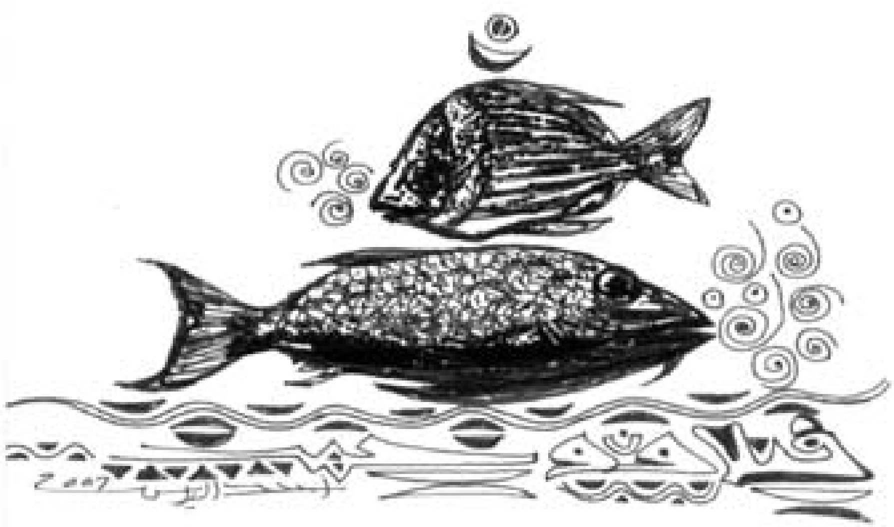
إن التعصب الأعمى لأفكار أو لأيديولوجيات أو رؤى فكرية جاهزة ومقولبة دون البحث فيها والتأكد من صحتها، يعتبر من أشد العقبات التي تقف في وجه الحوار، إذ إن المتعصب لأفكاره يتقوقع على ذاته وينكفئ عليها، ويتخذ من التزمت والانغلاق نهجاً لا يحيد عنه، كما يزعم بأنه وحده من يمتلك ناصية الحقيقة وبأن ما يعتقده هو الحق المطلق وما يعتقده غيره هو الخطأ المطلق، وهنا يجدر بنا أن نميز بين الإنسان المتعصب لرأيه تعصباً أعمى وبين الإنسان الثابت على مبادئه الناتجة عن دراية وقناعة وبحث واستقراء لجزئيات الواقع، إذ إنّ المتعصب يرث أفكاراً جاهزة ومكتملة - بحسب رأيه - وهي لديه بمثابة المقدس الذي لا يقبل النقاش أو الحوار في حين أن الثابت على مبادئه عن قناعة ومعرفة، لا يخشى من أن يناقش ما يعتقده بل على العكس يعرض كل أفكاره على بساط البحث ويرى في النقاش والحوار إغناء لأفكاره وفرصة هامة لامتحانها.

٢- الأحكام المسبقة:

تعتبر الأفكار المسبقة واحدة من أعقد الإشكاليات التي تواجه الحوار البناء والمثمر، لأنها بكل بساطة تخالف ألف باء المنهج العلمي والموضوعي للحوار، إذ إن من أول شروط الحوار العلمي أن تكون النتائج التي يتوصل إليها المتحاورون هي وليدة للحوار، وليس سابقة عليها. وهنا تكمن فائدة الحوار، ولكن عندما تكون النتائج معدة وجاهزة مسبقاً فإن ذلك من شأنه أن يجعل الحوار عقيماً ولا فائدة ترجى منه. والأمر نفسه ينطبق على الحوار بين الحضارات. إذ إنه يجب «التخلص من الأفكار السابقة التي ترى أفضلية للحضارة الغربية على غيرها من الحضارات واعتبار أن الغرب هو الذي يقرر والآخر عليه التنفيذ».(٤)

٣- نقص المعلومات عن الآخر:

إذ إن النقص في المعلومات بين الأطراف المتحاورة، يشكل عقبة أمام تفعيل الحوار ونجاحه، «لأن نقص المعلومات تجعل أحد الأطراف لا يعرف شيئاً عن الآخر، وهذه الإشكالية تسبب سوء الفهم، وسوء الفهم أو قلة العلم يقود إلى إعاقة الحوار المستمر من الانطلاقة الإيجابية»(٥) وهذه القضية تلتقي في جوهرها مع الأحكام المسبقة ،لأن نقص المعلومات تفرز الأحكام المسبقة عن الآخر، الأمر الذي يؤدي إلى إطلاق الأحكام المتعسفة جزافاً. ويمكن أن ندلل على



صحة ما ذهبنا إليه من خلال المثال الآتي: إن الاتجاه السلبي لبعض الأوروبيين من القضية الفلسطينية يعود في بعض الوجوه إلى نقص المعلومات لديهم عن حق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه فلسطين. و قد دلت التجارب على أن بعض الأوروبيين، يمكن أن يعدلوا من اتجاهاتهم ومواقفهم من الشعب الفلسطيني، عندما تزداد ثقافتهم بتاريخ هذا الشعب وقضيته.

٤- خلل العلاقة بين الأنا والآخر:

إن العلاقة بين الأنا والآخر، هي علاقة الهوية والاختلاف، ولا يمكن للأنا أن تبدع دون أن تثبت ذاتها وخصوصيتها أولاً، ومن ثم تدخل في علاقتها مع الآخر، -وهي واعية لمتطلباتها واحتياجاتها الذاتية- ثانياً، بحيث تكون مدركة لآليات الأخذ من الآخر وإعطائه بشكلٍ متوازن بحيث إنها لا تقع في القطيعة مع الآخر بالمطلق، أو تنزلق بالذوبان في الآخر بالمطلق.

إذاً من أسباب فشل الحوار، هو خلل العلاقة بين الأنا والآخر، فعندما تكون العلاقة بين الأنا والآخر متوازنة ومعتدلة، فالنتيجة ستكون اقتراب الأنا أكثر فأكثر نحو الموضوعية والواقعية والعقلانية في تعاملها مع نفسها أولاً، ومع الآخر ثانياً، والعكس صحيح إذ إنه كلما كانت العلاقة بين الأنا والآخر متطرفة أو مختلة التوازن فإن النتيجة ستكون الوقوع في التطرف

والانسياق نحو إحدى النقيضين المذمومين، فأمـا إفراط وإما تفريـط وكلا النقيضين يبعدان المتحاورين عن النزاهة والموضوعية في الحوار.

٥- التفاوت المعرفي بين المتحاورين:

إن التفـاوت في المعرفـة والثقافـة بين المتحاوريـن يضـرب التكافـؤ والندية بين المتحاورين في العمق ويحدث خلل في التوازن المفترض والمهم وجـوده بـين المتحاورين «فالاختـلال غير المتـوازن بـين الأطراف المتحـاورة يمثل عقبة ليسـت يسيرة، إذا ما تمسك أحد أطرافه بمركزية تفوقه وريادته ويجب أن نضع هذه الميزة في الحسبان عند الحوار. فكيف ستتحقـق المساواة، والنظرة العادلة، وهما الطريقة الممكنة لبناء مقومات التفاهم، ونعني بالتفاهم أن يفهم كل طرف مـن الأطراف غيره ،الفهـم الكفيل بمعرفة آلياتـه في التفكـير ومنطقـه الداخلي في المنظومة التي يحملها عن الآخر حتى ينقلب الاتصال من المواجهة إلى المصالحة»(٦)

٦- تغليب النزعة الذاتية:

المذهب الذاتي:«هو اتجاه فلسفي يرجع كل الأحكام الوجودية أو التقويمية إلى أفعال أو أحوال المرء الشعوريـة الفردية؛ وهو في المنطق النظرية التي تنكر القيمة الموضوعية للفرق بين الحـق والباطـل، أو التي ترجع اليقين إلى التصديق الفردي..»(٧)

و يعتـبر إقحـام النزعـة الذاتيـة في الحوار أحد العوائـق القائمة بين الأطراف المتحاورة، ويعود السبـب في ذلك إلى سعي كل طرف من أطراف الحوار للانتصار لذاته وترجيح كفته، والنتيجة تكون ابتعادهما عن روح الموضوعيـة التـي هي جوهـر الحوار الناجح. والنزعـة الذاتية تتمظهر بمظاهر شتى كالانقيـاد وراء أيديولوجيا منغلقة أو منهج ذي بعـد أحادي..الخ وكل ذلك يجعل المحاور يقيس الواقع ومفردات الحوار على مقياسـ أيديولوجيتـه أو منهجـه دون أن يكلف نفسه مؤنه العودة إلى الواقع وقراءته قراءة موضوعية –مستنـدة إلى النزاهة في التحليل، والحيـاد في الطرح–، الأمر الذي قد يجعل المحاور يقلب قاعدة تعريف العلم الذي يوصف بأنه «تطابق ما في الأذهان مع ما في الأعيـان» لتصبح لديه «تطابق ما في الأعيان مع ما في الأذهان».

٧- الاختلاف حول المفاهيم:

كثير ما يجري الخلاف بين المتحاورين، ويحرمـون أنفسهم ثمرات الحـوار بسبب الاختـلاف حـول معـاني بعضـ المفاهيم والمصطلحـات. ويعـود ذلك الخـلاف إما

للغموض والالتباس الذي يكتنف تلك المفاهيم والمصطلحات وإما للتداخل القائم فيما بينها كالتداخل بين مصطلحي الثقافة والحضارة أو بين العالمية والعولمة أو بين التغريب والتحديث..إلخ. فعلى سبيل المثال يحدث خلط في كثير من الأحيان بين مفهومي التغريب والتحديث ويصوران في كثير من الأحيان على أنهما شيء واحد أو ككلمتين مترادفتين. ولكن الواقع عكس ذلك تماماً، فالتغريب يعني المسير باتجاه استلاب الهوية والقطيعة مع الماضي، في حين أن التحديث يعني صيرورة التطور والتقدم وتحقيق المعاصرة، دون أن يحدث قطيعة مع الماضي، بل إنه يستند إليه، وينطلق منه ويطور ما فيه من جوانب مشرقة، ويقصي ما فيه من جوانب قاتمة.

إذاً.. التغريب سلب للهوية وإبدال وإفقار إلى حد الإعدام، أما التحديث فهو تطوير للهوية وإغناء لها، وتفتح للشخصية نحو الذات والآخر في آن معاً.

ثالثاً- شروط الحوار:

للحوار مجموعة من الشروط التي لا بد من توافرها حتى يصبح الحوار حواراً مثمراً وإيجابياً. وهي شروط كثيرة سنكتفي بذكر الشروط الآتية:

١- التقارب في المستوى المعرفي بين المتحاورين:

يعتبر هذا الشرط بمثابة البديل عن التمايز والتفاوت بين أطراف الحوار إذ إن التقارب في المستوى المعرفي بين المتحاورين يسهل الطريق أمام الانفتاح على الآخر، بحيث يفهم كل طرف من أطراف الحوار غيره وينفتح على آرائه وأفكاره ويتعرف آليات تفكيره ومنظومة القيم والمعتقدات التي يعتنقها. وبتحقيق هذا الشرط يمكننا التخلص من إحدى عوائق الحوار وهي التفاوت المعرفي بين المتحاورين كما أنه يساعد على تقريب وجهات النظر بين المتحاورين الأمر الذي يساعد في إنجاح الحوار وجعله مثمراً.

٢- قبول التعددية.. وحق الاختلاف:

يجب الاعتراف بأن التعددية والاختلاف سنة كونية وضرورة إنسانية، اقتضتها حالة المغايرة والتفاضل بين الناس قديماً وحديثاً. وهذا التباين في الآراء والمغايرة في وجهات النظر تتطلب من المتحاورين سعة الصدر ورحابة الأفق وإقامة علاقة قائمة على أسس الاحترام المتبادل مع الآخر، مما يعني قبول الآخر وقبول الاختلاف معه دون أن يفضي هذا الخلاف إلى منازعة أو مشاجرة

أو حقد أو كراهية بين المتحاورين. « ..أن الحوار القائم على قاعدة الاحترام المتبادل والاعتراف بالمغايرة والتعددية الثقافية، سيتغلب على المعوقات والصعوبات التي تحول دون قيام تفاهم وحوار دولي يكون جسراً تعبره المجتمعات الإنسانية نحو آفاق الغد ..» ٨ ومن هنا ندرك بأن المنطلقات الإيجابية للمغايرة والاعتراف بها واحترامها، ستنطلق بالمتحاورين نحو آفاق رحبة وايجابية، شرط أن يتحقق الاعتراف بوجود الآخر واحترامه وقبوله على قاعدة أن الأخر هو المكمل لنا وليس على قاعدة أن الآخر هو الجحيم كما يزعم الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر.

٣: تهيئة المناخ الهادئ للحوار:

إن من مقتضيات منهجية الحوار الإيجابي واشتراطاته السعي الدؤوب لخلق المناخ الهادئ للمتحاورين والابتعاد عن الأجواء المشحونة بالانفعالات والتي تستفز شعور المتحاورين مما يجعلهم يثيرون مواقف وآراء تشعل الأجواء وتثير الانفعالات مما يحبط مقتضيات وأسس الحوار الذي تسعى إليه الأطراف المتحاورة. «والواقع أن الأجواء الهادئة في الحوار تسهم إسهاماً إيجابياً في تقريب وجهات نظر المتحاورين، وتجعلهم يحكمون العقل والمنطق بدل العاطفة والانفعال الذي - بلا شك - لا يخدم أطراف الحوار ولا يدفعهم إلى التفاهم والتعاون والإصغاء العقلاني في القضايا المطروحة في الحوار» ٩

٤- تحديد أهداف وقضايا الحوار:

وهذا الشرط يعتبر من الاشتراطات الهامة في الحوار، «إذ بدون تحديد أهداف ومرامي الحوار وقضاياه المطروحة، لن يصل المتحاورون إلى غايات مرجوة، فتحديد القضايا والأهداف يشكل مدخلاً هاماً لا يحيد عنه طرف من الأطراف، وتتحدد بالتالي عناصر القضية المطروحة».(١٠)

وأما في حال عدم تحديد أهداف الحوار وقضاياه التي يجب أن تناقش فإن الحوار سيدور في حلقة مفرغة وسيسير النقاش بين المتحاورين على قاعدة (الخطان المستقيمان اللذان لا يلتقيان).

٥- الانطلاق من المبادئ المتفق عليها:

لكي يتحقق الحوار الناجح، ينبغي الانطلاق من القضايا والنقاط المتفق عليها بين أطراف الحوار، لأن الانطلاق من المبادئ المتفق عليها، يهيّىء المناخ المناسب للاتفاق، ويمنع وقوع الاختلاف. إذاً إن منهجية الحوار الناجح تقتضي الانطلاق بالحوار من القواسم المشتركة والمبادئ

المتفق عليها بين المتحاورين أولاً ثم التحاور حول القضايا الخلافية ثانياً أما إذا انطلق الحوار منذ بدايته مـن القضايا الخلافية فـإن ذلك من شأنـه أن ينهي الحوار وربما زعزع القواسم المشتركة بين المتحاورين.

٦- الموضوعية:

الموضوعية هي اتجاه فكري يسعى لرؤية الأشياء كما هي عليـه في الواقع، وهي من أهـم الشروط التي يتطلبهـا الحوار البناء. والموضوعية هي البديل عن الذاتية الهادمة لأركان الحـوار المثمر.وبالتـالي الموضوعية صفة أو حالة كون الشيء أو الموجود موضوعاً بالنسبـة إلى الذات. ولذلك فإن الموضوعية تنقي رؤيتنا من الضيـق والانحياز. أما في ظل غياب الموضوعية بين المتحاورين، فإنهم سيفقدون الضوابط والمعايير العلمية الدقيقة وبالتـالي ستغـدو النظرة الذاتيـة الضيقة والمحدودة الأبعاد هـي المقياس في التعامل بـين أقطاب الحـوار. فعلى سبيـل المثال: تتهم المقاومـة المشروعة للشعب الفلسطيني - الذي يطالـب بأبسط حقوقـه، ويناضل لتحرير أرضه من الاحتلال - بالإرهاب من قبل إسرائيل والولايـات المتحدة الأمريكية وهذا الوصف يتنافى مع الموضوعية ويغلب النزعـة الذاتية الأمر الذي يعرقل أي حوار بـين إسرائيل والفلسطينيـين في ظل تغليب النزعة الذاتية وتغييب الموضوعية.

٧- التمسك بالهوية الثقافية:

وهو شـرط ضروري للحـوار إذ إنه من الضـرورة بمكان – وقبـل أن نبدأ بالحوار مـع الآخـر- أن نتمسك بهويتنـا الخاصة وأن نكـون على دراية تامة بهـا وعلى علم بأنهـا هي ما يميزنا عن الآخر ويحمينا من الذوبان فيـه. ولكن وبالمقابـل إذا كان من مقتضيات الحوار التمسك بالهوية الثقافية والحضاريـة فإن ذلك لا يعنـي أن ننكر أو نقصي الثقافـات والحضارات الأخرى، بل علينـا أن نؤكد علـى أن مساهمات جميع الثقافـات والحضارات ما هـي إلا روافد تصب في نهر الحضارة الإنسانية وكل منها يسهم بنصيب من تطورها وارتقاءها.

رابعاً- مقومات الحوار:

للحوار جملـة من المقومـات التي تقع ضمن منهجية الحوار الناجح ولعل من أهم مقومات الحوار نذكر الآتي:

١- الانطلاق بالحوار من مقدمات صحيحة:

وذلك لأن المقدمات تشكل حجر الأساس في الحـوار فـإذا كانـت المقدمـات التـي ينطلـق منها الحوار صحيحة فـإن النتائج

التي ستتمخض عنهـا صحيحة، وإذا كانت المقدمات ظنية فستكون النتائج ظنية، وإذا كانـت المقدمـات خاطئة فستكـون النتائج خاطئة. وقـد قسم العلمـاء المقدمات إلى قسمين: «قطعية في الأدلة القطعية، وظنية تستعمل في الأمارة. والمقدمات القطعية سبع هي: الأوليات، والفطريـات، والمشاهدات، والمجربـات، والمتواتـرات، والحدسيـات، والوهميـات في المحسوسـات. والمقدمـات الظنية أربع، هـي: المسلمات، والمشهورات، والمقبولات، والمقرونة بالقرائن كنزول المطر بوجود السحاب الرطب.»(١١)

٢- لزوم النتائج عن المقدمات:

المقدمات: «تطلـق على ما يتوقف عليه البحث،.. وهي في الأصل من التقديم بمعنى التقدم، ثم نقلت إلى ما يتوقف عليه الشيء أو الفعـل، سواء كان التوقف عقلياً أو عادياً أو جعلياً..ومقدمـة العلم مـا يتوقف عليه البحث فيه..» ١٢

وبهـذا المعنـى للمقدمـات يتضـح لنا مدى ضرورة أن تكـون النتائج التي يتوصل إليها المتحاورون لازمـة عن المقدمات التي انطلقـوا منها كما أنهـا تساعد في أن تلقى نتائج الحوار قبـولاً منطقيـاً وعقلياً لدى طرفي الحوار.

٣- التسليـم بالنتائـج التـي يتوصـل إليها المتحاورون:

أي الالتزام بالنتائج المتولدة والمتمخضة عـن الحوار وفق مـا تم الاتفـاق عليه في بدايـة الحوار بدون قسر أو إلزام وبدون أي مداهنة أو مجاملة لأن هذا التسليم والالتزام سيدفع بالحوار خطوات واسعة نحو الأمام وسيبعد المتحاورين عن الدخول بالمنازعات والمصادمات فيما بينهم. فالنتيجة هي القول اللازم مـن القياس. والقياس في المنطق هو لزوم النتيجة عن المقدمات بالضرورة.

٤- أهلية المحاور:

من حيث العلم اليقيني والثقافة الواسعة والمعرفة بالقضية المطروحـة للحوار، «ولا بـد أن يكون المحـاور حكيماً فطنـاً، عالماً بالعصـر، فقيهاً في قضايا الفكر وتحولاته، قوياً مستقيماً، عارفاً للدنيا، مدركاً لرسالته الراهنـة، متفتح العقل ذكي الفـؤاد، واسع الأفق محيطاً بمعارف عصره.. وبهذا المعنى فـإن الحوار قوة وسلاح من أسلحة السجال الثقـافي والمعركة الحضاريـة خصوصاً في عصرنـا الراهن، وهو أيضـاً وسيلة ناجعة مـن وسائـل الدفاع عـن المصالـح العليا للأمة، وشرح قضاياهـا، وإبراز اهتماماتها وأهدافهـا ،وتبليغ رسالتها، وإسماع صوتها،

وإظهـــار حقيقتها..لذلك فإن أهلية المحاور مسألة مهمة في الحوار» ١٣

٥- حب الحقيقة:

الحقيقة:كلمـــة مشتقة من الحق «وعند المنطقيـــين حقيقة الشيء مـــا به الشيء هو هو، كالحيوان الناطق للإنسان، وليس كذلك أن نقول عن الضاحك أو الكاتب، مما يمكن تصـــور الإنسان بدونـــه.»[١٤] ومن تعريفات الحقيقة أيضاً أنها تطابق الفكر مع الشيء وبمعنى آخر تطابق الفكر مع الواقع.

ولذلك فإن الانطلاق بالحوار من قاعدة حب الحقيقة، يجعل المتحاورين يتجردون من ذاتيتهم، ويبتعدون عن التعصب الأعمى، كما أن حب الحقيقة يدفـــع الأطراف المتحاورة إلى الالتزام بالموضوعية والعدل والإنصاف، ويبعدهم عن الانطلاق من الأحكام المسبقة والمجحفة.

وحب الحقيقة، سيجعـــل كل طرف من أطـــراف الحوار مقتنعـــاً بأن هنـــاك شيئاً يتعلمه من الطـــرف الآخر، وبالتالي لا تعود أي أهمية لمـــن ينتصر في الحوار ولكن المهم هو التوصل للحقيقة وأن تنتصر الحقيقة.

٦- تمثل الآخر:

إن إقامـــة حوار مثمر مع الطرف الآخر للحـــوار يكون أسهـــل وأبســـط وأقرب إلى الإيجابيـــة عندما نستطيع أن ندخل في عالم الآخر، أي عندما نتمثل الآخر، وكذلك فإن القدرة على تمثـــل عالم الطرف الآخر تكون علـــى درجة كبيرة مـــن الأهميـــة خصوصاً عندما يكـــون موضـــوع الحوار معقـــداً أو صعباً بطبيعته. «إن تمثل عالم المحدّث يفيد بالإضافة إلى ذلك في قيادة موضوع الحديث حول النقاط الهامة التي نرغب بها، فعندما يحس محدثنا بأننا قريبون من عالمه الخاص فإنه يكـــون من الأسهل علينـــا أن نؤثر فيه بمقترحاتنـــا لأنه لا يشعر بأننا معه في حالة حـــرب، ولا بأننا نحـــاول أن نشده بالضغط والإكراه إلى ما نريد منه».[١٥]

٧- الابتعاد عن التعميم السريع:

التعميـــم: «هو جمع الصفـــات المشتركة بين الأفـــراد المتشابهة في تصـــور واحد له ما صـــدق هو مجمـــوع الصفـــات المشتركة لـــكل الأفراد. والتعميم أيضـــاً هو الانتقال مـــن الخاص إلى العـــام.»[١٦] وهـــو عملية عقليـــة يعمم بوساطتها العقـــل تلك الصفة أو الصفات المشتركـــة، التي عزلها من عدة أشيـــاء مفـــردة أو من عدة أفـــراد، على كل الأشياء أو الأفـــراد الذين يشتركون في هذه الصفة أو الصفات. ولذلك فإن التعميم أمر

شديد الحساسية إذ يحتاج إلى دراسة جميع جزئيات الأفراد أو الأشياء المراد إطلاق صفة التعميم عليها والتأكد من مشابهتها لبعضها بشكل يقيني وإلا سيكون التعميم باطلاً إذ إنه يكفي أن يوجد مثال واحد يشذ عن القاعدة حتى يصبح التعميم ملغياً ولا أساس لصحة فيه.

إن استخدام كلمات تفيد التعميم - مثل: ((كل، جميع، كافة، عامة، دائماً.. إلخ)) - في حوارنا مع الآخر وخصوصاً إذا كانت كلمات التعميم هذه مصبوبة في جمل وعبارات تتضمن أحكاماً تقييميه للآخر فإن ذلك من شأنه أن يثير الطرف الآخر وينفره عن مواصلة الحوار أو أنه يستمر به بشكل متشنج الأمر الذي يحول بين الحوار وتحقيقه لأهدافه ومراميه. «يمكن أن نعتبر أن معظم الناس يستجيبون بشكل ارتكاسي (آلي - سريع) حينما يسمعون تقييمات معممة تمسهم بشكل أو بآخر. عندما يبدأ طرفا الصراع في نقاش من هذا النوع فإنهما غالباً ما يخرجان عن الموضوع الأساسي المهم في الصراع، وهكذا بدلاً من أن نحل الموضوع بشكل عقلاني ومرضٍ للطرفين فإننا نزيد الصراع حده بتحميله بعداً شخصياً».(١٧)

الخاتمة:

لقد كان ولا يزال للحوار البناء قيمته الإنسانية والحضارية الكبيرة. فلقد جنت البشرية ثماره واستفادت من نتائجه سواءً أكان الحوار على المستوى الداخلي بين أبناء الأمة الواحدة أو على المستوى الخارجي مع الأمم والثقافات والحضارات الإنسانية الأخرى.

ولا أدعي أنني قدمت كل ما يجب تقديمه حول موضوع الحوار من حيث معناه وعوائقه وشروطه ومقوماته وذلك لأن موضوع الحوار موضوع واسع جداً وبالتالي كان من الصعوبة بمكان الإحاطة بكل أطرافه وجميع جوانبه ولكنني سعيت لتقديم عرض مبسط بعد اطّلاعي على آراء بعض المفكرين الذين طرقوا هذا الباب، وقد استفدت مما قدموا وقدمت ما رأيته مناسباً وتعمدت عدم الدخول بالتفريعات الجانبية والجزئيات الصغيرة وسعيت للتركيز على الحوار بمعناه الايجابي وبمضامينه الإنسانية العميقة وهو حوار ينطبق على الحوار بين الأفراد كما ينطبق على الحوار بين الثقافات والحضارات وشددت على الحوار الذي يدعو إلى الكلمة السواء القائمة على العدل والإنصاف، والقبول بالاختلاف، والتي هي

في الأصل سنة كونية في القضايا الإنسانية، وتوصلت إلى نتيجة مفادها بأن الحوار على هذا النحو الراقي هو ضرورة من الضرورات التـي يقتضيهـا انتظـام صـيرورة الحياة وتفرضها طبيعة الاجتماع الإنساني.

والحوار بهذا المعنـى له معانٍ ومفاهيم أصيلـة ومتجذرة في عمـق الموروث الثقافي العربي «بل إنـه ليدهشنا حقاً أن يكون من أسماء العقل في اللغة العربية، الأحور».(١٨)

المصـادر

١- ابن منظور، لسان العرب، ج٤، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٥ م، ص ٢١٧.

٢- بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧ م، ص ٢٠٣.

٣- عبد الله علي العليان، حوار الحضارات في القرن الحادي والعشرين رؤية إسلامية للحوار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤ م، ص ٩.

٤- روجيـه غـارودي، في سبيـل حوار الحضارات، ترجمـة: عادل العوا، منشورات عويـدات، بيروت، ط١، ١٩٧٨م، ص ١٨٩.

٥- عبـد الله علـي العليان، حوار الحضارات في القرن الحادي والعشرين رؤية إسلامية للحوار، مرجع سابق، ص١١٢+١١٣.

٦- إشكالية الحوار المتكافئ بين الحضارات من حوار الديانات إلى الحضارات، مدخل إلى ندوة (الحوار بين الحضارات: التنظير والتنفيذ)، والتي نظمتها المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة، ايسيسكو، موقع الايسيسكو على الانترنت: www.isesco.org، ص٢.

٧- عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠م ،ص ٣٦٦.

٨- عبـد العزيـز عثمان التويجـري، حوار الحضارات تواصـل لا صراع، مركز زايـد للتنسيق والمتابعة والكتاب حصيلة ندوة عقدتها الجامعة العربية في نوفمبر ٢٠٠١ م و فبراير ٢٠٠٢ م، ص ١١٥.

٩- عبـد الله علـي العليان، حوار الحضارات في القرن الحادي والعشرين رؤية إسلامية للحوار، مرجع سابق، ص ٨٤+٨٥.

١٠-المرجع السابق، ص ٨٣.

١١-عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مرجع سابق، ص٨٢٨+٢٢٩.

١٢-عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مرجع سابق، ص٢٢٨.
١٣-عبد العزيز عثمان التويجري، حوار الحضارات تواصل لا صراع، ص١٤.
١٤-عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مرجع سابق، ص٣٠٦.
١٥-يجي غوت- فوتيشيخ، احترام الصراع بناء التفاهم المثمر في مواقف الصراع اليومية، ترجمة: مطاع بركات، دار الآفاق والأنفس، ط١، دمشق، ١٩٩٦م، ص ٨٦.
١٦-عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مرجع سابق ،ص٢٠٧.
١٧-يجي غوت- فوتيشيخ، احترام الصراع بناء التفاهم المثمر في مواقف الصراع اليومية، مرجع سابق، ص٥٥.
١٨-عبد العزيز عثمان التويجري، حوار الحضارات تواصل لا صراع، ص٩.

آفاق المعرفة

بروست وتيار الوعي

ترجمة: زياد الملا*

علـــى صفحات الجزء الأول من رواية بروست، يقرأ الصبي في الحديقة وهـــو منزوٍ في ركن قصـــي: «ألم تكن أفكاري، أيضاً؟ نوعـــاً من المأوى الذي كنت أحسّ فيـــه، في عمقه، أنني محتجب حتى عندما كنت أنظر إلى ما كان يجـــري في داخلي؟ عندما كنت أجد مادة ما، خارجيـــة، فإن إدراكي لما أراه ووعـــي له كان يظل قائماً فيما بيني وبينـــه؟ وكان يغطيه بغطاء غير مادي، دقيق بحيث يجعل التماس المباشر بمادته ليس في المتناول على الدوام. وكان

* ناقد ومترجم سوري

العمل الفني: الفنان زهير حسيب

هــذا الغطاء كما لو صــار يتحول إلى حالة غازية قبل أن ألحق بالتماس معه، مثله مثل الجسد الحامي المقترب من مادة رطبة مبللة دون القدرة على التماســ مع الرطوبة لأنه يتبين أن هذه المــادة ليست، دوماً، منفصلة عنه بطبقات من الأبخرة».[1]

هــذا هــو أحــد «القوانــين العامــة» السيكولوجية التــي يحب بروست صياغتها مستخدمــاً، لهذه الغايــة، أي ظرف حياتي عرضــي بحيث يمكن استقــاء التماثل منه. يبــدو أن الحقيقــة التجريبيــة تتحول إلى حقيقة عامة، إلى «حالة غازية» أمام أعيننا. ويرســخ بروســت هذه الحقيقــة بمادة من العلــوم الطبيعية كي تبدو واقعــاً دقيقاً، أو في أغلــب الأحيان، بمثال مــن الرياضيات، وهــذه مماثلة أخرى. الطفل يحمل كتاباً في الحديقــة متوجهــاً إلى «الجسد الحامي» أمــام «المادة الرطبة» وقــد أقفلوا في هذه الحلقــة، على محاكمــات بروســت. وتبرز أمامنا، وبالذات تلــك الحلقة المقفلة نسبياً والتي يتشابك فيها؟ عند بروست، هذا الكم النصي متعدد المجلدات من تسلسل لا نهاية لــه، أو يمكن مقارنة حركــة هذا النص مع الوضعيــة التي يجري فيها انصباب النقطة التــي تنساب إلى نقطة أخرى. وهذه مماثلة ثالثة.

وفي هــذه «النقطة» والتــي تبدو، حقاً، مثــالاً مستوحى من قبلنا، من عند بروست، في هــذا الجــزيء من نص هائــل، كان قد تجســد، وبالفعــل، مثلما «في نقطــة الماء» عالم بروســت الرئيس. فالطفل في الحديقة منعــزل عن العــالم الخارجي تمامــاً مثلما هــو الإنسان المنفصل عن المــواد الملموسة، وعن البشــر والأحداث، وعــن كل ما يدور أمامنــا. إنه معزول «بحديقتــه الداخلية»، بإدراكــه لهذه المــواد، وبالوعــي الذي كما لو كان الإنسان محاطاً بــه و«متوارياً» فيه. والوضــع نفسه ينسحب علينــا، نحن قراء بروســت أننا منعزلون عن هذا الصبي، عن هذه الحديقة، وبشكل عام عن قصة طفولة مارسيل بطــل الرواية، وعن «تاريخ الحياة» بتلك المحاكمــة السيكولوجية الشاملة، التي تحيط «بالتاريخ» وتبتلعه وتذيبه في تيارها. ومن هذا التيــار تنطلق الأحــداث والبشر واللقاءات الذاتية، مثلما هو مشهدنا، ولوحة الطفولة ككل، والبيوت والكنائس والنزهات والأزهــار إذ إن كل هذا قد عام، سوية، بعد عدة سنــوات بالنسبة إلى الشاب اليافع، في يوم شتوي، خارجاً مــن أسفل كوب الشاي، من تذوق قطعــة الكاتو المتجددة؟ والمجربة في وقت سابق؟ مــن التذوق والرائحة، ومن

كل مــا أصبح منسياً. ولكــن البعض واصل وعلى نقطته التي تــكاد لا تتجمل التلمس، حمل هذا البنيان الهائل من الذكريات.

هاكم المشهد الــذي يجتاح الذاكرة على الفــور عندما يتم النطق باسم بروست. إنها صفحات عن الماضي المتكون من الإحساس بذوق مادلين. ويبدو أن التفاصيل البروسية الأكــثر دقة، وهي ثمينــة في حد ذاتها، هي ذاك التحليل العميق لعملية التذكر. وغالباً مــا يبــدو بروست كله عبــارة عن مجموعة من التفاصيل الدقيقــة و«الملحوظات» ذات الأهميــة وهي مأخوذة على حدة ودون صلة بالمغزى العــام. إن بروست، كما هو معروف «انطباعي» وهــو يرى أن «الانطباع» ومهمة التعبير الأدبي في الكلمة، إنما تشكل العنصر الرئيســي وكما لــو كان الهــدف النهائي. ويمثــل هذا الكتاب في جزئه الأعظم وصفاً للانطباعــات. إن مثل هذا الــرأي الواسع الانتشــار عن بروست والــذي يتم الإفصاح عنه في صيغــة الذم حيناً والمدح حيناً آخر، والقائم في الحالتين، على أساس «الانطباع العــام» غير المعمــق، إنه هو بالــذات الذي يمكن إطلاق صفة الانطباعية السيئة عليه. وإن القــارئ النفاج يستمتــع ببروست مثلما يستمتــع بوجبة أدبية نــادرة، كما أن الناقد الصارم يجــد في ميل بروســت إلى التمتع بالأحاسيس التافهة والضئيلة كغاية في حد ذاتها، انحطاطاً بحتاً.

كان بروســت نفسه قد عــبر عن الأسى عندما استقبلوا عملــه هذا وكأنه ذكريات: «كلا، فأنا لــو لم أكن أمتلك الإيمان الذهني واكتفيــت بالرغبــة في التذكــر.. لمــا كنت أخــذت على عاتقي القيــام بجهد كبير كي أكتب وأسقم إلى هذه الدرجة». وفي الرسالة ذاتها المكتوبة في عام ١٩١٤ إلى جاك ريفير: «وأخيراً أجد القارئ الذي حزر أن كتابي هو مؤلف دوغمائي وأن هــذا هو التأليف»[٢]. ففي مقصد بروست إنما يكمن تشييد بنيان خارجي بإمكانه الارتفاع فوق عفوية «التيار» وتجريبية الملاحظات والذكريات والتداعيات وحيث يعمل هذا البنيان على إغلاق النهاية والبداية (العــودة إلى المشهد مع مادلين في الجــزء الأخير من المجلــد الأخير) وإغلاق «التيار» في مجموعــة دوغمائية «بمعتقدات ذهنية» مكتشفة في نهايــة المطاف. بيد أن بروست لم يوفق في تشييد البناء بل استطاع تخطيطــه مــن الأطــراف. وإن التيار غير موضح عند بروست بهذا الترتيب الخارجي، فهو غني داخلياً بتلك القضية المعاصرة التي خلقتــه، أيضاً، كشيء جديد في علم الأدب.



ليس بروست مراقباً للظواهر دون فكر إلا أنه ليس معمارياً، أيضاً ولا ذهنياً مثل جويس في «أوليس». وإن كتاب بروست بالمقارنة مع جويس، غير متبلور، كبير الحجم، عفوي وضعيف خارجياً بما يكفي وربما يبدو أكثر انتشاراً إلى ما لا نهاية. وأما التنظيم عند بروست فهو داخلي أكثر مما هو خارجي وذلك في بنيان كل صفحة على حدة. وتومض قضية بروست بخفوت في النص.

تختفي هذه القضية عند الحديث عن الصبي الذي يحمل كتباً وهو في الحديقة.

فهنا يدور الحديث عن علاقة وعي الإنسان ومواد الواقع الخارجي. ويتم تصوير هذه العلاقات. بجلاء، في ذاك التشكيل الذي يمكن تصويره بصرياً. فالراوي- البطل متوار في الوعي مثلما يتوارى في ملجأ، بعيد عن التماس مع الواقع الخارجي. وإن هذا الواقع، بدوره، ليس في متناول البطل. ويسعى الإنسان لامتلاكه إلا أنه يبني لذاته دفاعات خاصة به مهما كان محمياً. فالوعي يود ابتلاع العالم والاستئثار به، وفي الوقت ذاته هو مأوى وحماية من العالم. وهنا لعبة أو فعل أكثر جدية. ولكن ما هو أمامنا هو الفعل بالذات وليس قانوناً مجرداً وإن كانت لدى بروست ذرائعه الجلية، الفلسفية، وحتى تقريباً العلمية، ومع ذلك إن تعميماته التي لا تعداد لها وملاحظاته التي تكتشفها

القوانـــين، وتلك الحقائق العامـــة، إن هذا كلـــه ليس مبرراً في حد ذاته. إن بروست هو مراقب ومحلل، وهـــو في كل موضع، مصور وكاتـــب مسرحي. فهـــو يجـــري محاكمات متواصلـــة عبر عـــدة آلاف مـــن الصفحات المتواليـــة إلا أن هـــذه المحاكمـــات تمثل لنا خشبـــة المسرح وترســـم لوحة يمكن تفحص نمنمتها في مقطعنا هذا، أيضاً.

وهـــذا الفعل هو فعل غريب بالنسبة إلى القارئ الذي يعرف البناء الدرامي للرواية. ويصير الوعي وسيطاً بـــين القارئ والواقع الموضوعـــي المطـــروح، عـــادة، في الرواية، مباشرة أمام القارئ. ويبرز الواقع من خلال مـــواده التـــي استخلصها الوعـــي، بصورة تعسفية وأدرجها، بشكل تقريبي، في جوّه.

إن مـــا هو مشترك بـــين آداب كل عصر إنما هـــو الموقف أي العلاقة بـــين الإنسان والعـــالم. وهذا قائم عنـــد بروست في حالة من التحول ذي الخصوصية. فالإنسان يحل محله الوعي، والعالم تحل محله المادة. والوعي أمام مادة الواقع الخارجي هو، بالذات، حالة بروســـت، وهي حالة شخصيات كتابه والتي تحـــدث فيما بينها حركـــة الفعل والتصادم والصراع الحقيقي.

وهكذا صـــار الوعي «بطـــلاً» للرواية. فهو يشغل الموضع الذي يحتله البطل عادة. فيـــم يكمن مغزى مثل هذا التحول؟ هل هو تدريب تكنيكي أو أسلوب حيادي في السرد؟ كلاً، فنحن أثناء قراءتنا لبروست، نلمس أن هـــذا الأسلوب هو، في حد ذاته، يمثل مغزى معيناً وقيمة محددة.

كانت مسألة وعي الإنسان، دائماً وأبداً، تهـــم الكتّـــاب الواقعيـــين الكلاسيكيين إلا أن الوعـــي كان «جـــزءاً» ومرحلة ناتجة عن الصـــورة الكلية. فهو، كما يقال، كان وظيفة وماهيـــة. كان الوعي ملكاً للبطل، وأما عند بروست، فعلى الأرجـــح، إن البطل هو ملك لوعيه والذي انطلق، بجلاء، من شواطئه.

لقـــد كان الوعـــي، دومـــاً، هـــو «العالم الداخلي» وتبين، الآن، أن العالم عند بروست، يقبع داخل الوعي. فهـــو نشيط، وهو يبدع العمـــل الفنـــي عنـــد بروســـت، بينما عند الكلاسيكيين نرى أن واقع العمل الفني كما لو كان قد ظهر، مباشـــرة، من قبل أبطاله، ومـــن طاقاتهم ونشاطاتهـــم، ومن صلاتهم الحياتية، ومن شخصياتهم.

ليس نشاط الإنسان وفعله، أيضاً، سوى تلـــك القضية التـــي تتحـــدد بالموقف منها مناهج القـــرن العشرين الفني، ومن ضمنها تيار الوعـــي. وفي الحقيقة، كان الإنسان في

روايــات بلزاك أو زولا لا يملك غاية محددة يوجه جــل نشاطه لتحقيقهــا، ومن خلال التنافس بين تلــك الميول والنزعات الفردية كانت تبرز الصلة بين عــوالم هؤلاء الكتاب. ومنذ روايات وقصص عصر النهضة وصولاً إلى زمننــا كانت هذه الصيغــة من النشاط القائم على المصلحة والاهتمام في حالة من التطــور، وهو كان يتعزز من خلال التصادم مع اهتمامات بشرية أخرى.

وهــذه الحالــة في آداب تيــار الحداثة الغربيــة إنمــا تمثل حالة الإنســان في عالم العبث. ويتم إدراك الضغط وثقل العالم على أنه العنف والظلم اللــذان ينبغي أن يجابها بشــيء ما ولكــن بماذا؟ وما هــو رد الفعل الممكن والفعل النشيط ما دامت الموضوعية قــوة مجردة وصماء تجــاه الإنسان؟ فمثلاً، هنا، «إنسان العبث» الذي لا يفتقد إطلاقاً، لردات الفعــل، والفرد «الجنسي» الذي منه تنسحب دوافــع السلوك «غريب» ألبير كامو و«الإنسان بــلا سمات» و«الإنسان بلا طبع» والذي يتبــدى الصدى عنــده لعنف العالم، في «الصمت» و«الغيــاب» و«العدم العميق» وانعدام ردات الفعل بصورة مطلقة. وهناك احتمال آخر حيث يلتقــط الإنسان المغامر الــذي يلتقط لأجل ذاته طبيعــة خاصة به يبدلهــا بأخرى مثل تبديــل السيرة كأبطال أندريــه جيد مثــلاً في «سراديب الفاتيكان» -لافكاديــو إذ هذه الذات لا تــود أن تفعل بنفسها كيفمــا اتفق مثلمــا يفعل «غريب» كامــو، وعلى العكس، هو يــرى نفسه محقاً وقادراً على أن يفعل مع الحياة ما يحلو له، ولكــن من خلال ذاته، هــو، أيضاً، «غريب» بطريقــة أخــرى. فهنا نموذجــان من عالم الروايــة الغربية يعرضان لوحة بين الإنسان والعــالم. إنها علاقات ممزقــة، ميكانيكية، متعسفة، غريبة.

كان كتاب بروست كما لو تم إبداعه على خلفية الرواية الطبيعية وهو رد فعل عليها. فنحن نقرأ في صفحات بروست الأولى: «من الممكن أن يكون سكون المواد التي تحيط بنا والتــي تفرضها ثقتنا بهــا بأنها هي كذلك بالذات وليست مــواد أخرى، وسكون فكرنا تجاههــا..». كيف يتبدى كل هــذا فيما إذا تذكرنــا «نظرية الوسط» عندمــا تقرأ عن الغرف في صفحــات بروست الأولى وتتذكر الوصف الموسع للوضع والوسط الذي يحدد، مسبقاً، وجود الإنسان عند الطبيعيين. هذا ويضــع بروست «سكون المــواد» في مواجهة حركــة الوعي والعلاقة مع المواد والحقائق، إذ إن صفحــات بروســت الأولى هي تنبيه

وهي البرهة الأولى الخاطفة حيث الوعي لم يلحق بتحديد مساره في المكان والزمان، والإنسان لا يعرف أين هو الآن، وكل شيء في الحلكة يدور، وتختلف فيما بينها المواد والمواقع والسنون. ومن وضعيات الجسد، ومن خزان الذاكرة، تتكشف الأسرّة والغرف في فندق (بالبيك) حيث كان الوعي مسحوقاً وكان يلزم، في الوقت نفسه، المبيت، ومن بين الغرف، مثلاً تلك الغرفة في الفندق حيث يختنق الوعي بالسقف الممدود إلى الأعلى وبرائحة غريبة وبعداوة الستائر البنفسجية ولا مبالاة الساعة الحائطية.. وباختصار، لا يوجد هنا إنسان.. فالغرف والمواد والأزمان تدور وتجري حتى يحل، في النهاية، الاستيقاظ النهائي الذي سيوقف هذا التحليق ويثبت المنضدة والموقد والنافذة والبابين، كل في مكانه. وبهذه الصورة تبدأ الثقة بالزمان والمكان تفعل فعلها. ولكن من خلال تلك اللحظات الخاطفة والعابرة، ومن حالة اللا محدود حيث لا تزال المواد المحيطة غير ثابتة، من خلالها بالذات يلحق الوعي باستنباط ما يحتاجه كي يجابه «سكونية المواد». وثمة دفع قوي ممنوح للذاكرة، وإن تيار هذه الذاكرة قد تم تفكيكه، ونحن من جهتنا، نقرأ كتاباً يشكل جزءاً من ثواني الاستيقاظ هذه.

الإنسان، عند بروست، ليس نتاجاً سلبياً للحقائق بل هو موقف. ولكن الحرية في مثل هذه الظروف هي المجال الغريب والمجرد والذي يشكل، منذ البداية، ظرفاً عابراً. إن موقف بروست هو دفاع نشيط، دفاع ايجابي.

برز «تيار الوعي» في «البحث عن الزمن الضائع». فبروست لا يكتفي برسم الانطباعات بل يلعب بالمؤثرات ويتذكر أيضاً كما أنه يود الإفصاح عن مسائل إنسانية وعن النشاط والإبداع. لذا إن منهجه يستحق اهتماماً أفضل.

يقلب بروست أمامنا صفحة تلو الصفحة كي نشاهد بانوراما الوعي الذي يترسخ ويتبدى أمام القارئ بصفته وعياً سائداً يعمل على تغيير التزامات قوانين الواقع الخارجي وغير خاضع لها. فهو وقف، بكل حرية، فوقها. كما أنه صنع نسيج الرواية من مادة لها خصوصيتها هي الذكريات. و«سلطته، هنا، هائلة بالفعل. فهو العالم الذي يمكنه وقفه وتركيبه وكشفه حتى القاع وبالتفصيل وتضخيمه بشكل غرائبي وتبديله إذا لزم الأمر. فهو، هنا، إله مقيد بثراء النهر السحري لذاكرته».[٣]

يقود الوعي عند بروست، تلك

الانطباعات القديمة والتي هي وحدها التي تسمح في كل ظرف جديد، وفي اللحظة الراهنة، بتجاوز عفوية اللحظة، هذه العفوية المستعدة لابتلاع الواقع برمته.

ويعمل الوعي عند بروست، دوماً، على تفكيك اللحظة الراهنة والجارية ملتقطاً منها عنصراً مختاراً كي يوائمه ويحدده ويعزله وينقله إلى مقاس آخر. وإن الذاكرة هي التي تقوم، على الدوام، بهذا الانتقاء. فمثلاً، المنظر الخاص بالشجرات الثلاث إذ نرى أنها هي وحدها التي لها حجم وعمق وبعد أفق وشكل، وهي في مجال آخر، تعطينا السطوح والظلال ومن الجانب «الموضوعي» الذي يدحضه بروست فإن المنظر الطبيعي برمته ثابت مادياً، وإن هذه الشجرات وحدها وبسبب ذاتية الوعي الذي يستقبل، أخذت تتحول إلى حالة مزدوجة وفقدت الشكل الملموس وصارت شيئاً ما وهمياً.

اجتازت العربة الشجرات السرية «فهي جرفتني بعيداً وعزلتني عما بدا لي الشيء الحقيقي والفعلي الوحيد والذي كما لو كان سيعطيني السعادة الحقيقية، وهي كانت مثلها مثل حياتي»، لأن الحياة ما هي إلا تناوب للحظات الخاطفة التي لا تتكرر، وسباق للزمن الذي يخضع له الإنسان.

يود بروست الوقوف عند التبعية للزمن وبشكل كما لو أن الحياة لم تتحقق في الزمن الحاضر. فالوعي لا يعيش اللحظة الراهنة لذا إن الانطباع هو مثل بصمة الدقيقة في الإنسان وبروست لا يقومه تقويماً رفيعاً. يبدو أن هذا الأمر لا يتعارض مع كونه انطباعياً ولكن الأمور هي هكذا بالذات. فبروست يقوّم الانطباعات المتكررة. إنه كاتب التكرارات والتي انطلاقاً منها، يفتش عن الحرية وعن السيطرة على الزمن. وهو يعرف الشيء الكثير عن ذاك الثراء الذي يتضمنه الانطباع المتكرر، وإن التفوق قادر على نقله، مثلاً عند وصف الاستماع المتكرر للموسيقى وذلك تمييزاً عن الانطباع الأول والذي لا يزال «مظلماً». ولكن فوق كل هذه الإلهامات، إن التكرار في كتاب بروست هو فكرة لها مغزى، وهو، هنا، مشارك نشيط في الحدث الجاري وفي دراما الوعي. فالتكرار هو التثنية ومضاعفة الزمن، وفي الآن ذاته هو، بالنسبة إلى بروست، انتصار على الحالة الوحيدة الثابتة للحظات المخطوفة.

هذا ويخوض الوعي ضد انطباعاته نضالاً لا يفتر ضد العوامل الموضوعية التي تخضع الإنسان لذاتها. فالزمن هو هذا العامل، والوعي يكافح ضده ويتصارع معه.

أما الزمن الراهن فهو، دوماً، زمن جديد وغير معروف سابقاً. ويعمل الوعي، عند بروست، على اللحظة الراهنة حارمة إياه حداثته وحاصرة كل شيء في تكرار ما.

قبل أكثر من مئة عام من ظهور بروست وعلى أعتاب القرن التاسع عشر وحيث يجيب بروست بطريقته وعلى طريقته عن الخلاصات والنتائج، كان شيلر قد وصف حالة اللاحرية البشرية في ذاك الظرف الذي كان يسود فيه تقديس الزمن الحاضر والذي ينسخ الماضي والذاكرة ومطلب العصر ويخضع لذاته الفن أيضاً، ويمكنه أن يخفي في داخله، الدافع كي يصبح بصمة بسيطة لهذه اللحظة. «وحيث يفعل الدافع فعله حصراً فهناك ثمة، حسب الضرورة، تقييد هائل، وإن الإنسان، في هذه الحالة، ليس شيئاً سوى وحدة عددية يعمل على إملاء لحظة الزمن أو بصورة أفضل: لا وجود له لأن شخصيته غائبة ما دام الإحساس يهيمن عليه ويجرف معه الزمن».(٤)

ففي النصف الثاني من القرن العشرين صار ممثلو المدرسة الطبيعية في بياناتهم يركزون على مطلب «زمننا» ويتكلمون على أهداف الرواية أي الدراسة الموضوعية و«العلمية» لحقائق هذا الزمن والإنسان كحقيقة واحدة من بينها، ولعلها الحقيقة الرئيسية المحددة كلياً بمجموع كل الحقائق الأخرى المحيطة، وبضغط الوضع والوسط واللحظة وهي تدرج فيها كلياً.

يشيد بروست بناءه ضد هذه المنافحة عن الزمن الحاضر، عن الحقيقة. وإن منهجه مدعو كي يدحض التقديس الوضعي لهذا المعطى الحاضر التجريبي. ويمكن تحسس تلك الاتجاهات المعاصرة والتي وجهت إليها رواية «البحث عن الزمن الضائع» احتجاجها المتفرد. ومن خلاصة القرن التاسع عشر الأوروبي الغربي البرجوازي وفي موضع العبور على قرن جديد تحدد، بصورة خطيرة، مستوى جديد من فصل الحياة الاجتماعية عن الإنسان وتحول الإنسان كله إلى مجرد «حقيقة» للعملية الجارية من دونه. فتيار الحياة المعاصرة يجري على جنب ولا يستطيع الإنسان اللحاق به. إنه ضحية لهذه السرعة. وإن الحركة تجري وراءها. فهو لا يستطيع اللحاق بالولوج والفهم والتحليل والتدخل والاستيعاب والتقويم. وهو يكتفي بتسجيل انطباعاته الآنية واحتياجاته وهمومه وتخوفاته والتي تمحى بالجديدة على التو. ولا يستطيع الإنسان تخزين الانطباعات والتجارب والخبرات ولا يمكنه

امتلاكها بل هـــو يعكس تواترها فحسب أي يصبح هو الصورة المنعكسة. فهو، في الواقع، تلك الوحدة الكمية التي تملأ برهة الزمن.

كان كتاب بروســت مكتوباً «رغماً عن». وكان لوضعــه اللامعاصــر واللاالراهــن واللامرئي مغزى راهن إذ كان هو المعارضة. ويود الوعي، عند بروســت، أن يكون خازناً للخصوصية البشرية وللسيطرة على الحياة التجريبيــة وحيث وقائع الصــورة المنعكسة يقابلها العالم العميق وحجم الذاكرة وآفاقها وغناها ناهيك عــن ثقافة العصور وفنونها المتفــردة والتاريخية وبالفعــل، إن الذاكرة بالنسبة إلى كل ما هو راهن إنما هي المقياس العميق والأساس.

يحيــا الإنســان ويفعــل ويتحــرك في الحاضــر معتمــداً على الذاكــرة، وفي الآن ذاته في حــال المواجهة والتواصل معها، بيد أن الإنسان يحيا ويفعــل، أيضاً بشكل تقوم مهمته الإنسانية على جعل اللحظة الراهنة لحظته.

وأخــيراً، إنّ حصيلة الروايــة الطبيعية هي العــدم النهائي والكامــل. فالإنسان لم يعد يحيا. بــل يتذكر ويستعيــد. والإنسان هو الــذي يخلق الأزمنــة الراهنة الضائعة وهــو نفسه يضيع فيها. فالزمن الضائع هو الحياة والــدوران المتواصل للمكوك السعيد الذي يجعل الزمن باهتاً.

ويتعرضــ الزمن للتحول بقدر ما يجمد ضجيــج الزمــن. وأما الوعــي في صراعه الدائب مــع اللحظة الراهنــة وإبعاده لهذه اللحظــة وحصرهــا في التكــرار، كان قد تقدم نحو تلك الحصيلة أي نحو «اكتساب» الزمن الخاص به والتبجيل الختامي، ونحو هذه الحرية والسلطــة الوهمية المنغلقة في مخادعها المعزولة عــن كل العلاقات، ونحو تلــك الغرفــة الاختبارية التــي وضع فيها بروست كتابــه. ففي مقالته عــن بروست، يتذكر لونا تشارسكي، بصورة موفقة للغاية، الفارســ البخيــل إذ إن الوعــي، مثله مثل الفارس، في سردابه «بــين صناديق ذكرياته وهي قريبة جداً من متعة التقاطه الموصوفة من قبل بوشكين».(٥)

وفي ختــام الروايــة تــبرز سلسلــة من الانطباعات المتكــررة والمشهد الأخير لتلك الذكريات الفائتــة (الإحساس بذوق مادلين ومنظــر قباب كنيســة مارتــين، والأشجار والألواح غــير المتساويــة في ارتفاعاتها في مصلّى القديس مرقســ في البندقية والتي تبعث على الشعور بمثــل هذا الهبوط على الرصيــف في فناء دار عائلــة جيرمانتوف)

والمثبتة الآن؟ نهائياً؟ بفضل الوعي؟ وبالذات لأن الحيـــاة والزمن يخبـــوان بالنسبة إليه وحيث المعاناة التي توحي بمتعة حادة ويفوح منها شيء ما مرعب بسبب هوله..

وتبرز رواية فرنسيـــة منشورة في الفترة ذاتهـــا كخط مـــواز هام مـــع بروست وهي روايـــة أندريه جيد «سراديـــب الفاتيكان» (١٤ ١٩) حيـــث يجري البطـــل (لافكاديو) مثل هذا الحديث مـــع شخصية أخرى هي الكاتـــب نفسه. ويشرح لافكاديو أنه يتم ثنيه عن الرغبـــة في الكتابـــة والأدب: «إن هذه التعديلات التي تقوم بها هنا، والتصحيحات والتدبيجات.. بينمـــا نحن، حسب رأيك، لا نصحح أنفسنا في الحياة؟ ويجيب لافكاديو بما يلي: «يقال إننا، في الحياة، نقوم أنفسنا ونحسّ ذاتنا، ولكن إن ما تم إنجازه يستحيل تصحيحه وتقويمه. وهذا هو الحق في إعادة البنـــاء الذي يحول الكتابة إلى العدم ناهيك أنهـــا تافهة.. نعم، ففي الحياة يبدو لي رائع وبالـــذات ذاك الوضع حيـــث تعمل بالألوان على قطعة خام».

يمكن الظن بـــأن هذه الأحاديث القصد منهـــا، مباشـــرة، منهج بروســـت الذي يولي أهمية كبيرة لإمكانـــات التعديل والتصحيح والتقـــويم وحالات عـــدم الإنجـــاز الكامل حتـــى النهاية. فبطل أندريه جيد هو مغامر و«رجـــل الفعل» و«شخصيـــة قوية» وبالطبع هو ذو تركيبة غريبـــة على بروست. بيد أن التناقضـــات تحمل شيئاً يجمعها: ففي هذه الصيغـــة وتلـــك، في كل واحـــدة من طرفها يجـــري الإفصـــاح عـــن أزمة الفعـــل، تلك الأزمة التـــي تخص النشاط الـــذي تكلمنا عليه. فالحدث هـــو تفاعل وفعل مع العالم. إنه تواصل وتبـــادل، وهو الفعل الذي يأخذ بالحسبان العالم، والموجـــه نحوه كما لو كان متناسقـــاً معه. إن لافكاديـــو عند «جيد» لا يعترف بـــأي تفاعل. فهو يدعـــو إلى الفعل «حســـب القطعة الخـــام» دون إعدادات ولا سيكولوجيات وتأملات وموتيفات وأهداف، أي إلى الفعل «الصافي».

يعمـــل بطـــل أندريه جيـــد في محاولته المستحيلـــة العيش في زمـــن واحد حقيقي وانتـــزاع ذاتـــه، بهذه الطريقة، مـــن الصلة الخاضعـــة للأزمان، يعمل علـــى إنقاذ ذاته من المهمة الصعبة فعلاً، بالنسبة إلى إنسان الرواية الغربية في القرن العشرين أي مهمة تسوية التفاعل مع العالم من جديد، وتحقيق الفعـــل في الزمن التاريخـــي وعدم الضياع، ومواصلـــة وتجديـــد تقاليد الفعـــل الثقافي سوية مع تكدس النوعية والتجربة والمغزى.

وبالطبع، إن برنامج بطل «جيد» أي العدوان والقوة والحقيقة العارية ليس فقط غريباً على بروست بل هو خصم له إذ، على العكس، يسعى بروست لتجاوز الزمن الحاضر والتخلص من التنفيذ. وهو يكتفي بتقدير التكرار وإمكانات العودة والبدء من جديد، والقيام بالتدقيق والتعديل والاستئناف لمرات عديدة. وهنا يكتشف وعي بروست، نشاطه. ولكن هذا يعني أنه يستحيل إتمام أي شيء أو السماح بالتجسيد أو إطلاق شيء من ذاته إلى الواقع الفعلي، إلى الزمن الحقيقي. وينبغي، دوماً، امتلاك الذات ضمن الإمكان وفي حالات التصور والتذكر مع الانتقال بحيث تحل القوتان محل الموقف المباشر من الحياة في كل لحظة مع ضرورة الفعل، وباختصار تحل محل الحياة الفعلية للإنسان في الزمن.

نجد عند بروست في نص الرواية محاكمات حول أفضليات السفر بالخطوط الحديدية، إذ إن مثل هذا السفر يعني أن القطار بسيره ليلة واحدة وبدفعة واحدة مبتلعاً المكان المطلوب اجتيازه، إنما ينقلنا من محطة إلى أخرى (من زمن إلى آخر) لأن المحطة لم تعد جزءاً من المدينة إلا أنها مكان معزول كما لو كان يحمل اسماً. يمكننا أن نلمح، إلى أي مدى، هي منتظمة وموجهة بفعل داخلي موحد، محاكمات بروست التي لا تعداد لها حول مختلف المواضيع وتناظراته. إن شعر المحطات هو نفسه شعر الانعزالات عن «اللوحة العامة للواقع الفعلي» والذي تتراءى فيه المدينة عندما يلجونها وهم يغادرون المحطة. ولكن من الهام هو أن التأملات حول المحطات إنما يتبعها التعميم حول «زمننا». ويذكر بروست بحزن وكآبة: «بيد أن زمننا يعاني، في كل المجالات من الهوس باستكشاف الأشياء في محيطها الواقعي فحسب، وفي الآن ذاته يزيل الشيء الرئيس أي فعل الوعي الذي عزله عنه. إنهم يعرضون اللوحة بين المفروشات والموبيليات والزينة والحلي وستائر النوافذ، والتي تتلاءم مع عصرها.. بينما يمكن للأعمال الفنية أن تبعث على السرور فقط، مسبقاً يرى بروست، «في قاعات المتحف حيث يتجسد المكان الداخلي بصورة أدق وأوضح وذلك بفضل جلائها وغياب أية أشياء صغيرة وضئيلة..».

ويتبدى هنا موقف بروست من الحياة وفكرة الفن عنده إذ يتجلى الاحتجاج على أي عرض للرسومات في محيط العصر. وفي واقع الأمر، هل ثمة ضرورة لهذه اللوحة

المثبتة على حامل؟ وألا يفترض الشكل المؤطر ذاته إزاحة المكان المحيط والعالم إلى «المكان الداخلي» للوحة بحيث تصبح هي ذاتها «عالماً»؟ لا شك أن هذا الطريق القائم على التجرد من الحياة المحيطة والذي يتطلب تلقي الفن، إنما يفترض، لاحقاً، طريق العودة إلى الحياة بإنجاز ما. فالفن تم فرزه وعزله عن الحياة العملية ليس لكي يصبح بلاداً تستحيل العودة منها. وإن الإطار الفني هو أسلوب لتثبيت المغزى والتقوية المتميزة بالمقارنة مع التعبير المتناثر له في الواقع الفعلي الشمولي و«غير المؤطر». بيد أن تركيز المغزى يمكن بلوغه عن طريق التجرد المثالي من وجوده الفعلي بحيث إن الماء على اللوحة لم يعد يبلل، وهذا، أيضاً، يقوم به الإطار. وفي فكرة الإطار تعز على بروست إمكانات الانعزال في حد ذاتها. وإن الاهتمامات و«الأمكنة الداخلية» للوعي تلتهم الأمكنة الخارجية وتزيلها، مثلها مثل المحطات، وتعمل الأسماء بشكل عام، على الالتهام وتخفي المكان المديني الفعلي. وقاعات المتاحف، أيضاً، مثلها مثل محطات القطارات، عبارة عن أمكنة معزولة وأمكنة داخلية بغية الحفاظ على الفن عوضاً عن أن تكون في «المحيط الفعلي» أي مباشرة في سيرورة الحياة دون إطار ولا انعزال عنها.

يسعى الإنسان عند بروست، إلى الإحساس بتجاربه ومعاناتها. بيد أن هذه التجارب والمعاناة تبدو كما لو كانت، بدورها، قد تعرضت للاختبار وتم استنفادها قبله ومن جانب شخص آخر. إن «حب سوان» هو قصة حب داخل قصة وهو مشهد منغلق ومسرود من خلال شخص ثالث، خلافاً للنص الباقي بكليته) لأن المشهد قد تحقق خارج حدود حياة الراوي، وعلى الأرجح، قبل ولادته. وهذا ليس سوى استعادة للماضي ونموذج يميز روايات مارسيل والبيرتينا أو سان لو وراشيل الذين سيبدوان إعادة لحب شارل سوان لاوديت أو صيغة من صيغ هذا الحب ومعالجته مثل الكروكي.

ففي صلب غرام سوان، في المنبع، ثمة تذكر للأحداث الماضية من عالم الفن، إذ، هنا، وجه امرأة من اللوحة الجدارية لبوتيشيلي والتي عرفها سوان، ذات مرة، في لحظة ما، في شخص أوديت ووقفتها وقامتها، مطابقاً بين امرأة حية وامرأة متحفية، وواضعاً الواحدة داخل الأخرى. لقد رضي سوان بأوديت التي أصبحت محبوبته المبررة جمالياً وشعورياً كما لو كانت المرأة التي تبعث الغبطة والحبور في نفس فنان

عظيم. وفي كل مــرة يتعامل فيها سوان مع أوديــت نراه يتأقلم بفعله، ويصل إلى اللوحة المرسومة البهية مزيناً بها المساحة الحائطية ومضفياً على الشخصية تلك الثنية الملتوية. فهو يرى أوديت من خلال بوتيشيلي (تماماً كانت منتصبة أمامه، البورتريه التي يخصها وحيث صار قوامهــا وهيئتها مفهوماً وجلياً). ثمــة موتيف طبيعي وعادي لدى بروست وهو أن الإنسان صار مفهوماً وجلياً بعد أن أصبح بورتريه.

وبغضّــ النظــر عمن يحبه ســوان فهو يحب الكائن المفقود دومــاً.. الإنسان الذي يصبح مزدوجاً وينتمي إلى اللوحة الجدارية العائدة إلى القرن الخامس عشر، وإلى باريس نهاية القرن الرابع عشر في آن معاً».

وبالفعل لا يــدرك سوان إطلاقاً مع من يتعامل إذ تبدو أوديت بالنسبة إليه، هي هي، حيــث تظهر أمامه، وهي تلــك الابتسامات المخصصة لسوان. وتحيا أوديت حياة أخرى، أيضاً، خارج مرأى سوان. ولكن وإن كان قد سمع عــن ذلك فهو لا يستطيع التصديق إذ هــي، بالنسبــة إليه لا وجود لهــا لأنها، في نظــره، غير مرئية. والشــيء نفسه ينسحب علــى حياة أوديت الماضية قبل التعرف على سوان. فهي حسبما يقال، مريبة بالنسبة إلى ســوان. إنها حقل مظلم. والمرأة التي تتجلى لسوان لا تأتي مــن حياة متواصلة ومستقلة أخرى بل هي كما لو كانت قادمة من العدم، وبعدها تذهــب إليه ثانيــة دون أن تواصل الحيــاة بل تلج عــالم اللامرئيــات بانتظار ظهور جديد.

إن مثــل هذا التخيل عنــد بروست هو تخيل ابتــكاري ونشيط. ويستحيل، في هذه الحالات، إملاء، هذه السقطات والاخفاقات وتخمين الفواصل والربط فيما بينها وتبيان الكلية الفعلية والكاملة. فإذا كانوا قد رووا علــى مسامع سوزان، مثلاً، أنهم رأوا أوديت في نزهــة فهو سيكــون مدهوشاً ومضطرباً بسبب أنــه انفتحت كــوة في حياتها، وهذه الكــوة ليست ملكه بالكامل وهو يستفهم من أوديــت تصوراته عن حيــاة أوديت فيما لو كانت في هذه الحياة وخارج نطاق اللقاءات مع ســوزان، هذه النزهة فحسب لا أكثر ولا أقل.

وبهــذه الصــورة تتوضــع صــور البشر ويتحقق التلقــي. إنها أوديــت التي تخص ســوان، وأوديت الساعات الأخرى، و«أوديت الأخرى» حسبمــا يناديها سوان - أشخاص مختلفــون. وبشكل عام، إن كل إنسان يتجلى وراء حدود الرؤية المباشرة التي تتنافر فيها

السمات، إنمــا يصبح إنسانــاً آخر. وعلى العكســ، إن أوديت التـــي تخص سوان هـي بالنسبـــة إلى هؤلاء الذين يعرفــون أوديت وفي الساعات المجهولـــة بالنسبة إلى سوان، هـــي امرأة أخرى لا يجمعها جامع، إطلاقاً، مع تلــك التي يعرفونها. فالفــرد يتناثر في طبائع تعتمــد على نقاط التلقــي. وينبغي علـــى الإنسان ومركزه وجوهـــره وطبعه أن يختفي وراء كثرة مـــن الرؤى. فأوديت تبدو لســـوان «علـــى أرضيتها الطبيعيـــة العادية شبيهـــة بأوراق ايتيـــودات فاتو» حيث نرى، هنـــا وهناك، وفي كل الاتجاهات، ابتسامات لا حصـــر لها ومرسومة بأقـــلام خاصة من ثلاثة ألوان وعلى ورق مائل إلى الصفرة.

لا توجد إمكانـــات لفصل وعي الإنسان عن ذاتـــه لـــذا يستحيل تصـــوره في أفعال مجهولة إذ سيكون هذا إنساناً آخر أو يمكن تصور هـــذا المجهول مطابقاً لما هو معروف ومرئي. فالتناقضـــات والتباينات وإمكانات مختلـــف الأطـــراف لا تمتـــزج في صـــورة الإنســـان، وإن أي تعقيد (ابتسامات أوديت لسوان والجانب بعيد المتناول من حياة هذه الفتاة بالنسبة إليـــه) عوضاً عن أن يتوحد علـــى قاعدة الصورة الكلية نراه يخلق، على الفور، كثرة من الوجوه المتباينة والتي يشكل كل منها منظمة من المرئيات من ناحية هذه السمـــات أو تلك. وكل وجه هو مجال. وهذه الوجـــوه تسكن كتاب بروســـت، أيضاً، ومن حيث الجوهـــر عوضاً عن أبطـــال الرواية العاديـــين مـــن البشر والطبائـــع والأجساد، نجد، هنـــا، الجوانب ومحيطـــات الأشكال والمقاطع الجانبية والخيالات.

وهكذا ينظـــر ســـوان إلى أوديت مثلما ينظر إلى تشابك الخطوط الدقيقة والجميلة والتي كان يتفحصها ويوحدها، ثانية، متابعاً بنظرته، تعرجاتها والتواءاتها، ومقارناً إيقاع القفا والرقبة مع مسار الشعر وثنية الجبين الحـــادة.. ويتضـــح أن هـــذا التشكيـــل من السمات يتبدل دون نهاية، وسوان يقوم، دون توقـــف، «بالتفحص والربـــط»، وفي كل مرة يخلق، من جديد، «اوديته» مثله مثل الطفل، كما نذكر، حيث يخلق تخيله عن المسرح من لون الأفيشات.

إن التطابقات الرائعة التي كونتها الفتاة الشابـــة مع شاطـــئ البحر، ومـــع الضفائر المتشابكـــة كتمثال كنســـي، ومع منحوتة ما، ومـــع كل ما نحبه في الفتاة بحيث تظهر، في كل مرة، لوحة ساحـــرة، إن هذه التطابقات غير راسخة. ففي كل «لوحة» كهذه، لا يتحد الشخص مع ذاته بقدر ما يتحد مع الدقيقة

المحيطـة، وهو يخلـق رغم وحـدة الحياة الخاصـة ومسارهـا الطبيعـي والمتواصل والمترابـط، مزاوجات لحظية وغير ثابتة مع المعطيـات المتصلة بالتداعيات مثلما تمتزج ألبرتينـا مع الشاطـئ والسحـاب والنغمة الوردية.

إن الشخصيـة ذات الانطباعات الكثيرة هي شخصيـة ألبرتينا المرسومـة بالوعي. وليـس الحب الذي يكنه لهـا سوى محاولة غير ناجحـة لتأملها وتذكرها والتقاطها في الوعي وجعلهـا «خاصته». ولكـن كل لقاء جديد إنمـا هو منظر جديـد، وشكل آخر تحقق من وضعية اللحظة ومن زاوية أخرى من زوايا المراقبة.

وهنا أية شخصية هي الحقيقية من بين هـذه الكثرة من الألبرتينـات؟ يتراءى لي أن مثل هذا السؤال ينبغي أن لا تكون له أهمية ولكن تأمل مختلف البورتريهات يجبرنا على البحث عـن الشخصية الحقيقية من بينها. فقضية «الأصالـة» و«الواقعية» لا تنسحب من صفحات رواية بروست. وهاكم الجواب -بعـد المحـاولات وخيبـات الأمـل- على صفحات «الزمن المكتسب».

وعندما صار مارسيل، فيما بعد، «أسيراً» لألبرتينا كما هي «أسيرته» ظلا، لفترة طويلة، متجاورين «وجهاً لوجه» كي يعي حقيقتها، وكان عليـه أن يعـزي هـذه الشخصية إلى الماضي ويلتقط، علـى الدوام، حقيقتها في تصوراتها كوسيط ضروري. وهذه الشخصية ليست سوى شخصية الدقيقة الأولى.

وهكذا، في إبداع بروسـت البورتريهي، ليـس الإنسـان الحاضـر موضوعيـاً، هو الصورة الأصلية. فبروست يعرف وجود هذا الإنسان، وهـذه المعرفة بالـذات هي التي تشـكل حالة توتره الدائم في رواية بروست. ولكن الإنسان «الموضوعي» عند بروست ليس هو الأصل ولا المنبع الأول بل، على العكس، هو نتاج انهيار الشخصيـة «الأكثر واقعية» والتي يمتلكها الوعـي. وإن الصور البشرية التي يقبلها الوعـي في داخله نراها تختلط معه وتؤسلب الإنسـان «الموضوعي» وتظل، دوماً، «على الطرف الآخر» دون توفر انتقال أو تعارف.

وفي وقت لاحق يتكلم الراوي على اوريان جيرمانتسكايا عندما صارت «سيان بالنسبة إلي، وأنا درست الكثير من سماتها». فالقيمة الموضوعيـة لإنسان محتملة عندما يكون هو غير مكترث، ويمكن لسماته أن يثبتها الوعي ميكانيكياً، مثلها مثل الصورة الفوتوغرافية. ولكن هـا هو الظـرف المماثل مـع الجدة

المحبوبة عندما يراها «موضوعياً» ومعزولة بعد فراق طويل أي أن يراها (الوعي) دون أن يستعد لذلك. فالراوي لا يرى العجوز لأن هذه العجوز ليست سوى جزء من ذاته. ويستحيل رؤيتها خارج هذه الذات ولكن فقط في ذاته، و«دوماً في الموضع ذاته من الماضي ومن خلال الذكريات المختلطة والشفافة والمتوضعة بعضها فوق البعض الآخر. وعوضاً عن هذا، في زمان ومكان آخرين موضوعيين، هنا والآن، في هذه اللحظة، في المضافة» للمرة الأولى، ولبرهة، لأنها سرعان ما اختفت، رأيت على الديوان، على ضوء اللمبة، عجوزاً حمراء، بدينة، ساذجة، عادية وبعيون متوحشة، عجوزاً لم أعرفها».

الوضع نفسه ينسحب على المسرح عندما ينتهي العرض، نرى ذاتنا مشدودة بالرغبة في رؤية شخصيات المسرحية ثانية بينما هذه الشخصيات قد تبعثرت إلى «ممثلين فقدوا الوضعية التي كانوا يشغلونها في المسرحية» وإلى نص وملابس ومكياج، وبكلمة «تحولت إلى عناصر لا جامع يجمعها مع تلك نتيجة للانهيار الذي حل الآن بانتهاء المسرحية». والأمر نفسه يحدث مع خصوصية وفردية كل فرد.

هذه هي الخلاصة التي يستنتجها بروست. فعلى خشبات المسرح يجري العرض. وهو يجري على خشبة الوعي. وهنا تتحرك الشخصيات العابرة التي يتساوى بالنسبة إليها، البشر الحقيقيون وطبائعهم وسماتهم مع الألبسة والمكياج لأن «الشخص الآخر» لا يفعل فعله، بصورة مستقلة، بل من طرف، ومن تخوم يمكن ضبطها في العمق.

نحن نذكر ما يعانيه سوان بسبب الزمن المجهول في حياة أوديت. فهو، في لحظة معينة، تحيط به ابتساماتها فيتصور أن هذه الساعة الزمنية من حياتها ليست مصطنعة بل معدة خصيصاً لأجله وبحيث تبدو كقناع للهوة المظلمة في حياة أوديت تلك عندما لا يكون موجوداً بجانبها إلا أنها ساعة فعلية من ساعات حياتها، ساعة لا تجيز الهوة التي تفترض تلك الساعة ولكن ساعات أخرى.

وأوديت الحقيقية التي تجمع في داخلها المفارقات وتحرم سوان من أوهام امتلاكها إنما تضعه، في هذه الحالة، في المأزق. هكذا هو، بشكل عام، وعي بروست النشيط والحر والذي يفقد سيارته وفقط قبله يتحقق الجوهر الفعلي للمادة. وفي هذه الحالة، يترسخ الشيء، في الوعي واضعاً حداً لجريانه.

يشكل نفي سلبية دور الإنسان «كنتيجة» للنظام الحياتي، خلاصة مغزى إبداع بروست وفكرته الموهوبة. ففي رواية بروست هناك وعي تجاه الإبــداع إلا أن هذا الوعي يخلق أوهاماً جمالية.

إذا توجهنا، بعــد بروست، إلى علم آخر مــن أعلام «تيار الوعي» أي إلى جويس فإن هذه المقارنة تسمح، بصورة أفضل، بإدراك شيء مــا دون مبررات لتنقيــح بروست من قبل جويس. إنهما ردّا فعل متناقضان تجاه الظرف الذي يعتبر، إلى حد ما، عاماً. فإذا بدا جويســ «أكثر عصرنــة» وبروست أكثر محافظة وقدماً فهذا يعود إلى أن الاهتمامات محطمة عنــد جوس، هذه الاهتمامات التي كان يختبــئ فيها وعي بروســت. إن مقولة بروست، وبالفعل – «الداخل»، في كل الأحوال، ســواء أكانت سائرة نحو الفعل الخارجي في الغرفة أو نحو شاطــئ البحر أو في الشارع فــإن بروست يحمي نفسه مــن هذا الفعل بوساطة «اينتريره» الخاص به أي داخله، أي بوعيه. وللعلــم، لا يحب بروست الفضاءات المفتوحــة للحياة البشرية. فهــو «داخل في وعيه الذاتي» مبدئيــاً، وهو يستعجل، دوماً السير إلى «غرفتــه المظلمة» وعزل ذاته في مكان ناءٍ كي «يقــرأ» ويعاني، مثله مثل تلك الغرفــة اللازمة لتحميض الصور. ولكن ألا يشكل هذا الانطباع «المطهر» وهماً مخادعاً؟ وهكذا تضيــع الحياة التــي ينبغي بالذات التقاطهــا موضعياً، وفي واقــع الأمر يضيع الزمن.

يعتمــد تيــار الوعــي عنــد جويس في «اوليس»، وبالذات، على التماس المباشر مع ماديــة كل المواد وتبيان أنــه لا يرجى شيء مــن كل هذا. وإن الجماليــات المقنعة عند بروست تعتبر فظة ومرئية عند جويس. فلا وجود لأية عزلــة لإنسان وإن كل اهتماماته مكشوفة حتــى النهاية، وقبل كل شيء وعي الإنسان الذي من خلاله تجري عملية تمرير كل تلــك الفوضى التي تبــدو عليها الحياة المعاصــرة عند المؤلف. وتصل هذه الفوضى ذروتها (بالتعبير الأسلوبي المباشر) في حالة الظلمة الليلية لمخدع الزوجية وفي انفلاتية «التيــار» الختامــي لماريون. وبشــكل عام، كانت بانوراما «اوليس» أي المدينة وزحامها وتيــار الكتلة البشرية والصدامات العرضية والأماكن العامة على اختلافها وهيئة تحرير جريــدة، كل هذا وغيره كان جويس قد تبناه للكشف عن فضــاء الرواية، ومن ثم «أدرج» تلك العفوية التي لم يكن بروست يود إدراجها بأية وسيلــة على الإطــلاق. وبالتالي، يرى

جويس أن «البطل المعاصر» هو إنسان ضيق الأفق؟ تافه وهو تجسيد فخم «للإنسان المتوسط» البرجوازي بذاك المستوى من خلو التضاريس والتمميطات والذي أوصل القرن العشرون وحده هذا الإنسان إليه.

فالظرف لا يمثل الوعي المكرر بل الوعي المجروف كلياً والذي يفقد للشكل والمحيط، وببساطة بسبب انعدام أي توجه نشيط أو قدرات منتقاة.

«اوليس» هي يوم عادي للوزير العادي بلوم. فهو يذهب إلى مكان ما لأمور عادية إلى أقصى حد، وفي طريقه يرى شيئاً ما ويلتقي أحداً ما، وإن كل ما يراه يجبره على تشغيل وعيه كشريط لا مبالٍ يسجل كل شيء دون تمحيص ولا انتقاء.

إن الكثافة الميكانيكية لهذا العمل غير عادية إطلاقاً، وهذا الأمر يثير دهشة بلوم. فالمونولوج الداخلي عنده يكمن في معظم الحقائق العرضية والصغيرة اليومية والتي هي في حد ذاتها، ضئيلة بحيث ينبغي عليها أن لا تعّقد وعي الإنسان بجهد خاص. ولكنه أمر آخر كلياً موضوع شراء اللحم للإفطار أو إلقاء نظرة على واجهات المخازن أي كل ما ينسحب على وعي بلوم. فمثلاً يمر بلوم بجانب واجهة مخزن يعرض فيه الحرير. وينال الوعي مادة للتحليل: إنه البوبلين.

ليس ثمة وجود لأي وعي موجه مهما كان مساره، بالمنطق الذاتي وبالهدف. فكل صغيرة تتدخل دون عائق في التيار وتعطيه الانعطاف. وإن كل حقيقة مقبولة مهما كانت صغيرة ليست سوى عبء لا يحتمل وهذا العبء يضغط على الوعي ويبدل شكله. وإن تيار بلوم هو قصف للوعي بحقائق عرضية. وينطلق ذهن بلوم بردود أفعال آلية و«بأفكار ضئيلة».

وفي مثل هذه العلاقة بين الحقيقة الخارجية ووعي الإنسان المتوسط يتجلى، وإن كان بصورة مشوهة، الوضع الفعلي للزمن أي تحميل ثقل العالم على الإنسان وعلى إدراكه ووعيه. وتكمن المسألة في أن الحقيقة الضئيلة بوقوعها ضمن دائرة الوعي لا تضغط بثقلها الوحيد فحسب بل بمناخ الزمن المقدرة فيه هذه الحقيقة. ولهذا السبب، يمكن أن يصح أي بوبلين بهذا «الثقل». وإن وعي بطل كتاب جويس مجزأ بسبب ضغط العالم إلا أنه يتقبل كل شيء في داخله علماً أنه لا شيء في هذا الداخل لأنه لا شيء هناك يصبح ملكاً له.

إن الوعي التجريبي الخسيس لبلوم عند جوس، والوعي المكرر أي بطل كتاب بروست

إنمـــا يتعلقـــان أحدهما بالآخـــر كنقيضين ولكـــن الأساس العام لهـــذه التجربة وتلك، هو العلاقـــة المباشرة والمتوتـــرة بين الوعي وحقيقة الواقع الخارجي أي التركيب المميز في مؤلفات القرن العشرين الأدبية حيث يبرز الوعي كبطل، بـــل الأصح يلعب الدور الذي يعود إلى «البطل» في الرواية العارية.

وفي عـــالم وعي بروســـت تم تلاشي هذه الحقيقة الواقعيـــة بصورة وهمية. فهو ولج الوعي بعنف وكحقيقة فظة.

وهنـــا لا مجـــال للحديث عـــن التنظيم المعقد للغاية لملحمـــة جويس ولكن عن تلك المسألة الفعلية التي صار شكل «تيار الوعي» هو رد الفعل الفني عليها. وهذه المسألة هي المقاييس المتبدلة لخـــبرة الإنسان، وكنتيجة هي الميكانيك المتغير لعلاقات الوعي المتلقي مع العالم. وتم في «تيار الوعي» اكتشاف أزمة النشاط القديم. وإن نشاط الإنسان وإبداعه هو نفســـه المسألة الداخلية والمتأزمة لرواية وعي بروست.

الهوامش

١- مارسل بروست، المؤلفات، المجلد /١/، لينينغراد٠عام ١٩٣٤، ص٩٦.

٢- كاتـو مـن الأحاسيس- بهذه العبارة تحدث جاك ريفير عن بروست (الاقتباس من كتاب رامون فيرناندز، بروست، باريس، عام ١٩٤٣، ص١٩).

٣- لونا تشارسكي: مارسيل بروست، المؤلفات، المجلد /١/، لينينغراد، عام ١٩٣٤، ص ٧.

٤- شيلر، مقالات حول علم الجمال، موسكو- لينينغراد، الأكاديمية، عام ١٩٣٥، ص ٢٣٢.

٥- لونا تشارسكي، المصدر السابق.

آفاق المعرفة

خالد بن يزيد الأموي

محمد عيد الخربوطلي *

خالـد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، حكيم آل مروان، وعالم قريش، كان مـن رجالات قريش المتميزين بالفصاحة والسماحة وقوة العارضة، كما كان خبيراً بالطب والكيمياء والفلك وشاعراً مقتدراً.

زهد في الخلافة وعشق العلم، وإذا كان جده معاوية أنشأ ملكاً في الشام دام ألـف شهر، فقد أنشأ بعلمـه مملكة باقية بقاء الدهر، يقول الزركلي في أعلامه:

* أديب وكاتب سوري

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي

«مات أبوه سنة ٦٤هـــ، فاتفق بنو أمية على بيعتــه فبايعوه بالخلافــة وقام ثلاثة أشهر، ثم غلب عليه حب العلم، فجمع الناس وخطب فيهم:

إن جدي نــازع الأمر من كان أولى به ثم تقلده أبــي، ولقد كان غير خليق به، وإني لا أحــب أن ألق الله بتبعاتهم فشأنكم وأمركم، ولوه من شئتم، فقالوا:

ألا تعهد إلى أحد؟ فقال: لم أجد لكم مثل عمــر بن الخطاب لأستخلفــه ولا مثل أهل الشورى، فأنتم أولى بأمركم، ثم لزم منزله.

فمن هو خالد بــن يزيد الذي آثر العلم علــى الملــك، وفضــل صحبــة الكتب على السياسة والسلطة والقيادة..؟

إنــه أول من أنشأ خزانة كتب في دمشق، وأول مــن ترجــم الكتــب، وأول من أعطى التراجمة والفلاسفة، وقــرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة.

أول مكتبة في دمشق:

خالد بن يزيد أول من جمعت له الكتب وجعلهــا في خزانة الإســلام، فدمشق كان فيها أول دار للكتب في العالم العربي، وأيضاً عُرفــت دمشق كأول عاصمة أنشئ فيها دار للترجمة.

أولى خالــد بن يزيد بعملــه هذه الأمة وهذه العاصمة شرفاً لا يبلى على الأيام.

إن الشام ليفخر بأن قامت فيه أول دولة عربية ممدنة، وتمت فيه كثير من مشخصات الأمة العربية، ومن أولها التدوين والترجمة، فالشام أول ســوق نفقت فيها بضاعة العلم والأدب، وهذا يعد مــن مفاخرها الخالدة، وخالد بن يزيد أول من عُني بعلوم الفلسفة، ولم ينفرد بذلك المنصور العباسي «خلافاً لما قاله كاتــب جلبي من أن علوم الأوائل كانت مهجورة في العصر الأموي».

منجزات خالد وإبداعاته:

يعده معظــم الباحثين أنه أول من أسس علم الكيمياء بين العرب، وأعطاها مكانتها بين العلوم، وهو أول من سعى إلى ترجمة كتب النجوم والطــب والكيمياء والآداب والآلات الصناعية، وقد حاول استخدام الكيمياء في تركيب الأدوية، واهتم بعلم الفلك كثيراً.

ذكــر القفطي: «..أن أحــد وزراء مصر وجد سنــة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م في خزانة الكتب في القاهــرة كرة سماويــة نحاساً من عمل بطليموســ وعليهــا مكتــوب: حُملت هذه الكــرة من الأمير خالد بــن يزيد بن معاوية الأموي.»

شهادة العلماء بخالد:

قــال الزبير بن مصعــب: «كان خالد بن يزيد موصوفاً بالعلم حكيماً شاعراً».

وقــال ابن أبــي حــاتم: «كان خالد من الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام».

وقيــل عنــه: «قــد عَلِـم عِلْـمَ العرب والعجم».

روى الحديث عن أبيه وعن دحية الكلبي، وروى عنه الزهــري وغيره، وأخرج البيهقي والخطيب البغـدادي والعسكري والحافظ ابن عساكر عنه عدة أحاديث.

وورد عنه أنه كان إذا لم يجد أحداً يحدثه حــدث جواريه، وقد ورد عنــه قوله: «كنت معنيــاً بالكتب، وما أنا مــن العلماء ولا من الجهال».

وقــال عنــه البــيروني: « .. إن خالــداً فيلسوف مسلم».

أما ابن النــديم فقال في الفهرست: « .. استدعــى خالــد بعضاً من علمــاء اليونان الذيــن سكنوا مصر المتفصحــين بالعربية، وأمرهم بنقــل كتب الصنعة مــن اليونانية والقبطية إلى العربية..»

وقــد أجمع كثير ممن ترجــم حياته أنه كان بصــيراً بالطب فقد أخــذه عن يحيى النحوي، كمــا أخذ الكيمياء عــن مريانس الرومي، وأتقــن هذين العلمين وألف فيهما كتبه ورسائله، كما كتب في غير هذه العلوم.

كل ذلك يدل على معرفته وبراعته، كما أن لـه شعر ومقاطيع دالة على حسن تصرفه وسبقه، وعرف كخطيب مفوه وشاعر حازم ذا رأي.

وكان جــواداً مُمدَّحاً جــاءه رجل فقال لـه:

(إني قد قلت فيك بيتين ولستُ أُنشدهما إلا بحكمي

فقال له قل: فقال:

سألت الندى والجودَ حُرَّان أنتما؟
فقالا بلى عبدان بين عبيد
فقلت ومن مولا كما فتطاولا
عليَّ وقالا خالد بن يزيد

فقال لـه خالد: تحكم، قال الشاعر: مئة ألف درهم، فأمر لـه بها.

قال الجاحــظ: « .. لقــد كان خالد بن يزيــد خطيباً وشاعــراً، كمــا كان فصيحاً جامعــاً، جيــد الــرأي، كثــير الأدب، وكان أول مــن تُرجمت لـه كتــب النجوم والطب والكيمياء..»

كما اهتــم كثير من الباحثــين الغربيين بدراســة حياتــه وآثــاره في علــم الصنعة ورسائله، مثل بروكلمان وسارتون وستابلتون وروسكا.

وقــد اختلــف بعضهم فيمــا نسب إليه مــن إبداعات ومؤلفــات، فيوجد منهم من

شــكك مثل: د.سزكــين، وكما أكد بعضهم نسبتها إليه، أنكر بعضهــم الآخــر كل ما قدمه مثل: روسكا، بــل إنه أنكر أن يكون من أهل العلم.

يوليوس روسكا وخالد:

يقــول المستشــرق الألماني (يوليوس روسكا):

«ليســ لدينا شهــادة من عصــر خالد بن يزيــد تثبت ميلــه العلمــي، وليســ فيما نعرفه عن الحياة الرسمية في ذاك العصــر أقل إشارة تدعو إلى الظــن أن ابــن خليفة في دمشق عُنــي بالعلم اليوناني، وعبثــاً يبحث المــرء عن رجل اهتم بترقية العلم في المغنيين والموسيقيين والشعراء والنساء والرجال الذين كانــوا ينادمون أهل القصر الأموي، فإن المهندســين الذين كانوا يبنون قصور الخلفاء والجوامع هــم من الغرباء، وكذلك نجــد من الغربــاء أيضــاً الأطباء والفلكيــين، هــؤلاء هم الحاشيــة ولكننا لا نستطيــع أن نبين ولا أن ننتقص ما ذكر من أن خالــداً كان لـه ولع بالكيميــاء، وما من



تأليف علمي أو شعري مما نسب إليه يمكن أن يعتبر من تأليفه!

الرد عليه:

وممن رد عليه محمد كرد علي في خطط الشام، وكان رداً علميــاً جميلاً، ومن جملة رده مــا أثبته صاحــب الفهرست محمد بن اسحــق بن النديم الذي عنــي بإخراج كتب القدماء في الصنعة..وهو قوله:

«خالد بن يزيد كان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ذا رأي، وهو أول من تُرجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء، وكان جواداً.

قيل له: لقد فعلت أكثر شغلك في طب الصنعة، فقال خالد: ما أطلب بذاك إلا أن أغني أصحابي وإخواني، إني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة، فلا أحوج أحداً عرفني يوماً أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة، ويقال والله أعلم أنه صح له عمل الصناعة، وله في ذلك عدة كتب ورسائل، وله شعر كثير في هذا المعنى رأيت منه خمسمئة ورقة، ورأيت من كتبه كتاب الحرارات، وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة.

ويقول محمد كرد علي:

جاء في التاريخ العام، لم يعرف العالم القديم منذ القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر الميلادي سوى مدنيتين، مدنية البيزنطيين ومدنية العرب، وقد دبت الروح في هذه بما تهيأ لها من الانتشار فأزهرت في آسيا وأوروبا وأفريقيا من الصين إلى إسبانيا، فنشأت مدينة العرب من احتكاكهم بالمدنيات الشرقية، وأثر فيها مؤثرات الفارسي واليوناني، فإن فارس على عهد الحكومة الساسانية نشأت لها شبه نهضة، وذلك لوقوعها بين ثلاث ممالك كبرى (بيزنطة والصين والهند) وأصبحت مدة أربعة قرون نقطة تبادل الفكر الإنساني، وبينما كانت فارس تتلقى سفراء الصين وتجدد بالأخذ من المصادر الهندية آدابها وأفكارها، كانت تقبل الكهنة النساطرة وأصحاب الفلسفة الأفلاطونية من أثينا والإسكندرية يكافؤونها مؤونها على ضيافتها لهم بترجمة تآليف فلاسفة اليونان وعلمائهم، وقد عاونت فارس على انتشار التهذيب اليوناني بعد دولة السلوقيين في الشام والبطالسة والبارثيين والساسانيين، فلما جاءت العرب وجدت المدنية اليونانية راسخة في جميع البلاد التي داهمتها أولاً مثل الشام ومصر والعراق على تخوم آسيا الصغرى،

فكانت تقترب من المملكة البيزنطية فبدت لهم من وراء المدنية البيزنطية الفرنجية اليونانية، كما تجلى لهم من الفرس المدنيات القديمة من الهند والصين على نحو ما وجدوا في بلاد كنعان ومصر، تذكارات من الأمم القديمة التي لا تزال

عليها مسحة الأجيال العريقة في القدم ومصانعها وأعمالها.

ولما بلغت الدولة العربية غاية عزها، بل بعد أن تمزقت وتقسمت أصبح دينها واحداً، ولسانها واحداً، وقوانينها المعمول بها واحدة، وذلك من نهر السند إلى أعمدة هركول، وتمت الوحدة بين أولئك الشعوب المختلفة ديارهم، وأخذ يقتبس أحدهم من الآخر من تبادل التجارة وسياحة الأفراد وتنقل الجيوش والأمم، وانتشار المعتقدات والأخلاق والأفكار يتصادمون ويتمازحون ويتحدون ويتداخلون، وكل شعب ينقل إلى الآخر تقاليده وتاريخه وملكاته الطبيعية، فالمدنية التي عمل فيها هذا العدد الكبير من المؤازرين المختلفين ليست إذا عربية صرفة، بل هي بحسب النموذجات التي تشعبت بروحها والمحيط الذي كبرت فيه يونانية وفارسية وشامية ومصرية وإسبانية وهندية، ولكن إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل لا يسع المنصف الإنكار بأن قسط العرب منه كان أعظم من غيرهم، فلم يكونوا واسطة لنقل هذه المدنية فقط، ينقلون إلى الشعوب الجاهلة في أفريقيا وإسبانيا وأوروبا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وعلومه واختراعاته، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التي كانوا يلتقطونها من كل مكان، فمن مجموع هذه المواد المختلفة التي صُبَّت فتمازجت تمازجاً متجانساً أبدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم، وبفضلهم تيسر للحضارة الإسلامية في القرن الأوسط التي عاونت فيها أيدٍ أخرى أن تكون ذات وحدة موصوفة، فالتقليد فيها محسوس ولكنه تقليد غير أعمى، فإن سلطة الأساتذة الأقدمين لا تمنع الأبحاث العلمية والاختراعات الحديثة، كما أن مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحول دون انتشار التفنن ولطافة الإبداع في الاختراع، وفي الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق إحدى مراكزها ومبعث أنوارها.

خالد بن يزيد الشاعر:

عرف كثير من الأمراء الشعراء، ومنهم خالد بن يزيد الأموي، وقد أجمع كل من أورد سيرته على مكانة شعره وفحولته، ومن الأمثلة الكثيرة الدالة على علو كعبه في الشعر:

١- لما لزم بيته قيل له: كيف تركت الناس ولزمت بيتك؟ قال: هل بقي إلا حاسد نعمة أو شامت بنكبة.

ومن شعره قوله:

أتعجب أن كنتَ ذا نعمة
وأنَّك فيها شريفٌ مَهيبُ؟
فكم وردَ الموتَ من ناعمٍ
وحبُّ الحياة إليه عجيبُ
أجاب المنيةَ لما دعت
وكَرهاً يُجيبُ لها مَن يجيبُ
سقته ذنوباً من أنفاسها
ويُذْخَرُ للحيِّ منها ذَنوبُ

٢- وقال خالد في رملة بنت الزبير بن العوام:

أليسَ يزيدُ السَّيرُ في كلِّ ليلةٍ
وفي كلِّ يوم من أحِبتنا قُرْبا
أحنُّ إلى بنتِ الزبير وقد عدَتْ
بنا العيسُ فرقا من تهامَة أونَقبا
إذا نزلت ماءً وإن كان قبلها
مليحاً وجدنا ماءَه بارداً عَذْبا
تجولُ خلاخيلُ النساء ولا أرى
لرَملة خَلخالا يجولُ ولا قُلْبا
أقِلُّوا عليَّ اللَّوْم فيها فإنني
تخيرتُها منهم زبيريَّةً قلبا
أُحبُّ بني العوَّام طُرًّا لحبها
ومِن حبها أحببتُ أخوالها كلبا

٣- وقال:

إن سرَّك الشرفُ العظيمُ مع الغنى
وتكونُ يومَ أشدَّ خوفٍ وائلا
يوم الحساب إذا النفوس تفاضلت
في الوزن إذ غبطَ الأخفُّ الأثقلا
فاعمل لما بعدَ المماتِ ولا تكن
عن خط نفسك في حياتك غافلاً

آثاره:

إن معظم آثار خالد بن يزيد فُقدت كما فقدت معظم آثار غيره من أعلام حضارتنا، ولكن وإن شكك بروكلمان في صحة ما ينسب لخالد، وإن أنكر كل ذلك روسكا، فقد بقي من آثاره التي لا ينكرها عاقل الشيء الكثير، ومن هذه الآثار ما هو بخطه أو مما نسخ عنه كما جرت العادة، وسأذكرها وأبين مكان وجودها اليوم في العالم، فمعظم ما خلفه الأقدمون محفوظاً اليوم بمكتبات ومتاحف العالم.

١- رسالة في الكيمياء – موجودة اليوم في الهند بمكتبة رامبو برقم ٦٨٦/١

٢- رسالة في الصناعة الشريفة وخواصها – في رامبو ضمن مجموع رقمه ١٦ كيمياء.

٣- رسالة في الصنعة، منها نسختان في:

آ –المتحف العراقي في بغداد – ضمن مجموع رقمه ٢٠٣.

ب –طهران بمكتبة أصغر مهدوي ضمن مجموع رقمه ٧٢٥.

٤- رسالة ماريانوس، في استنبول بتركيا في مكتبة الفاتح رقم ٣٢٢٧.

٥- رسالة، في القاهرة ضمن مجموع برقم ٦٠ كيمياء وقد نسخت في، ق/١٣هـ.

٦- رسالة خالد بن يزيد، في بغداد بمكتبة المجمع العلمي ضمن مجموع برقم ٢٣ كيمياء.

٧- خمس رسائل مختلفة موجودة في طهران بمكتبة خانقاه نعمة الله، ضمن مجموع رقمه ١٤٥.

٨- قصيدة نظمها وهي بالكيمياء ويوجد فيها نسختان:

آ - واحدة في استنبول بمكتبة جار الله ضمن مجموع برقم ١٦٤١ وقد نسخت في، ق/٨هـ.

ب- والأخرى في طهران بمكتبة أصغر مهدوي ورقمها ٣٣٩.

٩- منظومة في الكيمياء موجودة في باريس ضمن مجموع برقم ١/ب/٦٢

١٠- مقصورة في الصنعة الإلهية ومطلعها:

عليك بشيء في السماوات ساكن

يُرمى به الشيطان إن رام أن يرقى

وهذا المخطوط موجود في استنبول بمكتبة أحمد الثالث، ضمن مجموع الصنعة الإلهية برقم ١٦٤١.

١١- القصائد في الكيمياء، موجود في استنبول ضمن مجموع برقم ٢٢٥٤.

١٢- خمس قصائد، موجودة في طهران بمكتبة أصغر مهدوي ضمن مجموع برقم ٧٢٥/١

١٣- قصيدة كيميائية موجودة في استنبول، بمكتبة وهبي ضمن مجموع برقم ٢٢٥٤/٨

١٤- مقالات مريانوس الراهب إلى خالد بن يزيد في الكيمياء

١٥- اختيارات خالد، ديوان في الكيمياء مع مقدمة نثرية، موجود في مكتبة لاله في استنبول برقم ١٦١٣ كما ذكر بروكلمان

١٦- ديوان خالد في الكيمياء، ويتضمن اتصاله بأستاذه مريانوس الراهب، والحوار بينهما فيما يتعلق بالصنعة والإكسير، مع مقدمة نثرية، حققه فاضل خليل إبراهيم في الموصل بالعراق.

١٧- مسائل لخالد بن يزيد إلى الراهب مريانوس، ونسخها الخطية موجودة في:

- طهران بمكتبة خانقاه نعمة الله برقم ١٤٥ وقد نسخت في ق/١٢هـ

- طهران بمكتبة شهيد علي، ضمن مجموع برقم ١٧٤٩م وقد نسخت في، ق/٩هـ

- واشنطن بمكتبة الجيش الطبية، ضمن مجموع برقم A/٧١

- جامعة لييننغـراد، ضمن مجموع برقم ١١٩٢/شرقي/M S

١٨- وصية خالـد إلى ابنه في الصنعة، كانـت مـن ممتلـكات الخانجـي تاجـر المخطوطـات المصري الشهير، وهي الآن في طهران بمكتبة مللي مجلس برقم ١٦١٦ وقد نسخت في، ق/١١هـ

١٩- القول المفيـد في الصنعة الإلهية، موجـود بمكتبـة الجامعة القاهـرة برقم ٢٦١٨٩.

٢٠- فردوس الحكمة أو ديوان النجوم، منظومـة مـن ٣١٥ بيتاً في علـم الكيمياء، ذكره يا قوت الحمـوي في معجمه للأدباء، ومطلعها:

الحـمـد لله الـعـلـي الـفـرد
الـواحـد الـقـهـار رب الحـمـد
يـا طـالـبـاً صـنـاعـة الحـكـمـاء
خـذ منطقاً حقا بغير خفاء

وقـال بروكلمـان: إن فردوس الحكمة كتـاب منفصل عن ديـوان النجوم، ونسخه الخطية موجودة في:

- دار الكتـب المصريـة بالقاهرة برقم ٥٢/ كيمياء.

- بمكتبة الكرملي في بغداد، وهي نسخة مصورة.

- بغـداد بمكتبة المجمـع العلمي، وهي بعنوان ديوان خالد بن يزيد بالصنعة، ورقمه ١٢/كيمياء.

- بغداد بمكتبة المتحـف ضمن مجموع برقم ٢١٢٣، وقد نقلت من مكتبة دير الآباء الكرمليين ببغداد.

- بغداد بمكتبة محفوظ برقم ٢٥١.

- بيروت بمكتبة جامعة القديس يوسف برقم ٢٥٥ وقد نسخت في، ق/٩هـ.

- طهران بمكتبة دانشكاه ضمن مجموع رقمه ١٢٠٥/٢٣٢٤.

- طهـران بمكتبة ملك برقم ١٥٤٥ وقد نسخت في، ق/٧هـ.

٢١- كتاب الرحمة.

٢٢- كتـاب في الكيميـاء، موجـود في جامعة أم القرى بمكة المكرمة برقم ٢٣٧.

٢٣- المحررات (الحـرارات) ذكره ابن النديم في الفهرست.

٢٤- الصحيفة الكبير، ذكره ابن النديم في الفهرست.

٢٥- الصحيفـة الصغـير، ذكـره ابن النديم في الفهرست.

٢٦- السر البديع في الرمز البديع، وهو

في علم المنطق وقد ذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء.

هـــذه لمحة سريعـــة عن خالـــد بن يزيد الأمـــير العالم، الـــذي أســـس أول مكتبة في دمشـــق عاصمة الأمويين، عاصمة أول دولة عربية وإسلامية.

المصادر والمراجع

١- الأعلام للزركلي.
٢- أعلام الحضارة العربية الإسلامية لزهير حميدان.
٣- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.
٤- الآثار الباقية للبيروني.
٥- أعلام الأطباء الأدباء في دمشق – للخربوطلي.
٦- البيان والتبيين للجاحظ.
٧- تاريخ الطبري.
٨- خطط الشام لمحمد كرد علي.
٩- عيون الأخبار لابن قتيبة.
١٠-العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي.
١١-الفهرست لابن النديم.
١٢-معجم الأطباء لأحمد عيسى.
١٣-معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة.
١٤-مروج الذهب للمسعودي.
١٥-معجم الأدباء لياقوت الحموي.
١٦-مقدمة ابن خلدون.
١٧-المقفى الكبير للمقريزي.
١٨-الوفيات لابن خلكان.

آفاق المعرفة



دلالة المائدة الاجتماعية والثقافية من خلال الشعر الجاهلي

(قراءة أنثروبولوجية)

د. بركة بوشيبة*

كثر الاهتمـام بدراسة الإنسـان وثقافته ونظمـه الاجتماعية في جميع المجتمعـات البشرية تقريبـاً، ماضيها وحاضرهـا، وتمَّ التعبير عن الجانب الكبـير من هذا الاهتمام في الأساطير والحكايات الدينية[١] التي تناولت – أحياناً– مغامرات بحثه عن الاستقرار والخلود[٢]، ووصف «بعض الإنجازات الثقافية البارزة، كاكتشاف النـار أو صناعة بعض الأدوات والفنون المفيدة، أو البدايات الأولى للتقنيات المختلفة المستخدمة في إنتاج الطعام»[٣] (وكثيراً

* أستاذ في جامعة السوربون (باريس)

العمل الفني: الفنان د. محمد غنوم

ما تعلم أبناء المجتمع أنماط سلوكهم المقبولة والمرفوضة اجتماعياً من المعتقدات المرتبطة بتلك القوى الكونية المهيبة التي تلف الفكر الإنساني وتسيطر عليه.

ومن يستقرئ الشعر الجاهلي في تعامله مع «المعتقدات والأساطير والزجر، والكهانة، والقيافة، والحيوانات والوشم والمحلات، وكل ما له صلة بالحياة البدائية والعادات والتقاليد التي كانت تحل محل القوانين»(٤) يجده يعبر عن حياة حافلة بهذه المعتقدات(٥) التي حيتها الجاهلية بكل أشكالها وباشرتها في مجالاتها المختلفة، وحكمتها في تصرفاتها ومصيرها، فجرى بعضها مجرى الديانات، وبعضها مجرى العادات والاصطلاحات، وبعضها مجرى الخرافات إلى أن أبطلها الإسلام، وقد بقي هذا الاعتقاد حتى عصر متأخر، واتخذه بعض الشعراء الإسلاميين رمزاً للشرف والرفعة وعلوِّ المنزلة لقول المثقب العبدي:

باحريّ الدّم،(٦) مرّ طعمه
يبري الكلب إذا عضّ وهرّ(٧)

بهذا الأسلوب والاعتقاد حدد أسلوب حياة عرب الجاهلية والمثل العليا والأهداف التي يستجيب لها الأفراد، ورسمت به معالم الشخصية الحقة ومستوى تفكيرها وجملة القضايا التي تشغلها؛ كالأبهة والافتخار والخلود وحددت أنواع السلوك الثقافي والاجتماعي الذي تجسده وتكافئ عليه معنوياً كالكرم، والشجاعة، وإغاثة الملهوف، وذلك الذي تنبذه وتحرمه، وأحاطته بحقل من الموانع، ترتبط أحياناً بمعتقدات دينية، بينت حدود إمكانية ابتعاد الفرد عن المعايير الثقافية للسلوك والقواعد المتبعة، وما يجب اتخاذه حيال الفرد الذي يكسر هذه القواعد.

ولعلَّ السؤال الذي يواجهنا ونحن نستقرئ دلالة المائدة الاجتماعية والثقافية هو: لماذا حرص عرب الجاهلية على هذه الترسيمات الثقافية التقليدية التي برزت كثيراً في مظاهر المائدة؟

وهل هناك رغبة صريحة للإبقاء على هذا السياق المتعارف عليه من خلال ممارسات تطبيقية في مظاهر مختلفة؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، نورد قول الشاعر لبيد بن ربيعة العامري للتمثيل لبعض المظاهر والسلوكات النابعة من ثقافة هذا المجتمع:

وجزور أيسار دعوت لحتفها
بمَغالقٍ مُتشابهٍ أجسامها

أدعـو بهن لعاقـرٍ أو مُطفِلٍ
بُذِلتْ لجيران الجميع لِحامُها
فالضيف والجار الجنيب كأنما
هبط تُبالة مُخْصبا أهْضامُها
تـأوي إلى الأطـنـاب كل رَذِيَّـةٍ
مثل البلية قالصُ أهدامها[8]
ويكلِّون إذا الـريـاح تـنـاوحتْ
خُلجاً تُمَدُّ شَوارِعا أيْتامُها[9]

تثبت عناصر الاستقصاء الأولية في هذا النموذج، أن ما يرافق هذه المائدة أو الوليمة من سلوك، وما يؤمن به أصحابها من قيم، لم تكن إلا تفاخراً وتباهياً، ليأكل منها الغرباء والضيفان والجيران دون أن يكون له نصيب منها، لأن ثقافة المجتمع تحرم عليه ذلك، ويكفيه منها الحديث وحسن الذكر الذي ينعم به دون القوم.

ويرى عبد الملك مرتاض أن «طقوس هذه المائدة العجيبة كانت مرتبطة بالمعتقدات الوثنية والتقاليد الاجتماعية البدائية والسلوك الجاهلي الذي ينهض على التفاخر والرثاء والمن»(١٠) وكذا في قول عروة بن الورد:

أحاديثُ تَبقَى والفَتَى غيرُ خَالدٍ
إذا هُوَ أَمْسَى هامَةً فَوقَ صُيَّرِ[11]

ويبدو أن الأشراف وسادة القوم كانوا أكثر حرصاً على هذه الثقافة بل هذه الآداب الواجب مراعاتها، لأن الإخلال بها يستوجب العقاب المعنوي؛ أي الإهانة والمذمَّة التي ستظل تلاحقه مدى الدهر، ألم يهج الحطيئة الزبرقان ويَسِمُهُ بالبخل والعجز، بهذا البيت الشعري الذي لانزال نردده إلى اليوم:

دَعِ المَكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِها
وَاقْعُدْ فَإنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

فشكاه إلى عمر بن الخطاب (رض)، فلما سأل عن ذلك حسان قال: «لم يهجه ولكن سلح عليه»[12]، وكذلك كان معاوية يرضي الشعراء بالصلات لدرء هذا الخطر حين قال: «ما أهون والله عليك أن ينحجر هذا في غار، ثم يقطع عرضي علي ثم تأخذه العرب فترويه».[13]

ولعل هناك رغبه صريحة للإبقاء على هذا السياق الأساسي المتعارف عليه من خلال تلك الممارسات، أما ما يقابل به الضيف من مظاهر الترحيب والابتهاج وحسن استقبال وتعجيل الطعام، واختيار أجوده ومحادثته على المائدة، فما هي إلا ممارسات ثقافية يحرصون على حمايتها ونشرها، باعتبارها الثقافة التي ترافق تفكيرهم الرامي إلى الرفعة والخلود، مشفوعة بالتنافس التفاخري على جميع



المستويـات والمراتـب الاجتماعية للحصول علـى السيادة أو قل الأبهـة والرفعة التي لم تكن أمراً سهلاً، كما قال الهذلي:

وضإنّ سِيادَةَ القَوْمِ فَاعْلَّم
لَهَا صَعْدَاءُ مَطالِبُهَا طَوِيلُ
أ تَرْجُو أنْ تَسُودَ ولمْ تَمُنَّ
وَكَيْفَ يَسودُ ذوالدَّعَةِ البَخيلُ؟(١٤)

وتحليل الدوافع الكامنة تحت أي نشاط يقوم به الأفراد أو الجماعات كالكرم وشرب الخمر، والغزو، والسلب -دون استبعاد التأثير الاجتماعـي- يبرز دور العامل التنافسي، إذ يلجأ الكرام إلى نحر الإبل وإطعام الضيفان والجيران، وخوض المعارك، وحضور النوادي ومجالـس الشـراب، ليست هـذه إلا إحدى المقومات الشخصية الحقة التي لا ينالها إلا الشرفاء، وحين يعتـز طرفة بهذا الحضور الدائـم في كل مظهر من مظاهـر السيادة المتعـارف على ثوابتها يكون قد جسد ثقافة مجتمعـه التي حدَّدت فيه ما يجب أن يكونه وكيف يكونه؟ عندما قال:

ولستُ بحَلال التّلاع مخافة
ولكنْ متَى يسترفدِ القومُ أرفدِ
فإن تبغني في حلقة القوم تلتقي
وإن تلتَمسْني في الحوانيتِ تصطدِ

وإنْ يَلتقِ الحيُّ الجميعُ تُلاقني
إلى ذِروَةِ البيتِ الشريفِ المُصمَّدِ(١٥)

وقـد يستخـدم غيره، كعنـترة، الطريق نفسـه للوصـول إلى هذا المبتغـى لينال به الخلـود وحسـن الذكر، ولكـن عامل الدم الهجين يمنعه ويحول بينه وبين الارتقاء إلى تلك المنزلة التـي أحيطت بموانع من ثقافة هذا المجتمع وحين قال:

فـإذا شربت فـإني مستهْلِك
مـالي وعِرضي وافـرٌ لم يكْلِم
وإذا صحَوْتُ فما أقصِّر عنْ ندىً
وكمَا علمتِ شمائلي وتكرّيمي
يُخْبرك من شَهدَ الوقيعة أنَّني
أغشى الوغَى وأعفّ عند المغْنم(١٦)

فإنـه أراد إبراز ما تتصف به نفسه من شروط السيـادة المتعارف عليهـا: من عفة وكرامـة وحسن خلق، ولكـن ثقافة المجتمع ترفضـ كل ما يمارس من سلوك إلا إذا كان مـن سيد شريف، أما الهجـين مثله لا يقبل منه مهما عمـل «لأن النظام الاجتماعي لا يظهر من قـوى كونية خارجيـة، ولكن من أنماط السلـوك الإنساني الذي تعضّده قيم وتقاليـد الجماعة»(١٧)، هـذه هي ثقافة المجتمع التي حرص الشعراء على تجسيدها وعبّروا عنها في كثير من قصائدهم، كالمهلهل في رثاء أخيه:

على أن ليسَ عـدلاً من كُليبٍ
إذا طـرد اليـتيـمَ عـن الجـزورِ
على أن ليسَ عـدلاً من كليبٍ
إذا مـا ضـيـمَ جـيران المجيرِ
على أن ليسَ عـدلاً من كليبٍ
إذا خـرجَـتْ مخـبـأة الخـدورِ
على أن ليسَ عـدلاً من كليبٍ
إذا مـا أعـلـنَـتْ نجـوى الأمـورِ
على أن ليسَ عـدلاً من كليبٍ
إذا خيفَ المخوف من الثغورِ
على أن ليسَ عـدلاً من كليبٍ
إذا وثـب المثـار على المثـيرِ(١٨)

وتـبرز هـذه الثقافة في شعـر الخنساء بوضـوح في رثاء أخيها صخر، كما تتردّد في شعر غيرها:

حـمّـال ألـويـة، هـبّـاط أوديـة
شـهّاد أنـديـة، للجيش جـرّار
نـحّار راغـيـة، ملجاء طاغية
فكّاك عانية، للعظم جبّار(١٩)

فالجود والكرم وإبـاء الضيم، والشرف وحماية الحمـى وإجارة المستجـير وإغاثة الملهوف تمثل أجزاء من كيانها المتكامل كما تشكل بالضرورة أجزاء لازمة من ثقافة عرب

الجاهلية، وما تقدمه مـــن أساليب السلوك الثقــافي والاجتماعي هو استجابات لا مفر منها من التأثير الثقافي في الأفراد.

وفي مظهـــر المائـــدة الاجتماعي سلوك حضـــاري لإعانـــة المعوز والفقـــير والضّال والضعيف وتقديم مـــا يتبلغ به الطريق من طعـــام وشراب ولـــو كانت شربة لـــبن، أحد مظاهر المروءة، ولمّا يصطدم بحتمية الواقع القاسيـــة في بادية شحيحة بالـــزاد، وحياة قائمة على الترحـــال والتنقل، يدرك أنها لا تمر هذه الحال دون انعكاسات على العنصر الاجتماعي الـــذي يشعر بأثره الحاسم على مستوى معاش اليتامـــى والأرامل والبؤساء والسائلـــين، ويعرف أيضـــاً أن زاده معرض للنفـــاد لـــذا كان يقري الضيـــف اليوم لأنه سيضطـــر إلى أن يضـــاف في يوم من الأيام ولأنـــه كان كلفـــاً بحســـن الأحدوثة وطيب الذكر والثناء، كما قال حاتم:

أمـــاوي إن المـــال غـــادٍ ورائـــح
ويبقى من المال الأحاديث والذكر(٢٠)

وكانـــت نفـــس العربـــي تسعـــد بسعادة المحتاج، وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف، كما نراه في مدح زهير أحد أجواد العرب:

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت
ونال كرام المال في الحجرة الأكل
رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم
قطينا بها حتى إذا نبت البقل
هنالك أن يستخبلوا المال يخبلوا
وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا(٢١)

وكان المـــال في نظرهم وسيلة إلى الحياة الشريفـــة وكسب المحامد، لـــذا عابوا على بعضهـــم الدعـــوة إلى حفظـــه «فقد عاب بعضهـــم قيس بن عاصم لأنـــه أوصى بنيه، فكان أكثر وصيته أن يحفظوا المال، والعرب لا تفعـــل ذلك وتراه قبيحـــاً»(٢٢) ورأوا كثرة إنفـــاق حاتم تبذيـــرا ورآه وسيلة من وسائل السيادة:

يقولون أهْلكتَ مالك فاقْتَصِدْ
وماكنتُ لولا ما تقولونَ سَيِّدَا(٢٣)

ويبدو أن هـــذه الممارسات الاجتماعية، تستجيب لضرورات نفسية العربي، ولسياق اجتماعي ناتج عن ثقافة اجتماعية يستحيل الحيـــاد عنها لارتباطهـــا بتفكيره الحريص على الخلود بنبل الفعال وجميلها، كما يظهر من قـــول عمر بن الخطـــاب (رض) عندما استنشـــد أحد أولاد هرم بـــن سنان مدائح زهير في أبيه «إنـــه كان ليحسن فيكم القول فقـــال: والله ونحـــن كنا نحسن لـــه العطاء فقال عمر: قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم.(٢٤)

وقد أدت التجارة والأسواق الموسمية إلى ضرورة انفتاح واسع النطاق على ثقافة الآخر (الهند وفارس والشام) ولكن هذا الانفتاح لم يجعلهم ينسلخون عن ثقافتهم على الرغم من وجود بعض آثارها في سلوكهم، كتلك المتعلقة ببعض آداب الأكل، كنبذ الشره والنهم في الأكل، والشرب في أواني الذهب والفضة، وصناعة بعض الأطعمة كالخبيص والفالوذج، هذا الانفتاح المعبر عن ثقافة الآخر والمتزامن مع الممارسة المطلقة وحتى التفاخرية[٢٥] هو إثبات لدور المائدة الاجتماعي، وخير ما يمثل نهجهم في الكرم قول أبي ذئيب الهذلي أنه لا يستحق الخير إن أطعم ضيفه قشر المقل وهو يستطيع أن يقدم قمحاً:

لا درَّ درِّي إن أطعمت نازلهم
قرف الجنيِّ وعندي البر مكنوز[٢٦]

هذا السلوك الذي تبعه الأجواد خاصة والعرب عامة هو تعبير عن ممارسات ثقافية آمنوا بها وكرسوا كل جهودهم لإتيانها، متحدين الآخرين في كل ما يقدمه من طعام، حتى لو كان مذموماً في نظر الآخرين، وثمة وجه آخر لهذه الثقافة التي مارسها في مائدته، عند تقديم طعامه واختيار الأواني والقدور ذات الحجوم الكبيرة للدلالة على أن ثقافة هذه المائدة لم تخل من ذلك التفكير الذي كان يشغله، فتحدى به الزمن، ليبقى ذكره خالداً وتحدى به الآخر وثقافته ليحافظ على قيمه وتقاليده، رغم تعقيد المعاش الاجتماعي واصطدامه بضرورات الواقع القاسية، وهو من ناحية أخرى سلوك حضاري يتضامن فيه الجميع في هذه البيئة الصحراوية.

ولا أظن هذا البعد الاجتماعي الثقافي إلا تعبيراً دقيقاً عن بنية المجتمع العربي في الجاهلية، تظهر فيه شخصياتهم وخصوصياتهم الثقافية في كل فعل يرجعون فيه طوعاً إلى ممارسة تصرفاتهم اليومية في كل مناسبة «وكأن النظام الاجتماعي الطريقة التي تصور شخصيات الأفراد المختلفة، عندما تقبل وتترجم تعاليم الثقافة الخاصة بها، وتتعلم كيف تقوم بالممارسات المصدق عليها من الجماعة»[٢٧]، باعتبارها مبدأ تحقيق الذات، عن طريق الأمثال والشعر، أو السلوك في تقديم الطعام والكرم كما يحدده هذا البيت:

وإني لعبد الضيف من غير ذلّة
وما لي إلا تلك من شيم العبد[٢٨]

وبهذا تقدم المائدة معطيات ثابتة من المعتقدات، والقيم والتقاليد المتبعة والموروثة التي لا تتعدى ما يعتبر عريقاً مقدساً في نظر المجتمع.

الهوامش

١- يراجع ليفي ستراوس: الميثولوجيات: النيء والمطبوخ، من العسل إلى الرماد الإنسان العاري، الفكر المتوحش.

٢- يرى علي البطل: أن الهدف من رحلة الشاعر الجاهلي على ناقته الوصول إلى الشمس لنيل الخلود كما هو الحال في رحلة جلجاميش البابلية.

الصورة في الشعر العربي حتى القرن ٢ الهجري (دراسة في أصولها وتطورها) دار الأندلس بيروت ط١٩٨١/٢، ص١٢٣.

٣- محمد الجوهري: الأنثروبولوجيا (أسس نظرية وتطبيقات عملية)، ط١٩٨٢/٣، دار المعارف، بمصر، ص٤٥.

٤- عبد الملك مرتاض: السبع معلقات مقاربة سيمائية / أنثروبولوجية لنصوصها منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٩٨، ص١١.

٥- أحصى القلقشندي هذه المعتقدات وسماها: أوابد العرب، في كتابه صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج١، ص٣٩٨.

٦- إشارة إلى أن دماءهم تشفي من داء الكلب إذا سقيت للمصاب.

٧- أنور أبو سويلم: دراسات في الشعر الجاهلي، دار الجيل بيروت، دار عمّار، عمان. ص٩٠.

٨- تبالة: موضع ببلاد اليمن يضرب المثل بخصبه، الرذية: الناقة المتأخرة بالسير لضعفها. البلية: الناقة التي تشد إلى قبر صاحبها حتى موتها.

٩- لبيد بن ربيعة: الديوان، دار صادر. بيروت، ص ١٧٨.

١٠-عبد الملك مرتاض: السبع معلقات، ص٣٤٦.

١١-عروة بن الورد: الديوان، دار الجيل بيروت، دار عمّار، عمان،ص٣٥.

١٢-ينظر ابن قتيبة : الشعر والشعراء، دار الإحياء للعلوم، بيروت، ص٢٠٧.

١٣-دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي: تر. عبد الرحمان البدوي، دار العلم للملايين،

١٤-الجاحظ : البيان والتبين، ج١، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط١٩٦٨/٣. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ومكتبة الهلال بيروت، ص٢٧٥.

١٥-طرفة بن العبد، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر١٩٧٩، بيروت، ص٣٠/٢٩.

١٦-عنترة بن شداد: الديوان، تحقيق وشرح عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي، ط١/١٩٨٠، دار الكتب العلمية بيروت، ص ٢٤/٢٥.

١٧-محمد أحمد بيومي: الأنثرولوبوجيا الثقافية، الدار الجامعية للطبع. ١٩٨٣، بيروت، ص٢١٧.

١٨-منذر الجبوري: أيام العرب وآثارها في الشعر الجاهلي، منشورات وزارة الإعلام الجمهورية العراقية، ١٩٧٤، ص١٤٦/١٤٧.

١٩-الخنساء: الديوان، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط٨/١٩٨١، بيروت، ص٥١.

٢٠-حاتم الطائي: الديوان، دار صادر بيروت، ص٥٠.

٢١-زهير بن أبي سلمى: الديوان، شرح وتقديم علي حسن فاغور، دار الكتب العلمية، ط١/١٩٨٨، بيروت، ص٨٦.

٢٢-أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ج ١٢، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار الثقافة، بيروت، ص١٥٠.

٢٣-حاتم الطائي: الديوان، ص٤١.

٢٤-زكريا صيام :دراسة في الشعر الجاهلي، د م ج، ط٢/١٩٩٣. الجزائر، ص٣٢٤.

٢٥-فعل ذلك عبد الله بن جدعان، عندما أطعم الناس الفالوذج بمكة، وكان قد جاء به من فارس، وفيه قال أمية بن أبي الصلت مادحاً:

له داع بمكة مشْمَعَلّ

وآخر على دارته ينادي

إلى ردح من الشيزى عليها

لباب البُرِّ يُلْبَكُ بالشَّهَادِ

٢٦-الجاحظ : البيان والتبيين،ج١، ص١٧.

٢٧-د. محمد أحمد بيومي: الأنثروبولوجيا الثقافة، ص٢١٧.

٢٨-الأصفهاني: الأغاني ج١٤، دار الثقافة بيروت، ص٦٩.

حوار العدد

مع حمدان حمدان.. موسوعة ثقافية متنقلة

إعداد : عادل أبو شنب

حوار العدد



حمدان حمدان: موسوعة ثقافية

إعداد: عادل أبو شنب*

قــد يجلس عشر ساعات متواصلة ليقرأ أو ليكتب، مثقف فلسطيني أقام في سوريــة معظم سنوات عمره السبعين، حتى صــار معاوناً لوزير، وعضواً سياسيــاً في حركة الاشتراكيين العرب، لكن إنجازه الكبير، والأهم، هو تأليفه الكتب السياسية بخاصة، التي تتمحور حول هموم عربية راهنة، منها مأساة العــرب العراقيين، مما دعا أحد المتابعين إلى وصفــه بأنه موسوعة ثقافية متنقلة.

* باحث سوري

يسعدنــا أن يكون حــوار هذا الشهر مع الموسوعي حمدان حمدان:

الخروج من فلسطين

- المولد والنشأة والدراسة؟

• ولدت في العام ١٩٣٨ في مدينة طبريا الفلسطينية وكنت قــد اجتزت صف الأول ابتدائي، عندما بــات أزيز الرصاص ودوي القنابــل يهز أرجاء المدينــة ولم يكن عمري يسمح لي أن أفهم ما الذي يدور، لكنني كنت أتذكــر أحياناً جملة للحــاج أمين الحسيني ظل يرددهــا على مسامعنــا أستاذ العربية وهي تشـــدد على توكيد وطنـــي: «فلسطين عربيــة وستبقــى عربية لــو أطبقت عليها شعوب الأرض».

كان يعني بشعوب الأرض، أولئك اليهود الذيــن تجمعــوا فعلاً مــن شتــات شعوب الأرض، وأن المعارك دائرة بين الثوار العرب. والمستوطنين الغرباء.

كانت ولادتي في فلسطين التي هي ولاية من ولايات بــلاد الشام الكبرى، لكن نشأتي كانــت في سوريــة مركز الولايــات في بلاد الشام.

هاجرت مــع عائلتي والدتــي وأخوتي، حيث كان والدي مازال سجيناً في سجن عكا الشهير، لأسباب تتعلق باقتناء السلاح، حيث حكمت عليه محكمة إنكليزية في العام ١٩٤٧ مدة سبع سنوات لحيازته مسدساً حربياً مع طلقاته.

كان طريقنا الطويل كما أذكر، وفي سيارة شاحنة مع جموع عائلات أخرى، عبر الأردن ومن خلال جبل العــرب إلى دمشق وهناك توزعنــا في الضواحي، وكان نصيب عائلتي مــع خالتي وزوجها وأولادهــا.. أن نقيم في بيت عربي كبــير في قرية عربين، وبعد أقل مــن سنة، كان زوج خالتي يعمل كسائق على حافلة للركاب (مرجة-شيــخ) فتدبر أمرنا في الرحيــل من عربين إلى حــي قريب من جامــع الشيخ محي الديــن، وبعدها بأشهر قليلة تم الإفراج عــن والدي وأطلق سراحه مــن سجن عكا لظروف الحرب الدائرة بين العــرب واليهود، وقد التحق والدي بنا، بعد أن كابــد المشقة الكــبرى في استدلاله على مكان وجودنا

تحصيل العلم..

• بالنسبة لي فقــد ضاعت سنة دراسية كاملــة ، ولكن التعويض عن هذه السنة كان

مفاجأة بالنسبة لعائلتي حين أبلغتهم إدارة المدرسة بأنني أصلح أن أكون في عداد الصف الثالث ابتدائي بعد اختبار شخصي من الأساتذة.

وهكذا نشأت في مدارس دمشق الابتدائية والإعدادية والثانوية ثم إلى التحصيل الجامعي، حيث بقيت في مجال التربية والتعليم التابعة (للاونروا) مدة تسع سنين بعدها انتقلت إلى مجال العمل الحكومي في الوزارات والشركات وذلك لصلة اختصاصي بالعمل الحكومي كخريج تجارة- قسم المحاسبة.

قصتي مع التأليف

- ما هي قصتك إذن مع التأليف الكتابي؟

• أريد أن أحكي لك قصتي مع الاختصاص الجامعي، فكما هي العادة كنت أحمل أوراقي المطلوبة وأقف مع الصف المقابل لكوة الآداب في ديوان الجامعي، وكان ذلك في العام ١٩٥٨، وقد نظرت فألفيت جمعاً متجمهراً من أصدقائي -أصحاب البكالوريا الجدد- باتجاه كوة التجارة، فأقنعوني بصواب الاختيار، (لأن الشركات والوزارات تتعاقد سلفاً مع طلاب التجارة حتى قبل التخرج) غير أن ولعي الفطري كان دائماً في الأدب والشعر والتاريخ.. فآثرت أن أغادر ذلك الولع باتجاه اختصاص علمي يستجيب لضرورة العصر. وهكذا كان.. إلا أن انسجامي مع هذا الاختصاص كان ضعيفاً ولو أنني قطعت أربع سنوات التجارة بتقدير جيد إلا أن الانسجام ظل مفقوداً، ولهذا كنت في العطل الصيفية تراني مكباً على كتب التاريخ والسياسة بصورة خاصة، كما تراني مكباً على مطالعة الروايات العالمية والعربية، حتى أكاد أزعم، بأنه ما من كتاب جديد في مرحلته، سواء كان أدبياً أو سياسياً ، تاريخياً، إلا وهرعت لشرائه من حساب مصروفي الشخصي.

كانت قراءاتي للتاريخ العربي والإسلامي من كبريات اهتماماتي كما أنك تراني لا أقصر في قراءة تاريخنا الوسيط والحديث أما قراءة الكتب المتصلة بعصر النهضة ورموزها الكبار، كانت تنال مني واجب الجهد فضلاً عن قراءات فكرية فلسفية وسياسية وأدبية بأقلام عمالقة شغلوا العصر، ماركس وماوتسي تونغ وسارتر

وكافــكا وبريخت وهيغــل وهيدجر ونجيب محفــوظ والقدوســ والسباعــي وعفلــق ومصطفى السباعــي.. والمذكرات الصادرة عــن سياسيين كبار من أمثــال خالد العظم ومردم بك وأكرم الحوراني وحسنين هيكل.. إضافــة إلى آخرين أنستنــي الذاكرة إياهم على عظمتهم وعلو شأنهم.

هذا ما أخذني إلى العالم الآخر، أي العالم المضــاد للغة الأرقــام والمحاسبة، وفي رأيي فإن العالم الذي سبحت فيه، كان البحر وأما سواه فساقية..

- مـا هـي المناصب التـي تقلدتهـا وهل كان حلمك أن تتفرغ للكتابة؟

• كانت مادة الإنشاء العربي في الصفوف الإعدادية والثانويــة، تأخذنا إلى منافسات ساخنة يتبــارى فيها الطلاب ويشجع عليها أساتذة اللغة العربيــة، وأذكر موضوعاً عن العــدوان الثلاثي على مصــر، كان مطلوباً في الصف العاشر (ثانــوي)، وأن موضوعي في هــذا العنــوان، كان الأول، وكــم فرحت لقراءتــه من قبل أستاذ المــادة على مسامع الصــف، وبعــد أسبوع وجــدت أن الأستاذ نفســه يقرأه على مسامع طلاب المدرسة في



الباحة العامة، مع التصفيق والهتاف، ومنذ ذلك الحين قــررت أن أكتب في الموضوعات الساخنة ولم تبخل علي صحف ذلك الزمان، مــن نشر مقــالات لي أو خواطر، أذكر منها صحيفة الرأي العام ومجلة الدنيا وصحيفة الشام للمرحوم المرادي.

وظائف.. لا مناصب!

• فيمــا يتعلق بالمناصــب، فإنني أعتقد أنها وظائف وليست مناصب، فزمن التحاقي بمؤسسات الدولة كان في العام ١٩٦٥، وقد تسلسلت في المرتبة والراتب تسلسلاً طبيعياً مــن معاون رئيس شعبة إلى رئيس شعبة إلى

مدير قسم ثم إلى معاون مدير شركة صناعة الأحذيــة، ومنها إلى مدير شركة الصناعات التحويليــة فمعاون وزير الإنشــاء والتعمير لشؤون المعاهد والمراكز المهنية..

التفرغ للكتابة

• وقــد قدمــت استقالة مبكــرة، لهوى التفرغ للكتابــة، وأغضب عملي هذا الوزير المســؤول إلى درجة الخلاف، ثم بعد سنوات من استقالتي عــادت الصداقة إلى مجاريها بعد أن أصبح الوزير بنفسه متقاعداً مثلي.

موجز عن كل كتاب

- لـك عدة أعمـال، ماهـي الكتب التي عكفـت على تأليفها.. أعطنـي موجزاً عن كل منها، وما هو العمل الأهم بنظرك؟

• لــك أن تتصــور أن البدايــة كانت في كراسة بعنوان «إسرائيل ومخاطر تحويل نهر الأردن» عام ١٩٦٢ وكنت مازلت في صفوف الجامعة بعد، كانت فكرة العمل الصادر عن دار دمشق لصاحبها المرحوم أديب تنبكجي تدور حول نشاطات إسرائيل الميدانية لتحويل النهــر لإرواء صحراء النقــب بحيث تصبح إسرائيل مضاعفة في كل شيء، وقد شجعني علــى الكتابة كلٌّ مــن الأستاذين المرحومين أكرم الحــوراني وعبد الرحمن منيف، وجاء العمل ينطوي على ثلاثة فصول مع المقدمة وبحدود خمس وتسعــين صفحة من القطع المتوسط، أما سعر الكراسة فكان مئة وخمس وعشرون قرشاً سورياً (ليرة وربع) لا غير!..

كان الأصحــاب في مقهــى الكمــال أو الهافانا عندما يروني يضحكون ويصرخون (جــاء حمدان وتحويــل الأردن)!.. وبالفعل فقد ولد أول عمــل لي مع لحظته المناسبة، علماً بأن مشاريع المياه في منطقة بلاد الشام خاصــة وادي الأردن، ظلت محــل دراسات وملاحقات فنية من الوكالة اليهودية ووزارة البحر البريطانيــة (والأمريكية لاحقاً) منذ العام ١٨٥٠ كمــا تبين الدراسة مع المشاريع المصورة المرفقة.

التحولات الاجتماعية والطبقية

• العمــل الثاني كان بنــاء على طلب من مركز الأبحــاث الفلسطينية في بيروت وهو كنايــة عن بحث مطــول (خمســ وأربعون صفحة مطبوعة من القطع الكبير) بعنوان: (التحــولات الاجتماعية والطبقية في مصر وبــلاد الشام والخليج ما بــين العام ١٩٦٠ و١٩٨٠ وكإيجــاز للبحث، فقــد دار بصورة

أساسية حول ظهور (طبقة جديدة) لا هي رأسمالية ولا هي كادحة بالمعنى التاريخي لنشوء الطبقات، بل هي (طبقة جديدة) بمعنى ولادتها من رحم المؤسسة العسكرية الحاكمة مع أفلاكها الدائرة حولها أما في الخليج فقد انصب التحليل على دور الدولة (الخراجية أو الريعية) نظراً لقوة السلطة وضآلة السكان وموفور الثروة النفطية.. وقد نشر مركز الأبحاث هذا العمل قبيل غزو إسرائيل للبنان بأشهر قليلة ويبدو أنه كان من مصادرات الاحتلال الإسرائيلي لبيروت.

مئذنة أم جورج..

• العمل الثالث، ويتعلق بسؤالكم الخامس عن محاولاتي في مجال الرواية أو القصة، ثم لماذا انحزت إلى الكتابة السياسية فيما بعد؟

أقول، إن عملي الأدبي هذا، كان وليد مصادفة جمعت أصدقاءً من الفلسطينيين بأجيال مختلفة، ويبدو أن النقاش كان يدور -كالعادة- حول الاتجاهات السياسية الرئيسية في المنطقة، وأعني بذلك الاتجاهات الإسلامية والقومية والشيوعية..

ويبدو أن أحد الأصدقاء الحضور، وهو من جيل أكبر، انفرد برواية واقعية من تاريخ دراسته في إحدى مدن الولايات المتحدة (هندسة بترول)، وكان من جملة ما روى أن امرأة فلسطينية مسيحية من القدس كانت قد هاجرت مع منتصف الأربعينيات مع عائلتها إلى الولايات المتحدة، كان الطلاب العرب يعتقدون بأن هناك مسجداً في المدينة، لسماعهم صوت الآذان وسورة آل عمران من المقرئ المحبوب عبد الباسط عبد الصمد، وخطر لأحدهم أن يفتش عن موقع هذا المسجد، فإذا هو بيت السيدة الفلسطينية.. كانت تستمع إلى صوت الآذان من بيت المقدس وأصوات قرع الأجراس في كنائس بيت لحم على مسجلة وبصوت عال أحياناً حيث تعاني من شيخوخة السمع، وقد خطر لي أن أزود هذه الحكاية بزاد روائي تفصيلي مُتّخيل فخرجت قصة قصيرة مع مجموعة قصصية مرافقة بعنوان: مئذنة الخالة أم جورج وقد نالت جائزة مسابقة القصة القصيرة من دار البعث.

الخليج بيننا..

• العمل الرابع، هو كتابي الكبير بعنوان

الخليج بيننـــا- قطرة نفط بقطرة دم- وهو كتــاب وثائقي يمتــد إلى تسعمئـــة صفحة من القطــع الكبير.. ويتعلــق بالحرب التي شنّت على العراق وهـــي ما سميت بعاصفة الصحراء.

عقود من الخيبات..

• العمــل الخامـــس، وهو مـــن فصائل الكتب الكبيرة بعنـــوان عقود من الخيبات- لماذا وصلنا إلى هنا؟!

وهو كتاب سردي تاريخي وتحليلي يتناول مسافة زمنية طويلة من ثورة الشريف حسين وحتى خروج منظمـــة التحرير الفلسطينية من لبنان، وقد قــرأ المرحوم الشاعر الكبير محمد الماغوط الكتاب وكانت تحيته لي كما قــال (من أجل العبــارة الأخيرة في الكتاب) حيث تقول: (لقد بذلــت الجهد ما أمكنني الجهد، لكنني أقــول أخيراً، لقد كتبت قدر ما أجرؤ لا قدر ما أعرف!..).

أكرم الحوراني

• عملي السادس ويتعلق بمرحلة سياسية من تاريخ سورية وقد تضمن السيرة الذاتية والكفاحية للمرحوم الأستاذ أكرم الحوراني منـــذ الأربعينيـــات وحتـــى رحيلـــه أواسط التسعينيـــات وكان الكتـــاب بعنـــوان (أكرم الحوراني رجل للتاريخ).

اغتيال التاريخ

• العمــل السابــع، كان رداً بكتاب كامل على كتاب رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق نتنياهو.

كان كتابــه بعنوان (مكان تحت الشمس) يزخـــر بحشو الأساطير التـــي فندها كانت فرنسي كبير هـــو روجيه غارودي، أما كتاب ردي فجـــاء بنحو أربعمئة صفحة من القطع الكبير بعنـــوان (اغتيال التاريخ) وقد رحبت أوساط عربية وفلسطينية بهذا العمل المشبع بالوثائق (الاركيولوجية) والتاريخية.

في عملـــي الثامن، كان المحور الأساسي، يدور حـــول تاريخ الاندمـــاج اللاهوتي بين المسيحية الأمريكية واليهودية التوراتية، وقد حفل العمل بشواهـــد منذ رحيل (البيورتان الإنكليزي) الذي هـــو مكافئ البروتستانتية الألمانيـــة، إلى الشاطـــئ الشرقـــي للقـــارة الجديدة (أمريـــكا)، وكيـــف أن البيورتيان من الرواد الأوائل، كانوا يعتقدون بأنهم من نسل موسى، وأن المحيط الأطلسي هو البحر الذي شقه موسى بعصاه، وأنهم هم عبرانيو

المرحلــة الجديدة وأن السكان الأصليين من الهنود الحمـــر هم شعب كنعان.. وقد أطلق العديد من الرؤساء الأمريكيين اسم إسرائيل الجديدة على الدولة الأمريكية.

وقد جــاء الكتاب بعنــوان: على أعتاب الألفية الثالثة.

ثمن الخروج من النفق

• كتابـــي ما قبــل الأخـــير، كان بعنوان: العــراق وثمن الخـــروج من النفـــق، ويدور موضوعـــه حول غزو العـــراق واحتلاله من الولايـــات المتحـــدة، ويرتكز محـــور الكتاب علـــى مقولة تفيد بأن العراق غُزي لأنه كان صاحب مشروع نهضوي وتحديثي تجلس في نشاطات بنيوية صناعية وزراعية وخدماتية وعسكرية.. تماماً مثلما تم إحباط مشاريعنا التاريخية بدءاً مـــن إصلاحات محمد علي باشا مـــروراً بمرحلة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وانتهاء بالعراق.

حرب بوش التاريخية..

• أما عملي الأخير، فكان بعنوان: حرب بوشـــ التاريخية بـــين خسارة اليـــوم المبكر أو كارثـــة الغـــد المتأخر، وهـــو زاخر بآيات وشواهد مـــع السياق التحليلي لأربع سنوات من احتلال العـــراق، وقد صدر الكتاب عن دار الخيّال اللبنانية منذ أقل من عدة أشهر تقريباً.

- كتابـك الأخـير أشبـه بموسوعـة فهـل كانـت أعمالك الأخرى علـى الشاكلة نفسها؟

• تعلمت منذ اقتراني بعالم السياسة، ومن خلال صحبة الكبار من أمثال الأساتذة الياس مرقصـــ وإحســـان مرّاش وعبـــد الرحمن منيف وياسين الحافظ وغيرهم ممن تلقيت على أيديهم براعم التفتح والتنوير، أن أكون دقيقاً فيما أكتب، وأتحدث كذلك في الموعد والمواعيد.. وكان جلّ هـــؤلاء الأساتذة بمن فيهـــم أساتذتنا في الجامعة، يحرصون على قيمـــة الكلمة، مايُقال ومـــا يكتب، وكان من جملة دروسي المستفادة أن الكتابة السياسية والتاريخية والعلمية.. يجب أن تربط بوثيقة أو برهـــان عقلـــي ومنطقـــي.. لا أن تطلق المعلومـــة علـــى عواهنها على شـــكل دعاية وارتجال..

فيما يتعلق بأعمـــالي السابقة وهل هي علـــى ذات السّويـــة مع كتابـــي الأخير، فإن المـــرء يزداد خبرةً وتطـــوراً مع مرور الزمن،

وقد سبق أن كتاباتي كانت في أزمنة مختلفة ومواضيـع متغايرة، وأنا مقتنـع أنني كنت اقـدم واجبي رغم ماقد ينتاب هذا الواجب من عيوب ونواقص.. إنني أحتفظ بحكمة سبق لسيدنا علي بن أبي طالب أن قالها ذات يوم: «ليس كمن يطلب الحق فيخطئ كمن يطلب الباطل فيصيب».

المستقبل..

- ما هي مشاريعك الكتابية في المستقبل؟

• فرغت للتو من إصدار كتابي الأخير (حرب بوش الديمقراطية) وكما رأيت فإنه كان حاصل جهد ليس بالقليل، فلمدة أربع سنوات كاملة وأنا أدون مجريات الاحتلال في العراق بصورة شبه يومية، لا من الإعلام الظاهر أو الدراسات المطبوعة، بل من الوثائق السرية ومعلومات مراكز الدراسات الغربية عموماً وفي مقدمتها مراكز الدراسات الأمريكية، كما أن العمل انطوى على جهد تاريخي عاد بأثره الراجع إلى المراحل العباسية والبويهية والصفوية والقاجارية.. وكلها مراحل لا بد من استحضارها كي نفهم طبيعة الخلطة العراقية القائمة حتى زمننا المعاصر فيما يتعلق بمشروعي المستقبلي، فإنني أفكر أن أخوض مع الخائضين في استرجاع عصر النهضة أواسط القرن التاسع عشر مع تغويم خاص لرزمة الأفكار التي شاعت ثم تحولت على أيدي كبار رواد النهضة من الشيخ رفاعة الطهطاوي مروراً بالشيخ الأفغاني وتلميذه النجيب الشيخ محمد عبده، وما حفلت به نظرية الإصلاح الديني كمقدمة لولوج النهضة، ثم انتقالاً إلى رواد النهضة عن طريق الخطاب العلماني الذي قدمه كل من الرواد شبلي الشميّل وفرح أنطون وعلي عبد الرازق وسلامة موسى ولطفي السيد وطه حسين.

أما الفكرة الأساسية وراء البحث، فإنها تقع في مملكة السؤال، إذ لماذا لم يتطابق الواقعي مع العقلاني، بكلام آخر: لماذا لم تتحقق مشاريع النهضة، إسلامية أو قومية أو ليبرالية وقبلها يسارية مع واقعنا الفعلي رغم مرور ما يناهز قرناً ونصف قرن من الزمن.

فلا الدولة العربية الواحدة (ساطع الحصري وقسطنطين زريق) قد تحققت، ولا دولة الأمة الإسلامية (حسن البنا وسيد

قطب) قد قامت، ولا دولة الهلال الخصيب (أسد الأشقر وأنطون سعادة) قد ولدت، ولا فلسطين تحررت ولا ديمقراطية بزغت ولا عدالة قامت.. فالنهضة مازالت تكبو نكوصاً من الماضي إلى الحاضر والتبعية لا نستطيع منها فكاكاً.. وتالياً فإنه يجب البحث في مكان آخر، عن العلل الصادّة لمشروعنا النهضوي قد يكون من المبكر بالنسبة لي، أن أضع جواباً سحرياً عجز عن كماله كبار أساتذتنا من رواد النهضة، إلا أنني أجد احتمال فتح الباب على مقدمة مغايرة للتنوير ليس بالأمر المستحيل.

خيار مكاني للكتابة..

- أعرف أنك تقضي معظم أوقاتك الكتابية في المقهى، فأنت تحمل مراجعك على ثقلها وتعود بها، فلماذا هذا الخيار المكاني للكتابة أو المطالعة؟!

• قد يكون ذلك إلى النشأة في مرحلة المراهقة، فنحن كما تعلم أستاذ عادل، من جيل المقاهي المنتشرة في مدينة دمشق سنوات الخمسينيات والستينيات، وقد كان للمقهى كما أتذكر عدة أدوار اجتماعية وسياسية ومناسباتية، ففي مقهى الرشيد (سابقاً لونا بارك) وسط شارع ٢٩ أيار قريباً من المركز الثقافي الروسي الآن، كان تأسيس حزب البعث العربي، ومقابله على الزاوية المقابلة وفي عيادة الدكتور مدني الخيمي سابقاً، كان تأسيس حزب العربي الاشتراكي، وفي المناسبات الانتخابية للمجلس النيابي، كانت تقام الاحتفالات في المقاهي حسب ميول أصحاب المقاهي السياسية، أما مقهى الروضة مثلاً، فكانت سينما صيفية للعامة، ثم تحولت إلى مقهى يؤمه رجال من الطبقة السياسية والرسمية بعد أفول نجم المقهى البرازيل الشهير.

لقد اعتدنا في شبابنا السياسي المبكر أن نزدلف إلى هذه المقاهي للجلوس بالقرب من كبار رجال الأحزاب أو الكتل المعروفين، وكان يصادف أن الانشغال بالدراسة كان يترافق مع هوى الذهاب إلى المقهى، فنقرأ حيناً، ونستمع حيناً آخر، ومن هنا نشأت لدي عادة القراءة في المقهى، إنني أترنم بأصوات الجلوس ولا تزعجني الضوضاء لأنني لا أنتبه إليها، وصدقني أنني لا أستطيع القراءة أو الكتابة في بيت هادئ. قد يكون لدواعي مكاني الكتابي، عامل آخر وهو

أنني كفلسطيني لم أكن أجد الأجواء المناسبة للقــراءة في بيت صغـير لعائلــة متوسطة، فقد عكـف جيلنا الفلسطيني على الدراسة خارج البيت، ربما في الحدائق العامة وأكثر منهــا في المساجد، فقد قطعــت شطراً من عمري الدراســي في صحن المسجد الأموي الكبير كذلــك كان يفعل معظم أصحابي في المدرسة.

للكتاب دور

- أعـرف أنك تنفق مـن دخلك المحدود ميزانيـة معقولة لشراء الكتـب واقتنائها، فهـل تعتقـد أن الكتاب ما زال يـؤدي دوره في الثقافـة أمام جائحة الإنترنت وغيره في ثورة المعلوماتية؟

• لقد انفطــر جيلنا علــى دور الكتاب وأهميتــه في المجالات التربويــة والتعليمية والثقافية.. ذلك كان مصدرنا الوحيد لنهل العلم وتنميــة الإدراك والإحاطة بشيء عن كل شــيء، التاريخ، الاقتصــاد، الطبيعة.. ومــا زلــت أعتقد كمــا يقــال، إن الكتاب خير جليس، فأنت تجلســ أمام الكومبيوتر لساعــات فيمــا تتطايــر الموضوعــات من ماكدونالد إلى غزو المريخ، وما بينهما علوم العصر من الاستنساخ إلى الهندسة الوراثية إلى الحركة فالسرعة فالضوء (وقياس حجم الكــون!..) ثم إنك تستطيع أن تسأل الجهاز (محرك غوغل مثلاً) عن أي شيء كان بحكم المستحيــل الإجابة عليــه أو معرفته بثوان معدودة.. كل ذلك صحيح، غير أن المطالعة في كتاب تأخذ منحىً مغايراً لوحدة الموضوع واستهداف المقصد، هل تراك تقرأ قصيدة للمتنبــي في كتاب كما تقرأهــا على شاشة الجهاز؟! لا أظن أن المتعة ذاتها.

قد يكــون رأينا هذا في محل تعارض مع حداثة العصر، لكن ما العمل إذا كنا نؤثر أم كلثوم القديمة على أي مطربة من مطربات هذا العصر.

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي — إعداد: أحمد الحسين

كتاب الشهر

أبعاد النص النقدي عند الثعالبي — إعداد: محمد سليمان حسن

آخر الكلام

نصير الثقافة — رئيس التحرير

متابعات



صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين*

مكتشفات أثرية:

أعلنت دائرة آثار الحسكة نتائج عمل البعثات الأثرية التي قامت بالتنقيب الأثري في محافظة الحسكة خلال عام ٢٠٠٧ حيث وصل عددها إلى ١٩ بعثة أثريـة منها ثلاث بعثات وطنية وسبع بعثات وطنيـة وأجنبية مشتركة وتسع بعثات أجنبية.

وأوضح رئيس دائرة آثار الحسكة أن من بين نتائج هذه البعثات ما تم

* أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

العثـور عليه في تل مبطـوح شرقي من قبل البعثة الأثرية السورية حيث دل الكشف عن أبنية سكنية مبنية مـن اللبن وقناة حجرية لتصريـف الميـاه تعـود إلى الألـف الثالث قبل الميلاد إضافة إلى عدة تنانير وأحواض جصيـة دائريـة وبيضويـة ومعصرتـين بيضويتين وقبور فردية لأطفال وفرن.

ومـن اللقى الأثريـة المكتشفة في هذا الموقع أوان فخارية وأدوات برونزية وصوانية وخرز حجري ودمى حيوانية وأجزاء من دمى إنسانية إضافـة إلى عربات ودواليب وجزء من تمثال صغير مـن القصدير يمثل غزالاً وثقالة نسيج من الالباستر وساحقات حبوب ومدقات وأجران مصنوعة من البازلت.

وفي تل طابان بالحسكـة كشفت البعثة الأثرية اليابانية خلال الربع الأخير من العام الماضـي أجزاء من عمارة تعـود إلى الفترة الهلنستية وجداراً ضخماً وأرضية مرصوفة بحجـارة تعود إلى الفترة الآشورية الحديثة، كما تم التعرف على أجزاء من القصر العائد إلى الفـترة الآشوريـة الوسيطة الذي كشف عن أجزاء منه في المواسم السابقة.

وأشارت دائرة آثار الحسكة في تقريرها حول نتائـج البعثـات الأثريـة العاملة في المحافظـة إلى أن مـن أهم اللقـى الأثرية التـي عثرت عليهـا البعثـة اليابانية تمثال برونـزي مغطـى جزئياً بالفضـة يعود إلى الفـترة الآشورية الحديثـة وعلى مجموعة من الرقم المسمارية بعضها يعود إلى الفترة البابلية القديمة والآخر إلى الفترة الآشورية الوسيطة.

وفي الرقة عثرت البعثة الأثرية الهولندية العاملـة بموقع تل الصبـي الأبيض شمال مدينة الرقة خـلال موسمها التنقيبي العام الماضي على جدران وتنانير وغرف وقبور من الفترة الآشورية الوسيطة وعن قطع فخارية تعود لفترة حلف مزينة بأشكال هندسية في غاية الإبداع والجمال.

وذكـر مدير دائرة آثـار الرقة أن البعثة تعمل بالموقع المذكور منذ عام١٩٨٤ وكان أهم مكتشفات البعثة خـلال مواسمها التنقيبية الماضيـة العديد من الغـرف الدائرية ذات الزوايا والتي تعتبر أقـدم وأسبق من غرف أريحا بفلسطين بألف عام إضافة إلى الرقم الطينيـة التي هـي عبارة عـن رسائل من ملوك العـالم القديم تطلب من صاحب هذا الحصن الآشـوري القديم الذي أطلق عليه أشور دنو تزويدهم بالبيرة /الجعة/ كونه قد

تم اكتشــاف معمل لصناعة البيرة في الموقع المذكور.(١)

مؤتمر للغة العربية في (أبو ظبي):

احتضنــت العاصمة الإماراتية أبو ظبي فعاليــات مؤتمر اللغــة العربيــة والتعليم، رؤيــة مستقبليــة للتطويــر، الــذي نظمه مركــز الإمــارات للدراســات والبحــوث الإستراتيجية.

وناقش خبراء اللغة في هذا المؤتمر واقع اللغــة العربيــة والتحديات التــي تواجهها وكيفية النهوض بهــا، مؤكدين أن ما تعانيه لغة الضاد مرده إلى ضعف الوعي السياسي العربي الراهن الذي أشاع نوعا من التكابر على لغتنا الأم لصالح لغات أخرى.

وألقى وزير التربية والتعليم بالإمارات في كلمته الافتتاحية باللوم على وسائل الإعلام بما تبثه مــن مواد وبرامج تعــزز اللهجات الدارجــة، واستخدام لغــة منفرة في برامج ومــواد اللغة العربية، وأكــد أن بيئة التعليم التي لا تشجع المتعلم وقلة المحفزات المادية والمعنوية إضافة إلى العولمة التي دفعت نحو تدريس الأبناء للغات الأجنبية، وقلة مصادر الدعم الأدبــي واللغوي مــن مكتبات ودور مطالعة تعد من أهم التحديات التي تواجه تعلم اللغة العربية.

وشدد الوزيــر الإماراتــي على ضرورة التنسيق بين المؤسسات التربوية والمؤسسات المجتمعيــة الأخــرى مــن جهــة، والتعاون الإقليمي بين كافة المؤسسات التربوية بالدول العربية من جهة أخرى، للحد من التأثيرات السلبية لظاهرة العولمــة على الهوية واللغة العربية.

وأشار أستــاذ المناهج وطرائق التدريس في جامعــة المنصــورة د. رشدي طعيمة إلى مراحل موت أي لغة بقوله: إنها تبدأ بالضغط الشديد على اللغــة الأم نتيجة سيطرة لغة أخرى ثم التحدث باللغة الجديدة لضرورات الحياة، وأخيراً تحدث الجيل الجديد باللغة الجديدة باعتبارها لغته الأولى، لافتاً إلى أن الانفصــام اللغوي في مجتمع يعد دليلاً على انفصام الثقافة فيه، وطالب بتطوير مناهج تعليم اللغة العربيــة بحيث لا يكون التركيز في تعليمها على المفاهيم النحوية والصرفية وإنما بإفساح المجال للجانب الوظيفي فيها، مشيراً إلى ضــرورة تدريس اللغات الأجنبية ولكــن دون مزاحمتها للغــة الأم بحيث يتم وضع حد لاستخدامها.

من جهة ثانيــة ركز الأستاذ المشارك في

جامعة الملك سعود د. أحمد مطر العطية في ورقته على مزاحمة العامية للفصحى في المؤسسات العلمية والثقافية، وما تتعرض له اللغة العربية من هجمة شرسة على حد قوله، واتهامها بأنها لا تصلح لغة علم وعقل، ودعا إلى سن القوانين لإلزام كافة المعلمين بالالتزام باللغة العربية الفصحى في التعليم، إضافة إلى تعميمها على وسائل الإعلام باعتبارها البيئة اللغوية للمجتمعات كافة.

وعن دور مجامع اللغة العربية دعا د. علي أبو زيد معاون وزير التعليم العالي لشؤون البحث العلمي في سورية إلى إعادة النظر في إمكانيات هذه المجامع وصلاحياتها التي رأى أنها لا توازي المهمة الموكولة لها، واقترحت الأستاذة المساعدة في جامعة الإمارات د.لطيفة النجار أن تتم إعادة النظر في سياسة القبول بأقسام اللغة العربية، وأن يتم وضع خطة تدريب واضحة لتدريب المعلمين ميدانياً، والاهتمام بوضع تلخيص لمهنة التعليم يجدد كل فترة، وإعادة هيبة المعلم بالمجتمع.

إضافة إلى ذلك فقد دعت المناقشات إلى ضرورة إدخال التكنولوجيا في تعليم اللغة العربية، والتسويق للتدريب اللغوي بواسطة المسابقات، ورفع الوعي السياسي بأهمية اللغة العربية ودورها في إصلاح المجتمع.(٢)

مكتبة متخصصة للأطفال بالسعودية:

تم في مدينة جدة بالسعودية تدشين أول مكتبة متخصصة في تقديم الكتب للأطفال بالسعودية بمدينة جدة، أطلق عليها اسم مكتبة الكتاب الصغير وتضم أكثر من ١٥ ألف كتاب باللغتين العربية والإنجليزية وبعضاً من الكتب الفرنسية الموجهة للأطفال حتى سن ١٢ عاماً.

وتهدف مكتبة الكتاب الصغير إلى خلق جيل مثقف محب للقراءة من خلال الكتب الورقية التقليدية بعيداً عن الكمبيوتر والأقراص المدمجة DVD وذلك بهدف إعادة الترابط والمشاعر المتبادلة بين الكتاب بأوراقه والقارئ، بعد أن شاع انتشار ألعاب الكمبيوتر والمناهج المدرسية المدمجة في أقراص، الأمر الذي يخشى معه انقراض تلك المشاعر إثر التعود على تقنيات التعليم الحديثة.

وتضم المكتبة أنواعاً مختلفة من كتب وقصص الأطفال الخيالية والعلمية

والتثقيفيـــة إضافـــة إلى كتـــب تساعد على تنميـــة مواهب وإبداعـــات الطفل وتساعده في الإبحار عـــبر صفحاتها لتشبـــع هوايته أو إبداعـــه أو تساعد علـــى خلقها، كما يتم تخصيصـــ يوم في الأسبوع لتشجيع الصغار علـــى القـــراءة والاستماع للقصـــة بحضور قاصة تقص لهم حكايات وقصص باللغتين العربية والإنجليزية.[٣]

كنوز من مجموعة ناصر الخليلي:

أقيـــم في فندق قصـــر الإمارات معرض الفـــن الإسلامي «كنوز مـــن مجموعة ناصر الخليلي» التي تعتـــبر أضخم مجموعة للفن الإسلامي في العالم، حيث يعتبر هذا المعرض الأول من نوعه لمجموعة الخليلي في منطقة الشرق الأوسط ويتضمن أعمالاً يتم عرضها للمرة الأولى.

وتضمـــن المعرض أكثر مـــن ٥٠٠ قطعة فنية نادرة تغطي ثمانية محاور منها الإسلام والقـــرآن الكـــريم والصلاة والحـــج والعلم والتعلّـــم والاقتباســـ والتجديـــد في العهود الإسلاميـــة الأولى وروائع بغـــداد والعصور الوسطـــي وإقلاع العنقـــاء والمغول وعصور الخانـــات والمماليـــك وآل تيمـــور وعصـــر الإمبراطوريات العثمانية والصفوية والمغولية وأســـرة الكوجار، كما تضمـــن مجموعة من أرقى النمـــاذج الفنية كالمنسوجات والخزف والسجـــاد والكتـــب والمجوهـــرات والقطع النقديـــة والرسومـــات والمنحوتات والتحف المعدنية والتحف الزجاجية والمخطوطات.

وتعود هذه الكنوز والمقتنيات إلى مناطق متنوعة تمتد من الشـــرق الأقصى والصين والهند وإيران مروراً بمنطقة الشرق الأوسط وشمـــال أفريقيا وإسبانيا، وقد تم المعروض منهـــا بعناية بحيث تتبـــع مسيرة تطور الفن الإسلامي علي مـــدى ١٤٠٠ عام، كما أنها تغطي عدة محاور منها الدين والعلوم والشعر والأدب والخـــط والرسم والعمارة بالإضافة إلى الفنون الزخرفية.[٤]

تعليم العربية في فلوريدا:

تستعد مكتبـــة البابطين المركزية للشعر العربي لإنشاء مركـــز البابطين لتعليم اللغة العربية في جامعة «ايكرد» في ولاية فلوريدا الأميركية.

وقال رئيســـ مجلســـ إدارة المكتبة عبد العزيز سعـــود البابطـــين: إن المركز يهدف إلى تدريســـ وتعليـــم اللغة العربيـــة لفئات متعددة الأعمـــار ومراحل مختلفة من طلبة الجامعـــات الأميركية ويتوقـــع أن يخرج في

مراحلــه الأولى ١٠٠ طالــب وطالبة سنوياً، وأضــاف أن مناقشات ولقــاءات جرت منذ فترة بين المكتبة وبين مسؤولين من الجامعات الأميركيــة تم خلالها التوصل إلى اتفاق يتم بموجبه السماح بإنشــاء مركز لتعليم اللغة العربية هنــاك يتيح للطلبة الأميركيين أخذ دروس في علوم العربية تفيدهم في دراستهم وفي حياتهم العامة.

وأشار البابطــين إلى أن المبادرة حظيت بترحيب من الجانــب الأكاديمي الأميركي، وأنه تم بذل جهود حثيثة في متابعة الموضوع لتحقيق هذا الطموح الذي ستكون له أصداء إيجابية في الغرب، مؤكــداً أن هذه المبادرة تأتي لتعميق وتفعيل رسالة المكتبة في خدمة اللغــة العربية مشــيراً إلى أن المركز سيبدأ أعماله في الفترة القريبة المقبلة.

من جهــة أخــرى أعلــن البابطين عن برنامــج جديد يجــري التجهيز لــه حاليا يهــدف إلى تعليم اللغة العربيــة لطلبة من الولايــات المتحدة ولكــن في الكويت، وقال: إن المكتبة تستعــد لاستقبال نحو ٢٠ طالباً وطالبة من أمــيركا خلال عام ٢٠٠٩ لتلقي برنامج متطور خاصــ بتعليم اللغة العربية لهــؤلاء الطلبة الذين تتنــوع اختصاصاتهم الدراسية ما بين طلبة دراسات شرقية وعلوم سياسية وآخرين من العاملين مع هيئة الأمم المتحدة.

وأشــار البابطــين إلى أن البرنامــج لن يقتصر علــى الشكل الأكاديمي للتدريس بل أعــدت المكتبة للطلبــة الزائريــن برنامجاً ثقافياً متكاملاً يجري خلاله تعريف الطلبة بالمعــالم الثقافيــة في الكويــت ومؤسساتها التعليمية بحيث يجــري التنسيق بشأنه مع مركــز البابطــين للغة العربيــة في فلوريدا ووزارة الإعلام.

وأكــد البابطين حرصــ المكتبة على أن تؤدي دوراً حقيقيــاً في خدمة اللغة العربية وانتشارها ولهــذا تم إعداد البرنامج بشكل علمــي مدروس بحيث يستفيــد الطلبة من الفــترة الدراسيــة استفادة كاملــة وبشكل محبــب يليق باللغــة العربيــة الأصيلة التي تستحق من الجميع كل هذه الجهود، لافتاً في الوقــت نفسه إلى أهمية اللغات في التواصل الحضاري بين الشعوب ودور هذه اللغات في الاستفــادة المتبادلة من التجارب الحضارية والعمــل على تحقيــق مفهوم الحــوار بين الحضــارات وفق مفاهيــم واضحة لا لبس فيها.(٥)

ملتقى حول الآثار بالجزائر:

أقيم في العاصمة الجزائرية الملتقى الدولي حول سرقة الآثار وتهريب التحف الأثرية كظاهرة تنافي الأخلاقيات والأعراف والقوانين الدولية ذات الصلة.

وأوضحت وزارة الثقافة الجزائرية أن الملتقى الثقافي والقانوني شهد مشاركة عدد كبير من خبراء الآثار والقانونيين من داخل الجزائر وخارجها بغرض دراسة ظاهرة سرقة التراث والآثار التي استفحلت أخيراً وسط غياب تنسيق دولي لمواجهة هذا الخطر الذي يستهدف هوية الشعوب والحضارات وتاريخها.

وأضافت أن الملتقى الدولي يأتي في إطار فعاليات الجزائر عاصمة الثقافة العربية فضلاً عن كونه يؤكد حرص الجزائر والتزامها أمام الرأي العام الوطني والدولي على محاربة هذه الجريمة التي تجاوزت آثارها السلبية حدود الدول وأصبحت ظاهرة عالمية تشكو منها العديد من البلدان المتضررة والمنظمات الدولية المختصة.

وأوضحت الوزارة أن الملتقى يهدف إلى تحقيق جملة من الأهداف أهمها وضع تصور دولي لمواجهة هذه الظاهرة واعتماد أسلوب جديد للتنسيق والتعاون بين مختلف الدول ولاسيما المتضررة لمواجهة خطر التهريب الذي طال التراث الثقافي والكنوز الثقافية للكثير من الدول والشعوب وتبادل الأفكار والتجارب في مجال حماية التراث والآثار.

وأكد المهتمون في وزارة الثقافة الجزائرية أن الجزائر تخوض منذ فترة حربا فعلية ضد شبكات تهريب الآثار والتحف الأثرية من جهات مختلفة مشيراً إلى نجاح فرق حماية التراث التابعة للجمارك الجزائرية في استرجاع ٤٥٢٧ قطعة من التحف الأثرية المسروقة التي حاولت شبكات التهريب تهريبها، وأن الجزائر أنشأت جهازاً تابعاً للشرطة مهمته مكافحة سرقة الآثار يضم نخبة من العناصر المتخصصة في علم الآثار حيث يتكفل بتوفير الحماية اللازمة للمعالم التاريخية والأثرية بسبب تزايد هذا النوع من الجرائم في السنوات الأخيرة في الجزائر.

يذكر من جهة أخرى أن الجهات المعنية بالآثار في الجزائر تقوم حالياً بتنفيذ عملية إحصاء شاملة لما تزخر به من آثار تنتمي إلى مختلف الحقب التاريخية وإعداد

برنامج معلوماتي يشمل المواقع الأثرية في مختلف أنحائه في إطار جهود تدعم أجهزة الجمارك والشرطة لتطويق ظاهرة سرقة التحف الأثرية الجزائرية.[٦]

العربية بين لغات الإنترنت:

تقدم مستخدمو الإنترنت الذين يجيدون اللغة العربية للمرتبة الثامنة عالمياً ضمن العشر لغات الأكثر استخداماً للإنترنت حيث كانت اللغة العربية حتى وقت قريب تحتل المركز الأخير، جاء ذلك ضمن موقع إحصائية شبكة الإنترنت العالمية، حيث بلغ إجمالي المتحدثين باللغة العربية حسب إحصائية الموقع ٣٥٠، ٩٦٥، ١١٩ مليون شخص بينما بلغ مستخدمو الإنترنت منهم ١٤٠، ٣٥٩، ٤٦ مليون مستخدم.

ومن الملاحظ أن متحدثين باللغة العربية يتفوق عددهم على العديد من اللغات وبنسبة كبيرة مثل اللغة البرتغالية التي تحتل المرتبة السابعة وكذلك الألمانية واليابانية، وهذا يدل على أن مستخدمي الإنترنت ممن يتحدثون اللغة العربية بإمكانهم أن يتقدموا إلى مراكز أفضل في الأشهر القادمة. وترتيب الخمسة مراكز الأولى هو: الإنجليزية، الصينية، الإسبانية، اليابانية، الفرنسية.

وأشارت إحصائية قام بها موقع إحصاءات الإنترنت العالمية إلى أن آسيا تصدرت إجمالي مستخدمي الإنترنت حسب إحصائية ديسمبر ٢٠٠٧، حيث بلغ إجمالي مستخدمي الإنترنت في قارة آسيا ٤٧٦، ٤٥٩ مليون مستخدم وجاءت أوروبة في الترتيب الثاني بإجمالي مستخدمين بلغ تقريباً ٨٧٨، ٣٣٧ مليون مستخدم وأمريكا الشمالية في المرتبة الثالثة من حيث عدد المستخدمين ٧٨٨، ٢٣٤ مليون مستخدم، ثم أمريكا اللاتينية والكاريبي ٧٥٩، ١١٥ مليون مستخدم، وجاءت إفريقيا خامساً بـ ٧٠٠، ٤٣ مليون مستخدم.

ويلاحظ أن اللغة العربية هي أكثر اللغات تحسناً في عدد المستخدمين حيث تضاعف عدد المستخدمين بحوالي١٠ أضعاف ما بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٧م.

الجدير ذكره أنّ ما نسبة حوالي ٦٠٪ من مستخدمي الإنترنت في العالم العربي موجودون في منطقة الخليج العربي، ويمكن ملاحظة أنّ النسبة الأعلى هي لدول الخليج العربي حيث تكون تكاليف شراء الكمبيوترات واشتراك الإنترنت أقلّ بكثير من الدول الأخرى، بالإضافة إلى كون الكثير

من هذه الدول تواكب التقنية بشكل مستمرّ وتقوم بتطوير البنية التحتية للإنترنت، بينما تنخفض النسبة بشكل ملحوظ في الدول الإفريقيّة، مع وجود العراق كحالة خاصّة بسبب الأوضاع السياسيّة فيه.

وبالنسبة لأعلى ٢٠ دولة التي يوجد فيها أكبر عدد من مستخدمي الإنترنت في العالم في عام ٢٠٠٧، فإنّ خطوات الدول العربيّة تبدو خجولة، حيث لم تصل أيّ منها إلى هذه اللائحة. وحصلت الولايات المتحدة الأميركيّة على المرتبة الأولى بعدد ٢١١,١ مليون مستخدم (من أصل ٣٠٢ مليون مواطن)، بينما كانت المرتبة ٢٠ من نصيب الأرجنتين بعدد ١٣ مليون مستخدم (من أصل ٣٨,٢ مليون مواطن).

ومن المعوقات التي تحدّ من تقدم الإنترنت في العالم العربي وترقيته إلى المستويات العالميّة: البنى التحتية حيث توصلت دراسة أجريت في مصر إلى أنّ تكلفة تطوير البنية التحتية لتناسب تلك المفترضة تصل إلى ١٥ مليار دولار أميركيّ، بينما يتمّ استثمار ما مقداره ٢,٠٪ من إجماليّ العائدات الوطنيّة للمنطقة في هذا المجال، ونوعيّة المحتوى: حيث يمكن ملاحظة هذه المشكلة بتصفح الكثير من المواقع العربية للمعلومات والأخبار، حيث تقوم معظمها بنشر المعلومات نفسها، نظراً لأنّ أغلبها يقوم بترجمة المعلومات من مصادر عالمية، أو نقلها عن هيئات الأنباء العربية، كما أنّ الكثير من محتوى الجرائد والمجلات الإلكترونيّة يماثل المحتوى الموجود في النسخ الورقية، ولا يتمّ إضافة عناصر التفاعل مع المستخدمين أو إضافة أيّ صور أو عروض فيديو إلى المواقع، إضافة إلى العوامل التشريعيّة حيث ما تزال الكثير من البلدان العربيّة تتحكم بالمحتوى الذي يمكن نشره من الناحية الأمنية، الأمر الذي يؤثر على محتوى الصفحات العربية ودور النشر والطباعة، حسب كلّ بلد.

وتعد تونس أوّل بلد عربي أدخل الإنترنت عبر ٧ شركات حكوميّة لتقديم الخدمات و٥ شركات خاصّة. وتقدّم الحكومة تخفيضات للعائلات تصل إلى النصف بالإضافة إلى تعرفة الهاتف البالغة ١٥ دولاراً أميركيّاً، كما تعد الإمارات العربية هي الدولة العربية الوحيدة التي قامت بتوقيع معاهدة التجارة الإلكترونيّة، حيث يتمّ بموجبها منع الشركات التي تقدم خدمات الإنترنت من

تقــديم معلومات عن مستخدميها، عدا عن الجرائــم الإلكترونيّة ولحمايــة المعلومات الإلكترونيّة.[٧]

حق الشعوب في صيانة ذاكراتها:

شهــدت باماكــو عاصمــة دولــة مالي انطلاقــة نــدوة حــق الشعــوب في صيانة ذاكراتها الثقافيــة، التي افتتح وزير التعليم العالي والبحث العلمي المالي فعالياتها بكلمة أكد فيها علــى الأهمية البالغة لهذه الندوة التي تناقش موضوع حق الشعوب في صيانة ذاكرتهــا التــي تحفظ هويتها لإعــادة بناء ماضيها نفسياً وثقافياً.

ودعــا الباحــث محمد بنشريفــة عضو أكاديمية المملكة المغربية الذي ترأس الجلسة الأولى في فعاليات هذه الندوة بالتأكيد على ضــرورة أن تخــرج هذه النــدوة بجملة من الآراء والمصطلحات التي تسهم في التصدي لهــذه العولمــة التي تحــاول محــو ذاكرتنا الثقافيــة، وقال: إن علماءنــا لم يقصِّروا في حفظ الذاكــرة الثقافيــة لشعوبنا بدءاً من القرن العاشر حيث لم تزل راسخة المجهودات الكبيرة التي بذلوها في تسجيل هذه الذاكرة وحفظها وتدوينها.

وفي هــذا السيــاق قــدم الكاتــب علي مصطفــى المصراتــي عرضــاً شاملاً حول حــق الشعوب في صيانــة ذاكراتها الثقافية التي حددها في ثلاثة أنــواع هي: السلبية، والإيجابية، والمشحونــة بمعلومات خاطئة، وأكــد أن هذه الذاكــرة تعني الجمع ما بين الحاضــر والمستقبل وتواصــل الأجيال بين المثقفين والمفكرين والفنانــين، لافتاً إلى أن ذاكــرة الأمتين الإسلاميــة والإفريقية هي موضوع الساعة خاصة ما يطرح في الساحة العالميــة مــن أمــور تتعلق بفرضــ التبعية وغيرهــا، وأضاف أن الذاكــرة تعني الوعي بقضايــا الإنسان المعاصــرة أينما كان وهي التي يجب أن تبحث عن الإيجابيات وتنميها عــن طريق حيوية العطــاء واتساع المعرفة، مشــدداً على ضــرورة أن تحتفــظ الذاكرة بمقومــات الشخصية وألا تعتمد على النقل وأن تهتم بالجذور لا بالتقوقع والتعصب أو العنصرية.

وأوضح في ذات السياق وزير التعليم العالي والبحث العلمي في مــالي أن موضوع ذاكرة الشعوب يكتسي أهمية بالغة لأن الذاكرة تعني الماضي وإعادة بنائه سيكولوجياً وثقافياً بما يسهم في حماية هويــة الجماعات وبالتالي هويــة الشعوب وبما يضمن حقها في صيانة

ذاكرتها الثقافية لمواجهة العولمة الليبرالية التي تستهدف هويات الشعوب خاصة في البلدان المستضعفة اقتصادياً، مؤكداً أن مسألة حماية الذاكرة تشكل رهاناً أساسياً بالنسبة لإعادة بناء التاريخ ونقل القيم والتكيف وكذلك حماية لغتنا التي يهددها العالم الذي يشهد تحولات متسارعة، خاصة بالنسبة لمجتمعاتنا الإفريقية التي تعتمد ذاكرتها الثقافية على التقاليد الشفوية وسيلة أساسية لحماية وصيانة معارفها».

ثم قدم الباحث جبريل دوكوري من مالي بحثاً بعنوان «مشمولات الذاكرة الثقافية.. مخطوطات تمبكتو نموذجاً، ركز فيه على المخطوطات وقيمتها العلمية مستهلاً بحثه بتقديم لمحة تاريخية حول نشأة مراكز المخطوطات وظهورها في السودان الغربي خلال القرن الخامس عشر الميلادي، وأشار في هذا الصدد إلى ظهور الإمبراطوريات الإسلامية في المنطقة الساحلية جنوب الصحراء والتي تمركزت في مدن ولاتة وتمبكتو وغاو وجني، مستعرضاً ملامح النهضة العلمية الكبيرة التي شهدتها هذه المدن والكتب والمخطوطات التي نقلت إليها من مصر وليبيا والمغرب.[٨]

تكريم المغربي الطاهر بن جلون:

كرمت شركة رولكس الأديب المغربي الطاهر بن جلون وخمسة كتّاب عالميين آخرين تقديراً لدورهم في توجيه وتدريب المواهب الواعدة، وذلك في إطار «مبادرة رولكس لرعاية المواهب الفنية الشابة ٢٠٠٦ / ٢٠٠٧»، والتي تهدف من ورائها إلى بناء جسور تواصل بين الأساتذة الكبار والمواهب الفنية الشابة في مجالات مثل الرقص الشعبي، والسينما، والأدب، والموسيقا، والمسرح، والفنون المرئية، حيث يتولى كل أستاذ الإشراف على فنان شاب لمدة سنة كاملة.

وكان ابن جلون البالغ من العمر ٦٢ عاماً، قد أمضى السنة الماضية مشرفاً على الروائي إديم أويومي، وهو شاب في الـ ٣٢ من العمر، من جمهورية توغو، وقد قال عن عمله مع إديم: إن الممتع في ذلك هو أنني لم أقم بدور المصحح أو المعلم، بل كنت شخصاً أتابع أديباً وهو يكتب.

وأوضح باتريك هينيجر، الرئيس التنفيذي لـ «رولكس» أن الشركة أطلقت برنامج رعاية وتدريب المواهب الشابة في عام ٢٠٠٢ بهدف تعزيز الاهتمام بالفنون.

وفي الدورة الأولى من «مبادرة رولكس لرعاية المواهب الفنية الشابة ٢٠٠٢-٢٠٠٣»، تم اختيار المهندس المعماري والرسام الأردني سهل الحياري عن فئة الفنون المرئية، حيث أشرف عليه ألفارو سيزا، أحد أشهر المهندسين المعماريين البرتغاليين.

وتشتمل مبادرات رولكس في الخليج والمشرق العربي وشمال إفريقيا، على «جوائز رولكس للمبادرات الطموحة» التي تدعم وتقدر جهود أصحاب المشاريع التي تهدف إلى تطوير المعرفة الإنسانية وتحقيق الرفاه الاجتماعي.(٩)

فارجاس يوسا ومسيرة الرواية اللاتينية:

يعد ماريو فارجاس يوسا المولود في البيرو عام ١٩٣٦ والحاصل على الجنسية الإسبانية عام ١٩٩٣ من بين أهم كتاب الرواية في أمريكا اللاتينية لما يتميز به نتاجه الأدبي من تنوع ما بين الرواية والقصة والنقد الأدبي، فضلاً عن ممارسته الصحافة والنقد الفني والسينمائي، ولهذا قد حصل يوسا على جوائز عديدة، وتم تكريمه من قبل العديد من المؤسسات الدولية والخاصة، أهمها جائزة أمير أستورياس في الآداب عام ١٩٨٦، والتي تقاسمها مع اللغوي الإسباني رافائيل لابيسا، كما حصل على جائزة بلانيتا عام «١٩٩٣»، وجائزة ثرفانتس الأدبية «١٩٩٤».

قضى يوسا طفولة مضطربة إذ انفصل والداه وهو بعد في عامه الأول، وانتقل مع عائلة والدته إلى بوليفيا حيث قضى فترة تعليمه الأساسية الأولى، وبدأت محاولاته الأدبية الأولى وهو في الثامنة من عمره بعنوان «خطاب إلى الطفل الإله»، ثم التحق بالأكاديمية العسكرية «ليونثيو برادو»، وقد تأثر يوسا بهذه الحياة العسكرية بشكل كبير، وهو ما ظهر جلياً في أعماله الأدبية خاصة في روايته الشهيرة «المدينة والكلاب» «١٩٦٣»، وجدير بالذكر أن يوسا قد توجه بعد ذلك إلى دراسة الأدب، فالتحق بجامعة بيرو وشارك في جريدة أدبية بعنوان «الأدب».

وقد حصل على منحة للدراسة في إسبانيا عام ١٩٥٨ وحصل على الدكتوراه في تخصص أدب أمريكا اللاتينية وكانت الرسالة بعنوان «جابرييل جارثيا ماركيز: قصة وتصميم»، وذلك عام ١٩٧١.

وعلى الرغم من أن يوسا ظهر في نفس الفترة التي تبلور فيها مذهب الواقعية

السحرية في أمريكا اللاتينية، وحقق المذهب الأدبي الوليد نجاحاً فائقاً إلا أنه مال إلى الكتابة الواقعية، بل على العكس فإنه اختار الواقعية التي تميل إلى تهويل عنصر القبح، ولعله بهذا الشكل يقترب من مذهب الكاتب الإسباني الحائز على جائزة نوبل «كاميلو خوسيه ثيلا» وهو مذهب «التهويل».

وقد ظهر البعد السياسي في أغلب أعمال يوسيا، الذي عمد إلى تصوير معاناة شعبه وبسطاء الحال في بلاده، والرغبة في كشف وتعرية المجتمع في دعوة واضحة إلى المطالبة بالتغيير، فبدت أعماله ورواياته تحديداً كأداة فاعلة غايتها سياسية في المقام الأول، حيث كان هذا الإصرار على تناول قضايا مجتمع بلاده، وإبراز أهمية العنصر السياسي فيها دافعاً له إلى ولوج المجال السياسي عام ١٩٨٠، إذ رشح نفسه في الانتخابات الرئاسية أمام الرئيس آلان جارثيا، وانتهى التصويت بفوز المرشح المنافس آلان جارثيا، الذي تولى رئاسة بيرو للمرة الثانية في الوقت الحالي.

ومن أهم أعمال يوسا: المدينة والكلاب، البيت الأخضر، الفتاة خوليا، المتكلم، أوراق ريجوبيرتو، حفل التيس، الجنة في الجهة الأخرى، وألاعيب الطفلة المشاغبة.

وقد ترجمت أكثر أعمال يوسا إلى العديد من لغات العالم ومنها اللغة العربية حيث ترجمت روايته المثيرة للجدل «من قتل موليرو»، إلى العربية و أثارت جدلاً كبيراً بعد نشرها، ويرجع ذلك إلى المشاهد العنيفة والمشاهد الجنسية الفجة، إضافة إلى إباحية اللغة وغيرها من العناصر التي تتعارض والتابوهات التي اعتاد عليها القارئ العربي.(١٠)

ترشيحات لجائزة نوبل:

أعاد مجلس إدارة الجمعية العامة للمؤلفين والمحررين الإسبان ترشيح كل من الكتاب فرانسيسكو أيالا وإرنيستو ساباتو وميجيل ديليبس، للفوز بجائزة نوبل في الآداب لعام ٢٠٠٨.

وقال المجلس في بيان له: إن القرار يرجع إلى الأعمال العظيمة للكتاب الثلاثة العالميين، والتي تجعلهم يستحقون الفوز بأشهر جائزة في الآداب، مع العلم أن المجلس قام بترشيح نفس الثلاثي، الحاصل على جائزة ثيربانتيس، للأكاديمية السويدية عام ٢٠٠٧، عندما فازت الكاتبة البريطانية دوريس ليسينج بالجائزة.

يذكر أن فرانسيسكو أيالا ولد عام

١٩٠٦ في مدينـة جرانـادا الإسبانية، وهو كاتب روايـات ومقـالات، وأكاديمي وناقد أدبي وسينمائـي، ويعتبر بطريـرك الأدب الإسباني الحـالي، حصل على جميع جوائز الأدب الإسباني القيمة.

أمـا إرنيستو ساباتو فولد عام ١٩١١ في العاصمة الأرجنتينيـة بوينوس أيرس، ومن أعماله النفق، وهو يعتبر أهم كاتب أرجنتيني مازال على قيد الحياة. أما ميجيل ديليبس المولود بمدينة بايدوليد الإسبانية عام ١٩٢٠ فمن ضمن أعماله: الطريق، كما حصل على عدة جوائز مثل جائزة نادال، جائزة النقد، جائزة أمـير أستورياس، الجائـزة الوطنية للآداب الإسباني لعام ١٩٩١.

يشـار إلى أن جائزة نوبـل أنشئت عام ١٩٠١ على يـد ألفريد نوبل العالم السويدي الـذي جمع ثـروة ضخمة من بيـع اختراع جديد هو الديناميت، وقد نص الفريد نوبل في وصيتـه على ضرورة منح إحدى الجوائز سنوياً لكاتب أو أديب أنتج عملا بارعا يعتبر نموذجاً للأدب المثالي، بالإضافة إلى فروعها الأخـرى في الرياضيـات والفيزياء والطب والسلام والاقتصاد والكيمياء.

وكان أول فائـز بجائزة نوبل للآداب هو الشاعر الفرنسي سولي «برود أوم» الذي تم تفضيلـه على تولستوي. وتقـوم الأكاديمية السويديـة باختيار الفائز مـن قائمة تضم أسمـاء خمسة أدباء يرشحهم أساتذة الأدب والفائزون بجائزة نوبل السابقين. (١١)

مهرجان برلين السينمائي:

نظم مهرجان برلين السينمائي احتفالية خاصة بالذكـرى الأربعين لانتفاضة الطلبة عام ١٩٦٨ وتنامي المعارضة لحرب فيتنام من خلال عرض سلسلـة من الأفلام الأمريكية التي تصور حرب فيتنام ومآسيها.

وفي هذا المجال ومن بين سلسلة الأفلام التي عرضت خلال الاحتفالية الخاصة التي نظمهـا المهرجان فيلم «ماش» وهو كوميديا سـوداء عن الأطبـاء الأمريكيـين للمخرج روبـرت التمان، بالإضافـة إلى عرض فيلم تسجيلـي بعنوان «في عام الخنزير» للمخرج إميل دي أنطونيوني وفيلم «كاتش ٢٢» الذي يحكـي عن جنـون الحرب للمخـرج مايك نيكولز.

وقد تصادف تنظيم المهرجان السينمائي الدولي في برلـين، مع الاحتفـال بالذكرى الأربعين لما يُسمى بمؤتمر فيتنام ببرلين الذي نظمته الرابطـة الاشتراكية للطلاب الألمان في شباط عـام ١٩٦٨، حيث ساعد المؤتمر آنذاك علـى إثارة حركة احتجاجات الطلبة

التي تحولت إلى انتفاضات في مختلف أنحاء أوروبا عرفت باسم احتجاجات ١٩٦٨، وأدى هذا إلى تنامي الانتقادات بين الطلبة الألمان بشأن تاريخ بلادهم ما بعد الحرب العالمية الثانية، كما ساعدت في الوقت نفسه ثورات الطلاب بمختلف أنحاء أوروبا وتفاقم الشعور بالغضب في الولايات المتحدة بشأن مسار حرب فيتنام على دفع مخرجي هوليوود لإنتاج أفلام تتبنى موقفا مناهضا للتورط الأمريكي في تلك الحرب.

ومن بين الأفلام الأخرى التي عرضت في مهرجان برلين فيلم «الحرب في الوطن» لباري براون وجلين سيلبر التي ترصد التسلسل الزمني للحركة المناهضة لفيتنام في الستينيات والسبعينيات، وفيلم «جندي الشتاء» وهو فيلم تسجيلي يرصد أحداث مؤتمر محاربي فيتنام لمناهضة الحرب، وكذلك جرائم الاغتصاب والتعذيب والقتل التي ارتكبها جنود أمريكيون ضد المدنيين في فيتنام. (١٢)

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW.SANA.ORG

٢- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM

٣- وكالة الأنباء السعودية WWW.SPA.GOV. SA

٤- وكالة الأنباء الخليج WWW.JAMAHIRIYANEWS.NET

٥- وكالة الأنباء الكويتية «كونا» WWW.KUNA.NET

٦- وكالة الأنباء الجزائرية WWW.APS.DS

٧- موقع البوابة WWW.ALBAWABA.COM

٨- موقع ميدل ايست أن لاين WWW.MIDDLE-EAST.ONLINE.COM

٩- وكالة المغرب العربي للأنباء WWW.MAP.CO.MA

١٠-موقع العرب أونلاين WWW.ARABONLINE.COM

١١-وكالة رويترز WWW.REUTERS.COM

١٢-موقع نسيج WWW.NASEEJ.COM

كتاب الشهر

أبعاد النص النقدي عند الثعالبي

عرض وتقديم : محمد سليمان حسن

كتاب الشهر

أبعاد النص النقدي عند الثعالبي

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن*

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة السورية، كتاب تحت عنوان: «أبعاد النص النقدي عند الثعالبي: مقدمـــة نظرية ودراسة تطبيقية». الكتاب من تأليف الباحث الدكتور «حسن إبراهيم الأحمد». يقع الكتاب في /٣٩٨/ صفحة من القطع الكبير. نقدم عرضاً له بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.

* باحث سوري.

❁ ❁ ❁

الفصل الأول

في مفهوم النص والتناص

مفهوم النص يعد من أكثر المفاهيم ذيوعاً في الأوساط النقدية والأدبية، شأنه شأن الثقافة والحضارة، وجود وكيان زمكاني. وعلى هذا تكون معرفة المفهوم شرطاً ضرورياً لفهمه. ومع أنّ النص يحمل معنىً عاماً، وخاصاً، إلا أن تعدد مداخل التحليل، تأخذ في حسبانها السياقات الزمكانية واللغوية التي يتشكل النص فيها، ومنها. ونظراً إلى هذه التصورات كلها، ينبغي لنا إيضاح ماهية النص والتناص حديثاً وقديماً، إلى مقاربته مقاربة مبدئية، من خلال تقريب وجهات النظر وتكثيفها.

- النص في النقد الحديث: تبقى الأصول اللغوية للمفهوم المرجع الأول، فهي تتفق على معنى النص المعجمي المشتق في اللغات الأوروبية من الاستخدام الاستعاري للفعل Textere في اللاتينية. يخضع النص لتعريفات كثيرة، لذلك يبدو المفهوم مرتبطاً بجملة من التصورات والمقاربات الخاصة بالإجراءات النقدية التي اتخذت النص مادة للمعالجة. يعتمد التعريف العام إذاً المقولة اللغوية التي ترجع إلى التحديات الأولى للنص عند اللغويين أمثال (سوسير). وفي الحقيقة، تنفي الرؤية السابقة الطبيعة الاجتماعية والأيديولوجية والتاريخية للنص، لكنها تبقى بإبرازها العنصر اللغوي البداية التي انطلق منها بقية النقاد أمثال (جوليا كريستيفا) التي طرحت أربع خصائص أساسية لتعريف النص: الإنتاجية، الاختراق اللغوي، التداخل النصي، الموضوع المتحرك، وقد وجد تعريف (كريستيفا) من يتبناه، مثل (رولان بارت) الذي أبرز التصور النقدي، وعنّونه بـ(من العمل إلى النص). ويقدم (ميشيل آريفي) في الاتجاه ذاته تصوراً أقل توسعاً من تصور (بارت). ويعتمد (لوتمان) التصور ذاته، غير أنه يضيف إليه خاصية أخرى هي (التعبير الفني). ليست التعريفات والتحديدات السابقة إلا طموحاً لاستكشاف الجهاز المفهومي المحدد للمعالم النصية، المتجلي في تمظهر اللغة، وفي الارتباطات المتعددة التي يقيمها من جهة ثانية.

لا يمكن القول إن هناك مفهوماً عربياً

خاصاً للنص، لأن النقاد العرب اعتمدوا ما كتب في الغرب. لكن البادرة التي يمكن تسجيلها هنا هي إعطاء بعض هؤلاء النص تصوراً خاصاً يأخذ في الحسبان سياقاته الاجتماعية والثقافية والأيديولوجية في تشكيله النهائي. وبالتالي، يمكن أن نجد آراء متباينة في الممارسة النقدية للنص، أو في التنظير، تدفع بالنقد إلى نقد النقد. حيث إن «النص الأدبي عند المحدثين ليس صياغة للمعنى، بل محاولة لاكتشاف المعنى». إن النص عندهم يتحدد بمحددات لغوية واجتماعية وثقافية وأيديولوجية، مرتبطة بمنتج. ونظراً إلى أهمية البنى الخارجية، فإن النص لن يقارب إلا بتصور شمولي تكاملي.

- النص في النقد العربي القديم:

معجمياً، تدور مادة (نصص) في المعجم العربي حول معان متعددة مرتبطة بسياقها. ففي لسان العرب تحصر النص كمادة لغوية في: الرفع، والظهور، والغاية، والإسناد، والتوقيف، والتعيين، والشدة، والاستواء، والاستقامة. ويمكن تلمس المعاني والدلالات ذاتها في أساس البلاغة، غير أنه يضيف «ونصصت الرجل إذا أخفيته في المسألة ورفعته إلى حدّ ما عنده من العلم حتى استخرجته». ويضيف (الفيروز أبادي) معنى آخر «نصص غريمه وناصه: استقصى عليه وناقشه».

لقد حصرت المعاجم الدلالات المتنوعة للجذر اللغوي (نصص) في حقول أربعة تؤلف بتكاملها مفهوماً نظرياً معجمياً محدداً بـ:التقصي، الظهور، التحريك، والسير الشديد لبلوغ أقصى السرعة، أقصى الشيء ومنتهاه. ومن خلال استقراء هذه الحقول الأربعة يمكن الخروج بنتائج مهمة تعتمد تأويل وتفسير هذه الدلالات التي تتراكب مع النص بمفهومه الحديث، فالتقصي يقتضي مساءلة النص. أما الظهور فهو تجل لدلالات النص، ويرتبط التحريك بالنقل وصولاً إلى الدلالة الرابعة، المنتهى، أي بلوغ أقصى دلالات النص في وعي القارئ على الأقل.

بيد أن عدّ النص نسيجاً بما يرتبط به هذا المصطلح من إنتاجية، يجب ألا يقفل المعنى المتوارى خلفه، فغالباً ما تم التركيز على (الفكرة التوليدية) التي يتخذها النص نفسه. لا يمكن إذاً اعتماد على المفهومين المعجمي والتطبيقي، أن نتغاضى عن مقولة

(النص ممارسة قديمة) وهو ما تحدث عنه نقاد كبار من أمثــال: ابن سلام، الحاتمي، والقرطاجنــي، والجاحظ، وابــن طباطبا، وغيرهم، ســواء في التطبيق، أو في الحديث عن الدلالات.

- التناص في النقد الحديث:

يجمــع كل مــن كتب عــن التناص على ظهور المصطلــح على يد (جوليا كرستيفا). وكان ذلك نتيجة منطقيــة لتطور البنيوية. وفي كتابيها «من أجل تحليل سيميائي» و«نص الرواية» أطلقت (كرستيفا) مقولتها الشهيرة «كل نص هو تشرب وتحويل لنص آخر». إن الأساس الذي اعتمدته (كرستيفا) يرجع إلى تطويرها مقولات (باختين) الذي عدّ الأدب ذاته ممارســة للغة ضمــن الواقع. ومجمل ما كتب عــن التناص تعريفــاً لا يخرج عن الدائرة التي عرفتــه بها (كرستيفا) كما في تعريفات (ميشيل آريفــي) الذي يركز على العلاقة، أو تعريفــات (تودوروف) المرتبطة بنشأة النص وعمليات التحويل، أما (جيرار جينيت) فيترك تعريف التناص كما في تركه تعريف النص، إلى تقديم مصطلح موازٍ هو (جامــع النص) المطوّر عنــده فيما بعد إلى



(جامــع النسج). وإذا مــا انتقلنا إلى النقد العربــي الحديث سنجد أنــه تابع مقولات الغربيــين. إضافــة إلى اختلافاته المنهجية في اختلاف نقل المصطلح المترجم بالتناص، والتفاعل النصي، والتداخل النصي.. وهي اختلافات يمكن ردها إلى تمايز المنهجية في التعامل مع النصوص كالسيميائية واللسانية والبنيوية التفكيكية، والواقعية.

- التناص في النقد العربي القديم:

لا تحمل المعاني المعجمية لمادة (نصص) سوى مــا ورد منها تحت مفهوم النص، بيد أن عدّ النص نسيجاً يمكن الباحث من تلمس

بعض الصيغ الدالة في مادة (نسج) حيث يدل النسج عند الزمخشري على التزوير والكذب. أما الفيروز أبادي فيوسع من دائرة الدلالة اللغوية لتصبح: «والكلام لخصه وزوّره». وفي مادة (زوّر) يقول: «والشيء حسنه وقومه». هذه المفاهيم الكذب، التزوير، التلخيص، التحسين، التقويم» قائمة على معظم الأسس التي قامت عليها مفاهيم التناص الحديثة من تحويل، وتكثيف ومحاكاة، وغيرها ،كما تقدم.

❀ ❀ ❀

الفصل الثاني: مصادر النقد..

- المصادر الخاصة:

ترتبط بنشأته: فهو أبو منصور عبد الملك بن محمد ابن اسماعيل الثعالبي النيسابوري، ولد في نيسابور سنة /٣٥٠هـ/ وتوفي فيها سنة /٤٢٩هـ/. والثعالبي نسبة إلى مهنة تجارة جلود الثعالب، مهنة أبيه. نشأ في أسرة موسرة، أضاع معظم أرزاقها، أتاح له وضعه المادي والأسري أن يتزود بقسم كبير من الثقافة. هناك نصوص تجزم بأصله العربي، ودينه الإسلامي، تقرر فيها شافعية مذهبه. أما بالنسبة لمهنته، فلم يرث الثعالبي مهنة أبيه، بل اتجه إلى التأديب، مهنة نيسابور، فعمل فيها، وكان له تلاميذ عدة، وأقام علاقات عدة مع أقرانه، وكان موسوعياً في تعليمه. أما مجلسه فقد أمّه ليأخذ منه وكان ذلك مرادفاً للعديد من مؤلفاته التي اقتبسها من هذه المجالس. تنوعت رحلاته من نيسابور إلى بخارى طلباً للمال والشهرة ثم العودة إلى نيسابور دون أن يحقق شيئاً، تم زيارة جرجان حيث تمتع بكرم أميرها قابوس بن وشكمير. ثم إلى الجرجانية ملبياً دعوة أميرها ثم يغادر إلى غزنة سنة /٤٠٧هـ/ ثم يغادرها إلى هراة ومعها إلى نيسابور. أنشأ الثعالبي مجموعة كبيرة من العلاقات الفاعلة بأدباء عصره وشعرائه ووزرائه يغلب عليها الطابع الشخصي، وكانت مصدراً من مصادر الإنتاج. ومن أهم الشخصيات في علاقاته العامة.

- المصادر العامة:

ويقصد بها العوامل الموضوعية المستقلة عن المبدع، والتي يتبلور وينمو في حدودها فعل الإبداع وهي الإطار الذي قال به (منسكي) والذي ينطوي على ما يسمى

بالتناص الضروري لأن أساس النص من قبل المتلقي أيضاً، عبر تنويعات متعددة سياسية واجتماعية وثقافية، تعكس الفترة الزمنية التي يعيش بها المبدع وتفعل فيه فعلها. فقد عاش الثعالبي في القرن الرابع الهجري، وهو قرن تفكك الدولة العباسية، وانتقال السلطة من بغداد المركز إلى الأطراف. وقد اتفق بدايات نشأة الثعالبي مع بداية تشكل الدولة البويهية في سنة /٣٣٤هـ/ التي حكمت: فارس وخراسان وبغداد، وخصصت لها مدن عدة منها: الري واصبهان وجرجان وشيراز، اشتغل حكامها بالعلم والأدب، وظهر منهم أمراء ووزراء مبدعون من مثل: ابن العميد وللصاحب ابن عباد، والمهلبي. أما الإطار الاجتماعي والثقافي فقد شهد فيه الثعالبي: تعددية سياسية وثقافية واجتماعية ومذهبية، حيث ظهرت على السطح الأفكار العريضة للفرق، والمذاهب والنحل، والطبقات، وكان لا بد لها من الحوار والصراع فيما بعد. ولم يكن الثعالبي بمعزل عن هذه جميعاً، فقدم صورة بانورامية عن هذا العصر.

- المصادر المكتوبة:

لم يقترن الثعالبي بشيخ من الشيوخ، فنظرته الشاملة الموسوعية إلى الأدب، تؤكد أن الكتاب كان المصدر الأول في تكوينه المعرفي والثقافي. ومن مصادره المكتوبة: القرآن والحديث، بحيث إن أيّ مؤلف من مؤلفات الثعالبي لا يخلو من إيراد للشواهد القرآنية، وأقوال الرسول (ص)، حتى إنه ألفّ كتاباً متخصصاً في «الاقتباس من القرآن الكريم». والشعر هو المادة الأساسية لأي ناقد أو مصنّف، لكنه عند الثعالبي يأخذ خصوصية واضحة، تظهر في تعدد الوجهات التي عامله بها. والأمثال تعبير عن الفكر الشعبي الجمعي عميق الصلة بالتاريخ وبالتجربة، وبخبرة المصنف الذي يشتغل عليه، وهو ظاهرة بارزة في اختيارات الثعالبي. وانعكس اهتمام الثعالبي بالجانب السردي من الأدب في الاعتماد على القصص ذات الطابع التعليمي كحكايات الأمثال، ولاغنى لأي مبدع عن الآخر لذلك تشكل المؤلفات العامة مصدراً ثرياً لإنتاج أي نص. كما شكلت مصادر الثعالبي ذاتها مصدراً هاماً في إبداعه ونقده، وهذا ما يمكن أن يطلق عليه التناص الداخلي أو الذاتي.

- الآثار/ المؤلفات:

تعـد مسألة التوثيق مـن أهم القضايا المتماهيـة في مفهـوم النصـ، لارتباطهـا بالمنهـج والشخص والمـادة المدروسة. وقد قـدم الثعالبـي ما يزيـد عن مئـة مؤلف، تغطي كل ماكتب في الأدب ونقده، ثم حصر مؤلفات الثعالبي من قبل المحدثين، وإن كان يعوزها الدقة أحياناً.مثال (الوافي بالوفيات للصفـدي) و(عيـون التواريـخ للكتبـي) و(طبقات النحاة لابـن قاضي شهبة). ومن القوائم الحديثة: قائمة (الزركلي) و(قائمة دائرة المعـارف الإسلامية) و(قائمة جرجي زيدان). وبناء على ما تقدم. تقسم مؤلفات الثعالبي إلى أربعة أقسام هي:

- المطبوعة: وضمت /٣٤/ كتاباً.
- المخطوطة: وضمت /٣١/ مخطوطاً.
- المفقودة: وضمت /٤٤/ مكتوباً.
- المنسوبة: وضمت /٩/ كتب.

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث: النص النقدي..

- مفهوم النقد:

لا يوجد ثمـة تعريف واحد متفق عليه لاصطلاح النقد. وبصفة عامة، يمكن القول إن مصطلح النقد إنمـا يستخدم بالأساس للإشـارة إلى متابعـة النشاطـات الأدبية، ورصـد حركة الإبـداع برؤية ما، من خلال أداتـين أساسيتين هما المقارنـة والتحليل، وعلـى الإجمال، إن التفاعـل بين ما يسمى أدبـاً، وبين ما يسمى نقداً مسلمة لا يختلف عليها اثنان. ممـا لا شك فيه أن مصداقية النص النقدي تتبلور في عدّه تابعاً للإبداع، فهـو إنشـاء علـى إنشاء لا يميزهـا سوى اختـلاف الوظيفة، إذ يعتمد النص النقدي ثلاثة محاور موظفة هـي التقويم والتمييز والتأريخ. وهذا ما يفرض على النص النقدي اختلاف لغته. وهذا مـا يسمح بالنظر إلى المصطلحات الثلاث: النص والإبداع والنقد، نظراً تفاعلياً. ومن وجهة نظر ثانية، نجد أنّ بعض الآراء تستند إلى طرح مفاده أنّ علاقة النقد بالعمل الأدبي هي ذاتها علاقة المعنى بالشـكل، بل لنقل علاقة لغتـه بلغة العمل الـذي يحلله من جهة، وعلاقـة لغة العمل المنقـود ذاته بالعالم من جهة أخرى وتأسيساً علـى إنشائه النقد. ولتجـاوز التباين، فإن ثمـة وجهة نظر ثالثة. فالنقد لا ينشأ أصلاً إلا مـن تحقق الأعمال الأدبية التي يتناولها

بالدرس والتحليل. وعموماً يمكننا عدّ العمل الأدبي دالاً هو أهم شرط من شروط النقد. إن النقــد عند الثعالبي يعني دراسة مختلف الجوانب الخاصة بالإبداع الأدبي، فهو يدرس النص الأدبـــي وعلاقته بالمنتـــج، كما يولي الاهتمام للظروف التاريخية والاجتماعية. لقد استطاع الثعالبي أن يقيم توازناً ما بين الطابعين الاجتماعي والتخصصي بملامسة الجوانب الشعبية في النقد، وتقديم نصوص نقدية هي مدار اهتمام الخاصة والعامة.

- الثعالبي في ميزان النقد:

بوصول النقد إلى القرن الرابع الهجري كان الوضع الثقافي يدفع المحللين إلى إعادة تقويم الخطــاب النقدي. وتــدل المعطيات كافة أن هناك اتفاقــاً بين المشتغلين بالنقد العربي القديم، باتجاهاتها المتعددة، كاتجاه الموازنة، والدفاع عــن عمود الشعر، واتجاه تحليــل الخصومات الأدبيـــة. وتعكس هذه المؤلفــات درجة عالية مـــن كثافة الاعتماد على ما يسمى (الصناعة) وكثيرة هي الكتب النقديـــة التي حاولت صياغة نظرية شعرية تأسيساً علـــى هذا المفهــوم. وانطلاقاً من هذا التقـــديم، ليس مـــن الصعوبة تحديد منزلة الثعالبي بـــين هؤلاء جميعاً ولا سيما أنـــه اتجـــه إلى النقـــد التطبيقـــي، فأعاد إنتـــاج مقولات الموازنة، وتشابـــه الأساليب، والتداخل النصـــي، والسرقات. لقد تباينت مواقف النقاد المحدثين ونقد الثعالبي. ورد في هـــذا السياق اتجاهات، أولهما نظرا إلى نقد الثعالبي نظرة تفتقـــد إلى الموضوعية، وثانيهما، نظر إليه من وجهة مختلفة جهدت لتلمس منهجه النقدي دون أن تعطي حكماً نهائياً.

- اتجاهات النص النقدي:

لم يعرف العرب النقد الأدبي في صورته المنهجية إلا في القـــرن الرابع الهجري، أما قبل هـــذا التاريخ فقـــد كان مجرد نظرات جزئية، وقد مرّ هذا النقد بمراحل كثيرة قبل أن تتجلى صورته في القرن الرابع الهجري. ففي مرحلة البدايات لعبت الأسواق الأدبية دوراً مهماً في احتضـــان المحاورات النقدية والمساجـــلات الأدبيـــة. وفي واقـــع الأمر لا يمكننـــا عدّ تلـــك الممارسات نقـــداً بالمعنى الحقيقي للمصطلح، نظراً لعدم وجود ناظم لها، وهذا ما يمكننـــا ملاحظته بسهولة في نقد النقـــاد، أو في نقد الرســـول والخلفاء

الراشدين. ومع تطور الحياة في العصر الأموي، أخذ النقد يسير بخطا وئيدة، كانت صدى لما يدور في المجتمع من تغيرات، وقيم وافدة، ومع ذلك بقيت دائرة النقد موجودة في أقاليم أخرى كالحجاز مثلاً. أيضاً كانت هناك أحداث ذات أثر بالغ في تطور النقد، وربما كان أهم هذه الأحداث هو المعركة التي اشتعل أوارها بين فحول العصر الثلاثة: جرير والفرزدق والأخطل. وفي العصر العباسي أخذت الحركة النقدية في التعقيد والتعمق، وجنحت إلى التعليل والمناقشة، وبدأت تعنى بالنص الأدبي أكثر. لقد أخضع الثعالبي البحث في الظاهرة الأدبية لاتجاهات عديدة، تهدف إلى دراسة العمل الأدبي من خلال وحدة متكاملة، فيدرس من خلالها: التفاعل بالظروف المحيطة، والإفادة من نفسية المبدع في فهم ظواهر نصيّة في نصوصه، والمضمون الاجتماعي للأدب، والعلاقة بين المجتمع واللغة.

- قضايا النص النقدي:

تناول الثعالبي في نقده النصي، مجموعة من الموضوعات المتداولة في عصره، تارة بالتقليد وأخرى بالابتكار. نحاول تقديم بعض هذه القضايا في النص النقدي عند الثعالبي. تشابه الأساليب: أتاحت الدراسة النقدية للنص لدى الثعالبي إلى اكتشاف أوجه التشابه في النصوص النقدية. وهي فكرة مطروحة قديماً وحديثاً. على ضوء ذلك، التفت الثعالبي إلى الكاتب والشاعر، فكل كاتب يختار أسلوباً معيناً، ونسبة النص إلى صاحبه الفعلي بالاحتكام إلى أسلوبه العام. كما يطرح إلى جانب مسألة النسب مسألة مؤثرات الخدمة في بنية أديب معروف اجتماعياً، ومميز الأسلوب فنياً. والنتيجة المنطقية هي أن يقارن أسلوبياً بين المتأثرين أنفسهم، ويرجح أسلوب واحد هو الأقرب إلى المؤثر الأصل.

- التداخل النصي:

بماذا يفسر الثعالبي التشابه أو التطابق بين نصّين شعريين؟ هل هي المصادفة؟ أم استدعاء قصدي للنص؟ وكيف يحدث ذلك؟ يجيب الثعالبي عن ذلك من خلال عدة مصطلحات (التكثيف، التوضيح، الإسقاط) ومنها ما يبرز التقنية (الاقتباس، الاحتذاء، المشابهة، المواردة، الإلمام..). الاقتباس: وضع فيه الثعالبي كتاباً كاملاً.

ويضــع ضمنياً شــرط أساسيــاً للممارسة الاقتباسيــة، هو حفظ القــرآن كاملاً، مما يتيح للمنتــج تمثل النصــ المقدس. ويميز الثعالبي بين الاقتباس الموظّف (المستحسن) وغير الموظف (المكروه).

- نظم النثر/ نثر المنظوم:

أشار الثعالبي إلى نــثر المنظوم في أثناء بحثــه في أدب كتاب العصر. ويشير في نظم المنثور التوجــه الشعري على النثر، وخلخلة الأجناس الأدبية بتداخل الشعري في النثري، وحتــى النقــدي، بشكل لا تنتفــي في سمة (الشعرية). الإلمام: يعــد هذا المصطلح من أكثر المصطلحات النقدية إشكالية في النقد العربي القديم. فكل شاعر في العادة يستمد جذور تجاربه الشعرية من تجارب سابقة. أم هي قصيدة الشاعر في ذلك؟ يميل الثعالبي إلى القصدية. قصدية المتداخل، ووعيه بما يلم به.

❀ ❀ ❀

الفصل الرابع: التناص النقدي..

تتــم العملية الإنتاجيــة للنص في حالة التناصــ النقدي، من خــلال التداخل بين النقــد والإبداع، أو بين النقد والنقد الآخر، أو بين النصوص النقديــة للناقد ذاته. من خــلال هذا المنظور التداخلــي، لابدّ للنص النقــدي من حضور النصــ الإبداعي. كما أنّ النقد ليس بمعزل عن الحركات النقدية أو الأدبيــة السابقة أو المعاصرة، لذلك فإنه ذو طبيعــة تداخليــة في النصوص المنتمية إلى جنســه، وهنا يتوسع مفهــوم الإنتاجية ويتمحــور حول صيــغ متعددة تميــز كلها الناقــد من المبدع. فالناقــد عملياً يتعرض لممارسة سلطة تناصيــة ثلاثية عليه: أولها أنــه قرأ نصــاً إبداعيــاً، وثانيهــا أنه قرأ نصوصاً نقدية ابتغــاء التحصيل واكتساب المعرفة، وثالثها أنه يكتــب نصاً نقدياً على أنقاض هذه النصوص المقروءة. إن التحليل النصــي للنقــد في سياقــه التداخلي يجب أن يأخذ في الحسبــان إشارات النص التي تــدل على موقف المنتج تجــاه الإنتاج. هذه النظرة إلى منهجية التحليل تتجه إلى الآلية الأكــثر حضــوراً وهي الاستشهــاد. وهكذا فــإن الممارســة التحليلية للنصــ النقدي، هي الإجــراء الأمثل للوقوف على إسهامات الناقد الفعلية في حركة النقد عامة.

❀ ❀ ❀

إصدارات

❁ دلالات النص الآخر:

صدر حديثاً، عن وزارة الثقافة السورية، كتـاب نقدي، تحت عنـوان «دلالات النص الآخر في عـالم حبرا إبراهيم جبرا الروائي» الكتاب من تأليـف الباحث و الناقد «ولاّت محمـد». يقع الكتاب في /٤٣٧/ صفحة من القطع الكبير.

❁ من مقعد المتفرج:

صدر حديثاً، عن وزارة الثقافة السورية، كتـاب تحـت عنوان «مـن مقعـد المتفرج» مقـالات ودراسـات في المسـرح السـوري. الكتاب من تأليف الباحث المسرحي «فرحان بلبـل». يقع الكتـاب في /٣٧٦/ صفحة من القطع الكبير.

❁ السينما الأوروبية:

صـدر حديثـاً، عـن المؤسسـة العامة للسينمـا، ضمـن سلسـة الفـن السابـع، الكتاب رقـم /١٤٠/ تحت عنوان «السينما الأوروبيـة.. أفـلام من الشـرق والغرب». الكتاب مـن تأليف الناقد السينمائي «كمال رمـزي». يقع الكتاب في /٢١٣/ صفحة من القطع الكبير.

❁ ذات مساء:

صدر حديثاً، عـن دار الحارث بدمشق مجموعـة قصصية للأديبـة القاصة «نهى الحافظ» تحـت عنـوان «ذات مساء». تقع المجموعـة في /١٤٤/ صفحـة من القطع المتوسط. قدّم للمجموعـة الأستاذ الدكتور «اسكندر لوقا».

❁ هنري جيمس:

كتاب حديـث صدر عـن وزارة الثقافة السوريـة، تحـت عنوان «هـنري جيمس.. دراما الإنجـاز منحىً إلى الروايات» الكتاب من تأليف الباحث «كينيث غرهام». وترجمة «أديـب الشيشـ» يقع الكتـاب في /٣٢٠/ صفحة من القطع الكبير.



نصير الثقافة

د. علي القيم
رئيس التحرير

نصير الثقافة هو الشخص الذي يخصّص عن طواعية، جزءاً من ممتلكاته، أو أمواله لرعاية الثقافة، وإنعاش الحياة الفنية والأدبية، ولا يكون هذا التدخل لغاية أو هدف شخصي، ويشكّل الوعي وحب الوطن، والمساهمة في التنمية الشاملة، دوافع أساسية لظهور «نصير الثقافة» الذي أصبح في كثير من الدول المتقدمة وحتى النامية، يقوم بتمويل جمعيات ثقافية، وبرامج وبعثات ترميم وتنقيب

أثرية، وينظّم الندوات، ويصدر الكتب والمجلات، ويؤسس معاهد وجامعات ثقافية وعلمية، ويدعم جهود الفنانين والرسامين والمبدعين الشباب..

لقد تطور في السنوات القليلة الماضية، مفهوم «نصير الثقافة» وأصبح يشمل مؤسسات وشركات ضخمة، حيث تقوم هذه المؤسسات الكبرى في دول كثيرة من العالم باتباع سياسة ثابتة في تمويل الثقافة ودعمها، إما على شكل مساهمات مالية عينيّة، أو على شكل تقديم منح دراسية، ومساعدات تقنية مختصة، وشراءات لإنتاجات فنية أو إبداعات أدبية، وتساهم بعضها في دعم مشاريع ظرفية تنجز في مناسبات محددة زمنياً (مهرجان، معرض، مؤتمر، ندوة، أسابيع ثقافية..) وتقوم بعض المؤسسات بتمويل مشاريع ثقافية وفنية بعيدة المدى، وقد يستند هذا الدعم دفعة واحدة لبرنامج ثقافي معيَّن، أو يكون في شكل مساعدة متواصلة لمؤسسة ثقافية، تدفع على مدى سنوات حسب برنامج زمني، كأن تتعهد مؤسسة خاصة، بتمويل بناء متحف وتجهيزه بالمعدّات اللازمة، أو تتعهد بترميم صرح حضاري، أو موقع أثري مميز على مدى عشر سنوات أو أكثر..

من خلال متابعة دقيقة لموضوع «نصير الثقافة» وجدت أن الأنشطة الثقافية التي تفضّلها المؤسسات الاقتصادية الأوروبية الممولة للثقافة هي: (الفنون التشكيلية- الفنون المسرحية- عروض الحفلات الموسيقية الكلاسيكية والشعبية- دعم ترميم الآثار وصيانتها- حفظ التراث الشعبي والسمعي- الآداب..).

ويتمثل المقابل الذي تحصل عليه هذه المؤسسات والشركات الاقتصادية في أشكال مختلفة، نذكر منها: خدمات ثقافية لصالح المؤسسة أو الشركة الممولة مثل: تخصيص عروض فنية لموظفي وأعوان المؤسسة- تنظيم

نـدوات أو مـآدب في إطـار قصر أو موقع أثـري أو متحف- طبع كتب فنيّة جميلة تمولـهـا المؤسسة أو الشركة وتهديها إلى مـن يتعامل معها..

- ذكــر اسـم هــذه المؤسسة أو الشركة في إطـــار الـتـظـاهـرة الـثـقـافـيـة أو الـفـنـيّـة، في مـلـصـقـاتـهـا وإعـلانـاتـهـا.

وأثبتت التجارب الكثيرة التي تمّت في العديد من بلدان العالم، أن اقتران اسم المؤسسات الاقتصادية ببعض المنجزات الثقافية الرائدة، أكثر نجاعة لسمعتها في بلدها وخارجه، من إعلان تجاري من النوع التقليدي، كما تدل هذه التجارب في بعض الدول الأوروبية على أن هذه المؤسسات في إمكانها أن تستفيد من تمويل الثقافة، لالخدمة سمعتها فحسب، ولكن أيضاً لخدمة سمعة مدينتها ومنطقتها وبالتالي بلدها، مما يساعد على تنشيط صادراتها أو جلب السياح والـزوّار والمستثمرين الأجانب..

إن الدور المتنامي للثقافة في حياة الناس والمجتمع، يفرض علينا البحث عن سبل جديدة وداعمة للقيام بعمليات تمويلها وتطوير عملها والمشاركة فيها، وهنا يبرز الدور الذي يجب أن يقوم به «نصير الثقافة» لتوسيع القاعدة الشعبية لها وتيسير مساهمتها، ودعمها، وتشجيع مشاريعها، في عالم اليوم، الذي يرى أن تعزيز المستوى الثقافي لأمة من الأمم يمثل أحد الشروط الأساسية لإيجاد وسط ملائم يتيح تطوير إنتاجية الموارد المختلفة لتلك الأمـة..